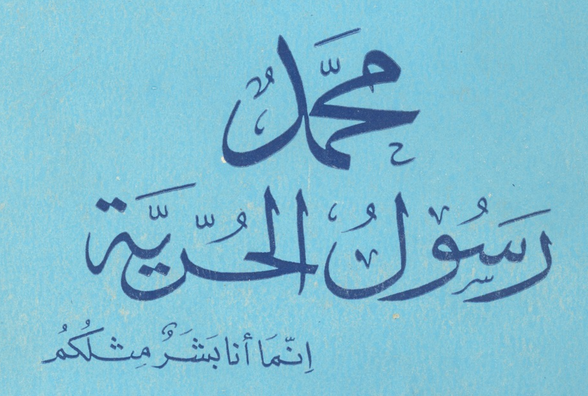
عبد الرحمن الشرقاوى



دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

عبد الرحمن الشرقاوى

٢٥ أغسطس ١٩٧٣

محمد رسول الحرية

إنما أنا بشر مثلكم

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
[illegible]

الإهـــداء

إلى أبي .. الذى غرس فى قلبى

ـ منذ الطفولة ـ حب محمد

هذا الكتاب ..

أنا لاأقدم كتاباً جديداً فى السيرة ؛ فمكتبة السيرة غنية زاخرة بالمؤلفات القديمة والحديثة ؟

وما أحسب أن كتابا جديدا أكتبه ، يمكن أن يضيف حقيقة جديدة إلى ما كتب فى السيرة ! !

ولكنى أردت أن أصور قصة إنسان اتسع قلبه لآلام البشر ومشكلاتهم وأحلامهم وكونت تعاليمه حضارة زاهرة خصبة أغنت وجدان العالم كله لقرون طوال ، ودفعت سلالات من الأحياء فى طريق التقدم ، واكتشفت آفاقا من طبيعة الحياة والناس . .

وما من إنسان يستطيع أن يجحد فضل الحضارة الاسلامية على التقدم ، أيام كان ابن سينا يفيض بحكمته على سهول آسيا الوسطى تحت ظلال الريحان ، وأيام كانت الفلسفة الاسلامية المضيئة تقرع أبواب القلاع المظلمة الصماء فى جنوب أوربا وغربها ، حيث سادت الذئاب والسحرة ومسوخ القباب الذهبية ، وأيام كانت أفكار ابن رشد وآراء ابن خلدون تنتشل القطعان المتخلفة على شواطىء بحر الروم . . أيام كانت القاهرة وبخارى وبغداد وتونس وقرطبة وطشقند ودمشق وأشبيليه وفاس منارات شامخة تقهر الظلمات باشعاع باهر من تعاليم محمد !

والذين يبحثون فى هذا الكتاب عن قصة الانسان صاحب التعاليم التى كونت هذه الحضارة ، يستطيعون أن يتجاوزوا سطور هذه المقدمة ليقرأوا الكتاب .. إننى لم أكتب لهم هذه المقدمة ، هؤلاء السادة الذين يريدون أن يروا فى هذا الكتاب صورة الرجل . . لا النبى ! فليتفضلوا مشكورين بقراءة الكتاب نفسه ، عسى أن يجدوا فيه قصة إنسان رائع . ناضل — على الرغم من كل الظروف — ضد القوى الغاشمة المفترسة ، من أجل الاخاء البشرى ، ومن أجل العدالة والحرية وكبرياء القلب المعذب ، ومن أجل الحب والرحمة ، ومستقبل أفضل للناس جميعاً بلا استثناء : الذين يؤمنون بنبوته والذين لا يؤمنون بها على السواء ! إنه ميراثهم جميعا لا ميراث الذين يؤمنون به فحسب .

فليجاوزوا هذه المقدمة كما رجوتهم إلى الكتاب نفسه فأنا لم أكتب المقدمة لهم . . وإن كنت من أجلهم بصفة خاصة كتبت هذا الكتاب .

وأنا — كذلك — لم أكتب هذه المقدمة للذين يتهمون الكتاب فى بعض الدوائر بأنه انحراف عن الدين ، ولا للذين يتهمونه بأنه انحراف إلى التصوف والسلبية ! ! ولا للذين يتهمونه بهذه وتلك فى نفس الوقت ، حسب الظروف !

ولا للذين يقلبون صفحات الكتاب بأصابع تشير فى اتهام : أين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الصفحات ؟ أين النبى ؟

فلئن كانوا أشداء في دينهم حقا فأنا أكلهم إلى حسن إسلامهم ، وأحيلهم إلى الحديث الشريف : « أيما رجل اتهم أخاه بالكفر فقد باء بها

أبيها ؟ » . ثم إنى لأذكرهم بالموقف فى صلح الحديبية لنتخذ منه الأسوة .. عسى أن نعتبر جميعا ..

إنما أكتب سطور هذه المقدمة للذين استقبلوا هذا الكتاب فى طيبة وواجهوه بالنقد الموضوعى عندما نشرت فصوله على صفحات المساء فى العام الماضى .

وأكتبها للذين لم يقرأوا فصوله ، وإنما انتظروا متوقعين أن يجدوا منه كتابا يضيف شيئا ما إلى السيرة النبوية . .

لقد أردت أن أقول لهم إن السيرة ليست فى حاجة إلى كتاب جديد يتحدث عن عصر النبوة أو يدافع عن صدق الرسالة أو يؤكد معجزات النبى .

لسنا فى حاجة إلى كتاب جديد عن الدين ، يقرأه المسلمون وحدهم ولكننا فى حاجة إلى مئات من الكتب عن التطور الذى يمثله الإسلام .. كتب يقرأها المسلمون وغير المسلمين ، تصور العناصر الإيجابية فى تراثنا ، وتصور ماهو إنسانى فى حياة صاحب الرسالة ، إننا بحق فى حاجة إلى مئات من الكتب يقرأها الناس كافة : الذين يؤمنون بنبوة محمد والذين لايؤمنون .

إننا دائماً فى حاجة إلى إعادة تقييم تراثنا . [illegible] إحياء ما هو إنسانى فيه ، ونشره على العالم .. إلى تصوير [illegible] المشترك — المتفق عليه بين الجميع — من دور أصحاب الرسالات .. [illegible] تصوير الجانب الدنيوى الذى أصبح ميراثاً حضارياً مشتركاً لكل [illegible] تختلف دياناتهم وفلسفاتهم وآراؤهم

وأنا أعرف أن من الناس من يجحد دور الإسلام ومحمد . .
ومن يتهم الإسلام بأنه حركة رجعية . .
ومن يتهم محمداً بأنه أرستقراطى من أشراف مكة كان يطلب ملك الحجاز وأنه جاء لينظم العبودية وليحتال على المجتمع ببعض إصلاحات تخفف الضغط عن الفقراء ليؤخر ثورتهم .

وأنه جاء ليضطهد اليهود . . .
ومثل هذه الآراء ينشرها كتاب كثيرون فى العالم بأكثر من لغة ..
وعلى الرغم من أننا نملك آلاف الأدلة على فساد هذه الآراء .

ونملك من حقائق التاريخ الثابتة ما يقطع بأن للإسلام دورا تقدمياً وتحريريا ، لم يزل يؤثر فى تاريخ البشرية ومستقبلها .

وان محمدا كان رسولا يبشر بالحرية والإخاء الإنسانى .

وأنه عامل اليهود بصبر ورحمة وحكمة لم يعرفها التاريخ من قبل ولا من بعد . على الرغم من كل هذا فقد عدل كثير من كتابنا عن مناقشة هذا كله . . ودارت معظم الكتابات فى السيرة حول النبوة والمعجزة . . حول الرسول ، لا الرجل !

ولكننا حين نناقش من لا يؤمن بالجانب الدينى ، يتحتم علينا أن نناقشه بمنطقه ، لا بمسلماتنا وعقائدنا !

إنهم يناقشون الرجل والتعاليم فلا يجب إذن أن نتحدث عن شىء آخر لا يجب أن نواجههم بالنبى حين يتحدثون عن الرجل ! . .

فلنواجههم بالرجل ، وإن فى حياته لثروة لا تنفد من الإباء والرحمة

والحب والحكمة والبساطة ، والقدرة الخارقة على التنظيم والإبداع وكسب القلوب . أكنا نخاف من الحديث عن الرجل ، لأن في مجتمعاتنا كثيراً من الذين لا تروق لهم الحياة إلا إذا نصبوا فيها الفخاخ أكنا نرهب الذين يؤذيهم أن يجتهد الناس ليعالجوا فتح أبواب جديدة إلى المعرفة ؟!

أكنا نخشى من الاتهام بالكفر والخروج على الدين وعدم الاعتراف بالنبوة ؟

ولكن من هو هذا الذى يملك أن يفتش فى قلب إنسان ليناقش معتقداته وإيمانه ؟

أحرام على أن أكتب لغير المسلمين ، عما فى حياة محمد النبى من روعة وبطولة وإنسانية وخطر ؟

ولكن نشر الصفحات الجليلة فى تراثنا أمام الناس كافة — مهما تختلف عقائدهم ودياناتهم — ولكن هذا العمل ليس مجرد عمل أدبى ، بل واجب قومى ، ومسئولية فنية يجب أن ينهض بها من يشعر فى نفسه بالاستعداد لها . ولقد حاولت أن أنهض بدورى المقسوم فى هذه المسئولية .. فقدمت هذا الكتاب الذى اخترت له الشكل القصصى لا شكل البحث .. إنها لمحاولة أقدمها — أولا — إلى غير المؤمنين بمحمد راجيا أن يتناول القارىء — مهما تكن عقيدته — هذا الكتاب بنفس الروح التى كتبته بها .

داعيا الله أن ييسر كتابى هذا لفائدة من يقرأه بدلا من التشهير أو الإيقاع بمن كتبه

لقد بدأت العمل فى هذا الكتاب سنة ١٩٥٣ ، ولكن هذا شىء لاشأن للقارىء به .

فإن وجد القارىء فى هذا الكتاب ما أردت منه فهذا جزائى ، وهو حسبى .. وإن لم يجد ، فعزائى أنى بذلت فيه أقصى ما أملك من جهد ، ورجعت فيه إلى كل ما أعرف من مراجع ، وأعملت فيه غاية الطاقة وتناولته بكل حرص على أداء المسئولية ، وبكل النية الحسنة فى أن أنفع به . .

وبالله توفيقى .

١٥ من رمضان ١٣٨١

٢٠ من فبراير ١٩٦٢

عبد الرحمن الشرقاوى

هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى ، بعد نضال طويل مع المصير ! لكأنه يولد — فجأة — من جديد ، بكل فتوته وأشواقه وأحلامه وقامته المديدة وصوته الطيب المفعم ، وأماه المعذَّب فى الخلاص !

لم تكن له حيلة فى كل ما حدث . . ولا حيلة لرجل فى مكة على الإطلاق لأن المصادفة وحدها هى التى تخط أقدار الرجال ، والنساء . . ومن وراء هذه المصادفة العمياء يقف تمثال أصمّ اسمه مناة . . إلهة بلا قلب ، هى التى تملك القضاء . . وإلى جوارها يتشامخ تمثال هُبل : رب الأرباب ، رب المصادفة والمصير والقدرة ، وشيخ مناة نفسها ، وشيخ زميلتيها اللات والعزى !

أية مقاومة يملكها فتى مثله أمام كل هؤلاء الأرباب ؟

أيملك هو ، عبد الله بن عبد المطلب ، أن يطلق صرخة احتجاج على هذه القوى التى تحرس الكعبة منذ القدم والتى يستمد منها أبوه عبدالمطلب مبرر وجوده ، والتى مازال يمتثل لها — مع أبيه — كل الملأ من قريش ؟

على أن المصادفة أنقذت حياته على أية حال بعد ما أوشك دمه أن يسيل تحت أقدام تماثيل الآلهةِ الرهيبة ، التى تجرؤ على أن تحرم فتى فى مثل سنه وعنفوانه من طيبات الحياة !

وإنه الآن ليتشبث بيد أبيه عبد المطلب ليمضى معه إلى الدار بعد أن وُهِبَ الحياة مرة أخرى .. وكأنه يوسف .. الذى سمع قصته من فلسطين

فيما سمع من قصص الغابرين خلال رحلاته مع القوافل .. لكأنه يوسف يرتمى فى أحضان أبيه الصابر المضنى ليستمتع بدفء الأبوة بعد طوافه الطويل المشرد فى أرض الغربة .

* * *

وعبد الله إذ ذاك هو أصغر ولد عبد المطلب وأحبهم إليه . . . وكان عبد المطلب قبل أن يرزق الولد قد تعرض لبلاء كثير ، وما من ولد يسانده ، حين هم بأن يحفر بئر زمزم . . خاصمته قريش فى البئر وأزرت عليه ولكنه استمر يحفر البئر وحده حتى تفجر الماء منها كما كان على عهد إسماعيل . . وبلل عبد المطلب جبينه من الماء واتجه إلى آلهة الكعبة فنذر لئن رضيت عنه الآلهة وولد له عشرة نفر لينحرَنّ أحدهم عند الكعبة ، شكرانا وقربى .

فلما بلغ بنوه عشرة بمولد عبد الله ، وأدرك أصغرهم عبد الله مبلغ الرجال ، وتيقن عبد المطلب أن ولده مانعوه ، جمعهم ليخبرهم بنذره ، ودخل بهم على هُبل كبير آلهة الكعبة وبدأ يجرى القرعة بينهم بضرب القداح ، لينحر أحدهم وفاءً بالنذر القديم .

وخرج القدح على الفتى عبد الله أصغر ولد عبد المطلب وآثرهم لديه. ولم يستطع الشيخ أن يصنع شيئاً وقام إلى عبد الله ليذبحه تحت قدمى هبل فخف إليه بنوه يحاولون أن يستخلصوا دم أخيهم ، ولكن عبد المطلب زجر بنيه جميعاً ودفعهم بيده وهو يحذرهم من الاعتراض على قضاء الآلهة ..

وتدافع إليه بعض صحابه الذين كانوا يجلسون فى رحاب الكعبة وألحوا عليه أن يتمهل لعلهم أن يروا رأياً ينقذ رأس الفتى عبد الله ، ويرضى هبل فى نفس الوقت .

ولكن عبد المطلب لم يصغ إليهم فانطلق إصوت حانق فى وجه عبد المطلب « لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » .

كان هذا الاحتجاج نفسه يصرخ فى أعماق كل الآباء الذين التفوا بعبد المطلب ينصحونه ألا يذبح ابنه إرضاء لهبل ..

وعرضوا عليه أن يفتدوا عبدالله بالمال .. ولكن لا !.. الولد يجب أن يذبح تحت قدمى هبل مادام القدح قد خرج عليه

كم من الصرخات تدوى الآن فى أعماق عبدالله ، إنه ليرفض هذا القضاء ، ويرفض أباه ، ويرفض هبل نفسه ، .. ولكنه لا يقوى بعد على الكلام ، وطال الجدل بين عبد المطلب وبين صحابه فاقترح أحدهم أن يرحلوا إلى عرافة يثرب فيسألوها قبل أن يذبحوا عبد الله ، عسى أن تقضى بأمر لهم فيه فرج ؟ . .

وغـــدوا عليها من اليوم التـــالى فسألتهم عن دية الرجل فيهم فأجابوها : « عشرا من الإبل » فقالت لهم : « ارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم من هبل وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم » .

وعادوا إلى مكة مستبشرين .. وعاد عبدالمطلب يضرع وهو قائم عند هبل ، وقد قدم ولده عبدالله ، وعشراً من الإبل . .

وضربوا القداح فخرجت على عبد الله ، فزادوا الإبل عشرة وعبد المطلب ، يدعو ، والقداح تضرب من جديد فيخرج القدح على عبد الله أحب ولده إليه .

فتزاد الإبل عشرة أخرى والقداح تضرب وعبد المطلب قائم يدعو .. حتى بلغت الإبل مائة فخرج القدح على الإبل .

ودوت فى أرجاء الكعبة رنة فرح بنجاة عبدالله ، وقام عبدالله يحملق فى أبيه وإخوته ، والرجال والأصنام ، وكل ماحوله كأنه يرى العالم لأول مرة .. وصاح عبد المطلب فى نشوة : « انحرو الإبل المائة جميعاً واتركوها للآ كلين لايصد عنها إنسان ولاسبع » .

* * *

وينطلق عبد المطلب آخذا بيد ولده عبدالله .

وهاهو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى ، بعد نضال طويل مع المصير .

ودروب مكة تمتد أمامها ، وهنا وهناك تتناثر بيوت أوصدت أبوابها على الطيبات والمتاع والغنى ، وكل ما يمكن أن يلهب وجدان شاب مثل عبد الله .. إلى متى يا عبد الله يساق الرجل للذبح لأن قدحا طائشا أصم وقع عليه ؟ ، إلا أن الآباء يريدون أن يشكروا إلهاً يتعطش أبداً إلى الدم ، يجب حقا أن تسقط رءوس الأولاد ؟ .

ولكن عبد الله ـــ ككل الفتيان فى قريش ـــ لم يكن يستطيع أن يرفع الرأس فى وجه أبيه .. فأبوه يملكه كله : يملك حتى حياته ، وحياة أبيه نفسها رهن بقضاء هبل ..

كان من الممكن أن تأمر عرافة يثرب بذبح عبد الله .. وما دامت هي. التي اختصت بتفسير إرادة الآلهة ، وما دامت هي وحدها التي تستطيع أن تتعرف على مايرضي تلك التماثيل من حجر ، فما من أحد يجرؤ على المخالفة عن أمرها .. حتى سراة قريش الذين حاولوا أن يفتدوه بمالهم .

كيف الخلاص إذن من هذا كله ؟ !

ولم يكد عبدالله يمضي في طرقات مكة ، مثقل الرأس بأحلام الخلاص ، ونظراته تتأمل في نهم كل ما أوشك أن يحرم منه ، حتى لاحت له امرأة شابة بديعة الجسد فاخرة الثياب ، بوجه كفلقة القمر .

وتأملته المرأة الصغيرة في إقباله على الحياة التي عاد إليها الآن . . وحاولت بلا جدوى أن تقتنص نظراته التي يسطع فيها وهج الشوق إلى المستقبل . . وهج غريب آسر .

وتخففت من بعض ثوبها فبانت استدارة كتفيها ونصاعة نحرها ، وتقدمت إلى عبد الله ونظراتها تقرأ على وجهه وفي أغوار عينيه سراً غامضاً حبيبا موئسيا ينزع بها إليه .

وابتسمت وهي تعترض طريقه . . وسألته « إلى أين يا عبدالله » .

فقال لها وهو لم يفق بعد من كل ما مر به في الكعبة : « أنا أذهب مع أبي » .

فقالت وهي لا تحفل بوجود أبيه : « لك مثل الإبل التي نحرت من أجلك إن تزوجتني الآن » .

وتأملها عبدالله في حيرة . . وقد بدأ يستعر في أطوائه ، شغفه بطيبات الحياة التي أوشك أن يحرم منها . . من تكون هذه المرأة التي

تتعرض له فى الطريق وتدعوه إليها جهارا دون أن تستحى من أبيه ؟ أليست هى من هذا الصنف من النساء الذى يتعرض للرجال فى طرقات مكة .. إن وجهها ، وما على جسدها من الثياب والجوهر وطريقتها فى الكلام ، وكل شىء فيها ينطق بأنها امرأة واسعة الغنى ، وذات إباء . ولكنا فى عينيها الواسعتين الهادئتين حيث تطفو العفة والطيبة ، ترسب جذوة متقدة من الحساسية المرهفة والهيام الانثوى واللهفة أيضاً . .

وبهاتين العينين العامرتين سألته ألا يرفضها فيحرجها . . ولكن أباه جذبه من يده واندفع فى طريقه .

فقال عبد الله وهو يتبع أباه : « أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه » .

وانطلق وراء أبيه ، وأوشك أن يستأذنه فى خطبة المرأة التى تعرضت له ، فهى امرأة صغيرة جميلة ، لم يعلم أحد عنها من سوء وانها لتقدم إليه مائة من الإبل . . ولكن أباه كان قد قرر — منذ رأى إقباله على تلك المرأة — أن يخطب له فتاة بكرا من بنات أصحابه . . فقد كبر الولد ، وهو جدير بعد ما استرد نفسه من أظفار الموت بأن يحيا شبابه بكل ما فى أعوامه السبعة عشر من عنفوان .

وبدلا من أن يعود عبدالمطلب بابنه إلى البيت ، عدل عن طريقه ، ومضى إلى دار وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة فخطب ابنته آمنة لابنه عبد الله .. ووافق وهب .. وتزوج عبد الله وآمنة فى نفس اليوم ..

كان عبد الله قد جاوز السابعة عشرة بقليل ، وآمنة أصغر منه بنحو عامين .

وفى صباح اليوم التالى خرج عبد الله من عند زوجته آمنة بنت وهب واتجه إلى الكعبة ..

وفى الطريق إلى الكعبة قابل الحسناء التى عرضت عليه نفسها بالأمس ، ونظر إليها فلم تكلمه .. وابتسم فأعرضت مغضبة . فقال لها : « مالك لا تعرضين على ما كنت عرضت بالأمس ؟ » فأجابته بجفوة : « فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى لك اليوم حاجة » .

وانصرف عنها وهى تهمهم :

فلما قضت منه أمينة ماقضت   نبا بصرى عنه وكل لسانى

* * *

كانت مكة فى تلك الفترة من القرن السابع الميلادى مدينة كبيرة مزدهرة أعدت منذ زمن بعيد لتكون محطة للتجارة ، وزودت بكل ما يصلح لاستقبال التجار وإقامتهم . .

وكانت تقع فى شمالها دولة للفرس ودولة للرومان .. دولتان تعيشان فى حرب مستمرة ، وتستنصر كل واحدة منها على الأخرى بأعراب أطراف الصحراء .

وإذ كان انتظام القوافل يحتاج إلى تأمين المواصلات فقد أثرت الحروب المتصلة بين الروم والفرس على خطوط القوافل التى كانت تخف

بألوان البضائع من أدنى الأرض إلى أقصاها تحت تهديد حروب الفرس والروم والقبائل التابعة لهذا الفريق أو ذاك .

وهكذا بدأت مكة تتحول من محطة تجارية تستريح عندها القوافل إلى مركز تجارى تصدر إليه القوافل وترد ، حيث تقام أسواق ضخمة يتبادل فيها التجار من مختلف البلاد بضائع آسيا الوسطى والشام واليمن ومصر والهند والعراق والحبشة والفرس والروم .

ثم أخذ تجار مكة فى تجهيز القوافل لحسابهم الخاص . .

وإذا كانت مكة فى واد غير ذى ذرع ، فقد اعتمدت الحياة الاقتصادية فيها على التجارة . . وأصبحت يوماً بعد يوم مدينة تحكم التجارة فيها كل العلاقات الاجتماعية ، وأقيم بناؤها الروحى والدينى والثقافى على أساس البيع والشراء والربح . . وأصبح التجار الكبار فيها هم الحاكمون . . التجار الكبار هم الملأ الأعلى . . فهم ينشئون القواعد ويفرضون التقاليد التى تصون لهم مصالحهم فى المعاملات .

وهكذا قضوا بأنه من مات فى مكة من التجار الأغراب ورثته مكة . . ورثه الذين كانوا يتعاملون معه فى مكة من تجار قريش .

أصبحوا هم المالكون وهم الوارثون وقضوا على من يستدين أن يقدم إلى دائنه رهناً عزيزاً عليه .

كان الرجل أحياناً يرتهن ولده أو امرأته أو نفسه فإذا حل موعد أداء الدين وجب على المدين أن يدفع أضعاف ما استدان . فإذا عجز ، تحول الرهينة إلى عبد يملكه الدائن ويستثمره كيفما شاء .

وأقام الملأ من مكة آلهة فى داخل الكعبة يعبدونها جيلا بعد جيل ، ويقومون هم وحدهم على خدمتها وعلى الاستفادة منها — وينزلون على حكمها ويسألونها البركة فى البيع والشراء ويذعنون لقضائها .. وعينوا كهنة وعرافين يختصون بتفسير إرادة التماثيل الصماء التى أقاموها رموزاً لآلهتهم .

وعاما بعد عام امتلأت الكعبة بأصنام ترمز إلى الآلهة التى تعبدها كل القبائل التى تتعامل مع مكة !

وأصبح أهل مكة جميعاً إما تجارا يستوردون ويصدرون ويبيعون لأهل الواحات والمدن المنتشرة فى الجزيرة العربية ، وإما وسطاء فى المبادلات بين التجار العابرين وإما أصحاب مصارف يوظفون أموالهم فى إقراض التجار الصغار نظير حصة من الأرباح .. وإما مرابين يكسبون من الربا .

وهؤلاء جميعاً هم الذين يملكون الثروة فى مكة وهم يملكون إلى التجارة والأموال ، بساتين فى الواحات المجاورة تنتج النخيل والأعناب وتربى فيها الخنازير وتستقطر من ثمراتها الخمور .

وإلى جوار هؤلاء المالكين ، يعيش عشرات الآلاف الآخرين أجراء فى المزارع البعيدة ، أو عمالا فى القوافل والمصارف والمتاجر .. أو بلا طعام !

وكانت تجارة مكة تشمل كل البضائع التى عرفها الناس إذ ذاك ، وتمتد خطوط القوافل إلى أعماق آسيا وأفريقيا وأطراف البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى .

وإذا كانت القوافل الغنية الضخمة تقطع المسافات الشاسعة وتتعرض لغزوات البدو وهجمات قطاع الطرق فى بلاد مختلفة ، فقد آسر سراة مكة أن يشتروا العبيد من أفريقيا ويدربوهم على السلاح ليقوموا على حراسة قوافلهم وتجارتهم فى خارج مكة وداخلها .

وهكذا أصبح لمكة جيش وشرطة . وكان هؤلاء التجار من كبار المرابين ومن أصحاب القوافل والمصارف والبساتين و المتاجر والمراعى والخمارات ، هم الذين يوزعون مناصب مكة فيما بينهم .

والعرب يعتبرون مكة عاصمة لهم ، فهى أم القرى عندهم جميعاً .. هى المركز التجارى الكبير الذى يمثل عصب الحياة ، وهى تضم البيت العتيق الذى أقيم للناس مباركا .. وهى بوضعها الاقتصادى : العاصمة الضخمة المرموقة ! ومن أجل ذلك جمعت كعبتها آلهة الجزيرة كلها ، ليحج إليها العرب من كل مكان . وأصبحت مواسم التجارة فيها هى مواسم الحج إلى كعبتها .. وكانت هذه المواسم تقام فى أسواق داخل مكة .. على أنها بدأت تضيق يوماً بعد يوم بالوافدين إليها ، فأقامت مكة فى ضواحيها أسواقا أخرى كان أعظمها سوق عكاظ .

وفى الحق أن سوق عكاظ هذا كان مهرجاناً كاملا تشترك فيه كل القبائل العربية لا سكان مكة من قريش وحدهم .

كان الملوك والأمراء يأتون إلى سوق عكاظ من أطراف الجزيرة العربية حيث تعرض سلع الفرس والروم وسلع بلاد أخرى كثيرة :

وتقام فيه المنابر ويتبارى الشعراء العرب ، ويختار من قصائده ما يجدر بأن يعلق فوق الكعبة ليعيش فى التاريخ باسم المعلقات .. وفى عكاظ كان يقضى بين الناس وتعلن القبائل فيه تخليها عن فجارها فلا تحتمل جريرة أحدهم ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه ..

وفى عكاظ كانت تقام أسواق الرقيق من كل الجنسيات : الحبشيات السود والروميات البيض والهنديات والمصريات والفارسيات السمر .. ونساء وسط آسيا .

وكان عكاظ فرصة للضعفاء يستصرخون فيه من ينجدهم لمقاومة من لا قبل لهم به من قطاع الطريق الذين يعدون على مضارب القبائل الصغيرة ..

وفيه يهدر دم الغادر ..

كان سوقاً عجيباً للتجارة وتبادل الثقافة والمتاع .. يقف فيه إلى جوار الشعراء الذين يتحدثون عن أنسابهم ومفاخر أقوامهم ، رهبان ثائرون على سلطان كنائسهم ، ويهود يتلون ما لديهم من الكتاب ، وقرشيات شريفات يتعرضن للرجال ينشدن الأزواج ، وكهان يلقون ما انتهى إليهم من حكم الهند وفارس من خلال حملهم المسجوعة ، وملوك وأمراء يبحثون عن البضائع والجواهر النادرة ، وخمارون ، ومبشرون ، ونخاسون واسعو النفوذ ، وصعاليك عظام ، وتجار كبار ، ونساء غزلات ، ومؤرخون ونسابون !

****

ولكن مكة لم تكن كلها تعيش هذه الحياة الباهرة الزاهية من الكسب والمتاع والغزل ..

فلم تكن مكة كلها من التجار الأغنياء . . ولم يكن البيت الواحد فيها يضم رجالا أثرياء فحسب ، فقد كان للتاجر الكبير أحياناً أخ فقير مدقع . . وفى بنى هاشم قبيلة عبد المطلب كان هناك الفقراء المعدبون والأغنياء الفارهون . .

ومن بين تجار مكة كان هناك من يملك آلاف الآلاف . . من يملك القوافل والمصارف والبساتين فى الواحات المجاورة حول الطائف . . وكان هناك أيضاً من يستدين ويستدين ليتجر أو ليعيش . .

ولم يكن التاجر الصغير الذى يستدين يربح دائماً فائن خسر ماله أو عجز لأى سبب عن أداء دينه ، لقد وقع فى الشرك إذن .

كان عليه أن ينزل للدائن عن حريته ، فيعمل عبداً للدائن حتى يقتضى منه الدائن ماله . .

وكان الدائن يحسب دينه أضعافاً مضاعفة عند حلول أجل الدين ، وهكذا كان المدين ينزل عن حريته سنوات وسنوات . . وربما أصبح عبداً إلى آخر العمر . . عبد كامل يمالكه سيده الدائن كما يملك أى متاع آخر . . فما للعبد أى حق من حقوق الإنسان . .

وكان بعض الدائنين يفضلون أن يقتضوا تعويضاً عن ديونهم بطريقة أخرى إذا عجز المدين عن الدفع . . ربما لاتكون لهم حاجة باستعباده ، أو ربما تزوغ عيونهم إلى ماعند المدين من نساء .

وهكذا كان المدين ينزل للدائن عن زوجته أو عن أمه أو عن ابنته أو عن زوجة ابنه . . فيتسلمها الدائن لاليستمتع بها هو وحده فحسب فقد كان من حقه بعد أن يستمتع بها ، أن يلحقها بأحد بيوت اللهو الكبيرة التى كانت ترتفع عليها رايات خاصة . . وفى هذه البيوت التى أحسن إعدادها بالأثاث الفاخر وعمرت بالخمور وضمخت بالبخور والصندل وعطر اللبان . . فى هذه البيوت الفاحشة الترف ، يلتحق نساء المدينين بالتجارة الشائنة التى تجلب لها الفتيات البيض والسود والسمر من كل بلاد الأرض ، ليبعن المتاع للتجار الوافدين أولمن يدفع الثمن من فتيان قريش الأثرياء . .

ويقتضى الدائن دينه مما تكسبه امرأة الدائن أو ابنته فى هذه المهنة الشائنة . فإذا استوفى دينه أعاد الفتاة إلى أهلها . وكم من رجال أحنوا رءوسهم أمام هذا العار واستسلموا له . .

وكم من رجال آخرين خشوا أن تأتى عليهم أيام تمرغ أنوفهم فى هذا الوحل ، فتخلصوا من بناتهم ووأدوا البنات بعد الولادة على الفور .

على أن من رجال مكة من رفض العبودية والعار ، فهرب إلى البادية بعيداً عن ضجيج الحياة الفاسدة ، وانطلقت منه صرخات احتجاج تلعن مكة ومظالمها وأسلوب الحياة فيها .

وكان هؤلاء الرجال الهاربون من أسلوب الحياة فى مكة يكونون جماعات فى البادية تنتزع لقمتها بحد السيف ، وتهاجم قوافل الأغنياء وتحترف القتل ، وتنشىء فى الواحات الصغيرة المستظلة بالمرتفعات الوعرة ، دولة

الصعاليك والفتاك .. دولة وضعت تقاليد لمبادىء الفروسية فى التعامل .. وكان لهم شعراء ينبض من خلال شعرهم ، الحلم الدائم بالخلاص ، والأمل المبهم فى العدل .

* * *

ولم يكن التشريع الذى تضعه السلطات الحاكمة فى مكة يهتم بغير مصالح تلك السلطات .

وأصحاب السلطة والحكام كلهم من التجار الكبار أصحاب رءوس الأموال أو أصحاب المزارع البعيدة التى تربى فيها الخنازير ، وتستقطر فيها الخمور .. كانوا من أصحاب المصارف والمرابين وملاك الخمارات وبيوت اللهو الضخمة .. ومن أجل ذلك فما كان التشريع فى مكة ليهتم بأحد غير هؤلاء الملاك الكبار الحاكمين .

وما كان التشريع ليهتم بشىء إلا بما يمكن قبضتهم على رقاب العاملين والمدينين ، وبما يمنحهم المتاع والجاه واللذة وكل ما يزهو به القلب الأجوف

وكان الرجال إذ ذاك يزهون بما يمتلكون من عبيد ومال وبما يشربون من خمور ، وما يقتلون من مستضعفين وما يمتلكون من سطوة وهيبة ونساء .

وكان النساء أيضا يفخرن بعدد العاشقين والأبناء .. بالقدرة على ولادة كثير من الأبناء .. مهما تكن أشكال العلاقات التى أنجبن منها .. فما كان الزواج الذى نعرفه هو وحده أساس المعاشرة بين النساء والرجال .

ولم يكن للفقراء ما يحميهم .. لا القانون ولا العرف السائد ولا التقاليد التى أسستها حكومة التجار والمرابين .

وحتى أصنام الكعبة . . لم يكن هؤلاء الفقراء من بين ما تهتم به .

لم يكن للفقراء شىء على الإطلاق .. فالرجال ينحدرن تحت وطأة الحاجة ليتحولوا فجأة إلى عبيد . . والنساء — حتى العصيات منهن — يتحولن تحت نفس السلطان الغاشم إلى بغايا فى بيوت ترتفع عليها رايات خاصة .

قليل جدا من هؤلاء الرجال والنساء استطاعوا رغم المعاناة أن يحتفظوا بما هو إنسانى فيهم .

ولكن الشرف والجاه والبسالة والنخوة وكل الفضائل التى يمجدها العربى لم يكن يملكها إلا الذين تمردوا على أسلوب الحياة فى مكة وأنشأوا فى الواحات المنيعة دولة الصعاليك والفتاك .. وآخرون قليلون من قريش استطاعوا بحصانة خاصة باهرة كالمعجزة أن ينجوا من سيطرة روح العصر ، أو من تعسف الدائنين .

كان المال والآلهة والكعبة والمتاع للسادة ، وأما الفقراء الذين وقعوا فى الشراك .

أما الذين سقطوا بغتة من قمة كبرياء الحياة اليومية الموفورة تحت ضربات الحاجة ليتحولوا إلى عبيد عند دائنيهم .. أما اللواتى انتزعن من أحضان الأزواج ، والأمهات ، ودفع بهن إلى أذرع رجال غرباء . . وأما اللواتى ألقين إلى أظفار نهمة تنهش لحومهن العذراء . . وأما الذين

اشترتهم أموال النخاسين والتجار من شواطىء أفريقيا ليحرسوا أموال السادة وصلفهم التاجر المستبد ، وشهواتهم ومصارفهم وقوافلهم .

أما هؤلاء جميعا فلم يكن لهم فى مكة شىء غير الرمضاء والمرارة والألم الممزق .

أما هؤلاء جميعا فقد ألقى بهم بعيداً عن الكعبة ليعيشوا فى حى ناء عن الآلهة ، بعيداً عن قصور السادة المحيطة بالكعبة .. بعيداً .. على حافة الصحراء . . فى العدم . . حيث لا يملكون شيئا بعد غير الذكريات، وأحلام الخلاص . .

وفى هذا الظلام الجائر العقيم المضنى .

فى هذا الليل الرهيب الداجى . . ولد الهدى : محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب .

— ٢ —

عندما يقبل الربيع من كل عام على جزيرة العرب ، ترتفع أعواد الحنطة فى حقول اليمن ، ويورق الكرم فى أرض الطائف ويمتلىء الفضاء بشذى البساتين ، وينبت الكلأ فى الوديان المترامية وتتوج بشائر التمر الأخضر هامات النخيل فى يثرب . .

أما فى مكة فالربيع يقبل دائماً ليؤذن ببداية الحر ، وبالاستعداد لرحلة الصيف :

وقد ألفت قريش رحلة الصيف إلى سورية ورحلة الشتاء إلى اليمن . . وإيلافهم رحلة الشتـــاء والصيف لم يكن يمنعهم من الترقب والترصد والإحساس بالقلق على مصير شبابهم الذين يخوضون فى الصحراء تحت شمس لا ترحم وليال تصفر فيها الريح بعواء كائنات من عوالم غريبة . .

* * *

ولم تكن آمنة بنت وهب فى ذلك الربيع من سنة ٥٧٠م تحب لزوجها عبد الله أن يخرج مع القافلة . . فقد دهمها خوف غامض عليه ، وتمنت لو أنها تستطيع أن تمنعه . . كم تحبه وتشعر بالأمن إلى جواره ، ويمتلىء قلبها بالرضا عن نفسها كلما سمعت أن زواجها منه ملأ قلوب الفتيات بالغيرة . .

ولكن عبد الله بن عبد المطلب لم يكن يملك فى بيته غير خمس رءوس من الضأن يقتات هو وزوجته الحامل من ألبانها ، ولم يكن فى البيت بعد ذلك ما يأكله الزوجان الصغيران إلا بقايا قليلة من تمر ، وقديد .. وهما الآن يستقبلان مولودهما الأول .. وليست لعبد الله تجارة يعتمد على ربحها وليس لأبيه — على علو قدره — فائض من مال ، وهو بعد فتى فى الثامنة عشرة قوى الذراع .

***

وخرج عبد الله يطلب رزقه ، ليعود إلى زوجته آمنة فيملأ بيتها بالخير الوفير ، ويستقبل معها المولود الجديد .

ليكن غلاما يشد ساعدك ياعبد الله ، ويسعى معك فى رحلة الشتاء والصيف .

وليكن له إخوة عشرة تستقوى بهم فى قريش .

لكم كنت تريد أن تقيم مع زوجك آمنة حتى تضع ولدها ولكنها توشك أن تضعه وأنت ماتزال فى البلد النازح .. لشد ما يعبث بك القضاء .. ولكنها إرادة آلهة الكعبة ..

عندما كنت صغيرا أو شكت أن تذبح ليرضى كبير الآلهة عنك وعن أبيك ولكن الآلهة قبلت فيك مائة بعير .. مائة بعير افتدت حياتك ، ولو أنها لديك الآن لأصبح لك فى قريش شأن آخر ولما اضطرتك الحاجة إلى أن تترك زوجة وحيدة .. تضع لك طفلك الأول وأنت بعيد ..

وها هو أنت ذا تضرب فى الأرض من أجل الرزق بعيدا . . عن مكة البلد الذى ولدت فيه واخترته للحياة ، وتتمنى أن تستلقى تحت ترابه بعد عمر طويل حافل . . ولكن مكة لأنه بلد يغشاه الوباء . . لتنقذ الآلهة مولودك من هذه الغاشية جاء الوباء مع أبرهة ملك الحبشة الذى أراد أن يستولى على مكة ويهدم الكعبة . ألم يسمع أبرهة أساطير الأولين ؟ . ألم يسمع ما يقوله الرواة فى طول الجزيرة وعرضها عن أبطال كانوا أشد منه بأساً حتى لقد أخافوا الجن ، وشقوا الظلمات بسيوفهم ، وسيطروا على الريح ، ثم استكبروا على آلهة الكعبة فطاردتهم اللعنة ، وقضى عليهم أن يعيشوا فى التية مئات السنين ! ! . . ولكن أبرهة لا يعى ، وإنه ليستعلى على الدنيا بحيوان ضخم اسمه الفيل ، تجفل الخيل منه ، ويفر من أمامه الشجعان ، وإنه ليقرع أبواب مكة بجيش يتقدمه هذا الفيل !! .. لكم كان أبوك عبدالمطلب حكيما يا عبدالله !.. هو حكيم ورائع ولا يخطئ أبدا ، أبوك الشيخ هذا .. تداعت قريش كلها إلى القتال ، فأدرك عبد المطلب أنهم لا قبل لهم بجيش أبرهة وبالفيل ، فناداهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم إلى شعاب مكة حتى يزول الكرب ، أما الكعبة فلها أرباب تحميها . . وفى قصص الأولين عبرة ! . . ولم يكد جيش أبرهة يتقدم حتى عصف برجاله الوباء الذى كان يعصف بمكة ، فإذا برجال أبرهة يتساقطون مرضى بالجدرى ، ومعهم أبرهة نفسه ، وما أغنى عنهم الفيل ! . . وهكذا فر أبرهة عائداً إلى صنعاء بفلول جيش ممزق يتخاطف الوباء والموت من بقى من رجاله ، فيتهاوون على الطريق كعصف مأكول ، بينما عاد أهل مكة من شعاب الجبل يهللون ، ومن بينهم أبوك وآمنة . . زوجتك آمنة بحملها يا عبد الله . . !

حدث هذا منذ نحو شهر ، وأنت بعيد ، وما زلت تضرب فى الأرض بعيدا عن مكة وأبيك ، بعيدا عن آمنة وحملها الذى تنتظر مقدمه ، منذ أشهر ! ..

متى تعود لتعيش بقية العمر آمنا فى بيتك — يا عبد الله — وحسبك من غنى شبع ورىّ ! ؟

ولكن عبدا لله لم يعد ، فقد مرض ورقد عند أخواله بنى النجار ..

* * *

وكان قد مضى خمسون يوما على اندحار أبرهة وجيشه والفيل .. وزحف شهر ابريل على مكة بحرارته ، فوضعت آمنة حملها .. وجاء ولدا ..

وحرصت آمنة على ألا يراه أحد قبل أبيه ، ولكن أين أبوه الآن ؟ .. وإذن فلن يراه أحد قبل جده عبد المطلب وأمرت آمنة أن يلقى على الطفل شىء يستره .. ثم أرسلت إلى عبد المطلب من يقول له : «قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه » .

فقام عبد المطلب إليها ، فكان هو أول من نظر إلى وجه حفيده .. الذى اختارت له أمه اسم محمد ، لكى يُحْمد حمداً بعد حمد ..

وأخذ عبد المطلب حفيده بين ذراعيه فرحا به ، ودعا له ، وقام يلتمس له من ترضعه .. فوجد « ثوُيبة » جارية ابنة أبى لهب ، فأرسلها إلى آمنة ترضع عنها الوليد وأرضعته ثويبة عدة أسابيع .. وأمه تنتظر عودة أبيه .

دفعت آمنة بطفلها إلى ثويبة لكى تفرغ هى لزوجها — عند

ما يعود بكل نفسها وبكل ما يمتلكه منها ، كما تعودت الزوجات فى ذلك الزمان . وظلت تحلم وتنتظر الزوج الغائب .

أما عبد الله فقد اشتدت عليه العلة ثم انطفأت جذوة الحياة فى صدره.. أغمض عينيه على أمل متلهف أن يعود إلى مكة فيرى آمنة ، وابنه منها ، وعلى حلم غامض بالخلاص من الحاجة التى تسحق حياة الرجال ..

وعرفت الأرملة الصغيرة بنت السادسة عشرة أن زوجها وفخر حياتها ، سيظل إلى الأبد تحت ثرى بعيد فى بلد نازح ذهب إليه يبحث عن الرزق.. ولن يُتاح لها مدى الحياة أن تراه ..ولا أن تُبلّل ثراه بالدمع ، ومع ذلك فمن حولها فى مكة تمتلىء بيوت الملأ بالمسرة والغنى وكل ما يمنح القلب إحساسه الممتع ببهجة الحياة ! ..

ولم يكد عبد المطلب يمسح دموعه ويستمسك من حزنه الفاجع على أحب ولد إليه .. حتى ضم إليه اليتيم وأمه ..

ورأى أن يرسل حفيده اليتيم إلى بادية بنى سعد ليرضع هناك وينشأ ويتعلم فى البادية أول الكلمات فيكون هذا أفصح للسانه وأجلد لجسمه ..

وكان نسوة من « بنى سعد » يقبلن إلى مكة ليلتمسن الرضعاء فى السنين العجاف.. وكانت تلك السنة قاسية على قبيلة بنى سعد ، فقدم النسوة إلى مكة ، وعرض عبد المطلب على كل واحدة منهن أن ترضع محمدا فما قبلت واحدة .. كل امرأة منهن تقول : « إنه يتيم فما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ » .

وكل مرضع تطمع فى كرم أب الطفل الذى ترضعه ..

وأوشكت القافلة أن ترجع بالنسوة محملات بالرضعاء .. وكانت حليمة المرضع الوحيدة التى لم تجد طفلا ، فقالت لنفسها :

« إنى لأكره أن أعود من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً ، لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه » :

وعادت به حليمة ترضعه ، ليفخرهو بهذه النشأة فى بنى سعد ، بعد سنوات طوال .. إذ يقول لأصحابه « أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » .

استرضع فى بنى سعد بن بكر ، وظل بها حتى بلغ الفطام ، ولكن جده لم يشأ أن يعيده ، واستبقاه فى بنى سعد حتى بلغ الخامسة من عمره ، وهناك تعلم أول الكلمات وتفتحت أذنه منذ الطفولة على النطق العربى الفصيح .. وهناك رعى الغنم مع أخيه فى الرضاعة .

***

وقدمت به حليمة إلى مكة فى السن التى يصلح فيها أطفال ذلك لزمن للعمل وقد تجاوز الخامسة بشهور .. ولم يكد يبلغ مشارف مكة حتى خاض فى الزحام بكل لهفته إلى البلد الذى ولد فيه ، والذى تعيش فيه أمه وعشيرته وجده . فبحثت عنه حليمة فلم تجده ، فأقبلت على عبد المطلب جزعة تقول :

« إنى قدمت بمحمد هذه الليلة فلما كنت بأعلى مكة أضلنى فما أدرى أين هو ؟ .

فقام عبد المطلب يدعو آلهة الكعبة أن ترده فلا يضيع أثر ابنه عبد الله . وما هى إلا أن أقبل ورقة بن نوفل يمسك محمدا بيده وقال لعبد المطلب :

« وهذا ابنك وجدناه بأعلى مكة » .

وهش عبد المطلب لحفيده وجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعيذه ويدعو له ثم أرسله إلى أمه آمنة .

وبعد عام واحد ، خرجت أمه به لتزيره أخواله المقيمين فى مضارب بين مكة ويثرب .. ولبثت هناك حيناً ، ولكنها لم تعد إلى مكة ، فقد ماتت على الطريق ودفنت مكانها وخلفت وراءها غلاما يتيما فى السادسة من العمر .. لم ير أباه أبداً ، ولم يستمتع بالحياة فى أحضان أمه .. لم يرها بالقدر الكافى ، ولم تعلمه أولى الخطوات ، لم تسانده ليمشى ولم يتلق عنها الكلمات وأسماء الأشياء .. ولهو يوشك أن يستريح إلى أحضانها إذ بالموت ينتزعها منه ويتركه وحيداً فى فضاء شاسع رهيب ! ..

ماهو هذا الموت إذن ؟ ! ..وما الحياة ؟ !

***

وكفله جده عبد المطلب ..

لكأنة قد ولده مرتين .. هوذا أخيرا يرعى ابن عبد الله أحب ولده إليه ! .

وكان عبد المطلب قد تعود أن يستظل نهارا بالكعبة على فراش مرتفع ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يقبل هو إليه ، لايجلس منهم أحد على الفراش إجلالا لمقام أبيهم ، فيأتى محمد وهو غلام صغير فيثب إلى الفراش ويقعد ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : « دعوا ابنى . . » .

ثم يجلسه منه على الفراش ويمسح ظهره بيده . .

ويمضى عمه الزبير بن عبد المطلب وهو من أظرف فتيان قريش فيداعبه أو يضحكه .

على أن هذا الحنان الدافق الذى مسح به جده جراحات يتمه ، لم يدم له طويلا ، فما بلغ الثامنة من عمره ، حتى شعر جده أنه يموت .. سيموت عبد المطلب ويترك حفيده وحيدا فى الدنيا العريضة بلا مال ، ولا أب ولا أم

ودعا عبد المطلب أولاده فأوصاهم بحفيده اليتيم ، وقضى أن يكفله عمه أبو طالب فهو — وحده — شقيق ولده الراحل عبد الله ولدتهما نفس الأم . . وأوصاه به ومات عبد المطلب .

وانتقل الغلام اليتيم إلى بيت عمه الشقيق أبى طالب ..

وكان أبو طالب كثير العيال ، لايكاد يربح إلا ما يكفيه هو وأهل بيته وكان فى كثير من الأحايين يضطر أولاده إلى العمل — على صغر سنهم — ليكسبوا طعامهم الناقص بعرق الجبين .

وما كان أبو طالب يحب أن يغامر فيستدين .

وأقام محمد عند عمه يضنيه شعور بالغربة ، على الرغم من حرص عمه عليه ، واحتفال بنى عمه به .. ولكنه ظل على إحساسه بالوحدة ، فاذا وضع الطعام له وللصبية من أولاد أبى طالب امتدت أيديهم وانقبضت يده استحياء .

على أنه ألف الحياة فى دار عمه يوماً بعد يوم

وكان لابد له أن يعمل ليأكل كما يعمل أبناء عمه ليأكلوا . فرعى الغنم ، وخرج مع الرعاة الآخرين يلتمسون الكلأ فى مواضعه خارج مكة ويعودون مع الليل .

وذات صباح علم أن عمه أباطالب سيخرج فى رحلة الصيف إلى الشام . وتشبث محمد بعمه ، ولكن عمه نهره ، فهو صغير بعد لا يصلح للخروج مع القوافل فى سفرها الشاق .

وكانت هذه هى أول مرة يفارق فيها عمه منذ كفله .

وسأله محمد مرة أخرى ألا يتركه فى مكة ، فلمن يتركه إذا سافر ؟

ورق له قلب أبوطالب فأقسم ليخرجن به ولايفارقه أبدا ؟

***

كان محمد يتوق إلى هذه الرحلة فى الأرض البعيدة ، فقد ثقلت عليه الحياة بمكة حيث لاحرمة لشىء : الصغار الفقراء يعملون معا وهم عراة لا يستحيون .. وبيوت السادة تغلق أبوابها كلما أقبل الليل على تأود الراقصات والصخب الماجن .. والخمر تسيل بلا حساب مستنزفة عرق رجال طيبين مثل أبيه . . رجال يعيشون ويموتون وهم يبحثون عن

الرزق على حين يتضاعف ثراء التجار الكبار الذين يعيشون فى صلف ماجن مستبد ، يحرسهم العبيد الذين هم بشر أيضا . . بشر كالسادة .

ومن خارج هذه البيوت التى يمتص أصحابها دم المستضعفين ، كان محمد قد عرف بيوتاً أخرى ذليلة تغلق أبوابها على رجال تعساء تلتقط آذانهم صدى الضحكات الخليعة التى يحملها سكون الليل و وكل واحد منهم يخشى أن يصبح فتضطره الحاجة إلى ارتهان ابنته أو زوجته لتنضم إلى ذلك القطيع من الرقيق الأبيض أوالأسود الذى يقدم للتجار الكبار وضيوفهم متاع ليال كاملة .

وفى الرحاب الشاسع من أرض مكة . خارج هذه البيوت وتلك . . بعيدا عن الصخب الداعر والمأساة . . كان يجتمع رجال وفتيان لم يقعوا بعد فى فخاخ الدائنين ، يعيشون بالقليل ، مثقلين بأحلام المعجزة التى يجب أن تقع . . فالمعجزة وحدها هى التى تستطيع أن تستخلص مكة من عنت المتجبرين .

كان هؤلاء الرجال والفتيان يجتمعون فى ساحة حول رجل يروى لهم حكايات تلهب خيالهم المعذب ، وتلقى الأمن فى القلب المضنى ، وتثير الأمل فى النفس التى يروعها القلق وسلطان الحاجة والخوف الدائم من المجهول . . أساطير مثيرة عن أبطال قدماء ، وعن جبابرة هووا من عليائهم ، وعن مستضعفين امتلكوا حياتهم ، ومصيرهم ، وتاريخهم نفسه بعد طول المعاناة .

كان محمد قد شهد كل هذا ، وقد ضاق بصور الحياة من حوله . . وكان قد شعر أيضاً بأن عمه أباطالب ، إذا مضى مع القافلة وتركه ، فسيبقى

هو وحيدا فى مكة المتلاطمة بصراع التجار مع المستضعفين ، وحيدا.. أشد وحدة من أى وقت مضى .

* * *

وخرج محمد مع القافلة فى صحبة عمه إلى بلاد الشام ، هو إذ ذاك غلام فى الثانية عشرة .. وفى بلاد الشام رأى مثلما رأى فى مكة : قطعان العبيد تزجى كالأغنام .. الرجل يمتلكه غيره .. المصير معلق بكلمة ينطقها السيد .. كبار يملكون التجارة والأرض وكل شىء ، والآخرون يسامون بلاحق فى أى شىء .. حتى فى الشكوى .

لكم روعت كل هذه الأشياء قلبه ، وهو فى مكة .. ولقد سمع أن رجالا من مكة رفضوا هذا كله وخرجوا على قومهم .. منهم ورقة بن نوفل الذى كان قد عرفه وهو صغير ضائع فى مكة .. ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى أعلن صرخة احتجاج فى وجه قوى الظلام ولعن اللات والعزى وهبل .. وتوقع الناس أن يصاب بالبرص .. كما يحدث لمن يلعن الآلهة .. فلم يحدث له شىء ، وظل يطالب تجار قومه بأن يعدلوا مع من يتعاملون معهم ، فبدأوا يتعرضون له .. ومنهم زيد بن عمرو الذى طالب الرجال ألا يئدوا البنات .. وحثهم على أن ينقذوا أنفسهم من العار فلا يسلموا المرابين أجساد النساء وفاء للديون .. ولكن المستضعفين لم يستطيعوا أن يستجيبوا له ونفاه التجار الكبار إلى خارج مكة .

التجار فى مكة هم حماة أوثان الكعبة التى تقضى لهم بإذلال الآخرين . أما هنا فى الشام فالأمر مختلف .. هنا المسيحية .. فما بال الرجل يلطم

أخاه على كل خد ، ويأخذ ما ليس له ، وما بال المستكبرين هم وحدهم الذين يستمتعون بالحياة ، كأنما هى مِلْكٌ لهم هم وحدهم .. وما بال الخيِّرين يحترقون فى كبرياء الأشرار ؟ .

وعاد إلى مكة مع القافلة بعد ما التقى براهب نصرانى فى الطريق . . ولقد أعجب به الراهب وأثنى عليه ودعاه إلى طعامه مع الكبار حين حاول الكبار أن يؤخروه .

عاد يرعى الغنم ، ويطوف بالكعبة . . والأيام تتقدم به إلى أول الشباب .

* * *

إنه الآن يتقدم إلى السادسة عشرة ، ومايزال يرعى الغنم ثم يعود ليطوف بالكعبة ، ولكنه لا ينام هادئاً كما ينام الذين يجهدون من العمل مثله طوال النهار . . فهو يفكر فى أبيه الذى قتله السعى على الرزق ، وفى أمه ، وجده ، وفى عمه أبى طالب الفقير وأعمامه الآخرين الأغنياء ، ويشرد إلى ما رآه فى الشام .

ثم يعود ليتذكر المبشرين الذين نفتهم مكة ، لتحتفظ بأسلوب الحياة فيها ، وبأصنام الكعبة ..

لكم رأى فى الكعبة .. وإنه ليعجب من صمت (الأصنام) فيما على ما يجرى هناك تحت عينيها .. أية آلهة هذه ! .

ففى الكعبة ، رأى الرجال يطوفون عراة ، والنساء يطفن بأثواب شفافة تكشف أكثر مما تستر ، ويثرن بها الرجال أكثر مما لو طفن

ماريات .. ورأى بعض الرجال يلتصق بالنساء أمام آلهة الكعبة .. آلهة الكعبة مغمضة العينين ..

إن هذا ما زال يحدث على الرغم من أن الجميع يؤمنون أن من بين حجار الكعبة ، يقف رمزان لغضب الآلهة على من يفسقون فى الرحاب لمقدس : فقد بغى رجل بامرأة داخل الكعبة فَمُسِخا حجرين .. هكذا عتقد الكل ولكن رجالا ونساءا منهم ما زالوا يدخلون الكعبة ويختفون زراء تماثيل الآلهة ليمارسوا البغاء ..

***

ووثبت به الحياة إلى الفتوة ، وهو ما برح يرعى الغنم فى النهار ، ويفكر طول الليل فى ألوان الحياة التى تعيشها مكة وفى الطريق إلى حياة أفضل . . أين الطريق ؟

وإنه ليرعى الغنم ذات مرة مع فتى فى مثل سنه ، إذ سمع من بعيد صدى دفوف . . فقال لصاحبه : أكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة .

وأسرع إلى الدار التى يتصاعد منها رنين الدفوف ، وكان بها عرس فيه لهو وزمر ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك شعر بتعب بعد طول الجرى ، وسهر الليل فقعد إلى جدار ، فأغفى ، ونام ، ولم يتح له أن يشارك فى مسرات العرس .

وعندما قام فكر فيما دفعه إلى أن يترك الغنم ليستمتع بما فى العرس ، إنه لشبابُه الفوار ولكن النوم هبط عليه ليعصمه .. وقرر أن يتزوج لكيلا يتورط فى مغامرات كالآخرين وإنه ليكسب قوته من عمله الآن ..

ورأى فى الكعبة امرأة شابة جميلة تطوف وليس فى هيئتها وزينتها وثوبها ما ينكره . . كان اسمها ضباعة بنت عامر بن صعصعة فخطبها محمد لنفسه . . وشغفت المرأة به حباً . . ولكنه علم عنها أنها حين كانت تطوف بثوبها المحتشم ألقت شعراً فاحشاً متغزلة فى فتوته ثم ذكر له عنها ما جعله يتركها . . ففسخ الخطبة ، وحزنت المرأة حتى لقد تلفت من الكمد .

* * *

أيظل فى مكة يعمل برعى الغنم إلى الأبد ؟

لم لا يعمل فى التجارة وقد كبر الآن وأصبح فتى فى السادسة عشرة ؟. أيجب أن يعمل للسادة المتغطرسين الذين ينصبون الفخاخ للفقراء ؟ أما من سبيل آخر لكسب العيش ؟

ولكن .. ما برح فى مكة رجال ونساء لديهم المال .. ولهم قلوب !

الكاذبون مازالوا يستطيعون أن يرفعوا أصواتهم بالأكذوبة فى وجه الحياة ، ويتجاسرون على كل شىء ثم يجدون من يسمع لهم لأنهم يملكون الثروة والسلطة والآلهة .

المرابون يزدادون غنى يوماً بعد يوم . . والذين يغرقون فى وحل الخطيئة حتى الأذقان ، يجدون ثياباً نظيفة يظهرون بها أمام الآخرين فيكسبون الحمد والاحترام . .

وفى عين المنافق ما برح يسطع شعاع . . ربما كان أكثر التماعاً مما تسطع به عين الرجل الجسور . . وما يعرف أحد بعد أحكمة كان كل ذلك أم جنونا . . !

الكل يقول كلمات متشابهة عن الشرف .. الكهان ، والنخاسون . و « هبل قائم فى الكعبة ومن حوله الآلهة الصغار ، صم بكم ، تتمسح بهم النساء ، الفاجرات والعفيفات على السواء .

الصيارفه يصوغون الحقيقة ويملكونها ، أما كنز الحق نفسه فهو حلم القلب الممزق !

وفى هذا التيه من الأباطيل ظل القلب قادرا على أن يحلم .. على أن يحلم بالزمن السعيد ..

***

فعلى هذه الأراضى وفى هذا المكان نفسه ، عاشت حقائق أخرى منذ آلاف السنين .. هنا فى هذا البيت العتيق الذى أقامه إبراهيم مثابة للناس وأمنا .

اين تعاليم إبراهيم .. ! ؟

ألم يصرخ فى وجه الجبابرة ذات يوم فى هذا المكان نفسه : لاتسرقوا ، لاتكذبوا ، لا تتعاطوا الربا ، لاترتكبوا جورا فى القضاء ولا فى الوزن ولا فى الكيل ؟

ولكن مدينته قد امتلأت بالظلم ، واستبد بها كبرياء الأشداء .. فهم يسرقون ، ويزنون ، ويكذبون ، ويجورون فى القضاء ، وإذا أقرضوا الناس ضاعفوا الربا ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ..

لقد أصبح الرجل يُقدَّر بما يملك ، ولايسأله أحد بعد كيف ملك .. أصبح الربح هو الغاية مهما تكن الوسيلة إليه .. الكذب والنفاق والسرقة والاغتصاب ، أصبحت أدوات بارعة .. وما دام الرجل يستطيع أن يطوف بالكعبة ويمسح الركن ، ويقدم القرابين لهبل ، فكل شىء له .. ولكن ما شأن الفقير الذى لا يسرق ولا يغتصب ، ولا يملك ثمن القرابين ! ؟ .. إن أصنام الكعبة لا تقبله فى رحابها .. فهى آلهة مترفة تحب الأغنياء ! !

من للفقراء إذن ؟ .. لقد كان لإبراهيم رب آخر ، كان هو رب الجميع ، وكان إبراهيم ينهى عن عبادة إله غيره ، ويعد قومه الأمن إن أطاعوه ، فلا يعبر فى أرضهم سيف .

أين رب إبراهيم .. فهذه الأصنام التى تبارك صلف الأشداء وتنبذ المستضعفين لا يمكن أن تكون جديرة بأن يسجد لها الإنسان ..

أكان رب إبراهيم هو الشمس التى تمنح كل شىء حياته ؟ ولكنها تأفل أحيانا والرب يجب ألا ينام أو يموت .. والقلب المتطلع المشوق لا يحب الآفلين .

أين رب إبراهيم الذى قضى أن من قتل يُقتَل ، وأن من زنى يحرق بالنار فلا تعيش الرذيلة فى الأرض ، وأن من أبغض أخاه فى قلبه لحقت به اللعنة ، وأن من انتقم أو حقد قضى عليه بالهوان ؟! ..

أين رب إبراهيم الذى بارك من « لم يعبد الأصنام ، ولم يلوث امرأة قريبة ، ولا ظلم إنسانا ، ولا ارتهن رهنا ، ولا اغتصب اغتصابا ، بل بذل خبزه للجوعان وكسا العريان ثوبا ورفع يده عن الفقير ولم يأخذ الربا » .. ؟

ثم ما هو هذا الحجر الذى يطوفون به ؟ أين هو من رب إبراهيم .. ؟ إنه حجر لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يزجى الرياح ، ولا يسوق المطر ، ولا يضر ولا ينفع !!

* * *

ونظر نفر من قريش لبعضهم ، وقد سئموا الطواف بهبل وأخذوا يتأملون قومهم وهم يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدورون

به .. وقال واحد منهم وقد خلصوا نجيا : « ما قومكم على شيء . . لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم » .

كان هذا النفر هم ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان ابن الحويرث وزيد بن عمرو .. وكلهم معنى بالبحث عن الحقيقة وسط زحام الخديعة والأكاذيب .

كانوا جميعا يقرأون ما يقع لهم من الكتب .. ويعانون من فساد الأوضاع فى مكة . . وتعاهدوا على أن يكتم بعضهم على بعض . . وخرجوا معاً يضربون فى الأرض باحثين ، عسى أن يعودوا فيما بعد مبشرين بدين إبراهيم وتعاليم الحنيفية .

فأما ورقة بن نوفل فقد اهتدى إلى المسيحية وعاد إلى قومه مقتنعاً بتعاليمها ليحدثهم عن إله واحد « لايسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى ولا يخدم بايادى الناس لأنه لا يحتاج إلى شيء .. إذ هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شيء .. لأنه هو رب السماء والأرض » ..

وعاش ورقة فى مكة كالرهبان ينصح لقومه أن : أحبوا بعضكم بعضا فالمحبة لا تسقط أبدا .. باركوا على الذين يضطهدونكم .. باركوا، ولا تلعنوا .

أما عبد الله بن جحش فلم تقنعه المسيحية أول الأمر وظل يلتمس الحنيفية دين إبراهيم .. أبيهم جميعا .. !

وظل عثمان بن الحويرث يضرب فى الأرض حتى قدم الامبراطور الرومانى واعتنق المسيحية وولاه الامبراطور أميرا على مكة .. ولما عاد

إلى قريش يحمل رسالة قيصر نبذوه ورفضوا أن يخضعوا لقيصر ، أو أن يولوا عليهم أميراً وقالوا له : إن مكة لا تدين للملك » ..

فاعتزل عثمان وظل يمارس طقوس دينه الجديد وكان لايفتأ يردد آيات حفظها من الإنجيل : « لاتقتل . . لاتسرق . . لاتشهد بالزور . . لاتسلب . . أكرم أباك وأمك . . لاتزن . . اذهب فبع كل مالك واعط الفقراء ليكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى حاملا الصليب » .

أما زيد بن عمرو فلم يكن ينشد خلاص نفسه فحسب بل خلاص قومه أيضا فواجههم بما هم عليه من ضلال . . اعتزل الأوثان ، ورفض أن يأكل من لحم الذبائح التى تنحر أمام الأصنام ، ونهى عن قتل الموءودة فكان يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : « لاتقتلها ، أنا أكفيك مؤونتها » . .

ولكنهم أعرضوا عنه . .

وتعود أن يسند ظهره إلى الكعبة وهو يقول : « يامعشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ماأصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى » .. ومضى يسفه قريشاً وما يعبدون ويتعرض لهم فينهاهم عن الربا والكذب والظلم وعبادة أصنام الكعبة ، وينشد لهم القصائد الطوال ويروى نبأ موسى وفرعون ، ويونس والحوت ، والمبشرين الأوائل الذين اصطدموا بجبابرة آخرين من قبل .

وشعر بعض سراة مكة بخطر دعوة زيد ، فعاتبوا عمه الخطاب . . وكان الخطاب تاجراً موسراً من الذين يكسبون من الربا ، ويمجدون الاغتصاب ، ويظلمون ، ويملكون الآلهة ، ويعشقون الخمر والنساء ..

ونهى الخطاب ابن أخيه ، ولكن زيدا ظل على دعوته ! . .

وآذاه عمه ، فخرج إلى جبل حراء على مقربة من مكة ، يتأمل الساعات الطوال ويعود ، فيدعو الناس إلى ترك الباطل الذى يغشى حياتهم كلها .

« وأغرى عمه به شباباً من شباب قريش من بينهم ابنه عمر بن الخطاب ، وسفهاء من سفهائهم فقال لهم لاتتركوه يدخل مكة . .

فكان لايدخلها إلا سرا منهم فاذا علموا بذلك آذوه وأخرجوه كراهية أن يفسد عليهم وأن يتابعه أحد » .

وضاق هو بهذه الحياة ، وضيق عليه السفهاء فخرج من الحجاز يطلب دين إبراهيم ويسأل الرهبان والأحبار ، وطاف بالجزيرة كلها حتى بلغ الموصل ثم أقبل فجال الشام كله يسأل عن الحنيفية دين إبراهيم . وعرِضت عليه اليهودية والمسيحية فلم يقبل شيئا منهما . . وقال له الرهبان والأحبار : « إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك إليه اليوم . . » .

وأضناه السفر الطويل . .

ومع ذلك فقد ظل ينتقل من بلد إلى بلد يتخبط على أبواب الأديرة ، ويقرع صدره تحت قباب الكنائس النصرانية ، ويتمرغ بين أعمدة معابد يهود ، ويرنو إلى عبّاد النار ، ويعفر رأسه بالتراب المقدس مع الكهنة ، ويمتحن دين بوذا وأتباع زارادشت .. ولكنه لم يجد الحقيقة التى ينشدها أبدا .. !

لابد من دين آخر وقيم أخرى ! .

وما برح يرحل ويرحل كطريد قدر غاشم على دابته المتهالكة ، عصاه فى يده وجسده النحيل الذى أنهكته السنون يرتجف تحت ثوب خشن مرقع ، وذقنه البيضاء ترتعش ، وعيناه الكليلتان تقتحمان المجهول بحثا عن الراحة التى يطمئن بها القلب .. بلا جدوى .. دائما بلا جدوى .·. !

وأخيرا اعترضه بعض اللصوص فى إحدى رحلاته المعذبة وعدوا عليه فقتلوه .. وعند ما عرفت قريش ، ابتهج السادة وتنفسوا الصعداء ، أما الذين بحثوا معه عن الحقيقة ، فقد بكوه أحر بكاء ..

وما زال ورقة بن نوفل يذرف دموع العين ، كلما ذكر صديقه القديم زيد بن عمرو ..

* * *

بكى محمد أيضا ، ضياع هذا المبشر الجليل ، الذى عاش حياته الطويلة قلقا يبحث عن الحق ، ثم مات قبل أن يفيض الشعاع من قلبه .. وأن محمدا ليذكر كم كان رائعاً حقاً هذا المبشر الراحل ..

ومحمد بن عبد الله يذكر أنه لقيه مرة على طعام .

كان ذلك فى إحدى البلاد التى سافر اليها محمد — أجيراً بإحدى القوافل — وزيد بن عمرو يحل بهذا البلد باحثاً عن الحقيقة .. عن الكلمة التى يزرعها فى القلب .

وعلى مائدة الطعام رفض زيد أن يأكل ما ذبح تحت قدمى تمثال أحد الآلهة ، وحاور محمداً .. وكان محمد إذ ذاك شاباً فى العشرين يضيق هو

الآخر بمظالم قريش وبآلهتها المتحجرفة الصماء و بالتقاليد التى تدعم قبضة التجار الكبار على أعناق العبيد .. أما محمد فأكل ، ولكن زيداً آثر الجوع على الشبع من ذبيحة نحرت أمام صنم ولم يذكر عليها اسم رب إبراهيم ! :.
إن محمداً ليذكر هذا ويأسى ، ويذكر أن «زيد بن عمرو كان أمة وحده»..
وإنه ليشعر بالحزن لأن قريشاً عاملت رجلا منها بمثل تلك الفظاظة إذ دعاهم إلى أن يعدلوا فيما بينهم ! .. كل الأغنياء حتى العشيرة الأقربون لم يرحموا الرجل .. حتى عمه الخطّاب الذى كان يبره ويحنو عليه من قبل أن يقول كلمته ، ويمضى .. !

وحتى ابن عمه عمر بن الخطاب الشجاع الذى كان زيد يريد أن يُعِزَّ به دعوته !

لقد مات زيد بن عمرو ، الذى أضاء لحظة كالشهاب الخاطف فى ظلمة الحياة المكية الداجية ! !

وعادت مكة من جديد يستبد كبراؤها بالفقراء !

لم يسمع له أحد ، والكاذبون يجدون من يسمع لهم ، والمرابون يزدادون غنى يوماً بعد يوم ، والكهان والنخاسون يقولون كلمات متشابهة . وفى عين المنافق مازال يسطع شعاع !

وها هو ذا محمد يعمل أجيراً ليكسب حياته ، كما عاش أبوه ومات . . بينما رجال كعمه أبى لهب بن عبد المطلب وكالوليد وكأبى سفيان، يملكون أكداس الذهب، ومئات العبيد ! ! من شرع هذا ؟ ! . .

وهبل قائم فى الكعبة ، راضياً عن الأغنياء وقد نسى هو وكل آلهة الكعبة فقراء قريش ! . .

وفى القافلة التى تنتظم ألفاً من الجمال ، ومائتين من الرجال ، يملك ثلاثة أو أربعة من أغنياء مكة تسعمائة جمل على الأقل ، ومعظم الرجال ، ويشترك فيه بقية أهل مكة فيما بقى ! ..

ومع ذلك فحينما تقع الحرب ، يتحمل المستضعفون عذاب المعركة .. فالأثرياء يعتمدون عليهم هم وخدمهم ! .. لقد رأى محمد كيف كان عمه أبو لهب ، ورجال سراة مثله يعتمدون على ساعد عمه الزبير والشبان الفقراء عندما احتدمت حرب الفجار ضد قريش ، منذ سنوات قلائل ! .

واشترك محمد نفسه فى هذه الحرب التى دارت حول الكعبة ، ووقف إلى جوار أعمامه ، يرد عنهم نبال العدو .. وظفرت قريش ، وعاد الزبير والفقراء من فرسان مكة الذين حموها ، يبحثون عن الرزق ويشتركون بحظ قليل فى القوافل : بدينار أو دينارين ، فى قوافل يشترك أمثال أبوسفيان وأبولهب فيها بآلاف الدنانير ..

وهاهوذا محمد يضطر إلى أن يشتغل أجيراً فى هذه القوافل ليعيش ، فما كان يملك الدينارين أو الدينار ! .

ويخرج إلى اليمن مع عمه الزبير فى رحلة الشتاء ..

وفى هذه الرحلة كان مايزال هو الفتى الذى جاوز العشرين بقليل ، وليس له فى القافلة مال ، ولا ناقة له فيها ولاجمل . . وإنما هو أجير .

ورأى كيف يكسب التجار .. كيف يُخسِرون الميزان ويغشون فى الكيل . .

وراعه هذا كله ، وتمنى لو قنع واحد منهم بما يمكن أن يكسبه من حسن التبادل ، والقدرة على الموازنة بين سعر البيع وسعر الشراء !

وعاد إلى مكة من إحدى هذه الرحلات مهموماً حزيناً يفكر فى الأكذوبة الكبرى التى تقوم عليها الثروة فى مكة ! . إنه ليس ربحاً هذا الذى يحدث ولكنه شر من الربا : العملاء الذين يخرجون بالقوافل يغشون أثناء البيع ، ويسرقون من الربح الذى حصلوا عليه بالغش .. وهكذا .. كل شىء مختلط .. السادة يقهرون البعيد والأجراء لايثقون فى السادة ، ويسرقون الآخرين !

الأمانة عملة لا تعرفها تلك السوق الشائنة .. والحق والعفة والصدق أصوات خافتة يطغى عليها زعيق السماسرة ورنين الذهب ، ووسوسة الحلى!

وتمنى محمد لو أنه خرج فى القافلة بمال له أو لعمه أبو طالب الذى يرعاه !

ليته يعمل لتاجر أمين يريد أن يربح بلا سرقة ، وغش ، ولا اغتصاب ! !

ولكنه من عسى أن يستخدمه الآن ، والذين كانوا معه فى القافلة عادوا يحكون عن إنكاره لما تعودوه من نقص الكيل واحتيال فى الميزان؟!

لقد أنكر هذا حقاً وطلبهم أن يوفوا الكيل وألا يخسروا الميزان ، فما يقبل عليه الآن أحد من قومه ليوظفه فى الاتجار بماله !

مع ذلك ، فمازال فى مكة رجال ونساء يملكون المال ويبتغون الربح بالحق .. إنهم لقليل ولكن كيف السبيل إليهم ! .. أيعرض عليهم نفسه ؟ إن أباءه ليمنعه ولو مات جوعا .. !

* * *

وها هو ذا مرة أخرى يعيش وحيدا ، فى بيت عمه أبى طالب ، لا يملك غير الأمل المبهم فى المستقبل ، وغير ذكريات حزينة من ماض بعيد تتخايل فيه صور عن أمه التى ماتت وتركته لليتم ، وأبيه الذى لم يره ، وجده الذى كان يحبه كما لم يحب حفيد جده أبداً ، ثم مات وتركه يواجه الحياة والوحدة والفراغ الرحيب .. وذكريات أخرى عن المبشرين الذين نفوا من الأرض واستشهدوا فى التيه وهم يبحثون عن حل إنسانى للفوضى ..

ولا طعام فى بيت أبى طالب . . وكل من فى البيت يعمل ليعيش ، والثرى يقهر المحتاج ، والمستغنى ينهر السائل .. والجياع بلا مأوى ، والكل فى الضلال ! !

وإنه ليفكر فى الحياة والموت والمستقبل والذكريات إذ بعمه أبى طالب يقبل عليه ، متحرجاً . . فيقول له :

يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عيرُ قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من قومك

يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك

وأدرك أن عمه إنما يعنى خديجة بنت خويلد ، التاجرة الغنية التى تستأجر الرجال فى مالها والتى اشتهرت بجمالها وبعفتها ، حتى لقد أطلق عليها « الطاهرة » .

وتمنى محمد لو أنه اتجر فى مالها ، ولكن إباءه عاوده ، فكره أن يذهب هو إليها ليعرض عليها نفسه أو ليسألها ، فقال لعمه :

— لعلها ترسل إلىّ فى ذلك .

ولكنه عمه أجابه :

إنى أخاف أن تُولّى غيرك .،

إن خديجة بنت خويلد ذات شرف و مال . . هذا حق وهى بنت عم ورقة بن نوفل أحد الذين أضناهم البحث عن الحقيقة ثم اهتدى إلى المسيحية ، ولقد تأثرت ابنة عمه خديجة بما يحمله ، فما عرف أنها أقرضت بربا من مصرفها الذى تقرض منه التجار الصغار ، وما أباحت لنفسها ربحاً اجتلبته السرقة أو خسران الموازين . .

ولقد سمعت هى عن محمد وتمنت لو استأجرته فيتاجر فى مالها . .

وأرسلت إليه عندما بلغها مادار بينه وبين عمه أبى طالب . . له الحق أن يكره السعى هو إليها ، فالنفس الأبيّه لاتترخص فتعرض ماعندها !

كانت فى الأربعين . . امرأة جليلة شامخة ممتعة فى قمة جمال ذلك لسن ، وقد مات عنها زوج بعد زوج ، وكلاهما تاجر واسع الغنى من سراة مكة .

وأقبل إليها محمد بن عبدالله ، فتى جميل الوجه، واضح الملامح ، أقنى الأنف عريض الجبهة ، ثابت الخطوة ، ممشوق القوام ، متوسط الطول، مهيباً ، يقظ العين ، وهو على فقرة نظيف الثوب ، مرجل الشعر ، يفوح منه الطيب وريح الفتوة ! .. وعلى وجهه الناطق بالعنفوان ، يبدو ذلك الضنى الغامض الذى يجلبه طول التأمل والمعاناة

واستقبلته خديجة مرحبة ، ومدحت فيه ما كانت سمعته عن صدقه وأمانته وحسن سيرته ، ثم عرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره .

وخرج محمد بن عبدالله فى رحلة الصيف إلى الشام بمال خديجة ، وعاد منها بربح طائل فقد أقبل عليه المتعاملون منذ رأوا فيه جديداً .. فهو أمين صادق لا يعمد إلى عبث فى كيل أو مقياس أو وزن .

وهكذا كسبت خديجة من مالها ذاك ضعف ما كانت تقدر ، فأعطته ضعف الأجر الذى اتفقت عليه .

وظل يتردد عليها بقية ذلك العام ، وعير مكة تستعد لرحلة الشتاء إلى اليمن بقافلة كبيرة ، احتشد فيها ثلثمائة رجل بألف وخمسمائة من الإبل.

* * *

وعندما أذن فى مكة أن رحلة الشتاء تعود من اليمن رائحة ، خرجت قريش كلها تستقبلها كما تعودت ، بالفرسان والدفوف والراقصات ، والنساء على جنبات الطرق . .

أما خديجة فقد وقفت فى شرفة دارها تطل على القافلة المقبلة مع بعض جواريها وإذ لاح محمد من بين الرجال ، أحست بقلبها يخفق فجأة ، ويتفتح له وأدركت أنها إنما كانت تنتظره هو حقاً . هو بجسده وشبابه ودماثته ، محمد نفسه لا الأجير الذى سيسلمها ربحها من التجارة ! ! .

وحدثها عبدها الذى كان يصحبه عن كثير من خصاله التى تحبب فيه الرجال . الرجال ؟! . . والنساء أيضاً ! ! . . ليته يخطبها ! ! . .

ولكن حياءه وإباءه وارتفاع سنها عن سنه بشكل ملحوظ ، ثم الفرق الشاسع بين غناها وفقره ، كل ذلك سيمنعه ! !

وأرسلت إليه نفيسة بنت منية فتلطفت عنده وسألته لماذا لا يتزوج — وقد بلغ خمسة وعشرين عاما — وكل فتاة فى قريش تتمناه زوجاً ، فهو أمين شجاع باسل وصادق وجميل . . وإذا اعتذر بقلة المال ، اقترحت عليه أن يتزوج امرأة غنية واسعة الثروة وهى إلى ذلك ذات شرف ونسب . . وسألها محمد من عساها تقبله زوجاً هو الأجير الفقير ؟.

فذكرت له خديجة . .

ولكنه لم يصدق أن خديجة بغناها الواسع يمكن أن تقبل الزواج من شاب فقير مثله . . على أن نفيسة وعدته أن ترتب هذا الأمر . .

وعادت نفيسة تزف البشرى إلى خديجة بنت خويلد ، فمحمد بن عبد الله هو أيضا يود لو تم هذا الزواج ، ولكن فقره يقعد به عن أن يتقدم إلى خطبتها .

وأرسلت إليه خديجة فعرضت عليه بنفسها أن يتزوجها . . وقالت له « إنى قد رغبت فيك لقرابتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك » .

ومضى محمد بن عبد الله إلى أعمامه يذكر لهم ما كان من أمر خديجة . فخرج معه حمزة أحب أعمامه إليه وأقربهم سنا منه ، وخرج معه الزبير وأبو طالب وبقية الأعمام ، فجاءوا خويلد بن أسد والد خديجة ، فخطبوها لمحمد . . وكان خويلد ساعتها يشرب الخمر . . فوافق من فوره وعقدت الخطبة . .

ولكنه أفاق من غده فسأل ابنته خديجة عما حدث بالأمس وإذ قالت له أنه عقد خطبتها إلى محمد بن عبد الله ، ثار وأنكر فمن هو هذا الفقير الذى يرضى به زوجا لابنته الغنية الجميلة التى رفضت سادة قريش ؟ !

ولكن خديجة جادلته وكرهت منه أن ينقض ما أبرم ، وقالت له إنها تملك من المال مايكفيها ولا حاجة لها بزوج غنى ، وهى عندما تختار الرجل الذى تعيش معه ، فإنها تحب أن تسمع لصوت قلبها ، لا لنداء المصرف الذى تمتلكه ! !

وعلم محمد بن عبد الله أن خويلد يعترض ، ويعتل بإنه إنما اتفق على الخطبة وهو سكران !

ماهذه الخمر أيضاً ؟! كيف يمكن أن تفسد الخمر إرادة الرجال إلى هذا الحد ؟!

على أن خديجة استطاعت أن تقنع أباها آخر الأمر ..

أقيمت وليمة الزواج .. وملأها الزبير مرحاً ، ورقصت جوارى خديجة ، ونحرت الإبل على باب الدار ليأكل منها الفقراء . . وأباحته خديجة مالها يصنع به ما يشاء كما يشاء .

وتصدق من مالها على كثيرين فى تلك الليلة . .

وفى غمرة الفرح ، تذكر محمد أمه ..

وبحث عن حليمة التى أرضعته وأرسل إليها أربعين رأساً من الضأن ، ترعاها فى ديار قومها ، وتستغنى بها إلى آخر ما قدر لها من العمر .

أما هو فقد بات وأصبح عند خديجة . .

وانتقل تماماً بكل وجدانه وشبابه وحياته وأحلامه وتأملاته . . إلى بيت الطاهرة .

- ٤ -

غريب أنت ياولدى فى هذا التيه الضارى الذى يتنفس باللعنة والأكذوبة والمنكر ، شارد ، حزين لاتنفك تتأمل فى السموات والأرض ، وو جوه الرجال والنساء والأطفال .

ما تكاد تضحك مستمتعاً بحياتك الجديدة المطمئنة مع المرأة الجميلة النقية الحكيمة التى اختارتك للحياة والموت ، حتى ينبثق من أغوار نفسك فجأة خاطر مبهم ، فاذا ابتسامتك الآسرة تغيض على شفتيك وإذا بنظراتك تخترق الصمت ويداك الكبيرتان تلوحان فى السكون .. وينتفض العرق النافر من جبينك العريض الناصع وتضىء كل ملامحك الحادة بشعاع رهيب وكأن نورا من الغيب يغشاك ، فيبدو وجهك المتورد معذبا ، مضنى على الرغم من كل شىء .. ،

أشاعر أنت يابنى ، يأتيك هاجس من الخفاء ؟ ..

ولكنك لم تقل الشعر أبداً ، وما يظن أحد أنك ستقول شعراً بعد .. ، ما أروعك حالما ، ومتألما ، وحزينا ،

ولكن الحياة تروق لك وتحلو ، ففيم كل هذا الحزن ؟ ، ..

لقد كنت فقيرا تحمل الحجر ، وترعى أغنام الآخرين تحت

شمس لا ترحم وتضرب فى الأرض لحساب غيرك ، وتصنع الكثير لتنبش على قوتك . فها أنت ذا اليوم تملك ما يحسدك عليه كل فتيان قريش : عملا مطمئنا يعطيك أكثر من الحاجة ، وزوجة تؤثرك بالحب وترعاك حاضرا وغائباً ولأنت كلّ دنياها وكبريائها ورونق حياتها وهى فى النهاية تعصم شبابك وتغنيه ، وتحفظ سمعتك .

وإنها لتمنحك من حنان الأمومة ماافتقدته منذ الطفولة وتعطيك من متاع الحياة ما يروى ظمأ الفتوة فيك وتهدى إليك ما يرضى زهو الأبوة منك .

هى عوض عن أحزان الطفولة ، وشبع ورى لحاجات الرجولة .

ها أنت ذا بعد طول الطواف تحت الشمس تنعم ببيت يملؤه الخير والولد يا أبا القاسم ، فراشك فيه عامر بالطاهرة ، ما يهجس فى قلبها غير إرضائك .

فمن أى أعماقك إذن ينبع هذا القلق الغامض الذى يفيض على وجهك بالشحوب فى كثير من الأحايين ؟

لقد زادت ثروة خديجة على يديك ، واتسع رزقك على يديها .. وأصبحت أبا لبنات وأولاد ، وغدوت تسلك فى الشراء والبيع كما تريد.. لا نقص فى الكيل ولا خسران فى الميزان ، وإنما هو الصدق والأمانة حتى لقد سماك قومك . « الأمين » .. واقتدى بك منهم نفر غير قليل .

* * *

ولكن الحياة ليست هى البيت الذى يعيش فيه الرجل. ليست هى – فحسب – الزوجة المحبة الصالحة الحسناء ، ولا الأولاد الذين يملأون القلب بالرضا ..؟

إن الأمن ليعمر البيت ، هذا حق ولكن الحياة من خارج بابه تضطرم بما يمزق القلب المطمئن !

وبعد أعوام طويلة من الزواج ، أصبح لك ركن هادىء تعمره مسرات الحياة : زوجة جميلة طيبة حانية ، وأبناء صغار تطيب النفس لمرآهم .. ولكن عالمك العريض الذى تعيش فيه لا هدوء فيه بعد ، ولا شىء منه تطيب له النفس .. أى تناقض ممزق بين بيتك .. والعالم !

ولكن حياتك فى بيتك ، تمنحك القوة على مواجهة هذا العالم الذى تعشش فيه الأكذوبة وتنمو ، وتفرخ .. وكلما مر عام على زواجك رسخت فى قلبك مكانة خديجة .. لقد واجهتما الزيف والخديعة معا ، وقاومتما معا ، وربحتما بالصدق معا .. وفقدتما معا بعض الولد .. واختلط منكما العرق والدمع معا .. بكت هى على كتفك ، عندما مات ابنكما القاسم ، ولم تستكبر أنت فبكيت على كتفها .. ومسحت دموعك يا محمد .. ومنحتك أولاداً آخرين .

والسادة فى قريش يحتقرون الذكاء والعمل ، ولكنها ترعى ذكاءك وعملك ، وتتنزه بك على دنس الحياة الآثمة من البطالة واللهو والمغامرة والغزل .

وأنت الآن لا تريد أن تشق عليها يا أبا القاسم بما يضنيك بعد أن فقدتما ولدكما القاسم .. لتدع السيدة الجليلة فى ثكلها .. فما أثقل حملها ! .

وما أثقل حملك أنت يا ولدى ! ..

وماذا تريد بعد ؟ ..

تحدث مع صديقك أبى بكر ..

وأبوبكر بن أبى قحافة ، هو الوحيد بين فتيان قريش ، من يخلص لك الود فتستطيع أن تفتح له قلبك. وهو مثلك يابن عبد الله يعنيه البحث عن الخلاص .. وإنه ليرى فى أصنام الكعبة أحجارا لا تضر ولا تنفع ، ولقد حدثك هو عنها ورأيت أنت أنه لا يسجد لها ، وهومازال يردد بين فتيان مثله من الذين لم تعد تقنعهم هذه الأصنام، قصة أول لقاء له معها : أخذه أبوه وهو صغير فقال له : « هذه آلهتك الشم العوالى » ، ثم تركه وانصرف ، فلما خلا الصغير أبوبكر إلى آلهته ، تقدم من أحد الأصنام فقال له : « إنى جائع فأطعمنى » فلم يجبه الصنم فقال الصغير للصنم : « إنى عار فاكسنى » وإذا لم يجبه الصنم ، ألقى الصغير عليه صخرة فخر الصنم على وجهه .. ومنذ رأى الصغير أحد الآلهة يخر على الأرض، رفض هو أن يخر ساجدا لمثل هذا الإله الأصم الضعيف الذى تسقطه دفعة من يد طفل ! ..

ولكن أبا بكر لم يعد صغيرا ولا جائعا ، ولا عاريا ، فهو الآن يا محمد قد جاوز الثلاثين مثلك ، وقد خرج معك فى كل رحلاتك يتاجر بماله . وقد أصبح الآن على حداثة سنه أحد سراة مكة . ما برح يتاجر بماله ويقتدى بك فى البيع والشراء ، فهو أيضا لا ينقص كيلا ولا يخسر الميزان ولا يحتال بالكذب . ولقد طالما سخطتما معا على ما يصنعه سادة قريش

وتمنيتما معا لو أن العالم ساده العدل ، فلم يفتك كبير بفقير ، ولم يهن المدين على الدائن ، ولم يخن الرجل عهده ولم يبطش الأقوياء بالمستضعفين ! .. لو أن للمرأة عند الرجل مكانة أخرى غير مكانة الشيء الذي يستمتع به ! .

أدركتما كل شيء معا ، وضقتما معا بأسلوب الحياة فى مكة ، ومضيت أنت تتأمل ، ولكن أبا بكر مضى يقرأ فيما انتهى إليه من كتب الأولين ! .. ما أسعده فقد أتاحت له الحياة أن يتعلم القراءة والكتابة منذ الصغر ، على عكسك أنت ! .. ومازال أبو بكر يقرأ ويحفظ كل ما ينتهى إليه ، ويحول رحلاته التجارية إلى فرص لمزيد من الاطلاع حتى أصبح اليوم أكثر فتيان قريش ثقافة .. وإنك لفخور به !.

لقد أدركتما معاً أن حياة قريش وطرق التعامل فيها ، هى التى تسمح بوجود الأصنام فى الكعبة . . فسادة قريش الذين فرضوا عليها هذا الأسلوب الجائر من الحياة ، هم الذين يحمون أصنام الكعبة ! . . وأنها لتبارك هذه الأوضاع ولن تسمح بغيرها . . وهى بعد تجلب آلاف العرب من كل مكان ليحجوا إليها ! وليدفعوا لسادة قريش ، وليعمروا مواسم الحج بالمبادلات التجارية ، فيثرى السادة عاماً بعد عام !

ومع كل هذا فإن من قريش نفسها لتتصاعد نداءات ضد علاقات الأثرياء بغيرهم وضد الأصنام التى تحمى هذه الأوضاع ..

لقد أصبحت ثروة مكة فى يد عشرات قليلة بينما عشرات الآلاف.. يعانون . وأصنام الكعبة راضية عن هذا كله .

إن دوران الحياة فى مكة واتساع تجارتها قد زاد من غنى السادة ، وألقى بمعظم السكان بين أظفار الحرمان والخوف ، حتى لقد سئمت القلوب مما تعانى وأدرك الناس أن هذا كله باطل !

لم تعد أصنام الكعبة قادرة على أن تملأ وجدان الناس وتشبع حياتهم الروحية ، ولم يعد أسلوب العلاقات القائمة بين الدائن والمدين أو بين من يملك ومن لا يملك ، ولا بين الغنى والفقير .. لم يعد أسلوب العلاقات هذا صالحاً للزمن بعد .. فقد أدرك الذين لا يملكون من أهل مكة أن ما يعيشون فيه لهو الظلم وأن الآلهة العديدة التى تحمى هذا الظلم ، ويسمح قيامها بأن يزدادوا فقراً ويزداد الأغنياء ثراء ، إنما هى آلهة ظالمة .. وهى باطل أيضاً . . ؟ .

الفقراء والمستضعفون يشعرون فى أعماقهم بأنهم فى حاجة إلى أسلوب ينظم علاقة الناس ببعضهم ، وفى حاجة إلى قيم روحية جديدة تعكس تطور هذا المجتمع الذى يشكلونه ، فلو أنهم لم يعملوا لما غنى السادة ، ومع ذلك فقد كتب عليهم الحرمان والهوان كما تكتب اللعنة .. لا بد من شيء جديد يقيم الموازين والحساب !

ولكن سادة قريش لن يسمحوا بهذا .. وإن الرجل منهم ليتخلى عما يجب أن يعرف عنه من فضائل ، ليقاوم أى احتجاج ، وليطمس أى شعاع يبرز فى ذلك الحائط المنصوب من الظلمات ! .

لقد تخلى الخطّاب بن نفيل عما أحب أن يعرف عنه من حماية الجار والقبيلة ونبذ بن أخيه زيد بن عمرو بن نفيل .. لأن زيداً هاجم القيم الروحية التى

يتمسك بها سادة قريش . هاجم الأصنام ، والوثنية وتعدد الآلهة وأسلوب العلاقات بين الناس فى مكة ، وطالب بالعدل ، وبقيم روحية جديدة تشبع الحاجات الواقعية لتطور مجتمع مكة .

وهكذا ألقى زيد فى التيه ، ليموت وحيداً غريباً ، ضائعاً ، بعد أن عذبه السفهاء .

لكم بكيت عليه يا محمد . . وبكى عليه ورقة بن نوفل قريب زوجتك الطاهرة خديجة وراعيها ولكم بكاه معك صديقك أبو بكر التاجر الغنى الذى رق قلبه وصفا ، وزادته الثقافة صفاء ورقة ! .

وأمية بن أبى الصلت هو الآخر ، ينبذ الأصنام ومظالم قومه ، ويعلن أن آلهة الكعبة لم تعد تملأ الفراغ الذى تستشعره روحه . . ولكنه لكى يعيش يعود فيمدح أغنياء قومه ثقيف بالطائف ، وأغنياء قريش فى مكة . . نفس الأغنياء الذين أطاق ضدهم فى شعره صرخات احتجاج صادقة .

وآخرون . . وآخرون . ومن قبلهم نادى « خالد بن سنان » قومه بأن يتركوا الحياة الدنسه ، وأن يتعاونوا فيما بينهم وألا يضطهدوا الضعفاء والمحتاجين وبشرهم بملكوت السماء لو أنهم هجروا أصنامهم وعبدوا إلهاً واحداً له ما فى السماء وما فى الأرض . ولكن قومه أضاعوه ! .

سخروا منه أول الأمر ثم وجدوا من يستجيب له ، فعذبوه حتى الموت وسألوه أن يستعين بهذا الإله الواحد الذى يدعو إليه ليخلصه منهم !

وهكذا أغمض خالد بن سنان عينيه الداميتين على حلم بعالم أفضل يسوده العدل ، والقيم الروحية المرتجاه !

إن كبار المرابين والتجار وهم كل حكومة مكة لينطلقون كالسمكات المتوحشة تبتلع الصغار ، وتنهش منهم اللحم الحى ، ويغريها الدم بمزيد من الدماء .. !

غير أن هؤلاء المبشرين العظام جميعاً كانوا يحاولون ترقيع ثوب مهلهل .. لا جدوى منه .. كانوا يحاولون ترميم بناء يتداعى .. بناء لابد أن يهدم كله ليبنى من جديد .. كانوا يحاولون إصلاح قومهم ، وقومهم فى حاجة إلى ثورة كاملة تجتث كل الجذور الفاسدة لتغرس أساليب جديدة ، وعلاقات جديدة ، وقيما أخرى .. يجب أن يُخلى بين الإنسان وما بين ما يعبد ! يجب ألا يكون لبشر سلطان روحى على الآخرين .. يجب أن تزول الأصنام بمن يخدمونها وبمن يتسلطون باسمها على مصائر غيرهم !

ليس للإنسان أن يستشفع بأحد . . فالكائن وعمله . وما ينبغى أن يتنازل الرجل عن عمله لأحد يدبر عنه أمره .. فلكل إنسان قلب يفقه به وعين تبصر وأذن تسمع وعقل يتدبر .. يجب أن تصان نفس الإنسان من الهوان وأن يصان بدنه من الأذى . . يجب أن يحترم الإنسان عهده وحق أخيه الإنسان .. لكل إنسان الحق فى أن يعيش حراً . .

ومن أجل ذلك يرفض محمد بن عبد الله أن يكون له عبيد ويغرى زوجته أن تعامل جواريها كما لو كن حرائر ، ويحملها على أن تسمى من تملكهم بالفتيان والفتيات بدلا من الجوارى أو العبيد أو الخدم . .

وإذ تشترى خديجة غلاماً صغيراً اسمه زيد بن حارثة يدفع لها محمد ثمنه .. ويحرره ويتبناه ، ويقيم عنده كأنما هو أحد ولده ، حتى ليأبى زيد بن

حارثة أن يعود إلى أهله ، عندما يجده أبوه الحقيق ، ويخيره فى العودة إلى أهله أو البقاء مع متبنيه ، فيختار متبنيه . .

لا بد إذن من خلق مجتمع يسوده الوفاء ، وينبذ فيه الغادر .. مجتمع تحكمه الأمانة ورعاية حق كل الناس على السواء بلا تفريق : السود والبيض ، السادة والعبيد ، الأغنياء والفقراء ، الرجال والنساء . .

يجب أن يصان هذا المجتمع الجديد فيفضح السارق ويعاقب ، ويجزى من خان الأمانة بما أثم ، ويقتل من قتل ، مهما يختلف حظ القاتل والمقتول من الغنى والفقر . . والجروح قصاص .

يجب أن تصان الأسرة فيعاقب من يزنى ، وتصان كرامة المرأة التى هى أم وزوجة وشريكة حياة وفلذة كبد ، فلا تعطى للرجل ليستمتع بها لبعض الوقت ثم يابذها ، ولا تمنح لعدة رجال فى وقت واحد ! . . يجب أن يحترم كبرياؤها فلا تتزوج إلا من ترضاه ، وأن تقيم معه شريكة له ، نفسا إنسانية كريمة ، تعاونه ، لا محظية يستمتع بها . . يجب أن تنكس هذه الرايات التى ينصبها النساء على بيوتهن ليستقبلن الرجال فإذا حملت أحداهن ألحقت ولدها بمن يشبهه !

كل هذا شائن وزرى ومهين . . ويجب أن ينبو عنه المجتمع كل . . هذا لا ينفع فيه ترميم أو أصلاح وإنما يجب أن يهدم كله دفعة واحدة ، ليُبْنَى من جديد .

لا بد من ثورة جارفة تجتث الربا ، والهوان ، والزرايا والبغاء ، وصلف المتكبرين والمتسلطين ، ثورة تقيم العدالة ، وتحرر الإنسان من

السيطرة والخوف وتحرر العقول والقلوب من الإذعان لأصنام الكعبة ولقوى الخفاء، وتضع أساسا للتعامل بين الرجل والمرأة، بين الإنسان والإنسان.

ولكن كيف السبيل ؟ !

* * *

لقد طالما تحدث محمد بن عبد الله مع صديقه أبى بكر بن أبى قحافة، فى هذا كله، ولقد رحلا معاً، وعانيا معا وشاهدا الرهبان والكهان فى بلاد بعيدة، وسمعا معا من الأخبار.. واعتزلا الأصنام معا، وسلكا بالعدل والصدق والأمانة، وبكيا معا على مالاقاه المبشرون الأوائل.. ونأيا عن الرجال والنساء يطوفون عراة حول الكعبة ويتلتصقون ببعضهم فى البيت الحرام.. وحلما طويلا بالخلاص.

* * *

والقوافل تمضى من مكة إلى بلاد الروم واليمن.. وفى أسواق مكة يجتمع تجار من مصر والهند والشام وأواسط آسيا.. وتسرى فى الأسواق حكايات كثيرة غريبة.. فتجار مصر يحكون عن أستاذة فى الأسكندرية كانت تعلم فى جامعتها الحكمة وتدعو الناس إلى أن يفكروا بعقولهم.

فالتف حولها الطلاب مكبرين دعوتها وسيرتها، وهى إذا ذاك فى الخامسة والأربعين، جميلة أنيقة وحيدة.. ولكن الكهنة والقساوسة اللذين يثرون من سلطانهم على القلوب، أدركو أن هذه الأستاذة الجميلة تريد أن تحطم سلطانهم وتسخر بوساطتهم لتحرمهم مصدر غناهم فلن يبقى لهم جاه ولامال إن انطلقت العقول تفكر وتحدد خطوات الرجال والنساء.

وحاول الكهنة أن يشوهوها وأن يؤذوها فى شرفها فلم يستطيعوا فقد كانت على جمالها الباهر ، عفيفة جدا ، فى مجتمع تندر العفة فيه ، يقظة لكل دسيسة . . ففشلوا فى الكيد لها .

وإذ لم يستطيعوا عليها سبيلا اقتحموا عليها دارها فقتلوها .

هكذا يخمد صوت العقل فى مصر التى تدين باله واحد ، وتؤمن بالمسيح وتحمل تراث مبشر قديم نادى بالتوحيد وأقام للأله الواحد مدينة أسماها أخيتاتون ! .

وفى بلاد أخرى كان من يحمل فى رأسه أفكارا يحكم عليه بالعذاب أو بالضياع فى الصحراء .

ومن بلاد الروم يروى القادمون عن ظهور مبشرين قد عثروا على دعوة عندهم فأحيوها ، وكانت الدعوة تقول إن العالم واحد متحد ، وهو قديم أزلى لم يخلقه إنسان ولا إله من الآلهه ، وقد كان هذا العالم وسيظل إلى الأبد شعلة حية تتقد وتنطفئ حسب قانون معين .. وأن على العقل أن يكتشف هذا القانون .

وفى بلاد الفرس يلقى إلى النار من يدعو إلى إله غير النار .

وهنا فى الكعبة يحكم بالموت أو بالتيه أو بالهوان على من يقاوم سلطان المستفيدين من أصنام الكعبة .. واللذين يملكون هذا القضاء عشرة أو عشرون من كبار المربين فى قريش . ومابينهم واحد لا يعيش فى الخطيئة .. وهم يقضون فى مصائر عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال .

ماجدوى الإصلاح فى مثل هذا العالم إذن . لابد من طفرة .. ثورة عارمة

تبنيه من جديد وقد تهيأ لها الآن قلوب الجميع . . الا الذين يفيدون من فساد الأوضاع ، وهم قليل .

ومحمد إذ ذاك فى قومه رجل حسن السمعة لم يعرف عنه أحد من سوء .. أمين صادق حتى لو أنه صرخ فى الناس أن خيلا قادمة وهم لايرون شيئا ، لكذبوا أعينهم وصدقوه ! .

وقد تواترت عنه مآثر لم يعرفها قومه من قبل ، فقد اكتفى بزوجة واحدة هى خديجة بنت خويلد ، ولقد ارتفع بها السن الآن حتى بلغت الخامسة والخمسين وهو بعد شاب يقرع أبواب الأربعين فما فكر أن يجرحها بزوجة أخرى ، وماستمتع بخليلة كما شرع قومه ، وما اشتهت نفسه غيرها على فتوته وحسن موقعه من النساء جميعا .

وهو بعد يقف إلى جوار المظلوم ، فقد استنهض عمه الزبير بن عبدالمطلب ليجير تاجراً غريباً كان أحد سراة مكة قد حبس عنه حقه ، ووقف التاجر المظلوم يصرخ حول الكعبة :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته   ببطن مكة نائى الدار والنفر

وردت إلى التاجر حقوقه .

واستطاع أن يجعل بعض الأسر من قريش تتعاهد بقيادة بنى هاشم ألا يجدوا فى مكة مظلوما من أهلها أو من الغرباء إلا قاموا معه ، وكانوا على ظالمه حتى يرد إليه حقه . .

ومحمد بن عبدالله — إلى هذا كله — حكيم .. استطاع أن ينقذ الناس من الفتنة حين أوشكت أن تضطرم فقد رأت قريش أن تبنى الكعبة بعد

أن اندلعت فيها النار ، وكانت قد ظلت تحفر حتى رجدت حجراً قديما كتب عليه بلغة لا يعرفونها ، فدفعوه إلى من طاف بلاد الأرض وعلم علم اللغات فقرأ : « من يزرع خيرا يحصد غبطة ، رمن يزرع شرا يحصد ندامة ، تعملون السيئات ، وتجزون الحسنات ! ... أجل ... كما لا يجتنى من الشوك العنب » .

فنصحهم محمد أن يعتبروا بما كتب على هذا الحجر ، فقد حمل إليهم تجربة أجيال من قبلهم ، فليذكروها وليتعظوا بها ، إن كانوا يعقلون ! .

ثم إن قريشا بلغوا فى البناء موضع الحجر الأسود .. فاختصموا فيه ، أى من أهلها يرفعه إلى موضعه .. وأوشكت القبائل من قريش أن تحارب بعضها بعضا وإذ بأكبرهم سنا يقول : « اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل » .

وكان أول من دخل هو أبو القاسم محمد بن عبدالله .. فلما رأوه قالوا جميعاً « رضينا .. هذا الأمين .. هذا محمد » . وأخبروه بما كان من خلافهم فقال لهم : « هلم إلى ثوبا » وجاءوا بالثوب فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه ثم قال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب »

وهكذا انفض الخصام . . وارتضى الكبار الأثرياء ، وما رآه لهم الشاب الفقير . .

إن قومه ليكبرون حكمه وينزلون عند رأيه ، يعتزون بصدقه وأمانته

، على الرغم من كل ماهم فيه . . ليتهم إذن يطعمون الجائع وينصفون الضعيف ولا يظلمون أحدا . . ليتهم يحتفظون بمخادعهم مطهرة ، ويعطون السائل ، ولا يقهرون اليتامى ، ولا يأكلون أموال الفقراء والمحتاجين . . ليتهم يعون ما حفظه لهم الحجر : إن الإنسان لا يجنى من الشوك العنب ! .

لكم تثقل الحياة عليه الآن .. لكم يشعر بكل شىء يفقد بهجته ورونقه كأنما ينتظر ماء حياة جديدة تدب فيه .

لقد روى له صديقه أبوبكر ما شاهده قديما من لقاء أمية بن أبى الصلت مع زيد بن عمرو بن نفيل . . كان ذلك بفناء الكعبة ، وزيد بن عمرو إذ ذاك مازال يتأمل قبل أن يجابه قومه بترك ماهم فيه ، وجاءه أمية فقال له : « كيف أصبحت يا باغى الخير ؟ » فرد عليه زيد : « بخير » فقال أمية : « هل وجدت ؟ » فقال زيد : « لاوآل من طلب ، إن هذا الذى ينتظر هو منا أو منكم أو من أهل فلسطين » .

إن الحياة والظروف كلها لتتهيأ الآن لاستقبال منقذ آخر ..

المبشرون الأوائل كلهم يطلقون صرخاتهم المحتجة ولكنهم فى أعماقهم كانوا يؤمنون بأن رجلا آخر يجب أن يقول الكلمة الحاسمة التى تضىء بها الظلمات ويتغير وجه الأرض .. لم يقدم واحد منهم للبسطاء ما يؤمنون به ويتحركون تحت رايته .. كانوا كلهم يبحثون فى طيبة ولهفة لا تنتهى عن الحل ، ولكن أحدا منهم لم يقدم الحل الذى يعتنقه المعذبون ، فيفرضوه !

وعلى الرغم من كل شيء ، فمازال صوت الظلم هو الذى يرتفع ، وقيم الحاكمين هى السائدة . . مازال الرجل يمتهن ، والمرأة تبتذل . . والأسرة مفككة . . مازال الرجل يرث عن أبيه الزوجة ، والمرأة تباح لعدة رجال ، ولا حرمة لشيء بعد . . الإنسان يستعبد ويعامل كالفريسة ! . . القوة العضلية هى الشريعة ، أما العقل فلا حاجة لأحد به !.

وماذا بعد . .

وها أنت ذا ياولدى حزين غريب فى هذا التيه الذى يتنفس بالأكذوبة واللعنة والهوان والمنكر .

وإنك يا أبا القاسم لتعتزل هذا كله وتترك أهلك لتخلص إلى نفسك فى « حراء » كما فعل قبلك مخلصون ، غلوا واضطرموا لبعض الوقت ثم لم يعد أحد يسمع عنهم بعد ذلك شيئاً .

ماسكوتك على كل هذه الضلالات ، وما اعتزالك طول شهر رمضان ! قل كلمتك . . لقد عودك قومك أن يحترموها .

ذهبت عنك حدة الشباب . فقم فبشر . قم فواجه أعداء الإنسان . . قم ، فأنذر !

لم تكن الجزيرة وحدها هي التي تعنيه ، فقد طاف بالشمال والجنوب وعرف كثيرا عما يحدث فى بلاد الفرس والروم .. وفكر فى هذا كله .. فى كل مكان يهدر الإنسان ويسيطر الغيظ أحياناً ، حتى لتمتد يد المرأة الحنون إلى قلب خصمها بعد أن يقتل فتأكل منه القلب الحى . . وتلعق الدم ! . .

ومازال الملاك الكبار فى بلاد الروم يصنعون بالرجال والنساء مايصنعه المرابون الكبار فى مكة ، والرؤساء والدهاقين فى بلاد الفرس ..

وهنا وهناك يقضى على الإنسان ما يقضى باسم قوى الخفاء التى لاتقاوم ولاترد وهى قوى لاتشبع من دم الضعفاء ، وتقتات بالهوان . .

وهى فى مكة تتخذ اسم الأصنام وفى بلادالفرس تتخذ اسم الآلهة وفى بلاد الروم تتخذ اسم الأحبار ورجال الكهنوت .

لقد هان كل شىء حتى اقد وثبت امرأة من أرصفة القسطنطينية إلى الملك :

ونقلت صناعاتها من الحانات ، إلى عرش الامبراطورية الرومانية ، وكانت مولعة بالشذوذ فراق لها أن تمارس علاقاتها وهى بالتاج

الامبراطورى ، وحولت الكنائس إلى أوكار للمؤامرات والمذابح ، وأشاعت فى كل مكان جوا من الفوضى والظلمات والانحلال . . فكان الصناع الفقراء يؤمرون بتحويل فنونهم إلى مايشبع شذوذها ونهمها فان رفضوا أوترددوا قتلوا بالمئات . . وكانت مزارع الفلاحين مباحة للنهب بأمرها . . وتحولت الامبراطورية الشامخـــة إلى سوق واسع للرقيق الأبيض .. يحكمه النخاسون . وتحول كل ماهو مقدس ، إلى مخدع . . !

وفى بلاد الفرس ظهرت مذاهب أخرى غريبة ، وتجردت الأساطير الدينية من روحها القديمة ، وفقدت النار والظلمة معانيها الرمزية يوما بعد يوم منذ أصبح الكهان هم ملاك الأرض والتجارة . فقد استهواهم المتاع الحسى ، حتى لقد ظهرت عبادة جسد المرأة . . وأصبح جسد المرأة إلها يتقرب منه الكهان ، ويستنفدون طاقتهم البدنية تفانيا فى عبادته . . وامتلأت الأناشيد المقدسة بالألفاظ الفاضحة التى تتغزل فى بدن المرأة العارية وتصفه بكل تفاصيله بلا حياء . . وأصبح من حسن حظ الفتاة قبل أن تزف إلى زوجها أن يقع عليها اختيار كبار الكهنة ، لتقيم عندهم أسبوعاً كاملا يتعبدونها بالتبادل وليجتلبوا لها البركات .. وهم عراة مخمورون .

وحتى القيم الروحية القديمة فى المسيحية واليهودية ، لم تعد على حالها بعد . . فقد تحولت إلى عبادة لصور القديسين والشهداء . . وتحولت سلطة الرب إلى القساوسة والكهان . . هم وحدهم الذين يفتحون أبواب الجنة وأبواب النار . .

وهكذا تحول الاعتراف الذى يكفر به الخاطئون والخاطئات عن

الذنوب إلى طريقة لابتزاز المال تحت ضغط التهديد بإذاعة سر الاعتراف.. كان هذا التلويح بالفضيحة هو أسلوب رجال الدين لابتزاز المال أو لاجتناء المتاع..

* * *

الفساد يشيع فى العالم كله لا فى مكة وحدها . . ومحمد بن عبد الله ، يعلم هذا من رحلاته وأسفاره العديدة . . ومما روى له أصدقاؤه الذين يرحلون .

ولقد تعود عندما يأتى شهر رمضان من كل عام أن يعتزل الناس إلى خارج مكة . .

وكان محمد يترك زوجته الحانية خديجة أياما طوالا من هذا الشهر .. ويظل يتأمل كما تعود الباحثون عن الحقيقة من قبله . . بعيدا عن صخب مكة ولهوها واصطكاك المصالح الفاسدة فيها . . ولقد يبيت فى حراء بعض ليالى شهر رمضان :

وإذا كان يغيب عن خديجة أكثر مما تحمل زوجة محبة فقد تعودت أن ترسل إليه من يبلغه شوق أهله . . فيعود . . وكانت فى بعض الأحايين تخرج معه ، ويضرب لها خباء على مقربة من مكان نسكه بدلا من أن تكبده مشقة العودة إلى بيتها فى مكة .

ولقد أصبح محمد الآن فى الأربعين وهى السن التى تعترف فيها قريش لفتيانها بأنهم لم يعودوا صغارا بعد ، فمن حق الواحد منهم أن يكون عضوا فى حكومة قريش . . إذا كان على حال من الغنى تسمح

له بهذا الشرف . . ولكن ظروف الحياة فى قريش لم تتح لمحمد أن يكون عضوا فى هذه الحكومة أبدا . ، فقد كان فى قريش عشرة بطون يمثل كل بطن منهم فى حكومة مكة رجل واحد . . وكان رهط محمد هم بنو هاشم وقد مثلهم فى الندوة من قبل جده عبدالمطلب ، ويمثلهم اليوم عمه العباس بن عبدالمطلب وهو من أيسر تجار قريش . . على أن محمدا كان يملك فى هذه الحكومة أعز أصدقائه عليه ، وهو أبوبكر بن أبى قحافة ، وكان مختصا بالقضاء فى الدية والغرامات . . وهو أيضا تاجر غنى . .

وكان محمد يعجب من رجال الحكومة بعمر بن الخطاب ، وكان إليه أمر السفارة . . فهو الذى ينطق باسم قريش فى علاقاتها الخارجية مع المدن والقبائل الأخرى . .

وكان محمد يقيم إذ ذاك مع خديجة وولده منها ، ميسور الحال ، ولكنه دائما قلق مضنى تغشاه بعد تأملاته الطويلة أحلام كثيرة . . .

كان مازال يبحث عن حل كامل حاسم للفوضى يعيش فيها العالم كله . . لامكة وحدها . .

لكنه لم يكن مأخوذا بهذه التأملات ولا الأحلام فهو يحيا حياة الناس إذا انقضى شهر نسكه . ينهض كل صباح ليحلب عنزته بيده ويرفض أن يدع أحدا من خدم خديجة يساعده . . كان يؤثر أن يحيا كالبسطاء . . كما كان قبل أن يصيب الغنى من تجارته لخديجة . وهو ينزل إلى السوق بنفسه ليشترى ماعسى أن يحتاجوا إليه من طعام . .

وكان فى طريقه إلى السوق يمر بصبيان يلعبون فى الطريق فيبتسم لهم

ويتحدث إليهم على عكس ما تعود الكبار فى مثل سنه : . وكان أحيانا يصطحب معه ابن عمه على بن أبى طالب .. وكان محمد قد أخذ عليا يربيه بين ولده تخفيفا عن عمه أبى طالب ، وعرفانا للجميل .. فقد تحدث إلى عمه العباس ذات يوم : « إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه وتأخذ أنت .. » وانطلقا حتى أتيا أبا طالب فحدثاه فى الأمر .. وعاد محمد بعلى ، وعاد العباس بجعفر . .

وأقام معه على منذ ذلك اليوم ، وهو الآن فى الثامنة يخلص أحيانا إلى الغلمان فى مثل سنه ليلعب فى طرقات مكة فيحدثهم عن ابن عمه محمد الذى يبتسم لهم من دون الرجال ، وعن زوجته الطاهرة . إن محمدا هذا يكره استعباد العبيد والجوارى . وفى بيته ألغيت كلمتا «العبد والجارية» وأحل « فتاى ، أوفتاتى » .. وهو يصبر على الخدم ، فما يقول لأحد منهم « أف » مهما يخطىء .. وعلى الرغم من أن زوجته الطاهره تحنو عليهم وتهش لهم ، فما زال بها يوصيها الليل والنهار أن تطعمهم مما يطعم أهل البيت ، وتكسوهم من نفس لباس أهل البيت ، وألا تشق على هؤلاء الخدم بعمل وأن تساعدهم ، وألا تكلفهم مالا طاقة لهم به ..

وكان هذا الذى يحكيه على عن ابن عمه محمد يملأ قلوب الغلمان بالحيرة . . فهم يعرفون ما يمتلىء به بدنه من قوة وما فى قلبه من الشجاعة . . وهو مع ذلك يملك كل هذه الرقة مع الخدم وكل هذا اللطف معهم هم الصغار ! . . إنهم يعرفون شجعانا آخرين من قريش ولكنهم يمرون بالغلمان فيمسك الغلمان عن الحديث خوفا منهم .. عمر بن الخطاب .

حمزة بن عبد المطلب . . عمرو بن هشام ، ولكن أبا القاسم هــذا هو أكثرهم شجاعة وأعظمهم فتوة وهومع ذلك أكثرهم رقة . .

والصغار والكبار ، مازالوا يذكرون إقدامه الجسور على فحل من الإبل كان قد جمح وتوحش وأصبح كالكواسر الضارية ، حتى لقد فر الشجعان من أمامه . . على أن محمدا اقتحم عليه وجذبه بكل قوته فأخضعه وكبح جماحه . .

لم تكن قريش قد تعودت من قبل مثل هذا الاقدام فى مواجهة الخطر من أجل الآخرين . . لم تكن قــد عرفت بعد شجاعا — قبل محمد بن عبد الله — يواجه بمثل هذا الهدوء والاستبسال ، قوتى صماء شرسه تخلع القلوب من الرعب ! . .

* * *

وهكذا كان الصغار والكبار يحبونه ويعجبون به .. الكبار والصغار.. والرجال والنساء . .

إن سيرته بينهم تعكس أفكاره وتأملاته .

لم يصنع شيئا أنكره .. لم يصخب مرة فى سوق ، لأنه كان ينكر الصخب.. لم يكن يسمح لنفسه بأن يبيت شبعان وله جار جائع . . لم يبتدر إنساناً بإساءة .. وهو يكره الكذب والزيف ، فلا يسكت على أكذوبة ، ولا يزيف أبدا ليكسب . . يفضل ألا يبيع على أن يكسب بالتلاعب . . يقول الحق ولو آذاه . . الوعد عنده مقدس . . ولأنه لم يكن يرتكب ما ينفر منه ، ولأن خطواته فى الحياة كانت تعكس تأملاته عن الخلاص وعن عالم

أفضل ، فقد أحبه حتى الذين غرقوا فى الدنس إلى الأذقان .. أحبه التجار والمرابون واحترموه على الرغم من أن أمانته وعدله ورقته كانت تشكل احتجاجا صارخا على أساليبهم . . !

ولم يحفل أحد بخروجه كلما جاء رمضان ليتعبد فى حراء .. لقدكان بعض الفتيان والشيوخ يصنع هذا أيضا .. يرفض الخمر ، وينبذ دور اللهو ، ويكتفى بالزواج ، ولا يعبث بالكيل أو الميزان ، ويتجنب الطواف بالكعبة عاريا وسط رجال ونساء عراة ، حتى إذا جاء شهر رمضان خرج هذا الفتى أوذاك الشيخ ليعتزل صخب الحياة على جبل حراء ، غير بعيد من مكة . .

ولكنه عاد من حراء ذات ليلة من رمضان ، شاحبا ، يرتعد .. وكان قد أطال الغياب فى حراء حتى قلقت عليه خديجة فأرسلت إليه تتعجل عودته .. كانت فى خبائها تنتظره ، وحسبته عاد إلى مكة فبعثت من يبحث عنه هناك .

وإذ وافى خديجة ، راعها شحوبه والعرق الذى يتصبب منه والرعدة التى أخذته . .

كان عائدا من حراء .. لم يبرحه إلى مكة .. ولكنه كان نائما فى الغار وخلال نومه حدث شىء هائل . . غريب . .

وخشيت عليه من طول التأمل فى غار حراء .

وقال لها : يا خديجة ، لقد خشيت أن أكون كاهنا ، أو يكون بى جن..

فقالت له : «كلا يا أبا القاسم .. لا تقل مثل ذلك فإن الله لا يفعل ذلك بك أبدا .. إنك تصدق الحديث ولا تجزى السيئة بالسيئة ، وتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وإن خلقك لكريم ؛ ولست بصخاب فى الأسواق » .

إنه لا يعرف بعد !!

إنه لم يسىء إلى أحد قط ، ولم يؤذ أحدا فى ماله ولا فى نفسه ، وإنه ليطعم المسكين وابن السبيل . وما امتهن جسده مع خليلة ، وما أباح عقله للسكر . . وكم من رجال غيره اعتزلوا فى حراء فلم يحدث لهم هذا الذى حدث له ..

لقد كان يشعر فى السنوات الأخيرة كلما خرج إلى حراء ، أن ماحوله من صخر وسماء ورمال وصمت كأنما يغيب فى لغز رهيب .. ولقد حدث صاحبه أبا بكر بهذا فما أفاده.. وحدث زوجته خديجة فما انتفع بما قالته.. ولكنه فى هذا العام قد هجر تجارته ،ولم يعد شىء أحب إليه من أن يخلو وحده.. وظل يحلم وهو نائم .. يحلم بأشياء رهيبة حقا .. كأن أصنام الكعبة تسقط ودولة الطغيان تتقوض بكل دعارتها وترفها المستبد من أقصى بلاد الروم والفرس .. وكأن الناس قد تحولوا إلى بشر آخرين ، لا يرفع أحدهم السيف فى وجه أخيه ، ولا تمتد يد بالعدوان على أحد .. كلمة الحق ترتفع كالراية تظلل جموعا لا حصر لها من رجال شرفاء ونساء فاضلات ، وأطفال سعداء يحلمون بالمستقبل . . لم يعد الإنسان مهدرا ممزقا . . لقد تغير هذا الجيل الذى يشرع ضروسه وأسنانه لأكل المساكين والفقراء . . تغير تماما .. وتخلت الذلة عن وجوه المساكين والضعفاء !

لقد طالما حلم وهو نائم .. أنه يعيش فى عالم أفضل .. يبتدر فيه الرجل أخاه بالإساءة ، فيعفو من أسىء إليه ، وإذا بالرجلين يتعانقان .. تخفى المرأة زينتها فلا تبيحها إلا لزوجها صاحب الحق فيها .. يعين الإنسان أخاه المحتاج ويرفض أن يتقاضى ربحا عن قرضه .. عالم آخر تماما ملأ أحلامه أثناء النوم ، عالم انطلق فيه العبيد بشرا آخرين ينشدون للحياة ، ويتولون مناصب — كالسادة — فى حكومة مكة وبلاد الروم والفرس .. فهم ليسوا عبيداً بعد .. وإنما هم بشر أفضلهم بين الناس هو أحسنهم سيرة .

ولكنه فى تلك الليلة من رمضان ، أغفى قليلا ، فنام : : فرأى من يعرض عليه كتابا ويطلب منه أن يقرأ .. فقال له « ما أنا بقارىء » ؟ . ولكنه ألح عليه أن يقرأ ، فسأله « ماذا أقرأ » فقال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . . خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . . وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه فى النوم . . وبينما هو يستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه إذا به وهو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتا من بعيد يقول له : « يا محمد . . أنت رسول الله وأنا جبريل » .

ما كل هذا .. ؟ !

إنه ليخشى أن يكون كاهنا أويكون به مس من جن .. من يصدقه . . ماذا يريد جبريل هذا ؟ . . وهو رسول الله إلى من .. ؟ وماذا يحمل إلى الناس ؟ إن جبريل هذا لم يحدثه عن شىء مما يفكر فيه .. لم يحدثه عن المعذبين ولا عن العالم المضطرب الذى ينشد خلاصه .. !

ولكن خديجة الزوجة البارة الحانية التى لم يختلف ودها أبدا ، ظلت تدخل الطمأنينة إلى قلبه وتؤكد له أن الأذى لا يمكن أن يصيبه لأنه لم يصنع أذى لأحد .. وكان قريبها ورقة بن نوفل قد حدثها كثيرا عن المسيحية التى آمن بها .. وعن الرب وملكوت الرب .. ورسالة عيسى وموسى من قبل ..

وخرج محمد وترك خديجة حائرة . لا تعرف كيف تبدد هموم زوجها .. إنها لتصدقه .. ولقد سعى إليها الغلام الصغير على ، وسمع ما كان يقوله ابن عمه فصدقه هو الآخر .. وسمع زيد بن حارثة بما كان من أمر محمد متبنيه .. فصدقه .

الثلاثة يصدقون الرجل ولكنهم لا يفهمون الأمر .. إنهم ليثقون به ويؤمنون بكل مايمكن أن يقول ..

فلقد عرفوه دائما أمينا صادقا حكيما صائب النظر رقيق القلب ..

* * *

وأقبل أبو بكر بن أبى قحافة يسأل عن صديقه محمد بن عبد الله ، واستقبلته خديجة وروت له ما كان من أمر صديقه . . ونقلت له مخاوفه أن تكون قد أصابته حمى الكهانة أو مسه الجن .. ونصحت له أن يذهب إلى ورقة بن نوفل ، فقد يكون فيما لديه من العلم تفسيرا لهذا الذى وقع لمحمد فى نومه ..

وانطلق أبو بكر إلى ورقة يروى له ما حدث لمحمد ؟ ! أهو مبشر جديد إذن مثل زيد بن عمرو ؟ .. ولكن زيد بن عمرو لم ير فى الحلم شيئاً كهذا ، ولم يقل له أحد أنه رسول الله :

وأخذ محمد يطوف بالكعبة على عادته كلما عاد من حراء فتقدم إليه ورقةُ بن نوفل فقال : لقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى .. ثم قبل رأسه واستطرد : « وإنك لنبى هذه الأمة » .

وحذره أنه سيكذَّب ويعذَّب ويؤذى وينفى من دياره ويقاتل .. هكذا تماما كما حدث للمبشرين الأوائل ! ..

وماذا بعد ؟ ..

أجل ماذا بعد ؟..

لقد صدقته خديجة زوجته ، وابن عمه على ، ومولاه زيد بن حارثة ، وصديقه أبو بكر ..

وبشره الرجل الصالح ورقة بن نوفل .. سيعذب ويؤذى ويقاتل .

ولكن ماذا بعد ؟ .. على أى شىء صدقه هؤلاء جميعا وبم يبشره وينذره ورقة ؟

لقد قال زيد بن عمرو للناس أشياء كثيرة ، وخالد بن سنان قال أيضا أشياء كثيرة ، وغيرهم . . وكلهم طرد وعذب ، وأوذى . ثم قوتل وقتل .

أماهو فأية أشياء يقول ؟ . . إن نفس الأشياء التى قالها الآخرون لاتجدى أبدا لأن هذا العالم المنهار المتشابك الفساد يجب أن يهدم ليبنى من جديد : :

كان هذا هو اقتناعه . !

وبعد شهور وشهور من التأمل والضنى خرج محمد ليعلن أن هذا القضاء الغاشم الذى فرضته الآلهة والكهنة والأصنام فى أقطار الأرض إنمـــا هو أكذوبة ومصيدة للضعفاء والفقراء والذين لا يملكون من الأمر شيئا .

فكل نفس بما كسبت رهينة .

وهكذا انطلق ، وقـــد أدرك دوره حقا لأول مرة ، منذ تلك الليلة فى رمضان .

أعدت الحياة له مكانا .. وانتظرته .

هيأت الظروف الاجتماعية محله ، فكان من الضرورى أن يقبل ليملأ مكانه المرتقب ، مسلحا بفهم كامل لطبيعة دوره ، وبنظرية كاملة عن الحياة والموت ، وبإدراك كامل لحاجات البشر المعذبين : حاجتهم إلى أسلوب فى العلاقات أكثر عدلا وإنسانية ، وحاجة وجدانهم إلى قيم روحية جديدة .

وهكذا أقبل أبو القاسم محمد بن عبد الله من أغوار تأملاته .. من قاع مجتمعه ، طيبا متواضعا كالمساكين . . وهو يملك مع ذلك من الصرامة والشجاعة والقدرة المبدعة ، مايفرض هيبته على الذين يضربون فى الأرض بصلفهم ويتشامخون بمالهم ونفرهم ، ولو أنهم على أية حال لن يخرقوا الأرض ولن يبلغوا الجبال طولا .

* * *

كانت قوة التجار والمرابين الأغنياء قد ألصقتهم بأصنام الكعبة ، وكان التصاقهم بهذه الأصنام يمنحهم مزيدا من القوة والغنى .. فهى تحمى الآخرين وإليها يحج العرب كافة ثلاثة أشهر من كل عام : يقدمون

الهدايا والقلائد والأموال إلى الأصنام ، أى إلى الذين يحكمون باسم الأصنام . .

وخلال هذه الأشهر يستثمر هؤلاء الأغنياء أموالهم فى البيع والشراء والربا .. فيربحون ويربحون .. وهذه الأصنام بعد هى التى تمنح الملاك كل سلطانهم على الأجراء والمعدمين والعبيد وأبناء السبيل ..

وواجه محمد هذا كله بأن الأصنام ضلال .. وأنها لن تغنى شيئا .. وأنها لا تملك للانسان نفعاً ولا ضرا .. وأن الأمر كله لإله واحد .. لا يحتاج إلى وسطاء .. إله واحد أحد ، خالد أبدا ، لم يلد ولم يولد . وليس شىء كفؤا له ولا أحد ! .

وهذا الإله أكبر من أن يحده مكان كالكعبة ، ولا حتى مكة نفسها فهو فى كل مكان .

ليست له صورة وهو الذى خلق كل شىء ، وهو وحده الجدير بأن يعبد .

يستوى عنده العبيد والأشراف .. الفقراء والأغنياء .. الرجال والنساء .

هو الذى يحيى ويميت ، وسيبعث الناس فى يوم معلوم بعد الموت ليحاسبهم على ما صنعوا فى الحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا إلا لهو ومتاع وغرور .. وهى إلى زوال .

وهذا الإله الواحد لا يرضى الزنا ، ولا الربا ، ولا القتل ، ولا كبرياء سائر الأشياء ..

وهو يلعن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها على الفقراء ، وسيحمى على هذه الكنوز — فى النار — عندما يبعث الناس بعد الموت فيكوى بها جباه الذين كنزوها وجنوبهم وظهورهم .. وسيحرق أجساد الذين يعبثون بحقوق الآخرين ويستضعفونهم ، فاذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ..

أما المساكين الذين يمتهنون اليوم فلهم شأن اخر بعد الموت ، فقد أعدت لهم جنات فيها حدائق وأعناب وكواعب أتراب إذا هم هجروا الفاحشة ، ولم يسرقوا ولم يكذبوا ولم يقتلوا وإذا هم أدوا الأمانات إلى أهلها ولم يكرهوا فتياتهم على البغاء وفاء لديون المرابين ، وإذا هم نبذوا الأصنام وتحرروا من سلطانها على قلوبهم وعبدوا الإله الواحد الأحد الذى ليست له صورة ، ولا يحده مكان أو زمان .. والذى بعث محمدا رسولا إلى كل الناس ، بشيراً بجنة خالدة ونذيرا بنار خالدة

إنه إله آخر غير ما عرفوا ، فإله محمد لا يريد وساطة ولا مالا ولا قلائد ، ولا سبيل إليه بحسب أو بغى .. فما الإنسان عنده غير سيرته الصالحة .. غير صدقه وشجاعته وحسن معاملته وغير فضائله .. ذلك أنه غنى عن العالمين وأنه ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى .

* * *

بهذا التصور الجديد للحياة والموت ، وبهذه القيم الروحية الجديدة واجه محمد ضلالات قومه .

واهتزت الحياة المتموجة فى مكة .

من يصدقه الآن ؟ .

لقد صدقته زوجته عندما روى لها ما حدث فى تلك الليلة من رمضان ، وهو على جبل حراء ..ولكن أتراها تؤمن بما يقوله اليوم .

كانت تتفانى فى حبه ، وتستعذب كل عناء لتمنحه لحظات من الراحة، ولتعمر قلبه بالثقة .

ولقد صدقه ابن عمه على بن أبى طالب فى نبإ حراء أيضا .

وصدقه ابنه بالتبنى زيد بن حارثة .

وصدقه أبو بكر بن أبى قحافة صديقه الذى شاركه تأملاته وقلقه ، والأغراب. كلهم صدقه عندما جاءهم فى تلك الليلة من رمضان منذ ثلاثة أعوام يروى لهم نبأ حراء .

ولكنه اليوم يواجههم بشىء جديد .. ويطالبهم أن يؤمنوا به ، وأن يحفظوا الكلام الذى يدفعه إليهم .. وأن يناضلوا إذا اقتضى الأمر لكى يكون ما يجىء به هو القانون الذى يسود .

لكم يبدو هذا كله شاقا ورهيبا ؟ .

لئن كانت أصنام الكعبة ضلالا حقا، فسينصرف العرب عن زيارة الكعبة خلال الأشهر الثلاثة الحرم ، وسيحرم الأغنياء مصدرا كبيراً للغنى . . وسيفقدون بسقوط الأصنام كل هيبتهم وسلطانهم .

سيبذلون كل ما يملكون ليكذبوه ويعذبوه ولينفوه هو من الأرض ، قبل أن ينفى عنهم مبرر بقائهم سادة أغنياء .

أولم يتوقع ورقة بن نوفل هذا كله !

سيكذبونه ، أجل ، وسيعذبونه ويطردونه إلى التيه كما حدث لخالد ابن سنان ، وزيد بن عمرو !

لن يرحموه ..

ولكن الذى يقوله محمد شىء جديد لم يقله خالد ولا زيد .. وهو مستعد لأن يناضل حتى الموت فى سبيل دعوته .. إنه يعد الضعفاء الذين يرفضون الظلم جنة عرضها السماوات والأرض .. وينذر الظالمين بالنار .. وهو يهىء للعبد مكانا إلى جوار السيد وللمرأة مكانا إلى جوار الرجل .

مهما تكن المشقة ، فمحمد الأمين لايكذب ، والفضائل التى يدعو إليها هى وحدها الجديرة بأن تحكم علاقات البشر .. وعلى الزوجة التى أخلصت له وملأت حياته بالأمن أن تثق دائما به .

وهكذا آمنت خديجة بكل ما يدعو إليه .. وقلبها يتجه إلى الله الذى يدعو له محمد أن يضن به على الأذى ، وأن ينصره ، ويحميه من الذين يملكون المال والسلطان .

آمن على بن أبى طالب بما يدعو إليه محمد ، وتمنى بكل فتوته الجديدة لو أنه استل سيفا فيه قوى الخفاء نفسها ليفرض على كل القلوب تعاليم ابن عمه .. ومضى يلوح بيديه فى الفضاء .

وآمن زيد بن حارثة ..

وخرج محمد إلى الكعبة يحدث الناس عن إلهه.. فى رفق كمن يتحسس طرقه بينهم .

وكان فى الكعبة بعض فتيان ورجال يكبرون محمدا ، ويعرفون فيه الصدق والشجاعة ويحترمون استعلاءه عما يأخذون فيه . وكانوا يعرفون أيضا صداقته لأبى بكر بن أبى قحافة ، وحرص الصديقين معا على أن يعاملا الناس بالحق و الصدق و العدل .

وعجبوا لما يدعو إليه محمد .. ما هو هذا الاله الواحد الذى يتحدث عنه ؟ أيكون إيثاره للخلوة قد أثر عليه ؟ . إنه لعاقل وحكيم ، فما من حقه أن يدعو إلى غير ما يعبده قومه .. أين حكمته ؟ . أنسى مصير خالد بن سنان ، وزيد بن عمر ؟ .

وأشفق عليه نفر منهم فقاموا ينصحونه ولكنهم رأوا اصراره ، فآثروا أن يرسلوا إلى أبى بكر أحب أصدقائه إليـــه وأكرمهم عنده .. فأبو بكر بن أبى قحافة تاجر غنى يكسب من الأشهر الثلاثة التى يحج فيها الناس إلى آلهة الكعبة . وسيبور جزء من تجارته لا ريب ، إن شاعت دعوة صديقه محمد بن عبد الله فشك العرب فى آلهة الكعبة ، واتجهوا إلى هذا الإله الواحد الذى لا يحده مكان .. وأبو بكر بعد هو واحد من عشرة رجال يحكمون مكة .. وله فى قلب محمد منزلة خاصـــة ، فلعله يستطيع أن يرجعه عما أخذ فيه .

وانطلق العقلاء منهم جزعين إلى أبى بكر فقالوا له : « يا أبا بكر إن صاحبك .. » فقاطعهم فى قلق : « وما شأنه ؟ » قالوا « هو ذلك فى المسجد

يدعو إلى عبادة إله واحد .. ويزعم أنه نبي » .. ففكر أبو بكر قليلا قبل أن يسألهم : « أقال ذاك » .قالوا . « نعم ».

وانصرفوا مشفقين .

اندفع أبو بكر بجسده النحيل ووجهه المعروق الأبيض وعينيه الغائرتين .. لم يكلم أحداً ولم يلتفت إلى أحد على طول الطريق إلى الكعبة حتى أتى محمدا .. فقال له : « يا أبا القاسم ما الذى بلغنى عنك ؟ » قال : « ومابلغك عنى يا أبا بكر ؟» :

ـ بلغنى أنك تدعو إلى توحيد الله وزعمت أنك رسول الله .

ـ نعم يا أبا بكر إن ربى جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة ابراهيم وأرسلنى إلى الناس جميعا .

وأبو بكر إذ ذاك هو أكثر رجال قريش علما بتاريخ العرب وأعمقهم ثقافة يعرف الأنساب والسير والديانات التى عاشت فى الجزيرة ومن حولها على مدى القرون . .

ولم يتردد أبوبكر .. وقال :

والله ما جربت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظيم أمانتك ، وصلتك لرحمك وحسن فعالك . مد يدك فإنى مبايعك .

وعاد محمد إلى خديجة ، فرحا ، يذكر لها ما كان من أمر أبى بكر العزيز الصديق .

ومضى أبوبكر يفكر فى دعوة محمد ، وفيما يمكن أن يقاومها به زملاؤه فى حكومة مكة ، من التجار الأغنياء ..

على أن دعوة محمد شاعت بين الأجراء المستضعفين والعبيد يوماً بعد يوم . . أخذوا يعتنقونها ، ويستعدون لجعل تعاليم محمد هى دستور العلاقات فى مكة . . إنها تمنح العبد حق الحرية وتلزم السيد بأن يذعن للعبد الذى يريد أن يتحرر أن يتركه يعمل بأجر ليشترى حريته . . وهى تجعل للفقير حقاً معلوما فى مال الغنى .

وهى تضمن للمرأة حياة أخرى . . الأنثى كالذكر . . خلقهما نفس الله . . ليست الأنثى اذن كما كانت تزعم التقاليد ثمرة الخطيئة فى الأرض ، وممثلتها ، ووحيها وأداتها . .

وهذه التعاليم تنهى الآباء والأزواج عن إكراه فتياتهم على البغاء . . وهى تكفل للمرأة حياة متكافئة مع زوج يسكن إليها وينفق عليها ويعاشرها بالمعروف ويسرحها بإحسان . . ويدفع لها مهراً عند الزواج ، ونفقة بعد انطلاق . .

وهذه التعاليم ترفض كل أنواع العلاقات الأخرى التى تعترف بها شريعة مكة . . ليس للمرأة أن تتخذ أخدانا ، وليس لأحد أن يهبها لغيره ويستوهبه بدلا منها . . كالسلعة . . وليس لزوجها أن يكرهها على أن تعاشر هذا الرجل أو ذاك من أغنياء قريش ، ليكون لها ولد من صلب رجل غنى عريق .

فتعاليم محمد تطالب الرجال بأن يصونوا أعراضهم وتطالب النساء بأن يصن أعراضهن ، والزوجة هى عرض زوجها وشرفه . . والرجل هو عرض زوجته وشرفها . . وعلى الرجال والنساء أن يحفظوا أجسادهم

مطهرة لبعضهم وألا يسمحوا بتخليط الأنساب ، وأن يقيموا علاقاتهم فيما بينهم على أساس بناء أسرة وانجاب أطفال وتكافل فى طريق الحياة ، لا كما هى الآن .. كأنها دولة الحيوان . .

ما من امرأة سمعت هذه التعاليم وآمنت بها إلا حملت زوجها على أن يؤمن معها

وهكذا انتشرت التعاليم الجديدة بين النساء والعبيد والأجراء .

* * *

وسادة قريش ينظرون إلى محمد مستخفين .. فما اتبعه إلا الاراذل .. وها هوذا عمرو بن العاص يلاحق التعاليم الجديدة بسخرياته منذ رآى أحد العبيد يتلو ما جاء به محمد ، ومنذ رآى امرأة عرف مخدعها كثيرا ، تنكس الراية التى كانت على بيتها ، وتطرد الرجال جميعاً ، وتتلو ما تعلمته عن محمد وتعلن أنها لن تصنع علاقة أخرى برجل أى رجل إلا أن كان زواجا فى حدود تعاليم محمد برجل يؤمن بهذه التعاليم ..

ولم يرق هذا لأبى بكر . . من الحق أن هؤلاء قد وجدوا خلاصهم فى تعاليم محمد ، ولكن مكة مع ذلك حافلة بغير العبيد والبغايا والمستضعفين والأجراء ، وما يجب أن يكون كل أعوان محمد من الذين تجوز عليهم سخرية سادة مكة .

ومن سادتها رجال يأنسون إلى أبى بكر ويأتونه ويألفونه .

إنه لأعلم قريش بقريش ، وبما فيها من خير وشر .

وصمم أبو بكر على أن يعزز تعاليم محمد ببعض الصحاب الذين يثقون به ، ليس كل أغنياء مكة غرقى فى الخطايا ، فمنهم من يرفض الربا مثله ، وينكر مثله أسلوب الحياة فى مكة والقلب الطيب يتجه إلى الخير ويرفض الأذى ويضيق بآلام الآخرين مهما يكن ضغط المصالح المالية ، فليست المصلحة دائما هى التى تحرك الرجال .. على أية حال ! .

واتجه إلى أعز أصدقائه عليه .. عثمان بن عفان .. وهو من أشراف قريش ومن كبار أغنيائها .. وحدثه عن محمد وتعاليم محمد . . وسمع عثمان طويلا . . أليس هو محمد الأمين ؟ . أليس هو والد رقية ؟ . . لقد وقع منها فى قلب عثمان شىء ولكن أباها زوجها لابن عمه الغنى ! .

وخفق قلب عثمان .. ولكنه أخذ يتفتح للتعاليم الجديدة ، فلقد طالما ضاق باستكبار أصدقائه الأغنياء وتعنتهم مع الفقراء والمساكين . ولطالما اشمأز من نسق الحياة الآثمة فى قريش . .

وآمن عثمان بن عفان .. بعد أن أقنعه أبو بكر . .

ومازال أبو بكر بأصدقائه حتى آمن الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبد الله .. وكلهم تاجر غنى يسلك أسلوب الطهر فى التجارة ، ويأنف من الربا والظلم ، وما عرفوا كسراة قومهم مباذل الليل فى مكة ..

فى الحق . . إنهم من كبار الأغنياء والسادة فى قريش .

فالزبير بن العوام الذى لا تخطىء العين طوله الملحوظ يملك ملايين

الدراهم وعبد الرحمن بن عوف تاجر واسع الغنى ، يملك آلاف الدنانير ومئات الابل ، وحدائق شاسعة فى الطائف . .

وسعد بن أبى وقاص ، شريف فى قومه وهو أحد فرسان مكة ؛ وهو ليس أكثر تجار قريش مالا ولكنه من أعزهم نفرا . .

وطلحة بن عبد الملك تاجر له أموال مستثمرة خارج مكة . . وقد امتد نفوذه المالى حتى العراق . . وله مكانة وحساب . .

كلهم له المال والقول والنفر . . والقلب الناصع . . فلن يسخر أحد منهم ، وما من حق أحد بعدُ أن يسخر بتعاليم محمد . .

فليس الاراذل والعبيد والبغايا والمستضعفون هم الذين اعتنقوا هذه التعاليم وحدهم .. ولكن هناك أيضا تجار كبار طيبون .. وسادات فى قومهم . . ومثقفون كبار . . مثقفون لم تعرف قريش مثلهم .. كلهم آمنوا بمحمد : هم ونساؤهم بنات الأسر الكبيرة العريقة فى قريش .

* * *

وفى هدوء الليل الذى لم يكن يغمره من قبل غير صرخات الضائعين فى العراء وضحكات الرجال والنساء المختلطة برنين الكئوس خلف أبواب القصور ، فى هدوء الليل الذى كان يقبل دائما على مكة بمتاع جديد للسادة ، وشقاء جديد للمساكين ، فى هدوء الليل بدأت ترتفع همهمات خاشعة تتلوا الكلمات التى جاء بها محمد . . كلمات تحمل على أجنحتها الخلاص للقلوب المضناة المثقلة بالمأساة . .

ورأى محمد أن يجمع أسرته من بنى عبد المطلب، وأن يدعوهم إلى الإيمان بما جاء به . فليس أحب إليه من عشيرته الأقربين . .

وأولم لهم فى بيته . وسأله عمه الزبير عن الخمر التى سيشربونها ، وكان الزبير رجلا شديد الولع بالشراب والمرح ، فقدم لهم محمد أقداحا.. فصفق الزبير طربا.. ولكن الأقداح كانت ملآى باللبن .. وشربه الزبير ، وبدأ يسمع لابن أخيه وبدأوا كلهم يسمعون لمحمد وهو يحدثهم عما جاء به..

ولكن أحدا لم يستجب إليه .. إلا على بن أبى طالب .. وهو وحده الذى انتفض يؤكد أنه سينصر محمدا بسيفه . .

وضحك من الاستخفاف بعض الكبار. فقد كان عَلِىٌّ هذا أصغر الحاضرين .

كان إذ ذاك ما يزال فتى صغير السن تتقدم به سنه إلى أول الشباب ، ولكن محمدا لم يستخف بحماسة علىّ ، فقد قام إليه ، فعانقه وبكى ..

وعجب محمد لأهله لِمَ يرفضون كلامه ، وكلهم يعرف فضائله وأمانته وأنه صادق لا يدعو إلا إلى الخير . لكم تمنى لو أنهم آمنوا بتعاليمه كما صنع على ، فقاموا دونه مما يتوقعه من أذى حكام قريش ..

ولكنه لم يهن على أية حال . . سيعاود المحاولة مرة أخرى . .

فليدع بنى هاشم كلهم هذه المرة . . سيدعوهم بنسائهم وعبيدهم وجواريهم . . سيدعوهم جميعا . . إنه يعرف أن عمه العباس يملك منصبا فى حكومة مكة ، وهو منصب يمنحه النفوذ الواسع ، وما كان له أن يمتلك كل هذا الجاه لو لم تؤمن العرب بأصنام الكعبة ..

وهو يعرف أيضاً أن عمه أبالهب إنما يكون ثروته الواسعة من الربا . .
وهو كالعباس يملك حدائق فى الطائف يزرعها له العبيد ، وفى مزارع
الطائف ترعى قطعان الخنازير ، ومن كرومهما ونخيلهما هناك يستقطر
أفخر الخمور ! .

وأبو لهب يضاعف ثروته خلال الأشهر الثلاثة الحرم التى يحج فيها العرب
إلى أصنام مكة . . وأم جميل زوجة عمه أبى لهب هى أخت أبى سفيان . .
أحد أعضاء حكومة مكة وكبار مرابيها . . وهى أيضا تستثمر مالها فى الربا
. . ولكن ابنهما عتبه تزوج ابنته رقيه ، وقد يفتح الله قلوبهم جميعا لتعاليمه.
وهو يعلم أيضا أن عمه الزبير لاتعنيه أصنام ولاآلهة ، فلااهتمام له فى الحياة
بغير اللهو والطرب والخمر والنساء .

ومع ذلك فمن يدرى؟ !

وعمه حمزة فتى شجاع ؛ وقد رضع معه فى الصغر ، وأنه ليؤثره بحبه . .
ولكنه مشغول بالقنص ، والفروسية ، وهو حريص على أن ينتزع لنفسه لقب
سيد فرسان قريش ، وما فى قلبه مكان بعد لشىء غير هذا . . عسى أن
يتفتح لتعاليم محمد قلب حمزة هو الآخر . . وحمزة فارس يرهبه الجميع . .
وأبو طالب رجل كريم طيب القلب . . وإنه ليؤثر العافية وحسن العلاقة
مع قومه ولكن عسى أن يقتنع . . نعم من يدرى ؟! ربما اقتنعوا بالتعاليم ،
مهما تكن الظروف التى تغلق قلوبهم دون هذه التعاليم .

مهما يكن من شىء . فلابد من المحاولة .

* * *

وعلى جبل الصفا خارج مكة وقف محمد ومن حوله بنو هاشم جميعاً .. وبعض الرجال والنساء الذين آمنوا بتعاليمه . .

كان بنوهاشم يتساءلون ماذا يريد محمد . . ؟ لأى أمر جمعهم ؟ . . وقال لهم بأعلى صوته من فوق قمـــة الصفا . « إن الله أمرنى : أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعـــة ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله » .

وانفجر أبولهب وهو يلوح بيديه فى وجه محمد بحنق وفظاظة : « تباً لك سائر يومك . . ألهذا جمعتنا ؟ » .

تباً له . . ؟ لمحمد . . ؟

ووجم الجميع فى انتظار مايقول محمد . واضطرم الغضب فى أعماق على وأوشك أن يرد على عمه أبى لهب رداً منكراً ولكنه كظم غيظه وانتظر الجميع رد محمد .

أيسكت محمد على أبى لهب وإهانته وتلويحه بيديه .. ؟ ماذا يمكن أن يحدث بعد ، لو نهض رجال كأبى لهب يهدرون كل قيمة حتى حرمة القرابة والدم ويلوحون لرجال أمنـــاء فى وجوههم ويشتمونهم علانية ؟ !

أيخاف محمد . . ؟ إن أبا لهب ذو سطوة فى قريش ، وامرأته هى أخت أبى سفيان أكثر رجال قريش مالا وجاهاً وسلطاناً .

أيسكت محمد على هذه الإهانة اشفاقا من أبى لهب وزوجته .. أم عسى أن يجاملهما لأن ابنهما زوج لابنته رقية .

ولكن لا ! !

لامهادنة بعد ! !

وما كان لمن يريد أن يفرض الحق على الفوضى .. ما كان له أن يسكت على إهانة ، أو أن يهادن .

إن هيبة التعاليم لتمتحن الآن .. أتراه يخشى صلف أبي لهب وسطوة أبي سفيان .

ماذا تقول يا أبا لهب ؟ . اسمع إذن ؛ لن يسكت محمد بعد، على من يرفضه ، لن يقبل من أحد حتى من عمه هذا الإزدراء عليه وعلى ما جاء به من تعاليم . سيخوض غمرات الصراع مع كل المستكبرين .. فاسمع يا أبا لهب .. اسمع إذن ، سمعت الرعد .. تباً لك أنت سائر يومك ، وسائر حياتك ! ! تبت يدا أبي لهب .. وتب !

جاء الزمن الذى يوثق الإنسان فيه ، ويلقى به إلى الجوع والحقد والألم والنسيان .. !

مرة أخرى يقبل عهد الشهداء والمستبسلين ، فإذا الذين يحملون فى رؤوسهم الأفكار ، ويحلمون بالإخاء والعدالة والمستقبل ، ويثرون وجدانهم بالثقة فى انتصار الخير . . إذا بهؤلاء الذين يمنحهم الإيمان كل قوتهم ، ويطالبون بأن يواجهوا الغيظ ، والمهانة والتشفى ، والضرب حتى الموت ، والزراية ، وكل ما هو متوحش ومفترس وقمىء !

فالملأ من مكة ينتفضون الآن بكل ذعرهم ، وانحلالهم ، وذهبهم وسطوتهم ، ليقاوموا مد طوفان يزحف بطاقة المد ليجتاح كل شىء عند هذا الملأ : منابع الثروة ، ومراتع الملذات ، والمناصب التى تمنحهم الجاه والغنى والنفوذ وتملأ قلوبهم بالكبرياء .

إنهم ليصنعون كل شىء ، وأى شىء ، ليوقفوا هذا الطوفان البشرى المتموج .. ولا يتعظون أبدا بمصير الجبابرة الأولين !

كانوا أقــوى منهم وأعز نفراً ، وكانت لهم خزائن الأرض ، ولقد طغوا فى البلاد . . ولكنهم سقطوا فجأة . هووا من عليائهم أمام زحف المستضعفين الذين التفوا تحت راية الكلمة المضيئة المبشرة ليمسكوا بأزمة المصير ، وموازين الحساب .

فما بال هذا الملأ من مكة لا يتعظون ؟ . مالهم لا تنفعهم الذكرى ؟ ما لهؤلاء القوم لا يفقهون حديثاً ؟ . .

إن كل أهوال التعذيب لا تقوى على أن تطفىء النور الذى اشتعل فى القلب ، ولا تستطيع أن تنتزع الأفكار من تلافيف الدماغ . . وسيأتى الوقت الذى يطيح فيه المستضعفون بهذا الملأ من أوج صلفهم . .

ولكن الملأ لا يفهمون طاقة الموج البشرى الذى يتدفق به مجرى الزمن . . إنهم لا يفهمون حركة التاريخ . . ولا يشعرون بعد باللعنة التى تتفجر من أعماق المعذبين .

فليمض أبو لهب فى الكيد لمحمد ومن اتبعه . . فستطارده لعنة ضحاياه ، وسيصلى ناراً ذات لهب ! . .

لقد ملأ هذا الوعيد قلوب أنصار محمد بالثقة فقد رأوا فيه تضحية جديدة بمستقبل ابنته رقية ، ورأوا فيه شاهداً جديداً على إقدام محمد فهو يؤذن بأنه لن يسكت على من يمتهن دعوته . . إنه يملك أن يلعن الرافضين والعادين عليه ، مهما تكن قرابتهم إليه ، ومكانتهم فى ملأ قريش . .

وعجب الكبار لمحمد . .

لقد رأوه صغيرا يتيما فى شوارع مكة يحمل الحجر ، ورأوه يافعاً مسكيناً يقضى نهاره تحت الشمس فى شعاب الجبل يرعى غنم السادة وينبش لقمة العيش . . فما باله يحاول اليوم أن يسودهم ، وأن يجردهم من كل ما أصبحوا به سادة . . ؟

لقد بدأ الصراع إذن : الأغنياء يدافعون عن وجودهم ، والفقراء عن حقهم فى الحياة الكريمة وعن أحلامهم فى عالم أفضل . .

* * *

وعاد محمد إلى بيته ذات مساء وقلبه مثقل بما يعانيه الذين اتبعوه ، وفى أعماقه على الرغم من كل شىء تتقد شعلة الإصرار التى يجب ألا تنطفئ أبداً . .

إنه ليعرف أن عمه أبا لهب سيكسب إلى صفه كل بنى هاشم . . فلئن خذله بنو هاشم وتخلوا عن نصرته ، لأصبح نهباً لأنياب الكواسر من سادة قريش . . ولكن أبا بكر يكسب كل يوم نصيراً جديداً من هؤلاء السادة ، وهاهو ذا يجىء بعثمان بن مظعون وأبى عبيدة بن الجراح . . كل هذا رائع . . ولكن من ذا يجىء بحمزة بن عبد المطلب سيد فرسان قريش ؟ أيمكن أن يدفعه أخوه أبو لهب إلى إيذاء محمد . . ؟

وفجأة فتح الباب ، وأقبلت رقية بنت محمد إلى أمها خديجة ، باكية . . لقد طلقها عتبة بن أبى لهب ، واعتدى عليها أبو لهب فضربها ، ومزقت امرأته ثيابها ، وأقسموا جميعاً ألا تبقى فى بيتهم مادام أبوها يسلك من قريش ومن أبى لهب هذا السلوك . . وأقسموا أنهم سيمنعون الرجال عن الزواج بها .

وواست خديجة ابنتها التي أصبحت الآن امرأة صغيرة طريدة .؛
ومسح أبوها دموعها . :

وخرج إلى صديقه أبي بكر . .

وبينما هو في الطريق إذ به يعثر بالأشواك أمامه ، وغير بعيد تقف أم جميل امرأة أبي لهب متبرجة ،تطارده بنظراتها الشامتة .

وإذ جاوز محمد أشواك الطريق ، أمرت أم جميل إحدى جواريها فقذفت عليه بعض الأوساخ ، ووقفت هي تضحك وتتثنى وإلى جوارها زوجها أبو لهب . وهما يشيران إلى محمد في سخرية : هذا اليتيم الفقير ، الذي يريد أن يقتلع السادة من عليائهم . . !

وشكا محمد إلى صديقه وصفيه أبي بكر ما يصنعـــه آل أبي لهب به وما صنعوه بابنته .. فروى له أبوبكر أن عثمان بن عفان ، كان قد دخلته الحسرة لأن عتبة بن أبي لهب سبقه إلى رقية ، وأن عثمان ليرنو إليها .

وما هي إلا أيام حتى تزوجهـــا عثمان بن عفان .. التاجر الثرى ذو الخلق الطيب .

ومازالت امرأة أبي لهب بمحمد تقذف في طريقه الأشواك . وتحرض العبيد والجوارى أن يقذفوه بالنفايات ، ومحمد يلقى أذاها بالصبر .. فهي امرأة . . ولكنها لم تفهم حقيقة صبره عليها ، فبالغت في إيذائه حتى لقد تربصت له ببعض جواريها وهن يحملن أحجاراً يلقينها عليه حين يمر .

تباً لها أيضاً ، كما تبت يدا أبي لهب .. « تبت يدا أبي لهب وتب » ، « وامرأته حمالة الحطب » !

وأقبلت على أبي بكر وهو في المسجد فتثنت أمامه قائلة :

ــ « ما شأن صاحبك ينشد فيَّ الشعر » .

فقال لها أبو بكر : « والله ما صاحبي بشاعر » .

فقالت : « أليس قد قال في جيدها حبل من مسد » .

وتحسست جيدها وصدرها واستمرت تتثنى : فما يدريه ما جيدها ؟

وغض أبو بكر من بصره ولم يجبها .. فقد كانت على تبرجها تتأود وتتراقص وتتضاحك .

وتولت وهي تقول : « لقد علمت من قريش أني ابنة سيدها » .

وعادت تغري العبيد والجواري بمحمد ! .. الجواري والعبيد الذين يطالب لهم محمد بحياة أكثر إنسانية ، ويكابد في سبيلهم ، ويلقى أذى أبي لهب وامرأته .. حمالة الحطب ! .

وشجع موقف أبي لهب من محمد سادة آخرين في قريش كانوا يتهيبون غضب بني هاشم ، لو أنهم تعرضوا له بالأذى .

غير أن أبا طالب شيخ بني هاشم ، وقف إلى جوار محمد وأعلن أنه سيمنع ابن أخيه منهم جميعاً .. حتى أخيه أبي لهب بن عبد المطلب ! .

ومضى إلى محمد يسأله أن يرجع عما أخذ فيه إيثاراً للعافية والسلامة فضاق صدر محمد بكلام عمه ، وخشي أن يكون عمه قد سعى إليه لأنه

عجز عن حمايته فهو يريد أن يتخلى عنه ويسلمه . . فطلب إليه أن يتركه ورسالته فهو لن يتخلى عن دوره أو يموت دونه . .

وأقسم له عمه أنه لن يسلمه لشيء أبداً .. فليقل إذن كما أحب ! . .

وحاول الملأ من قريش أن يغروا أبا طالب ليخلى بينهم وبين ابن أخيه ، فذهبوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد ، وهو أعذب فتيان قريش فقالوا له : « هذا عمارة بن الوليد أقوى فتى فى قريش وأجملهم فخذه فلك عقله وبصره فاتخذه ولداً ، فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل » .

وغضب أبو طالب ، وصاح فيهم . « لبئس ما تسومونني . . أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى لتقتلوه ؟ هذا والله ما لا يكون أبداً » .

فقال قائل منهم : « ياأباطالب . لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ».

فرد عليه أبو طالب : « والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علَيَّ فأصنع ما بدا لك » .

لاجدوى إذن من جدال أبي طالب ! . إنه بموقفه هذا يقسم بني هاشم .

بعض يؤيده هو وابن أخيه محمد ، وبعض يؤيد أبا لهب .. فلينضم فقراء بنى هاشم إلى أبي طـــالب ، أما أغنياؤهم فسيتحركون وراء

أبي لهب بلا ريب .. ومع ذلك فلا بد من عمل حاسم سريع ، يقعد محمداً عن السعي لنشر دعوته الخطرة ، ويفرض هيبة حكومة قريش على الذين يفكرون فى اتباع محمد ..

* * *

واجتمع الملأ من مكة برياسة أبي سفيان . . فأصدروا قراراً بتحريم تعاليم محمد . .

وقررت حكومة قريش أن تقتل العبيد والموالى الذين يؤمنون بمحمد، وأن تكسد تجارة أتباعه الأغنياء وتضع شرفهم وتهلك مالهم ..

وأخذ رجالها وفرسانها يمنعون الناس عن محمد . .

ولكن التعاليم كانت تُنشر على الرغم من هذا القانون، وعلى الرغم من كل إنذار وتهديد تصدره حكومة مكة التى هى أعلى من قريش !

وتحركت حكومة مكة وأصحاب المصلحة فيها لمقاومة الدعوة وللبطش بالذين آمنوا بمحمد . . وشرعوا يضربون الضعفاء ضربات تنخلع لها قلوب الشجعان . .

فلتبدأ حكومة مكة بتعذيب الذين اتبعوا محمداً من العبيد والاجراء.. فسيشفق الأتباع الأغنياء من تنفيذ حكومة مكة انذارها ، فتكسد تجارتهم ويسقط شأنهم .

وكان بلال بن رباح هو أعلى الموالى صوتاً . .

كان عبداً لأمية بن خلف الجحمى ، وقد طالبه سيده أن يعلن نبذه لتعاليم محمد ، فأبى . .

وأمر أمية أن يؤخذ بلال كلما حميت الشمس ، فيطرح عارياً على الرمضاء ، وتوضع الصخرة العظيمة عليه ، ويجلد ويضرب . . وكان يمر به وهو على حاله تلك فيقول له : « لا تزال هكذا يا عبد السوء حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى » . .

ولقد مر ورقة بن نوفل ببلال وهو يعذب ، فتذكر شهداء المسيحية الأول وأقسم لأمية لو أن عبده بلالا هذا مات وهو يعذب من أجل ما يؤمن به ، ليجعلن له قبراً كقبور القديسين ! . .

وإذ رأى سادة قريش ما يصنعه أمية فى عبده بلال انقضوا على عبيدهم الذين آمنوا بمحمد ، يطرحونهم عراة على الرمال الساخنة تحت وهج الشمس ، ويلبسونهم دروع الحديد ، ويكوونهم بالنار ، ويجلدونهم حتى يفقد الواحد منهم وعيه .. وأشرف بعضهم على الموت فأذن لهم محمد أن يقولوا بألسنتهم ما ينقذهم من هذا العذاب ، وما دام سادتهم يتكاثرون عليهم .. وبعد غد سينتصر الحق ، وسيعلمون مَن أضعفُ ناصرا وأقل عددا ..

ولكن قليلا منهم ارتضى لنفسه هذا .. وحرص معظمهم على أن يبدو قويا صامدا وأن يحتمل من أجل ما يؤمن به ما لا يحتمله جسد إنسان ..

ومضى أقاربهم يشكون إلى محمد .. فقال لهم .. « صبرا » .

صبرا .. حتى الموت ..

وهكذا ماتت سمية أم عمار ..

كانت امرأة جميلة ، وجدت خلاصها فى التعاليم الجديدة ، ونبذت كل من فتن بها من الرجال واختارت زوجا يؤمن مثلها بمحمد .. وأخذت تدعو النساء ومن تعرفهم من الرجال إلى تعاليم محمد . .

وكان أبو جهل من الذين فتنوا بها وعذبهم صدودها منذ آمنت ..

وهو تاجر غنى من سادة قريش وأكثرهم سطوة ومنعة وقوة ، وحاول أن يثنيها عما أخذت فيه ، فنهرته .. وانطلقت تدعو مثيلاتها باندفاع لا يوقفه شىء . .

وجذبها السادة من عشاقها القدامى إلى الطريق فطرحوها على الأرض وأمروا بها فضربت وضربت .. حتى فقدت الوعى ، وصبروا عليها هى المرأة الرقيقة التى تعودت غزل الرجال ولينهم معها .. وطلبوا منها أن تعلن كفرها بمحمد ، فما تعود بدنها الجميل مثل هذا الألم .. ولكنها رفضتهم بقوة وهى فى أظفارهم .. وحدثتهم عن فضل محمد عليهم جميعا وأعلنت أنها لن تهجر تعاليمه أبدا .. وإذ ذاك انقض عليها أبو جهل بكل حنقه وفحشه الهمجى وهو يقول : «ما آمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله» .

ثم غرس حربته فى ملمس العفة منها وظل يطعنها بوحشية فى ذلك المكان إيغالا منه فى الزراية عليها .. حتى ماتت .. أول شهيدة للتعاليم الجديدة .. !

إنه لإغراء للسادة جميعا ألا يبقوا على ظهر مكة أحدا ممن آمنوا بمحمد مهما يحمل له القلب من ود . فما كان أحد أحب إلى أحد ، من سمية إلى أبى جهل .. ومع ذلك فقد قتلها بيديه .. !

* * *

وخشى محمد أن يجن الملأ بدم الذين اتبعوه . وأن يغريهم صبره الصامد بمزيد من الدماء .

ربما خشى الناس بعد هذا أن يؤمنوا به . .

وتشاور مع خديجة ومع صديقه أبى بكر . .

ما جدوى المال إذا لم يستطع أن يصنع شيئا لهؤلاء المعذبين . .

إن بلال بن رباح ليوشك أن يموت هو الآخر كما ماتت سمية ..

ومضى أبو بكر وعثمان بن عفان ، وسائر الأغنياء الذين آمنوا بالتعاليم الجديدة ليستخلصوا العبيد من أيدى السادة ..

ذهب أبو بكر إلى أمية بن خلف الجمحى فسأله أن يشفق على بلال ولكن أمية رد على أبى بكر : « أنت أفسدته فانقذْه مما ترى » .

وعرض أبو بكر على أمية أن يشترى بلال بن رباح بخمس أوقيات من الذهب .. ودفعها أبو بكر ، فرفعت الحجارة عن بلال . فقال أمية . « يا أبا بكر لو أبيت إلا أوقية لبعناك » فرد عليه أبو بكر « لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته » .

وهكذا اشتراه أبو بكر واعتقه واستخدمه عنده ..

ومضى يصنع نفس الشيء مع آخرين وأخريات.. حتى بلغوا ستا.. كانت آخرهم جارية يعذبها عمر بن الخطاب ويظل يضربها حتى يتعب هو فيستريح ثم يعاود الضرب ..

وسخرت قريش من أبي بكر الذي يضيع ماله في شراء جوار وعبيد ضعاف لن يمنعوا صاحبه .. غير أن إقدام أبي بكر على هذا شجع صحبه الأغنياء الذين اقتنعوا بالدعوة الجديدة فقاموا بدورهم يحررون العبيد الذين آمنوا .. وشجع هذا كثيرا من العبيد والأجراء والمستضعفين .. لن يخلى بينهم وبين المتسلطين من قريش بعد . وسيتقدم أحد أصحاب محمد للنجدة ، لو أنهم تعرضوا لأذى السادة ! .

* * *

ومازال أبو بكر بصحبة من مثقفي مكة وساداتها حتى اقتنع عثمان بن مظعون وهو من حكماء قريش وكبار أغنيائها واقتنع الأرقم بن أبي الأرقم..

وبلغ عدد الذين اقتنعوا بتعاليم محمد نحو أربعين رجلا وامرأة . . منهم العبيد والأجراء والصعاليك والبغايا والجواري والضعيفات والذين طحنتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة.. والمثقفون وبعض التجار الأغنياء..

ولم يعد بيت محمد صالحا للاجتماعات ..فهو لا يسع لكل هذا العدد..

واقترح الأرقم أن يجتمعوا عنده في دار له على الصفا تتسع لهم جميعا وهي بعيد ليست على مرآى حكومة قريش . . ولن يزعجهم فيها أحد ..

وفتحت دار الأرقم أبوابها لهم .. يجتمعون عنده كل ليلة فيقرأ لهم محمد ما جاء به ويشرح لهم دعوته .

وتزايد عددهم يوما بعد يوم . .

وقد زايل الخوف الآن قلوب بعض التجار منذ أعلن محمد لأتباعه أن ما جاء به لن يغلق مكة أمام القوافل .. ولن يغير من مواسم الحج .. فسيظل الناس يأتون إلى الحج من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم .. كل ما فى الأمر أنهم لن يسجدوا لأصنام الكعبة ، ولن يباح لهم أن يعطوا الهدايا والقلائد لسادة قريش . وأنه إذا جاء الحج ، فلا تبذل ولاحفلات خليعة ، ولا ربح من تجارة الأجساد ولا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج .. !

وهكذا اطمأنت نفوس بعض التجار الذين كانوا يقاومون التعاليم الجديدة خشية أن تغلق الكعبة أمام الحجاج .. إنهم هم ليسوا تجار رقيق ، ولا مصلحة لهم فيما يقدمه الحجاج من هدايا وقلائد .. كل ما يعنيهم أن يظل موسم الحج موسما للبيع والشراء ..

وشعرت حكومة مكة أنه لابد من اجراءات أخرى حاسمة ..

إن العبيد من أتباع محمد ليتخلى عنهم أصحابهم بيسر أمام إغراء المال الذى يدفعه أمثال أبى بكر .. وحكومة مكة لا تستطيع أن تدفع هى وتزايد لتستبقى العبيد الخارجين عليها ــ ثم تقتلهم لترهب الآخرين ! .
لقد عذبوا فما نفع التعذيب .. وقتلت سمية ، فما خافت النساء .

لابد إذن من ضربة توجه إلى محمد نفسه .. فليضربها رجل ذو سطوة وقبيل يخشاه أتباع محمد من بنى هاشم ..

إن أبا طالب قد طعن فى السن فلن يحمل سلاحا .. وابنه على لا يستطيع بعد .. وما فى بنى هاشم كلهم غير حمزة وهو لا يأبه لمحمد .. إنه عمه .. هذا حق ، وأخوه من الرضاعة أيضاً ، ولكنه لا يحفل بتعاليم محمد ولديه حياته ولهوه وقنصه وكل ما يشغله عن محمد ! . .

وتناجى رجال من قريش فرأوا أن أكفأهم لضرب محمد وأنهضهم لهذا إنما هو أبوجهل ثم عمر بن الخطاب . . فكلاهما فارس قوى مكين يخشاه الآخرون .

ولن يستطيع أحد من أصحاب محمد أن يتعرض لأيهما .. لا أبوبكر ولاعثمان ولاسعد ولا أبوعبيدة .. ولا أحد على الاطلاق . .

ولئن ضرب محمد ولم يثأرله أحد ، لقد انتهى كل شىء إذن .. وستسقط هيبته .. ويسهل على سادة مكة بعد هذا أن يضربوا كل صحابه . .

فليغروا به السفهاء أولا . يلقونه فى الطريق فيصيحون به « كذاب .. مجنون .. ساحر » .

وهكذا تسقط هيبته ، فيهون على الناس . .

ومضى محمد فى بعض طرقات مكة .. فما لقيه أحد إلا صاح فيه : « كذاب .. مجنون . . ساحر » حتى بعض العبيد .. وبعض النساء اللواتى

يدعو محمد إلى إنقاذهن .. وبعض الأجراء .. والصبيان والذين تطحنهم الأوضاع الاجتماعية التي يثور عليها محمد ! .

وعاد محمد مثقلا من هذا كله .. ويفكر ويروض نفسه على الصبر والسلوان .. واستلقى إلى حجر تحت ظل ، وهو يجهد ليحبس دمعه .. فما يشق عليه شيء مثل أن يبادره بالأذى هؤلاء الذين يدعو لتحريرهم ويعاني من أجل خلاصهم ! .

* * *

ولهو في وحدته إذ بأبي جهل يقبل عليه فيشتمه ، والسفهاء يتضاحكون ونظر محمد طويلا إلى أبي جهل وأدار بصره إلى الذين يستهزئون به .. هؤلاء الذين يشقى من أجلهم :

ولم يقل شيئا ..

ورق قلب احدى الجواري لمحمد ، وعز عليها أن يلقى هذا كله .. وكانت لم تؤمن به بعد ، وما زالت تدير تعاليمه في رأسها .

ورأت حمزة بن عبد المطلب ، مقبلا بكل شموخه من رحلة صيد ، قوسه في يده ، والناس يتهامسون باسمه منذ أقبل ، في إكبار وإعجاب .. لماذا يزهو بنفسه هكذا ، بينما ابن أخيه يمتهن ويشتم ..؟ يشتمه سيد عشيرة أخرى تنافس بني هاشم .. ؟ أهو حقا أعز فتى في قريش وأقوى شكيمة .. فما صبره إذن على ما يلقاه بعض بني هاشم من الإهانة .. ؟

أقبلت عليه الجارية تقول له : لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد ..

وروت له كل ما شاهدته .. وقالت له إن أبا جهل بعد أن أهان محمداً أتى الكعبة مزهوا يروى لأصدقائه ..

فانطلق حمزة مغضبا ، لايكلم أحدا ولايسلم على أحد حتى أقبل على أبى جهل وهوجالس بين القوم فى رحاب الكعبة ..

وانقض حمزة على أبى جهل قائلا « أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك على إن استطعت » .. وضرب أبا جهل بقوسه حتى شجه شجة منكرة .

وقام رجال إلى حمزة لينصروا أبا جهل .. وأدرك أبوجهل أن حمزة لن يتركه سيقتله بلا ريب وحمزة قادرعلى أن يقهر هؤلاء الرجال جميعا .. ورأى أبوجهل أن يحتمل ضربة حمزة لكيلا يوجه إليه حمزة ضربة أخرى قاتلة ..وكظم أبو جهل غيظه ، وكتم الجرح وقال لمن معه : « دعوه .. فإنى قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا » .

وابتعد الرجال ..

ومضى حمزة مزهوا إلى محمد بعد أن قهر أبا جهل .. وقال له : إنه يصدقه وسينصره .. وعانقه محمد .. ودمعت العيون ..

هوذا إذن سيد فرسان قريش ..

من يجرؤ بعد اليوم على أن يتعرض لمحمد ؟ .

إن انضمام مائة آخرين لم يمنح اتباع محمد شعورا بالعزة والمنعة والقوة مثلما منحهم انضمام حمزة بن عبد المطلب .

ولامت قريش أبا جهل ، فقد كان يجب أن يشتبك مع حمزة .
وسينصره من فرسانها الكثير .. مازال هناك عمر بن الخطاب وخالد ابن الوليد ..

ووضعت قريش أملها فى عمر بن الخطاب بعد أن تخاذل أبو جهل أمام حمزة ! .. عمر وحده هو الذى يستطيع أن يحقق أمل قريش الآن بعد أن أعلن حمزة أنه ينصر ابن أخيه .

ولكن أيجرؤ عمر بن الخطاب على أن يتعرض لمحمد بعد .. ؟

إن الذى يمنعه الآن لهو حمزة بن عبد المطلب .. سيد فرسان قريش ! ..

لم يكن فى مكة كلها شىء يستطيع أن يثنى عمر بن الخطاب عن اندفاعه الرهيب المحنق .. لا الفتيات اللاتى تغامزن فرحات لطلعته وهو يمر أمام أبواب الخمارات ، ولا السامر الذى انعقد فى بعض الرحاب ، ولا دقات الدفوف التى تقرع وراء بيوت يعمرها المتاع .. لاشىء على الإطلاق .

كان قد سمع ما كان من أمر حمزة بن عبد المطلب وأبى جهل بن هشام ، وعجب لبطش حمزة بأبى جهل واستخذاء أبى جهل أمام حمزة ، وأدرك أن سادة قريش الذين تعودوا أن يرهبوا حمزة ، سيتضاعف خوفهم منذ اليوم ، مادام حمزة هذا قد قهر أحد فرسانهم الصناديد عنوة .. وسيشمخ أتباع محمد ويتعاظمون وينتصرون بحمزة .

وأقسم عمر أن يمضى إلى بيته فيمتشق حسامه وعدة الحرب ، ويمضى إلى دار الأرقم على الصفا فيقتحمها ويذبح محمد بن عبد الله أمام حمزة ابن عبد المطلب .. فيريح مكة ويستريح . .

وإذن فقد جاء الزمن الذى يواجه فيه عمر بن الخطاب صديقه حمزة ابن عبد المطلب .. !

لم صنعت هذا يا أبا القاسم وقد كنت حبيبا إلينا ، عزيزا علينا ؟؟..

لم خرجت علينا يا ابن عبد الله بتعاليمك التى تجعل صديقا يشهر سيفه فى وجه صديقه ؟ لقد فرقت الجماعة وسفهت الأحلام وألقيت العداوة بين الأخ وأخيه وأفسدت علينا العبيد والعشيقات .. !

وأنت يا حمزة ما أغراك بصديقك أبى جهل بن هشام .. ؟ ألم نرفع نحن الثلاثة ومعنا خالد بن الوليد ذكر قريش بين القبائل .. ؟ ألم تصبح مكة أعز أرض بنا نحن الأربعة .. ؟ قبائل العرب تحسد قريش على فرسانها ، وتعدل الواحد منا بجيش بأسره ، فلماذا يصبح من المحتم علينا نحن الذين خضنا المكاره معا ، أن نرفع سلاحنا على رقاب بعضنا .. ؟ نحن جعلنا هذا البلد آمناً ، وملأناه بأشواقنا ومرحنا ، وأقمنا فيه منارة للعرب أجمعين .. كل هذا صنعناه بأيدينا ياحمزة .. فما فتنك عز صحبك ، ومنذ متى شغلت بتعاليم أبى القاسم ..

وأنت يا أبا القاسم ماذا تريد بعد .. ؟

لقد أدرت رءوس الفقراء والأجراء والعبيد والنساء ، وفرضت لهم على السادة حقوقا ، وها أنت ذا تفتن التجار منذ أعلنت أن تعاليمك لن تلغى الحج والطواف بالكعبة ، وإنك إنما تدعو الناس إلى الحج ليعبدوا الله لا الأصنام ، وليشهدوا منافع لهم فتقام الأسواق والندوات ، ولكن بلا فسوق فى الحج .. !! لقد سمعتك يوما تتلو تعاليمك فأخذنى من تلاوتك شىء ، ولكنى زجرت نفسى ، وانصرفت إلى الخمارة .. أساحر أنت .. منذ متى تعلمت السحر ؟ .

وأتباعك من التجار الأغنياء على ندرتهم يبذلون أموالهم من أجل

ماتدعو إليه ، فى اندفاع عجيب .. وكأنهم يتنافسون : يحرر أبو بكر ستا من الجواري والعبيد فيحرر عبد الرحمن بن عوف ثلاثين .. وآخرون وآخرون .. وها أنت ذا تدعو صحابك الذين تخاف عليهم غضب قريش أن يهاجروا إلى أرض الحبشة حيث يحكم ملك تقول عنه إنه عادل لايظلم عنده أحد .. فيهاجر الضعفاء ثم يتبعهم عبد الله بن مسعود ، وعثمان بن عفان وزوجته ، والزبير بن العوام ، وجعفر بن أبى طالب وامرأته ، وعبد الرحمن بن عوف ..ما منهم أحد يبالى بما سيحدث لتجارته الواسعة بعد هذه الهجرة ، أكسدت أم راجت .. !

بأى سحر يا أبا القاسم تسيطر على هذه القلوب ؟ ! لقد يصبح الواحد منا ذات يوم فيجد مكة خاوية ، وينفق النهار والليل بلا صديق . . لقد حرم السامر من أبى بكر ، منذ تبعك . . لم يعد بعد يروى لنا أخبار للذين غبروا . .

وأخيراً فهاهو ذا حمزة يتبعك .. ما أفرغ ليالى لاتعمرها صحبة حمزة . .

كم ذا ستهون قريش على أعدائها بعد أن انسلخ عنها حمزة .

ألا يرق قلبك يا أبا القاسم لهؤلاء الذين هجروا مكة إلى بلاد الحبشة ، وتركوا فيها التراب الذى أحبوه ، والأهل الذين ألفوهم .. إن لك فيهم لفلذة كبد ، رقية زوج عثمان بن عفان ! ؟ .

لن يشفى قلوبنا من وجائع الفراق يا أبا القاسم، ومن كل تلك الفتنة التى تجتاح مكة منذ جئت بتعاليمك . . إلا أن أزيلك منها . . أقتلك فأريح مكة وأستريح .

وعندما أوشك عمر أن يبلغ باب داره قابلته فى الطريق جارة له كدست متاعها أمام بيتها ووقفت تنتظر ولداً لها ، لينطلقا معا إلى أرض الحبشة مع فوج جديد من المهاجرين ، تاركين مكة تحت جنح الليل . . كانت امرأة طيبة قد ارتفع بها السن ، وكان عمر يعطف عليها ويودها ولكنها لقيت منه الأذى منذ اتبعت تعاليم محمد . . وخشيت المرأة أن يبطش بها ، فاختفت وراء متاعها خوفاً من عمر ، تحبس أنفاسها وتتحسس دقات القلب . . وجاءها عمر فقال :

« إنه للانطلاق يا أم عبد الله »

لم يكن فى صوته نذير بالعدوان كما ألفت منذ حين . .

فأجابته : « نعم والله آذيتمونا وقهرتمونا ، فلنخرجن فى أرض الله . . حتى يجعل الله لنا مخرجا » .

ويسكت عمر لحظة . . هاهى ذى جارته أيضاً تخرج من مكة . . لقد طالما ألفها . . ألف العطف عليها . . ثم ألف البطش بها . . وسينتهى كل هذا فجأة . .

ودبت فى الرقة صوت عمر وهو يرى المرأة العجوزة وراء متاعها تترك كل شيء لتعيش فى بلاد غريبة ، نازحة عن كل حياتها فى مكة . . وقال لها بصوت يخالجه اللين : « صحبكم الله » . .

وعجبت المرأة لرقته فحكت لولدها وهما يلقيان آخر نظرة على مكة . .

قالت له : « لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا » .

فقال لها وهو يستقبل الطريق الطويل إلى المجهول : « أطمعت فى إسلامه .. فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب »

* * *

أما عمر بن الخطاب فقد خرج من داره بعد قليل متوشحاً سيفه . . إلى بيت الأرقم عند الصفا . . حيث يلقى محمداً فيقتله أمام أتباعه . . وأمام عينى حمزة بن عبد المطلب .. فليبارز حمزة بعد هذا فليقتل هو حمزة أو فليقتله حمزة . . فهذا شىء لا يجب أن يفكر فيه .. المهم هو أن يقتل أبا القاسم محمد بن عبد الله ! .

كان مابرح يفكر فيما صنعه محمد . . والألم المبهم يزحف إلى قلبه وصورة جارته العجوز التى رحلت تختلط بصور الذين هجروا مكة وتزحف على حلقه بشعور غامض حزين . . كالغصة التى تسد الحلق فجأة . .

ولقيه أحد أصدقائه . . فسأله أين يمضى متوشحاً سيفه . . فأجابه عمر : « أريد محمداً ، هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وسب آلهتها فأقتله » .

فقال له صاحبه وهو يحاوره : « والله لقد غرتك نفسك عن نفسك يا عمر .. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا . أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم .. ؟ » فقال عمر مباغتا :

« وأى أهل بيتى؟ » قال صاحبه : «ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد تابعا محمداً فعليك بهما » .

* * *

وهرول عمر إلى بيت أخته وزوجها .. سيصنع مع ابن زيد بن عمرو ما صنعه أبوه الخطاب مع زيد بن عمرو . . والد سعيد بن زيد هذا . .

وأتى عمر دار أخته وزوجها سعيد . . فلم يقرع الباب . .

وقف يسمع ترتيلا غريبا بصوت رجل غريب ، يتلو فترد عليه فاطمة وسعيد (طَه ما أَنْزلنَا عَلَيْكَ القُرْآن لِتشْقى إلا تذْكِرةً لمنْ يَخْشى) .

وانتظر حتى انتهوا ثم دق الباب .. (فلما سمعوا حس عمر ، اختبأ الرجل الغريب فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة الصحيفة التى كان يقرأ منها فجعلتها تحت فخذها) وفتح سعيد الباب .

فلما دخل عمر سألهما بغضب : (ماهذه الهيمنة التى سمعت . فأجاباه (ماسمعت شيئا)

فصرخ : (بلى وقد اخبرت انكما تابعتما محمدا . .)

وضرب سعيدا بمقبض سيفه فسال دمه ، فقامت فاطمة تكف أخاها عن زوجها فبطش بها عمر وشج رأسها .. وسال دم أخته على يديه ..

* * *

ها هو ذا دم أختك أيضاً يسيل على يديك ياعمر . . دم أحب الناس إليك ، الفتاة التى كنت لها دائماً أخا حانيا ، وأباً رفيقا ..

وانتفضت أخته التى لم ترفع رأسها فى وجهه من قبل وصرخت متحدية : « نعم . .فاصنع ما بدا لك » .

كان من الواضح أنها مستعدة لكل شىء .. حتى الموت . . وفتحت ذراعيها وتهيأت للطعنة من سيف عمر .

وتخاذلت قوة عمر . . وغلبه حنانه . . ونظر طويلا إلى الدم الذى يسيل من رأس أخته ، وابن عمه ملقى على الأرض .. فطلب منها عمر أن تطلعه على الصحيفة التى كانوا يقرءونها لينظر ما جاء به محمد .. ولكنها أبت عليه هذا فهو نجس ..

بأية قوة تتحدث هذه المرأة الضعيفة ، وبأى استبسال تتحداه . .؟

وقام عمر فاغتسل وأخذت عليه موثقا ألا يمزق الصحيفة . . وبدأ عمر يقرأ الصحيفة ، وقرأ جزءاً كبيراً منها ثم أعادها إلى أخته قائلا : « ما أحسن هذا الكلام وما أكرمه .. »

فلما سمع الرجل المختبىء ما قاله عمر عن القرآن اندفع من مخبئه قائلا : « يا عمر . أنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته أمس يقول اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين : أبى جهل عمرو بن هشام ، أو عمر بن الخطاب .. فالله الله يا عمر » ..

وخرج عمر من فوره إلى دار الأرقم على الصفا .. فقرع الباب بلهفة وعنف وقام رجل ينظر من الطارق من خلل الباب المغلق ، قبل أن يفتح ،

ولكنه ارتد فزعا يقول : « هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف » .

فقال حمزة بن عبد المطلب لابن أخيه محمد : « إئذن له .. فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه » .

وتحسس حمزة مقبض سيفه وتهيأ لقتال عمر . . صديقه ..

ولكن محمدا أسر فى نفسه أن يقهر هو بنفسه عمر بن الخطاب هذا فلا يستعلى بعد اليوم بقوته .. لقد قهر حمزة أبا جهل ، وسيقهر محمد عمرا ..

وما دخل عمر حتى نهض محمد للقائه . . فأخذ بخناقه ، وجذبه جذبة شديدة تطوح لها عمر .. وقال له : ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أراك تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة . »

رد عمر بصوت خافت : « يا رسول الله .. »

وبهت الجمع .. بينما عمر يكمل : « جئتك لأومن بالله وبرسوله .. » وأنطلق من فم محمد دعاء طرب متهلل : « الله أكبر » وتبعه حمزة يكبر أيضاً وظل محمد يمسح على صدر عمر ويدعو له بالثبات ، فى فرح هائل حقا . .

وارتجفت دار الأرقم بالهتاف ، وهزت النشوة أوصال الجميع .. حمزة وعمر — أشجع فارسين فى قريش — ينضمان إليهم فى يوم واحد .. سينتصفون بهما معا ويمتنعون بهما معا ..

وتركه عمر بعد قليل ، وانصرف .. وفى الطريق إلى داره... مر على دار أبى جهل عمر بن هشام فقرع الباب فخرج إليه أبو جهل .. وقال

وقال له : « مرحبا وأهلا بابن أختى ، ما جاء بك ؟ » فأجابه عمر : « جئت لأخبرك أنى قد صدقت بما جاء به محمد » فضرب أبوجهل الباب فى وجهه صارخا : قبحك الله وقبح ما جئت به .. وما ترك عمر أحدا يستطيع أن يخبره إلا أخبره .

وفى اليوم التالى خرج محمد يمشى فى طرقات مكة عن يمينه حمزة ، وعن يساره عمر .. والناس يتأملونهم فى ذهول ..

وانسلخ عمر بن الخطاب وحده وذهب إلى الكعبة فأعلن فى الناس أنه قد آمن بمحمد .. فثاروا عليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه .. حتى غابت الشمس .

* * *

أقبل حمزة وعمر على تعاليم محمد بكل ما يمتلكان من طاقة ، وحمية أيضاً . . وقال بعض الذين أرادوا أن يزروا على حمزة وعمر ، أنهما قد تخليا عن شجاعتهما وتبعا تعاليم تقضى على الإنسان أن يستسلم لقوى الخفاء ، وأن يتخلى عن متاع الحياة ليسلك طريق المساكين . .

وما زال حمزة وعمر يقرآن ويسألان محمدا حتى أطمأن منهما القلب إلى أن التعاليم الجديدة تطلب من الإنسان ألا يستسلم فى مصيره لآلهه الكعبة ، وأن عليه أن يسلم وجهه لإله واحد ، وهو بعد هذا يسعى فى حياته مسؤولا عن كل ما يعلمه ، حرا يختار الطريق الذى يرضيه ، يصنع قدره بيده .. وله ما كسب ..

إنه ليس الاستسلام إذن .. ولكنه الإسلام ..

وليس من الحق أن هذا الإسلام يطالب الرجل بأن يرمى سيفه بل إنه ليحضه أن يحشد كل همته دفاعا عن العدل وكرامة إنسانيته وحقه فى فى الحياة .. على الإنسان أن ينصف المظلوم ويعطى المحتاج ويبر الأقربين ، وليتمتع بالطيبات بعد هذا : ليتخذ زينته ، وليطعم ، ويتزوج النساء ، غير عاد ولا باغ ..

وهذا الإسلام لايحرم التجارة التى تقوم عليها حياة مكة وتنمو عن طريقها الثروات ، إنه ليحل البيع والشراء . منفعة بمنفعة ، ولكنه يحرم الربا الذى يقوم على استغلال الحاجة لكسب مال لم يجهد صاحبه ليكسبه ، بل انتزعه منه بغير حق . .

وهو يضع إلى جوار الربح ، قيما أخرى .. هى الحب والإخاء والتعاون .. والاتحاد .. فليست الحياة أموالا تُكَدَّس ، وكنوزُ المودة أثمن من كنوز الذهب والفضة ..

وهذا الإسلام يدعو إلى العدل فى الميزان ، وإلى تمجيد العمل .. فالإنسان يعلو بعمله لابماله الذى لايعرف أحد كيف اكتسبه ..

العمل الصالح هو قيمة الرجل أو المرأة ، لا رصيده فى مصارف مكة، ولا رصيدهامن العشاق ، ولاصلاتهبأصحاب السلطان . فالسلطان لا يَتَنزّل على فئة بالذات لأن الأصنام راضية عنها ، وإنما يلى الأمر من يختاره الجمهور ! .

وهذا الإسلام يدعو الناس إلى نبذ الشقاق فيما بينهم ، إلى أن يتحدوا فيصبحوا إخوانا بدلا من أن يتفرقوا فتفشل ريحهم .

والملأ من قريش حائرون .. لقد خرج منهم أبوبكر منذ حين ، وها هو ذا عمر يخرج عليهم آخر الأمر وينضم إلى حمزة متبعين إسلام محمد .. وما من رجل أسلم إلا ونزل عن بعض ماله ليشترى العبيد والجوارى الذين أسلموا .. ثم يعتقهم ليتحولوا إلى أحرار يتطاولون على السادة ويصدقون أنهم أفضل من ملأ قريش الذين لم يتبعوا محمدا ، وأن مكانتهم لا يحددها إلا عملهم .. وحده !!

ولقد هاجر منهم إلى الحبشة نفر كثير .. كانوا ثمانية وبلغوا الآن نحو الثمانين من الرجال والنساء ، كلهم لقى من ملك الحبشة حسن الضيافة .

ولقد أرسلت إليه قريش تحذره — وله مصالح مشتركة مع قريش — ولكنه لم يأبه .. وعاد المبعوثون يحملون معهم عار فضيحة غريبة جعلت المسلمين يهزأون بهم جميعاً .

فقد أرسلت قريش فيمن أرسلت إلى النجاشي عمرو بن العاص وابن الوليد ، الفتى القرشي الجميل الشجاع الذى حاولت أن تعطيه لأبى طالب فى مقابل ابن أخيه محمد .. وصحب عمرو بن العاص فى رحلته زوجته دخل عليها منذ قليل .. وهى إمرأة جميلة فاتنة للألباب لعوب ، لم يكن عمرو يطيق أن يبتعد عنها .. وفى الطريق إلى النجاشى ، رأت المرأة ابن الوليد وتحدثت إليه .. فشغفها حبا .. وذات ليلة هجرت زوجها عمرو بن العاص ، وارتمت فى فراش ابن الوليد ..

ولم تعد إلى عمرو إلا بشرط أن تتردد بينه وبين ابن الوليد ..

وسبقت أنباء هذه الفضيحة إلى النجاشي وإلى المهاجرين ، فلم تنفع حيلة لعمرو بن العاص ، ورد النجاشي الرسل إلى قريش خائبين، وظل على كرمه مع المهاجرين إليه .. أما المسلمون فى قريش فقد تلقوا عمرو ابن العاص بالسخرية وعلموه أن الإسلام وحده هو الذى كان يمكن أن يعصم امرأته ويعصمه من مثل هذا الهون !..

لقد بدأ المسلمون الآن يظهرون فى الأسواق ويقرأون ما جاء به محمد فى العلن ويحاجون خصومهم ، مستنصرين بعددهم المتزايد ، وبحمزة وعمر بن الخطاب ..

وأجمعت قريش أن تفاوض محمدا .. فليضموه إلى الملأ ، أو فليجعلوه رئيسا لحكومة مكة عساه أن يسكت ، فلا يفسد عليهم ما بقى من الأمر .. لاحل إلا المفاوضة . وأرسلوا إليه ..

وأقبل محمد فرحا .. فلعل ما أقنع حمزة ثم عمر يكون قد أقنعهم هم أيضاً . . كانوا كلهم مجتمعين .. من بينهم أبو جهل بن هشام ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو لهب ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف .. قال له واحد منهم : « قد بلغنا أنما يعلمك رجل من اليمامة اسمه مسيلمة ويقال له الرحمن ولن تؤمن قريش لرجل من اليمامة أبداً »

وغام وجه محمد من الضيق .. ألهذا دعوه فجاءهم .. ؟

غير أن أحد عقلائهم لحظ ضيقة وخشى فشل المفاوضة فبادره متلطفا « يا أبا القاسم لقد عز علينا ما أنت فيه من عنت فما نعلم رجلا من

العرب أدخل على قومه مثلما أدخلت أنت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعبت الدين والآلهة وسفهت الأحلام وخرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، إن كنت قد جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعناً لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا »

فاطرق محمد قليلا .. ألهذا اجتمع أشراف قومه ..؟ لقد جئتهم فرحا يا أبا القاسم وفى قلبك أحلام .. كم ذا تحلم يا ابن عبد الله .. ؟

ورد عليهم «ما بى ما تقولوان .. ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا .. فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم »

مازال أبو القاسم يحدثهم عن إلهه .. وعن الآخرة وعن أمر هذا الله وحكمه .. وبعد ، وبعد يا أبا القاسم ..؟

وسأله أحدهم أن يكف عن آلهتهم ، وسيكفون هم عن سب إلهه .. لكم هذا يا معشر قريش .. لن تسب آلهتكم بعد .. ولتكفوا أنتم أيضاً ..

وشجع هذا رجلا منهم فقال لمحمد : فلنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فان كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وان كان ما تعبد خيرا مما نعبد كنت قد أخذت بحظك منه » ..

فلتعبد آلهتنا وتمتثل لها ، وسنعبد إلهك ، ونمتثل له ..

ولكن لا .. لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد .. لكم دينكم ولى دين ! ..

لاحيلة إذن .. !

فلتدبر قريش أمرها قبل أن يستفحل خطر هذا الاسلام الذى جاء به محمد .. فقد بدأت القبائل من خارج مكة تسمع عنه .. وستسقط أصنام الكعبة بكل ما تجره من ثمرات وأرباح ..

وعدد المسلمين يتزايد .. والأرقاء يرفعون الرءوس معتمدين على أصحاب محمد الأغنياء ..

ولم يعد منهم أحد يلقى العذاب حتى يخف إليه أحد أصحاب محمد فيشتريه ويعتقه .

لقد بلغ عدد الذين اعتقوا عدة مئات .. ومن الممكن أن يبلغوا عدة آلاف ويوضع فى يدهم السلاح ، فتعلن الثورة المسلحة ! .

ومنذ أسلم حمزة وعمر لم يعد فى فرسان قريش من تخشاه قريش غير خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام ..

لابد إذن من أسلوب جديد يقهر محمدا وأتباعه ..

لم ينفعهم أبو طالب فى شىء ، وما زال يصر على أن ينصر ابن أخيه .. والمسلمون منذ انضم إليهم حمزة وعمر يمشون بلا وجل ، ويتلون ما جاء به محمد بجهرة ..

ولكن بنى هاشم هم المسؤولون .. فلو أنهم زجروا محمدا لما تمادى .. وإذن فليتفق كل أشراف مكة على أن يقاطعوا بنى هاشم .. فلتكسد كل تجارتهم وليموتوا من الجوع حتى يخلعوا محمدا بن عبد الله !.

واجتمع الملأ من قريش واتفق معهم أبولهب فكتبوا بينهم صحيفة ألايزوجوا أحدا . من بنى هاشم وألايتزوجوا منهم ، ولايبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئاً .. وعلقوا الصحيفة على الكعبة ..

واستثارت هذه الصحيفة بنى هاشم جميعا . . فانضموا إلى أبى طالب وحمزة ، منتصرين لمحمد . . حتى الذين لم يؤمنوا بتعاليمه .. كان قرار حكومة قريش بحصار بنى هاشم استفزازا لنخوة كل بنى هاشم . .

وبدأت حكومة قريش تنفذ هذا القرار بالحصار مستعينة بجندها . . وكان رجال الحكومة أنفسهم يباشرون تنفيذ القرار ، حتى لقد لقى أبوجهل غلاما يحمل قمحا وطعاما يريد به عمته خديجة زوجة محمد . . فضربه أبو جهل ومنع القمح والطعام واقسم ألايسمح بدخول طعام إلى بيت محمد .. فتعرض له رجل بالطريق قائلا : أفتمنعه أن يأتى عمته بطعامها ؟ » وصمم الرجل على أن يطلق أبوجهل سراح الغلام وتشبث أبوجهل فاقتتلا ، حتى أوشك أحدهما أن يقتل الآخر . .

حصار من الجوع أيضا حول بيتك يا محمد ، وبيت عشيرتك الأقربين فما يصل إليكم الطعام إلا على جثة أحد من الضحايا .. ؟

فلتنطلق كلمتك على الرغم من كل شيء .. لتجلجل فى طرقات مكة وشعابها كما لم تجلجل من قبل ، فعلى وهج الكلمة المضيئة ، تذوب قضبان الحديد .. انطلق الآن فالعن أعداءك كما لم تلعنهم من قبل ، وبشر الصابرين ..

انفجرت الأحقاد العصبية ضد بنى هاشم .. فأقسمت العشائر التى كظمت غيظها من بنى هاشم طويلا ألا تدعهم ، حتى يهلكوا من الجوع ويشتكوا من الوحدة والذل . .

لاطعام لبنى هاشم ، ولا بيع ولا شراء ..

والعشائر تسترد بناتها من بيوت الأزواج الهاشميين . وتطرد النساء الهاشميات من مخادع الأزواج ، وتنتزع الأولاد من أحضان الأمهات ..

وهكذا ردت إلى محمـــد بنته أم كلثوم منبوذة من بيت زوجها قتيبة بن أبى لهب ، كما طردت أخت لها من قبل من نفس هذا البيت . .

وشعر محمد بأنه يجر على بنى هاشم كثيراً من البلاء ، وليسوا كلهم بالقادرين على أن يحتملوا ، وما منهم إلا قليل قد اتبعه ، فهو يستعذب الألم فى سبيل ما يؤمن به ...

وأشار عليهم شيخهم أبوطالب أن يخرجوا إلى شعاب مكة ، ليتجنبوا أحقاد القبائل الأخرى . .

ليلزموا بعض الحصون المهجورة على تلك الشعاب ، وليلفقوا

العيش يوما بعد يوم .. والجوع على أية حال خير لهم من أن تعيرهم القبائل غدا أو بعد غد بأنهم خلعوا واحدا منهم وأسلموه إلى سيوف الأعداء ..

وكان أبوسفيان وأبو جهل يقودان حملة الحقد والحصار . . ويشددان النكير على من يحاول أن يتسرب إلى بنى هاشم وهم فى وحدتهم النائية المضنية ، خلف جدران القطيعة ..

على أن الأمر لم يدم طويلا ، فقد كشف تعنت أبى سفيان وأبى جهل وقبيلهما عن كثير من الأمور .

ليست المسألة إذن هى مسألة خلع محمد ولا تسليمه ، ولكنها مسألة إذلال بنى هاشم وإهلاكهم ، ليرث أبوسفيان وأبو جهل وقبيلهما تجارة بنى هاشم ومالهم ومناصبهم فى حكومة قريش ..

تكشفت هذه البغضاء لقلوب كثير من الطيبين فى قريش ، ممن لم يحملوا لبنى هاشم من قبل شيئا من حسد أو ضغينة ..

وإن منهم لمن له قرابة ورحم لبنى هاشم : أخوال وأبناء خالات وعمات ..

وكان هؤلاء قد وقعوا الصحيفة من قبل ، عندما خيل إليهم أن الأمر لا يعدو الضغط على بنى هاشم ليتخلوا عن محمد ..

ولكنهم منذ أدركوا أن القطيعة إنما يراد بها هلاك بنى هاشم وزوالهم جميعا عن مكة .. منذ أدركوا هذا أخذتهم الرقة على هؤلاء الأقارب .

ثم دفعهم إلى التفكير فى نقض الصحيفة ، ما بان من طمع أعداء بنى هاشم فيما يملكه بنو هاشم .

ومضى هشام بن عمرو بن ربيعة ، يحمل الإبل بالطعام ويدفعها إلى بني هاشم في شعاب الجبل ، تحت ستار الليل ..

ولم يكتف بهذا ، بل إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له :

« أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتتزوج النساء وأخوالك حيث قد علمت لايباعون ولا يبتاع منهم ولا يتزوجون ولا يتزوج منهم ؟ أما أنهم لو كانوا أخوال أبي جهل الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً » .

وشق على زهير ابن عاتكة بنت عبد المطلب مايسمعه ، وتفجر من قلبه الحزن على ما يلقاه أخواله أبو طالب وحمزة والعباس ، وبقية الأخوال من بني عبد المطلب ، وأبناء الأخوال ، وعشيرة أمه جميعا .. فقرر أن ينقض الصحيفة التي تعاهد فيها مع بقية الرجال على مقاطعة بني هاشم .

ومازال هشام بن عمرو بن ربيعة ، يحدث رجالا آخرين حتى ضم إليه المطعم بن عدي ، والبحتري بن هشام ، وزمعة بن الأسود .. وكلهم غني واسع الغنى ، ذو مكانة في قومه ..

وتواعدوا أن يذهبوا إلى الكعبة من غدهم ليعلنوا نقض صحيفة المقاطعة التي وقعها سادة قريش وعلقوها على الكعبة ..

وفي اليوم التالي ذهب إلى الكعبة ، زهير بن أبي أمية « ابن عاتكة بنت عبد المطلب » يقول للمجتمعين حول الكعبة :

« يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونشرب الشراب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى أشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة » ..

وكان أبو طالب فى تلك اللحظة قد جاء من شعاب الجبل ، وجلس إلى الكعبة وحيدا منبوذا ، وأبو جهل يجلس فى أحد الأركان متخايلا بين الرجال فهب أبوجهل يرد على زهير ابن أبى أمية :

« كذبت .. لن تشق هذه الصحيفة » .

فقال زمعة بن الأسود لأبى جهل :

« أنت أكذب ، مارضينا كتابتها حيث كتبت » .

وأيده البحترى : « ولا نرضى ما كتب فيها ولانقر به » .

وأيدهما مطعم بن عدى :

« صدقتما وكذب من قال غير ذلك ؟ إننا لنبرأ من هذه الصحيفة ومما كتب فيها » .

وأيدهم هشام بن عمرو .

وأبو طالب ، يجلس بعيدا ، صامتا فى وحدته ..

وانتفض أبوجهل يعلن أنها لمؤامرة على الصحيفة ، ويحاول أن يدفع عنها .. ولكن الرجال الخمسة الذين كانوا قد اتفقوا على رفع الحصار عن بنى هاشم ، قاموا معا فمزقوا الصحيفة .

اضطرم غضب أبى جهل وأبى سفيان ومن معهما .. ولكن

موقف الرجال الخمسة شجع آخرين . . وأيقن أبو طالب وهو جالس يرقب ، أن المقاطعة لن تفيد بعد ، وأن الأسوار التى أقامتها قريش قد امتلأت بالثغرات .. فسيجد بنو هاشم من يبيعهم ويبتاع لهم ومن يسترد الزوجات الطريدات ، ومن يرد إليهم نساءهم اللواتى انتزعن منهم

وعاد أبو طالب إلى شعاب الجبل يؤذن فى بنى هاشم أن يعودوا إلى بيوتهم وحياتهم فى مكة ..

وحرص بنو هاشم أن يعودوا كما كانوا فلا يظهر أحد من قريش على ما صنعته المقاطعة بهم .

غير أن متاعب الحصار تركت آثارا لا يمكن أن تخفى فى أبى طالب الشيخ وفى خديجة التى جاوزت الآن ستين عاما ، قضت السنوات الأخيرة منها فى آلام متصلة ، وفى قلق على مصير زوجها محمد تحبس عنه ألمها لما يعانى ، وتطالعه بوجه مبتسم ، وفى قلبها الدموع ..

أما محمد ، فقد عاد أقوى مما خرج إلى شعاب مكة .. يسخر مما يلقى ، ويتحدى أعداءه ، ويمشى كما كان بين حمزة وعمر ..

وقد قرر الآن ألا يصبر على الأذى ، فما تستطيع قريش بعد أن تصنع به أكثر مما صنعت ..

ويلقاه أمية بن خلف فى بعض الطريق ..

وأمية رجل شرس مولع بالعدوان لا يخاف أحدا ، وهو يستخف فى مجالسه بانضمام حمزة وعمر إلى محمد ويقسم أنه سيقتل محمدا بيديه على

الرغم من كل شيء ، ويواجه أمية محمدا بهذا ليرهبه.. يقول أمية : (انى اعلف هذا الفرس لأقتلك من عليه) فيجيبه محمد : (بل أنا أقتلك بإذن الله) :

* * *

وهكذا مضى محمد يتلقى التحدى بالتحدى ويسخر ممن يسخرون به ، ويواجههم بما يسقط هيبتهم التى اعتزوا بها طويلا وهو خلال هذا كله ، يلقى بتعاليمه ويصر عليها ويطالب الناس أن يتبعوه . . ويقتحم ولا يبال .

ويعجب البسطاء بجسارته يوما بعـــد يوم ويشعر بعضهم أنه لو انضم إلى محمد الآن ، فلن يمتهن ويعذب كما حـــدث لمن سبق ذلك أن محمدا يواجه قريشا بجسارة تؤكد لمن يريد أن يتبعه ، أنه سيكون فى منعة من الأذى والعدوان

ولقد خشيت قريش أن يفتن به الغرباء الذين يزورون مكة للتجارة ويجتمعون فيهـــا أيام الحج فقررت حكومتها أن تعلن أن محمدا خارج على القانون وأن من سمع إليه ، فإنما يتحدى حكومة مكة ، وستُحِل حكومة مكة لنفسها أن تعامله كما تقتضيها صيانة مصالحها .

وكانت مكة تخشى الشعراء بصفة خاصة.. لأن القبائل تفخر بشعرائها وتعتد بكلماتهم ، فلو أن أحد الشعراء اتبع تعاليم محمد فمدحها ، لشاعت هذه التعاليم فى قبيلة ذلك الشاعر ، ولراج ماجاء به محمد خارج مكة ،

ولا ستقبل الناس هذه التعاليم التى يمتدحها الشعراء بنفس الاحترام الذى يحملونه للكلمة المنظومة .

وهكذا رصدت حكومة مكة من يَصُدُّ الشعراء من الوفود على محمد ، ومن يذيع فى حكماء هذه الوفود أن محمدا ليس غير مجنون يستهزىء به قومه .

ولكن محمدا حاول أن يقتحم إلى هؤلاء الشعراء الحكماء .

وعندما كانوا يجلسون حول الكعبة كان محمد يدخل عليهم ، ويشرح لهم تعاليمه ، متحديا أصوات المستهزئين التى تغمر صوته ، وقد حدث فى أحد هذه المجالس أن وقف رجل غريب يستصرخ الناس :

« يا معشر قريش .. هل من رجل يعينى على أخذ حقى من عمرو بن هشام فإنى رجل غريب ابن السبيل وقد غلبنى على حق » ..

فأشار له بعض أهل قريش على محمد وهم يضمرون السخرية به !

وكانوا يعلمون أن أحدا لا يستطيع أن يغدو على أبى جهل الحكم بن هشام فيطالبه ..

وكانوا يعرفون أن محمدا بالذات لا يستطيع ، فأبو جهل هو أبطش عدو به .

وصدق الرجل الغريب ، وذهب إلى محمد يقص عليه أن أبا جهل اشترى منه بعض الإبل ، ولم يدفع له الثمن .. وهو لا يريد أن يدفع .

وتعالت ضجة المستهزئين ، وأيقنوا أن محمدا سيُخَيِّبُ أمل الرجل

فيه . . سيَتَجبَّنُ عن نصرته ؛ وتهيأوا لسخرية جديدة بمحمد تسقطه وسط الذين يدعوهم إلى تعاليمه ..

ولكن محمدا قام مع الرجل إلى عمرو بن هشام .. وكان محمد والمسلمون قد تعودوا أن يسموه أبا جهل ..

قام إلى أبي جهل ، مخلفا وراءه حيرة المتغامزين عليه ..

جاء أبا جهل فى داره وهو بين عبيده وفرسانه فضرب عليه الباب وطلب أن يخرج إليه أبو جهل هذا ..

كان وجه محمد يحمل كل حزمه وكل ما فى طاقته من الثورة لهذا المظلوم ، ومن التحدى أيضا .. وخرج أبوجهل مروعا يستقبل محمدا.. ماذا حدث فى مكة حتى يجرؤ محمد على أن يضرب عليه بابه بهذه الصورة .. ؟ وقبل أن يفيق أبو جهل من المفاجأة ابتدره محمد فى حسم:

أعط هذا الرجل حقه ..

ولم يجب أبو جهل بل دخل، ثم خرج فأدى إلى الرجل ثمن الإبل !!

وعاد الرجل الغريب يعلن الناس حول الكعبة أن محمدا أخذ له بحقه من ظالم لا يجرؤ عليه أحد . .

ملأت هذه الجسارة قلوب الغرباء بإكبار محمد .. وانصرف المستهزئون ، يُقلِّبون أكفهم من العجب ، والغيظ ! .

* * *

لتكن الكلمة هى الخطوة إذن .

لتتحول كلماته إلى خطوات .. فقد جاء الزمن الذى يجب فيه أن تعكس خطوات الرجل ، كل تعاليمه .. لقد انفق نحو عشر سنين فى مكة يدعو بالكلمة ويصبر على العدوان ، ولكن صبره أطمع فيه طغاة قومه . .

لقد شبع من الصبر ، فليواجههم اليوم قوة بقوة . . ولن يستطيعوا على أى حال أن يصنعوا به أكثر مما يصنعون .

إنه يُطالب الناس أن يوفوا بالعهود إذا عاهدوا . . هكذا تقول تعاليمه . . فليتحرك هو بنفسه ليحمل المتكبرين على أن يوفوا بالعهود . .

إنه ليلعن الظالم ويدعو إلى ألا يأكل أحد مال غيره . . فلينتزع هو بنفسه الحق من أظفار المغتصب .. وليفضح الظالم ويقهره . . وليرد إلى المظلوم ما ينهب منه . .

ومن خلال هذا السلوك بدأ بعض الغرباء من زوار مكة يهتمون به وأتاه فى بيته شاعر (دوس) وحكيمها الطفيل بن عمرو فقال له يا محمد: إن قومك قد قالوا لى فيك ماقالوا ، وما برحوا يخوفوننى من أمرك حتى سددت أذنى لئلا أسمعك ، ثم سمعت قولك فوجدته قولا حسناً فاعرض على أمرك) .

ها هو ذا سيد قبيلة بعيدة يسعى إليه .

وظل محمد يتحدث معه ويشرح له تعاليم الاسلام الذى جاء به . . حتى اقتنع الطفيل بن عمرو ، وعاد إلى قومه فأقنع أباه وزوجته ، ومازال بقومه حتى أقنع منهم سبعين رجلا وامرأة .

وعلمت قريش نبأ الطفيل ، فبدأت تشعر بالخطر حقا .

لو أن تعاليم محمد خرجت من مكة ووجدت من يناصرها لاستقوى عليهم محمد بجيش من هؤلاء الأنصار الغرباء ، ولما وجدوا حرجا حين يكثرون أن يجتمعوا ليقتحموا عليهم مكة ، ويجعلوا محمداً ملكاً عليهم أجمعين . . :

ولامت مكة نفسها أنها تركت الطفيل يلتى محمداً .

لابد من أسلوب آخر مع هؤلاء الغرباء . . لقد خوفوهم من محمد فلم ينفع هذا فلتتحرك القوة إذن لتمنع مثل هذا اللقاء . .

وأخذ جند مكة يراقبون الغرباء ، وملأت حكومة قريش أسواقها ومواسم الحج فيها بالجواسيس ، مايعثرون على رجل يتصل بمحمد حتى يطردوه من مكة ، مضروباً معذبا بعد أن يصادروا ماله وتجارته .

ولكن محمدا لم يحفل بهذا . . وظل يقف حول الكعبة كلما جاءت وفود تطوف بها فيعرض عليهم الإسلام وكان بعض هذه الوفود يصغى ثم ينصرف وبعضهم يخشى عدوان حكومة قريش فيبتعد . .

وعلى أية حال فلم تتح حكومة قريش لأحد منهم أن يتحدث إلى محمد أبدا . . حتى جاء رجل حكيم من بنى غفار ، مثقل القلب بصلف السادة الأغنياء . . حالما بالخلاص من كل المظالم التى يراها . .

وذات مساء اضطجع هذا الرجل الغفارى قريبا من الكعبة ، فرآه على بن أبى طالب ، ولاحظ أنه وحيد رقيق الحال فسأله : (كأن الرجل غريب ؟) .

ثم استضافه على ، فبات الرجل عنده . . ثم أصبح فلم يجده . .

وفى المساء عاد الرجل إلى بيت على كأن وجهه النحيل يحمل ذلك الحزن الغامض الذى يرسمه طول التأمل . .

وقال له على :

(ألا تحدثنى ماالذى أقدمك هذا البلد) .

فقال الرجل :

(إن أعطيتنى عهدا وميثاقا أن ترشدنى فعلت) .

وعاهده على أن يرشده وأن يكتم عليه أمره .

فقال الرجل أنه سمع عن محمد فجاء يلتمسه ، ولكنه وجد ما تصنعه حكومة قريش بالغرباء الذين يقابلونه ، فخشى أن يسأل عنه .

فقال على : « من أنت ومن أين ؟ » .

قال الرجل : « اسمى أبوذر وقبيلتى غفار » . .

وقام على من فوره ليصحب أبا ذر الغفارى إلى محمد وهمس له : (اتبعنى ، وادخل حيث أدخل فإن رأيت أحداً أخافه عليك دنوت من الحائط كأنى أقضى حاجة فامض أنت)

وانطلقا حتى لقيا محمدا . . فشرح محمد تعاليمه لأبى ذر الغفارى .

وزاره أبوذر فى الليلة التالية سالكاً نفس الطريق إليه بصحبة على . .

سأله عن موقف التعاليم الجديدة من العبيد والمرابين والمتكبرين وعن النساء والفقراء والمضطهدين . .

وتعود أن يزوره مع على فى الليالى التالية ..

سأله عن كل ما يشغله .. من العدل والمساواة ، وحق المحروم فى مال الغنى .. ووجد أبو ذر فى التعاليم الجديدة جوابا لكل ما يسأل عنه .. هو ذا ما يريد أبو ذر .. وحرية الإنسان أمام الآلهة . ؟ لا آلهة بعد .. أما الذين استضعفوا فى الأرض فإن هذه التعاليم ستجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين .

وأعلن أبو ذر الغفارى أنه ليؤمن بكل هذه التعاليم .. وسيحملها إلى قومه بنى غفار ..

فقال له محمد وهو يودعه :

« يا أبا ذر ارجع إلى قومك فاخبرهم واكتم أمرك عن أهل مكة فإنى أخشاهم عليك »

ولكن أبا ذر خرج إلى الكعبة ، فوجد حولها رجالا من قريش ، فدعاهم إلى الإسلام !

وانقض الرجال على هذا الغريب الذى يتحدى حكومة قريش وظلوا يضربونه حتى لقد أشرف على الموت ، لولا أن العباس بن عبد المطلب صرخ فى الناس وهو يدفعهم (ويلكم ألستم تعلمون أنه من بنى الغفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم) .. فرفعوا أيديهم عنه خشية أن يموت فيقطع بنو غفار طريق تجارتهم إلى الشام ثأرا لأبى ذر ..

وانطلق أبو ذر الغفارى إلى قومه ، يحمل إليهم التعاليم التى حلم بها طويلا ، والدعوة إلى العدل والمساواة تملأ الآن كل وجدانه .

* * *

ما الحيلة فى محمد بعد . . ؟

مازال أبو طالب يحميه ، وبنو هاشم إذا جد الجد ينتصرون له . .
وها هى ذى دعوته تتسلق أسوار مكة وهضابها لتشيع فى القبائل الأخرى :
دوس ، وبنى غفار . . ومن يدرى ماذا يحدث غداً . .

ومحمد يتلو الآن تعاليمه فى المسجد ولا يبالى .

ويمضى رجال قريش إلى عمه لآخر مرة ليروا معه رأيا فى أمر
محمد . . ولكن أبا طالب مريض قد اشتدت عليه العلة . . ومحمد إلى
جواره يدعوه وهو على فراش الموت أن يؤمن بما جاء به . .

ثم مات أبو طالب . .

مات فسقط عن أعداء محمد حرج كبير . . فقد كانوا فى النهاية
يحسبون لأبى طالب بعض الحساب . . ولئن كانوا قد قاطعوه مع سائر
بنى هاشم ، فإن حياءهم منه منعهم أن يبلغوا من محمد ما يريدون . .

ومضى محمد إلى بيته مهموما يبكى عمه . . فوجد اليد التى تعودت
أن تمسح دموعه ترتعد هى الأخرى تحت وطأة الألم . .

كانت خديجة مريضة ، منهكة .

وسقطت ميتة بعد أن مات أبو طالب بأيام . .

فى أيام قلائل يفقد محمد عمه الذى رباه ، وزوجته التى شاركته فرح
الحياة وعذابها أكثر من عشرين عاما . .

وشعر محمد أن المسرات تتخلى عنه ، وأن بهاء الحياة يغيض
وكأنما تنهار فى أعماقه الضلوع . .

والحزن يبكى على قبر خديجة .. ويبكى ..

وعندما أخذه أصحابه وأهله إلى البيت ، ظل واجما .. لايتكلم ، الزفرات تتصاعد ، والدموع تسيل من عينيه .

ماذا أعدت له الحياة بعد .. ؟

لكم عانى عمه من أجله ، وكم ذا عانت خديجة ..

وها هوذا يلفى نفسه وحيدا آخر الأمر ، زايله ظل عمه ، وسيأوى من بيته إلى فراش بارد ، تنوح فيه الذكريات .

ونصحه بعض صحبه أن يتزوج امرأة شابة تعوضه عن فقد خديجة ولكنه أبى ! !

لقد عاش معها هذه الأعوام جميعها ، وكبرت سنها ودهمتها الشيخوخة ، فلم يفجعها بضرة على كثرة مانزعت إليه النساء .

غير أن المهاجرين إلى الحبشة عادوا فجأة .. فقد اضطربت الأمور بالنجاشى الذى يحميهم ، وحملت إليهم الأنباء أن الحال فى مكة قد تغير .. عادت ابنته رقية وزوجها عثمان بن عفان . . وعاد صديقه عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير .. كلهم عادوا بزوجاتهم .. إلا القليل دفنوا هناك تحت أرض الحبشة .. وعادت من بينهم امرأة وحيدة تركت زوجها تحت التراب هناك ، وما برحت تشكو بعده الحاجة والوحدة . . فعرض محمد على غير واحد من صحبه أن يأسوا جراحها

ويتزوجها .. ولكن المرأة لم ترق لأحد .. فخطبها هو لنفسه .. عسى أن يكون فى هذا عزاء لها ..

* * *

ولم تصبر عليه قريش حتى يمسح دموعه .. فما كاد يفجع بأبى طالب وخديجة حتى انقضت مكة على أنصاره الذين عادوا من الحبشة ، تطارد تجارتهم وتعذب منهم من يقع فى يدها .

من جديد يعود عصر آخر للعذاب !!.

وتمنى محمد لو أنه استطاع أن يجد قبيلة تؤمن بدعوته ، وتدعوه اليها هو والذين اتبعوه لو أن بنى غفار ، أو دوس .. تحتضن هذه التعاليم فستخلصه هو واتباعه من عذاب الحياة فى مكة ..

ولكنه لم يظفر بدعوة من غفار ولا دوس :

وأغراه عمه العباس أن يذهب إلى الطائف .. فهناك تعيش ثقيف ولعمه صداقة مع بعض سادتها وله فيهـــا مزارع واسعة من أعناب وزيتون : وعبيد وأجراء وزراع ونساء ضائعات !

سيجد فى الطائف من يسمع له إذن وسيجد من يمنعه إكراما لعمه العباس . وصحب غلامه زيد بن حارثه ، وسارا إلى الطائف :

ولاح النخيل له ومزارع الكرم ، وخضرة الزيتون من بعيد .. هاهى ذى مشارف الطائف ، وأسوارها الشاهقة البيضاء .

وامتلأ صدره بعطر الحقول وسط وهج الصحراء ..

وأشرق وجهه فجأة وشعر بالطمأنينة تزحف إليه ، وتغمر كل أعماقه .

قد يجد فى الطائف ظلا يعوضه عن وهج الرمضاء ، وأنصارا يعتز بهم وينشرون دعوته .

سيجد هنا الأمن ، والراحة التى ينشدها القلب.. هنا فى بلاد الكرم. ومن يدرى ، ربما ارتفعت من هذه الخضرة ، راية تعاليمه الجديدة !!

طريد أنت ياولدى ، مسكين معذب كالمبشرين الأوائل . !

أيمكن إذن للجذوة التى اشتعلت فى قلبك ، أن تنطفىء فجأة ، فيضيع كل شىء ، ويطويه الدجى المترامى فى هذه الصحارى الشاسعة التى يصفر فيها الخواء والكيد والمنكر ؟ ! .

أيمكن أن تسقط تعاليمك وتنطمس تحت الرمال التى تقوم عليها آلهة ذهبية تسطع تحت وهج الشمس ، ويظل الإنسان مهدرا ممزقا ، يقطع من لحمه بلا حساب ، ويبتذل عرقه وإباؤه ؟ ! .

أتصبح أنت ياأبا القاسم ذكرى تطوف على قلوب المستضعفين كالحلم السعيد المتبدد ، ولاتثير غير ابتسامة السخرية على شفاه المتسلطين .؟

أيمكن هذا إذن .. ؟

ولكنك لست كالمبشرين الأوائل المضيعين ..

لقد جئت بشىء آخر مختلف واستقبلك عصرك بطريقة أخرى .. لا ابن سنان ولا ابن نفيل ولا أحد على الإطلاق جاء على حين ينتظره الزمن كما جئت أنت بشفاء للنفوس مما تجد ، مستجيبا للاحتياجات المادية والوجدانية ..

لأحد من هؤلاء المبشرين الذين يحزنك مصيرهم ، وجد من المؤمنين بتعاليمه قدر ماوجدت أنت ، ومثل ماوجدت أنت . مؤمنون يستعذبون الألم ولا يحنون الرأس أبداً .. ومع ذلك فما من أحد من هؤلاء المبشرين لقى مثل ما تلقى من الأذى والجحود والعنت ..

ولشد ما سخرت به الطائف ، وخذلته .

ولشد ما سحقت أحلامه ، وأدمته حتى القدمين..

العبيد والأجراء والضعفاء الذين يحمل لهم الخلاص ، ويدعوهم إلى الحرية ، هم الذين يطاردونه بالسخرية والزراية والحجارة ! !

لكم هو رهيب ومعذب ومذهل ، أن يلقى مثل هذا من الذين جاء لينتشلهم . وأصدقاء عمه العباس تنكروا له ورفضوه ، مجاملة للآخرين من تجار قريش ، وحرصا على استمرار قبضتهم على أعناق العبيد الأجراء ..

علموا قبل أن يأتى إليهم أنه يحرم الربا ، ويستنكر الخمر ، ويحض الناس على كراهية لحم الخنزير .. وكانت أموالهم تتكدس من الربا .. وكانت خير تجارة يكسبون منها هى الخنزير الذى يملأ مراعى الطائف والخمر الذى تنتجه الكروم هناك ، وأدركوا أن وجوده بينهم سيغرى الضعفاء والفقراء بأن يطالبوا بما يسميه هو حقهم المعلوم فى أموال الأغنياء.. فنبذوه وأغروا به العبيد والصنائع يلاحقونه ، فى كل طريق ويسدون آذانهم إذا هم بأن يتكلم ويقذفونه بالحجارة المسنونة ..

وسال دمه .. وظل دمه يسيل على أرض الطائف ، وهم يطاردونه بالحجارة . وأعلن أنه عائد إلى مكة ، فليكف عنه السادة كلاب الصيد .

واستدار راجعا إلى مكة وهو يناشدهم أن يكتموا عليه ما كان منهم حتى لا يشمت به أعداؤه من قريش ويغرون بإيذائه من جديد ..

ولكن ثقيفا أصحاب الطائف أبوا أن يكتموا أمره واقسموا أن يشهروا به ..

وجر قدميه الداميتين ، ومن ورائه زيد بن حارثة ، يغالب دمعه ..

وجلس محمد وفتاه .. تحت ظل جدار يعالج جرحه ويستريح ويريح فتاه ..

كانت نظراته التى غام عليها الدمع تقتحم التيه الممتد أمامه بصفرة الرمال كالضياع ..

وفى أعماقه يتردد صدى بعيد من كلمات عمه أبى طالب التى أوصى بها سادة قريش وهو على فراش الموت : « أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين فى قريش والصديق فى العرب .. لكأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصار رؤساء قريش وصناديدها أذنابا وضعفاؤها أربابا وقد أعطت له العرب قيادها .. دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم .. كونوا له حماة .. »

ولكن أبا طالب قد مات ، ولم يسمع نصيحته أحد من معشر قريش ..

وأهل البر ، والمستضعفون والصعاليك فى الطائف ، يرفضونه ويؤذونه ويطردونه ويمنعون عنه الطعام .. والماء ويقسمون أن يبلغوا سفهاء قريش بكل ما كان ليبتدره السفهاء فى وطنه بالأذى مرة أخرى.

ماذا تحمل له الحياة فى مكة غداً . .

لقد مات عمه الذى منع عنه كثيراً من الأذى وماتت زوجته خديجة التى حملت عنه كثيراً من الضنى ..

وليس لعمه العباس مثل هيبة عمه أبى طالب ، وما زوجته الجلدة (سودة) بالتى تستطيع أن تعوضه عن خديجة شيئاً . .

وصحابه العائدون من الحبشة يلقون من التعذيب ما لا قبل لهم به .. وحكومة قريش بكل أجهزتها وسلطاتها تنطلق الآن كوحش مسعور تبطش بمن اتبعه فى مكة وبمن يحاول أن يتصل به من الغرباء .. غير عابئة بحمزة ولا بعمر .. وماذا يستطيع حمزة وعمر وعدة عشرات أن يصنعوا فى مواجهة آلاف يلهبهم الخوف على مصالحهم والاحساس الجنونى بالانهيار.

ولم يكد محمد وفتاه يستريحان تحت ظل الجدار وقد توقف انصباب الدم من قدميه ، حتى عاوده مطاردوه فانقضوا عليه ، وجذبوه ، ودفعوا به قسرا فمشى ، وهم يرجمونه ويتضاحكون .

والدم ينزف من جديد . . حتى خرج من الطائف كلها ، فأستلقى وحيداً أمام أسوارها المنيعة البيضاء تتصاعد الزفرات من حبة قلبه وهمهم يدعو ربه : « إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ . ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى » .

ثم أخذ بيد فتاه ، وانطلقا ..

سيعرض أمره على آخرين .

سيقتحم السدود التى أقامتها حكومة قريش بينه وبين الغرباء .. وليتحمل كل ما يمكن أن تصنعه به قريش .

إن ثباته هو الذى يعطف إليه القلوب ويملأ نفوس أشد المنكرين له، إعجابا به ..

ومشى بقامته المعتدلة الممتلئه فاقتحم مجلسا حول الكعبة ازدحم ببعض التجار الغرباء ..

كانت أنباء رحلته إلى الطائف قد سبقته إلى مكة ، فاستعد أعداؤه فيها للقائه بألوان من الأذى لم يعرفها من قبل .. ولكنه كان قد قرر ألا يبالى ! . .

وأخذ يشرح تعاليمه للتجار الغرباء ويدعوهم إلى الإيمان بالإسلام الذى جاء به .. وتركهم يفكرون ثم انصرف ..

وعلم أعداؤه من رجال حكومة قريش بما صنعه فخفوا سراعا إلى الكعبة .. وتشاوروا فى أمرهم ثم أقسموا أن ينتظروه من غد .

وفى الغد عاد محمد بكل ثقته وإصراره على أن يواجه قريشاً ولا يبالى ..

ومر بهم وهم فى مكانهم من الكعبة فتغامزوا عليه وأدرك محمد أنهم يدبرون له أمرا .

وكان مقبلا وحده ، وهم عدة عشرات من سادة قريش وفرسانها وسفهائها .. فانقضّ عليهم قائلا :

« يا معشر قريش لقد جئتكم بالذبح ! ».

بالذبح .. ؟ !

باسم ماذا يتحداهم إلى هذا الحد .. إنه ليقتحم وحده مجلس القوم، وليس إلى جواره أحد .. لاحمزة ولا عمر .. ولاأحد يمكن أن يرهب به الآخرين ..

وذهل الجالسون من المفاجأة فلم يتكلموا .

وقال له أبوجهل متلطفا :

« يا محمد .. ماكنت جهولا » ..

عسى أن يعتذ محمد للسادة أو يقول ما يقنع الغرباء الجالسين أنه إنما يعنى السفهاء وحدهم ..

ولكن محمدا أجابه وهو ينصرف مشمئزا منه :

« يا أبا جهل .. أنت منهم » ..

وصمم سادة قريش على أن يحدثوا به ما يجعله أمثولة أمام الغرباء ، فلا يستعلى عليهم بعد بشجاعة قلبه ، ولا يقوى على أن يواجه أحدا منهم بإهانة ..

ومالهم لايصنعون به كما صنعت ثقيف عندما زار الطائف .. ؟

واحتشدوا بشجعانهم وفرسانهم وسفهائهم ..

وأقبل محمد على الكعبة من اليوم التالى كما تعود ..

وتركوه حتى اتجه إلى المقام فوثبوا عليه وهو قائم يصلى بالمحراب .

وثبوا عليه كلهم دفعة واحدة ..

ولف عتبة بن ربيعة رداء محمد حول عنقه الذى كان يحنيه خاشعاً أثناء الصلاة ثم جذبه فسقط على ركبتيه .. وانهالوا عليه كلهم يكيلون له الضربات .

وتعالى صياح بعض الناس فى المسجد وأرسلوا إلى حمزة وعمر لينجدا صاحبهما ، لكن مكة لم يكن فيها من صحبه غير أبى بكر ، فأقبل مسرعاً ينحى المعتدين عن صديقه محمد ، ومحمد يدفعهم بيديه ..

وحين انفلت محمد من أيديهم أنذرهم مرة أخرى « أنه سيذبحهم أجمعين » .

ومضى ، وبقى أبو بكر ، فوثبوا به وضربوه وظل عتبه يضربه بالنعل على وجهه ، حتى أقبل رجال من عشيرة أبى بكر ، فاستخلصوه من أيدى المعتدين ..

وهكذا أخذت قريش تشرع النعال إمعانا فى الزراية والأذى .

فأخذ محمد يتذرهم بعذاب الحريق وإنه لعذاب غليظ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ..

ولكنه عاد إلى بيته فى ذلك اليوم بعد أن أوذى هو وصديقه أبو بكر ، فاستقبلته إحدى بناته باكية ..

كانت ثيابه ممزقة، ووجهه المتورد شاحبا موجعا مما تلقى من الضربات وعلى رأسه تراب قذفه به السفهاء ..

وغسلت له ابنته رأسه وضمدت جراحه ورتقت له ثوبه .. وهى تبكى فى صمت . أين يد أمها الحانية .

الزوجة شيء آخر ..

واقترحت عليه أن يتخذ له زوجة تعوضه بعض ما فقد ، فسودة امرأة مسنة لا حيلة لها ..

وعرضت عليه ابنته أن يتزوج عائشة بنت صديقه أبى بكر ..

ولكنها صغيرة جدا ، هذه الفتاة الجميلة ذات الشعر الأحمر ، والحس المرهف .

على أنه خطبها واستبقاها فى بيت أبيها حتى تؤذن الظروف بالزواج ..

ومضى يعلن أصحابه ببدء مرحلة أخرى من العمل الدائب المستمر ..

سيخرج إلى أسواق التجارة .. عكاظ وذى المجاز وغيرها ليخطب فى الناس كما صنع المبشرون الأوائل وكما يصنع الآن شعراء يتفاخرون ورهبان وكهان ..

سيعرض الإسلام على الآخرين كما يعرضون هم أشعارهم وأفكارهم ..

ولابد أن يجد فى النهاية قبيلة ينتصر بها ، ويقيم عندها .. وتحب دعوته فيجعلها قاعدة مطمئنة يتجه منها إلى العرب أجمعين .

وصحب معه أبابكر ، ليتعرف على الوفود وأنسابها ، فهو مثقف يعرف كل أخبار العرب ..

وفى أحد الأسواق تقدم محمد وأبوبكر إلى أحد الوفود واستبق أبوبكر فسلم وسأل :

من القوم ؟ .

فقال الناطق باسمهم :

من شيبان بن ثعلبة ؟ .

وتعرف عليهم أبو بكر وعدَّدَ لهم كثيراً من مفاخر قومهم ، فطربوا.. ثم سألهم :

«كيف الحرب والمنعة فيكم ؟ ».

فقال الناطق باسمهم :

« إنا لنؤثر السلاح على اللقاح والجياد على الأولاد » .

فعرفهم أبو بكر بمحمد وتقدم محمد يعرض عليهم الإسلام تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. ألاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .. ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ..

فقال له قائلهم : وإلام تدعو أيضاً ياأخا قريش » .

فقال لهم إنه يدعو إلى العدل ، وإلى الإحسان ، وإلى إيتاء ذى القربى وإلى اجتناب الفواحش والمنكر والبغى .

ونظر الناس فاذا بأبى لهب يقف بينهم فى ملابسه الفاخرة ويقول :

« ياأيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب » .

وإلى جوار أبي لهب يقف عبد له ، يحاول أن يرجم محمدا ..

وسأل القوم عن الرجل ، وإذ عرفوا أنه عم محمد يصحب عبده ويحرضه على ابن أخيه ، وأنه ما زال يزرى به أمام الأغراب أنكروا فى أنفسهم ما يصنعه أبولهب بابن أخيه ، ورأوا فى سلوكه نذالة لا تليق بعربى شريف .. فدفعوا العبد عن محمد وهم يقولون :

« لقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك » .

فسألهم محمد أن يئووه وينصروه .. ولكن القوم قالوا له إنهم ينزلون فى أرض يحكم نصفها كسرى فهم لا يستطيعون أن يئووه فى هذا النصف من أرضهم حتى يأذن لهم كسرى .

كسرى .. إلى متى يظل كسرى يحكم أجزاء من بلاد العرب .؟

وإلى متى تظل بعض هذه الأرض تحت سيطرة الروم .. ؟

متى إذن يلقى العرب كل هذه الأغلال ويصبحون أحرارا فى أرضهم إخوانا يعمر الحب قلوبهم .. ؟

لو أنه وجد قوما ينصرونه ويؤوونه ، فمن الممكن أن تتحرر هذه الجزيرة كلها من سيطرة الأغراب ، ويصبح العرب كلهم أمة واحدة يؤمنون بنفس الأشياء ، ويفرضون وجودهم ومستقبلهم على الأكاسرة والقياصرة ..

وقال لهم محمد : « أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم ؟ » . .

ولشد مايبهرهم هذا .. ليتهم يتبعونه . . لقد وعدوه أن يفكروا فى الأمر وانصرفوا إلى ديارهم . أما هو فمضى يحدث كل وفد يلقاه . .

وأقبل عليه نساء كن يفدن إلى المواسم مع النخاسين ليقمن الليالى الصاخبة ويبعن المتاع ..ولم يعرض عنهن ،بل عرض عليهن تعاليمه فبايعنه.. وعاهدهن ألا يزنين ولايسرقن ولايأتين ببهتان ولايتركن أحداً يستمتع بواحدة منهن فى غير زواج ولو بقبلة أو لمسة ..

وانطلقن هاربات من قيود النخاسين وتجار الرقيق، باحثات عن حياة جديدة حرة فى أحضان رجال صالحين من أجل تكوين الأسرة ..

وظل يعرض نفسه على وفود القبائل المختلفة التى تتخذ لنفسها آلهة ..

فأما كلب وبنوحنيفة فقد ردوه رداً منكراً ، وأما بنو عامر فقد سألوه :

« أرأيت إن نحن بايعناك وآويناك ثم ظهرت بنا أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ » ..

ولكنه لايدعو إلى ملكية يقسم مغانمها منذ اليوم .

وعبثا حاول أن يشرح لهم ... فقد انصرفوا عنه قائلين :

« أفنجعل نحورنا هدفا لسهام العرب دونك ، فاذا ظهرت كان الأمر لغيرنا لاحاجة لنا بك » .

وهكذا .: من وفد إلى وفد .. كل وفد يعتذر بشيء .. فما يبايعه إلا بعض العبيد والنساء والمستضعفين والأجراء .. حتى لقي وفدا من يثرب فسألهم :

« من أنتم ؟ » .

فقالوا :

« نفر من الخزرج » .

فقال لهم :

« ألا تجلسون حتى أكلمكم ؟ » .

وجلس يكلمهم ويدعوهم إلى الإسلام الذى جاء به وإلى أن يؤووه وينصروه . فبايعه منهم ستة رجال وامرأة .. وعاهدوه ألا يزنوا وألا يسرقوا وألا يأتوا ببهتان وألا يطغوا فى الميزان، وألا يقتلوا أولادهم .

على أنهم عادوا إلى يثرب ،فدعوا الناس هناك إلى أن يتابعوا محمدا ، وأن يؤووه وينتصروا له .. واستجاب لهم كثير من قومهم .. فقد كانوا من الحكماء ..

وشاع فى يثرب أمر الدعوة التى حملها وفدهم عن محمد، فقامت الأوس تتساءل .. والأوس هى القبيلة الأخرى التى تنافس الخزرج فى يثرب .. واقتنع من الأوس بعض الرجال .. ثم ذهب وفد كبير منهم إلى السوق فلقوا محمدا وتحدثوا إليه .. وبايعوه .

وعرفت مكة ماكان من أمر الأوس والخزرج ، فأرسلت إليهم فى يثرب من يحذرهم ولكنهم لم يبالوا ..

ولم تستطع حكومة قريش أن تصنع شيئاً مع أهل يثرب فقد كانت في يثرب وحدها تجارة السلاح .. وحي الصاغة .. وأسواق الذهب .. وتجار الطعام .. ويثرب — على خلاف مكة .. واحة خصيبة ذات حقول. فجزء كبير من تجارة مكة وغناها يعتمد على حسن العلاقات بيثرب .

وهاهي ذى إذن آخر المطاف ، القلعة التي حلم محمد بأن يمتنع فيها هو وصحبه وينتصر بها وينشر منها دعوته إلى العالمين .. إلى القبائل المتفرقة في الجزيرة ، وإلى حيث يحكم الفرس والروم، وإلى كل مكان مايزال يمتهن فيه الإنسان، ويهدر عمله .

وأدركت قريش أن محمدا سيظهر عليهم بأهل يثرب هؤلاء فقرروا أن يعزلوه عن أنصاره في مكة ..

وعكفوا على هؤلاء الأتباع يعذبونهم كما لم يعذبوا من قبل فلا يتركون الواحد منهم حتى يموت أو يعلن أنه تخلى عن محمد ..

وهكذا فتنوا كثيرين .. حتى من الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة وتحملوا العذاب من قبل ثم عناء الغربة والنفى ..

ونصح محمد للذين يخشون العذاب والفتنة ممن اتبعوه ، أن يهاجروا من مكة إلى يثرب .

ثم أرسل مصعب بن عمير إلى أهل يثرب يخبرهم بالهجرة ويهيئهم لاستقبال المهاجرين ..

وقبلت يثرب أن تأوى كل من يريد أن يهاجر إليها .

وعاد مصعب يحمل النبأ إلى محمد ثم جاء رجال من يثرب فتعاهدوا جميعاً على أن يقاتلوا المعتدين جنبا إلى جنب .

وبدأ المهاجرون يخرجون مختفين ، ليلقاهم المسلمون الجدد من الأوس والخزرج مرحبين يتنافسون على إيوائهم وإكرامهم .

وخرج مصعب إلى يثرب مهاجرا ، وهو أعز الولد على أبويه .. يكسوانه أجمل الثياب ويمنحانه أزكى العطور . . . . . .

جزعت أمه وظلت تبكى وأقسمت ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يعود إليها ، وأخذت تقف فى الشمس حتى تسقط مغشيا عليها ..

وأرسلت قريش وراء المهاجرين من يحاول أن يردهم بالإغراء أو بالوعيد، ولكنها لم تفلح فى رد أحد منهم .. وحتى مصعب الذى كان يحب أمه أكثر من أى شىء آخر ، رفض العودة إلى مكة على الرغم مما سمعه عن أمه . وقال لمن جاء يستعطفه :

« أنها ستأوى إلى الظل إن اشتدت عليها رمضاء مكة وستأكل أن قرصها الجوع » .

وحين فشلت قريش فى استرداد من هاجرمنها ، شددت الحصار على من بقى فأقامت جواسيسها على مخارج مكة .. لتمنع أنصار محمد بالقوة من الهرب إلى يثرب ..

وأمر محمد أتباعه أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم وأن يكلف قد طليب الضعفاء منهم أن يحتالوا للخروج .

وكان يعرف الآن أنه يستطيع أن يقاتل سادة مكة جميعا لو أن كل أتباعه من قريش هاجروا وانضموا إلى أنصاره الجدد في يثرب ..

وتدافع الناس أرسالا على يثرب ، بعضهم يخرج متخفيا وبعضهم يتهيأ للقتال إن اعترضته احدى سرايا قريش التى جهزت بالسلاح لمنع الهجرة ..

ويوما بعد يوم كان معظم أصحاب محمد قد هاجروا ..

منهم من ترك الزوجة والأولاد لكيلا يتعرض النساء لأذى جنود قريش ومنهم من صحب أهله ، فلقى النساء ما لم يلقينه من قبل أبدا ..

ولم يعد فى مكة غير حمزة وعمر وعلى وأبو بكر .. وعدد قليل جدا من أتباع محمد الذين لم يستطيعوا أن يحتالوا للهجرة . . ثم محمد نفسه .

وخرج حمزة مع بعض النفر .. واستحيا أن يخرج متخفيا . خرج مستعدا للقتال إذا اعتدى عليه أحد . . ولكن أحدا لم يجرؤ على أن يسأل إلى أين يمضى .

وتقلد عمر بن الخطاب سيفه ، ووضع قوسه على كاهله وأمسك فى يديه اسهمها ، ومضى إلى الكعبة والملأ من قريش فى فنائها . .

ووقف على الجالسين قائلا :

« من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده وترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى »

فلم يجبه أحد .

وخرج فامتطى زاحلته . . ومضى .

فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين .

كانوا يريدون الهجرة ولا يجدون الوسيلة . . فقادهم عمر إلى يثرب.

وهكذا لم يعد فى مكة من المسلمين غير أبى بكر وعلى بن أبى طالب. . محمد نفسه . .

ولم يبد على واحد منهم أنه يستعد للهجرة ، حتى لقد سأل أبوبكر صديقه متى الرحيل فطلب منه أن يصبر ولا يحدثه فى هذا الأمر بعد .

ولكن قريشا أدركت بغريزة الصياد أن الصيد يمكن ان يفلت منها . . وأن محمدا يبالغ فى الكتمان لانه يدبر أمرا .

ولئن انضم محمد إلى أصحابه واعتصموا بيثرب . . فستأتى الأيام الشداد إذن . .

ودبرت قريش أمرا . .

عند ما بلغ السن التى يجب أن يستريح فيها الإنسان ، ويتمتع بثمرات كفاحه الماضى ، كان عليه أن يرحل ! . .

كان عليه وهو فى الثالثة والخمسين أن يترك وطنه ، وعشيرته ، وذكرياته وكل الأشياء التى خفق لها قلبه ذات يوم ، ليبحث عن المستقبل فى أرض جديدة ، لم تطأها قدماه من قبل .

ومع ذلك ، فما أكثر مايواجه من سخرية الحياة فى وطنه . .

إن الحياة لتسلمه اليوم ، هو بكل تعاليمه ومصيره وبدمه نفسه إلى أبطش عدوه به ، وأبغضهم إليه . . إلى عمه أبى لهب . . ! !

فمنذ مات عمه الباسل أبو طالب ، أصبح عمه أبو لهب . سيداً للعشيرة . . فهو بعد أبى طالب أكبر رجالها سنا و إنهم ليمتثلون جميعا لما يقضى به . .

فأى قضاء يمكن أن يبذله به أبو لهب . . ؟

لئن سكت اليوم عنه ، فلن يمضى عام أوبعض عام حتى يخلعه ، كما تعودت القبائل أن تخلع سفهاءها .

لكم كابد أبو طالب لكيلا يخذله ! .

ابتلى بالجوع، فما استسلم . . حاصرته القطيعة وانهكته قسوة قريش وجحود أخيه أبي لهب ، فما تخلى عن محمد أما أبولهب خليفته على رياسة عشيرة محمد ، فلن ينصر محمدا أبدا . .

على أن عمه العباس يقوم الآن منه مقام عمه الراحل أبي طالب . . إنه لم يؤمن به بعد ، ولكنه يحرس دمه ، بكل ما امتلك من مال وهيبة ونفوذ فى قريش ومهما يكن من فشله مع محمد فى الطائف فهوقادر دائما على أن يحميه فى مكة .. وهومن أجل ذلك يخرج معه إلى لقاء سرى مع وفد يثرب على تل العقبة ، ليستوثق أن أهل يثرب جادون وأنهم لن يتخلوا عنه مهما يصيبهم ..

ويقول لهم العباس مشفقا على مستقبل ابن أخيه :

— إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه ، فهوفى عز من قومه ولكنه أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم فى ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فدعوه من الآن ، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده

وأكد أهل يثرب أنهم مانعوه وأنهم وافون بما دعوه إليه .

وأنهم ليحاربون من عاداه .. وما جاءوا فى الحق إلا ليستعجلوه فى الخروج إليهم ، بعد ماخرج صحبه ، ونزلوا منهم فى يثرب منزلا كريما ..

وبدأ محمد يستعد للرحلة .. لقد رحل كل صحبه منذ الصيف . والخريفُ يقبل الآن على مكة بأنسامه الرطيبة والتجـــار يستعدون لرحلة الشتاء . . ومنهم من يذهب إلى محمد فى بيته ليوُدع عنده ما يخاف عليه ، كما تعود التجار دائما أن يصنعوا معه .. فهو على الرغم من كل شيء ما يزال فيهم هو الأمين . .

ولم يشأ محمد أن يرد التجار اللذين تعودوا أن يلجأوا إليه فى كل موسم حتى لايثير الريب .. ومن يدرى ؟ فربما عادت رحلة الشتاء قبل أن يلحق هو بصحبه وأنصاره فى يثرب؟

ولكن سادة قريش كانوا فى قلق مما يحمله إليهم الغد . . فلقد هاجر كل أصحاب محمد منـــذ الصيف .. وصفى التجـــار منهم حسابهم ، وحملوا أموالا طائلة إلى يثرب وقد أحدث سحب كل هذا المال ، هزة فى ميزان الحياة التجارية القراشية ..

لقد حمل كل هذا الغنى إلى يثرب لتستعلى بتجارتها بعـــدُ على مكة ..

وهكذا يؤلف محمد شيعة من الأغنياء فى بلد منافس ، ويصيب هناك المنعة . .

ومن يدرى ، فربما هدد تجارتهم وطرق قوافلهم فيما بعد .. وربما أصبحت يثرب هذه هى كعبة التجار العرب ، فدالت دولة قريش ! .

* * *

واجتمع فى الكعبة سادة قريش جميعا فأجمعوا أمرهم : أن يتخلصوا من محمد .

ووافقوا على ما اقترحه أبو جهل : «أن نأخذ من كل قبيلة شابا جليدا نسيبا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالدية ، فدفعناها لهم» .

وبلغ محمدا ما تآمروا به ، عليه فخف من فوره إلى صديقه أبى بكر وقت الظهيرة فى ساعة لم يكن قد تعود أن يزور فيها أحدا ..

ودخل فوجد أبا بكر بين ابنتيه أسماء وعائشة وقال أبو بكر مترفقاً : (إنما هم أهلك)

غير أن محمدا حرص ألا يسمع أحد أيا ما يكن ما سيفضى به إلى أبى بكر .. حتى عائشة التى عقد عليها وسيدخل بها بعد قليل . !

وخرجت عائشة وأسماء ، وخلا محمد إلى أبى بكر فروى له كل ما بلغه . . واقترح عليه أن يهاجرا الليلة..

والتزم أبو بكر بترتيب أمر الهجرة فى سرية كاملة ، ومضى محمد إلى بيته ، فطلب من على بن أبى طالب ، أن ينام الليلة فى فراشه .. ثم سلمه الودائع التى تركها التجار عنده وكلفه أن يبقى بمكة حتى يسلم الودائع إلى أهلها ، ثم يلحق به إلى يثرب ..

أما أبو بكر فقد أعد راحلتين ، وخادما يثق به ، ولبث ينتظر صديقه إذا جاء الليل ..

وجاء الليل على مكة ، فتسلل الشباب الذين اختارهم السادة لقتل محمد وبعدوا عن الحرم حتى لا يثيروا شبهة أحد من عشيرة محمد .. ثم دلفوا فى دروب كثيرة ليعودوا مرة أخرى إلى جوار الحرم ، حيث يقع بيت محمد الذى ورثه عن خديجة .

ووقفوا يحرسون الباب وينتظرون .. فسيخرج محمد الآن بلاريب ، ليصلى فى رحاب الكعبة كما تعود أن يصنع دائما بعد كل غروب .. سيسلك الزقاق الضيق ، حتى ينتهى إلى المسجد ..

وسينقضون عليه فى الزقاق الخالى ، وينتهى كل شىء ..

ولكن محمدا لم يخرج ..

وجاء بعض السادة المتآمرين ليروا .. فوجدوا الشباب يتربصون بسيوفهم وبيت محمد محكم الاغلاق .. ليس وراء بابه المغلق حركة .

كان على بن أبى طالب يعرف الدور الذى ينهض به ، ولقد استلقى فى فراش ابن عمه وجر عليه بردته .. وفى حجرة أخرى من حجرات البيت اضطجعت سودة الزوجة الجديدة التى لم يستطيع محمد أبدا أن يحملها إلى فراش زوجته الراحلة خديجة وفى الحجرة الثالثة من الحجرات الأربع .. جلست فاطمة ، وفى صدرها قلق مبهم .. لم تكن تعرف شيئاً على الاطلاق . ولكنها لم تستطع أن تنام .. وكانت أختها الكبرى أم كلثوم هى الأخرى تشعر بمثل هذا القلق .. وقد أخذت تسير من حجرتها التى تعودت أن تنام فيها مع أختها فاطمة إلى الحجرة التى تعود أبوها أن يخلو فيها إلى نفسه أو يلقى فيها ضيفه .. ولحقت بها فاطمة .. فوقفت الأختان فى

بهو الدار : نبضات القلب تقرع الصمت .. وكل شيء ساكن فى الليل الداجى ! .

أى شيء غامض يحدث الآن ؟ . لقد ذهب أبوهما وطلب منهما ألا يسألاه عن شيء ، فسيفسر لهما علىٌّ من غده كل شيء ..

وطال الانتظار بالذين يتربصون خارج البيت ، ويئسوا من خروج محمد ، فاقترح واحد منهم أن يدخلوا الدار ، فيقتلوا محمدا فى فراشه .. ودفعوا باب الدار ، وهم بعضهم بأن يتسلق الجدار الخارجى المنخفض ، ولكن صرخات الفزع انطلقت من داخل الدار ، فجمدوا فى أماكنهم .. ربما سمع أحد من عشيرة محمد هذه الصرخات المستنجدة ، فأقبلو مسرعين فلا يتمكن المتآمرون من تنفيذ ما اتفقوا عليه .

وابتعدوا عن الباب والجدران وقال واحد منهم والخجل يجلل صوته : — إنها لسبة فى العرب أن يقول الناس عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا .

وقرروا أن ينتظروا حتى الصباح ، فسيفتح محمد باب بيته ليخرج إلى الصلاة عند الفجر ..

ولكن الفجر أقبل ، ولم يخرج محمد ..

وبدأت شمس الصباح من ذلك الخريف ، تلقى بأشعتها على الدرب الضيق .. ففتح باب البيت .. واقتحم المتآمرون إلى الداخل فوجدوا عليا .. هو الذى يرقد فى الفراش الآن ..

أين محمد إذن ؟ .. كيف خرج .. وإلى أين مضى ؟ .. أيكون قد تسلل من كوة فى ظهر بيته . ؟ أيكون قد عبر من سطح إلى سطح حتى بيت أبى بكر .. ؟

وكيف عرف ما أعدوا له ؟ . أيكون أحد الذين اتفقوا بالمسجد قد رق لمحمد فأبلغه ؟ .

ربما كان البختري هو الذى ذهب إلى العباس فحذره ، والبختري صديق للعباس ، وهو الذى نقض الصحيفة يوم وقعتها قريش وقاطعت بنى عبد مناف ! .

إن محمدا لمختبئ فى دار أبى بكر بلا ريب ..

فليلحقوا به هناك ، فيقتلوهما معا ..

ومضوا يتدافعون إلى دار أبى بكر ، وشمس الخريف تغمر طرقات مكة .. كانوا متعبين من السهر ، مجانين من الغيظ . !

تقدمهم أبو جهل ، فقرعوا باب دار أبى بكر .. وخرجت لهم أسماء فسألوها : أين أبوك يا بنت أبى بكر .

فقالت لهم : ما أدرى أين أبى ..

فلطمها أبو جهل على خدها لطمة عنيفة طرحت منها قرطها . .

وانصرف .. وانصرفوا وراءه ..

* * *

لابد من محمد قبل أن يلحق هو وصاحبه أبو بكر ، بأهل يثرب ..

ومضوا أرتالا إلى خارج مكة يفتشون فى الطريق إلى يثرب عن أثر محمد وصاحبه .. ويسألون الناس أى طريق سلكا ..

أما محمد ، فقد خرج به أبو بكر من فجوة فى ظهر داره .

تجنبا الباب والطرقات المألوفة .. وأسرع وحدهما تحت جنح الليل، حتى خرجا من مكة ، حيث كان ينتظرهما خادم لأبى بكر بناقتين ، ودليل أمين خبير بالطرق المهجورة وبمسالك الصحراء .

لكم يخشى أبو بكر أن تهتدى قريش إليهما . وما أكثر ما تملك قريش من رجال خبراء بالصحراء يعرفون مسالكها والطرق المهجورة فيها . .

ماذا يحدث إذن لو أنهم عثروا عليهما ؟ سيقتلونهما .

سيقتلونه وسيقتلون صاحبه محمدا ..

أما هو .. فإنه لرجل واحد يموت ، ولكنهم إن قتلوا محمدا فسيقتلون أمة كاملة .. سيقتلون مستقبلا بأسره ..

وأفضى أبوبكر إلى محمد بمخاوفه وعيونه تدمع ..

فربت محمد على كتفه وسأله ألا يحزن .

ورأى محمد أن يختفيا فى بعض الكهوف حتى تخف حدة قريش فى البحث عنهما .. وتيأس من العثورعليهما ..

ولجأ إلى كهف قريب .. ودخل أبو بكر أولا ليتحسس لنفسه ولمحمد .. فمن يدرى ؟قد ينجوان من سادة قريش فيتلقفهما وحش أو أفعى فى هذا الكهف .

وحين اطمأن أبو بكر إلى سلامة الكهف أخذ بيد صديقه ودخلا.

كم من الأيام سيقيمان فى هذا الغار ؟ لا أحد يدرى بعد ..

يجب أن يظلا هنا حتى تيأس قريش من البحث عنهما ..

وأمر أبو بكر خادمه أن يعود إلى ابنه عبد الله فليتحسس من أخبار قريش بعدها فيوافيهما بالأخبار كلما هبط الليل ، وليرتب لهما أمر الطعام .

وتعود عبدالله بن أبى بكر أن يوافيهما بأخبار مطارديهما وتعودت أسماء بنت أبى بكر أن تحمل الطعام اليهما فى الغار وتجعل من نطاقها مائدة لها..

وظلوا ثلاثة أيام على هذه الحال حتى إذا يئست قريش من العثور عليهما ، فى كل الدروب والطرق الخفية المؤدية إلى يثرب ، خرجا معا ، إلى الفضاء العريض يخوضان معا فى الصحراء المترامية إلى المصير الغامض .

لكم يشفق أبو بكر على صديقه من هذه الرحلة .. إنها حقا لرحلة المصير ! وان فيما يعرفه من الأخبار القديمة ، لمآسى تمزق الأكباد ..

فكم من المبشرين الأوائل أوشكوا أن ينجحوا ، وعندما امتدت أيديهم لتمسك بالحقيقة التى نشدوها طويلا ، هبط فجأة سيف غاشم بتار ، ليقطع منهم أطراف البنان ..

أيمكن بعد هذه التضحيات أيضاً أن تسقط رأس محمد ، وأن يحملها إلى آلهة الكعبة ، فرسان قريش ..

ولكن لا .. فمحمد شيء آخر ..

وطالت الرحلة .. عبر دروب خفية صعبة .. والدليل صابر يخوض الرمال وكلما دنا من يثرب ، شعر بأنه سيسلك طريقاً مألوفا ، فعدل إلى طريق آخر شاق مستخفياً وراء الصخور الشاهقة .

وإنهم لعلى مقربة من يثرب إذ بفرسان من قريش يظهرون فجأة على قمة صخرة بعيدة . وفرح قائد الفرسان .. واندفع بحصانه إلى محمد ، عبر صخور رجرداء وعرة منحدراً إلى الأخدود .. ولكن الحصان تعثّر به وأوشك أن يطرحه على الصخور فيدق عنقه .. وتشاءم قائد الفرسان .. فعاد من فوره دون أن يخبر أحدا ممن كانوا معه بما رأى !

وأخيرا دخل محمد وأبو بكر ومعهما الدليل إلى مناطق الحلفاء ..

مِن هذه الخيام التى تنتشر خارج يثرب جاء رجال إلى مكة ذات يوم فبايعوه .

وخرجوا إليه متهللين وطالبوه أن ينزل عندهم وسيمنعونه كأهل يثرب .. ولكنه شكر لهم حسن استقبالهم وسألهم أن يتركوه ليصل إلى يثرب ، حيث ينتظره الأنصار من أهلها وصحبه المهاجرين ..

فليتركوا ناقته تنخ حيث تشاء فإنها لمأمورة .

ولاحت له يثرب ، بنخيلها وأعنابها وحقولها الخضراء وحدائق الليمون والزيتون .

وتقدم وفود من رجالها ومن صحبه يستقبلونه ودخل يثرب وسط الترحيب كأنما هو فاتح مظفر ، لا غريب مهاجر يلتمس الملجأ والعون والأنصار ! .

ويثرب مدينة كبيرة نزح إليها اليهود منذ قرون ، فأقاموا بها ، يزرعون الأرض الخصبة التى تسقيها جداول كثيرة تنحدر من الجبال ..

هى واحة ضخمة تجود فيها الأرض بكثير من الثمرات .. وقد اختلط اليهود عبر السنين بسكانها العرب ومنهم من أنشأ فى يثرب معاصر للخمور ومراعى للخنازير وبيوتاً للهو !

وكان يهود يثرب ينقسمون إلى ثلاث عشائر : بنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير .

أما بنو قينقاع فاستقلوا بحى فى يثرب هو حى الصاغة ..

وفى حى الصاغة هذا ، يتكدس ما تملكه يثرب من الذهب ، وتقع المصارف التى تقرض بالربا .. وكان كبار التجار من الجزيرة كلها يلجأون إلى هذا الحى ليقترضوا عندما يحتاجون .

وكانت قبيلة بنى قينقاع هذه تملك معظم رؤوس المال التى توظف فى صناعة الأسلحة وغيرها من الصناعات وفى تمويل القوافل .. وفى تجارة الذهب .. وقد وجد بنو قينقاع هذا الأسلوب من الاستغلال أكثر ربحا من استغلال الأرض

أما اليهود الآخرون من بنى النضير وبنى قريظة ، فقد كانوا يقدرون الجاة الذى تمنحه امتلاك الأرض فى بلد يعتمد معظم اقتصاده على الزراعة .. ولهذا آثروا أن يختلطوا بالأوس والخزرج ، وأن يخرجوا من أحيائهم المستقلة ، وأن يوظفوا أموالهم فى الزراعة ، فامتلكوا الحدائق الواسعة .. وكثيرا من الحقول والمراعى .

وكان بقية سكان يثرب يشتغلون بالزراعة . . السادة من الأوس والخزرج يملكون .. والأجراء يعملون جنباً إلى جنب مع عبيد الأرض.

هنا مجتمع آخر .. أكثر تقدما من مجتمع مكة .

هنا علاقات اجتماعية أخرى ؛ أكثر قابلية للخضوع لتعاليم محمد .. فالمرابى اليهودى لم يكن يستطيع أن يستعبد دائنه العربى إذا عجز عن الوفاء كما يحدث فى مكة . . بين الدائن والمدين .. وهو لم يكن له الحق فى أخذ فتاة المدين أو امرأته ليكرهها على البغاء استيفاء لدينه . . كما كان يحدث فى قريش .

والأجير فى الأرض مهما يكن حظه كان أعلى درجة من العبد المكى الذى يحرس القوافل والمصارف .. كان يستطيع أن يختار من يبيعهم عرقه على أية حال ، على عكس العبد المكى الذى كان يرسف فى قيود التبعية إلى الأبد ..

وحتى عبيد الأرض فى يثرب ، كانوا يلتصقون بالأرض نفسها وينتقلون معها من مالك إلى مالك ، ولم يكن المالك يملك حياة العبد ، كما

كان فى مكة ، فالزراعة فى حاجة دائماً إلى الأيدى العاملة .. وإنما كان يملك عملة ..

يثرب شئ آخر يختلف تماما عن مكة .. فسكانها عدد متفرق من القبائل لايجمعون على دين واحد وهم لم يرثوا مكانا كالـكعبة ، يستعلون به على العرب ويثرون مما يقدم إلى أصنامها من هدايا ومما يقام تشرفا بها من أسواق ..

وما فى يثرب كلها عشيرتان تجتمعان على شيء واحد .. حتى اليهود .. لـكل عشيرة منهم مذهب ولهم فيما بينهم خلاف على تفاصيل يؤمنون به .. والتنافس على الثروة فيما بينهم يؤجج العداوات.

والعرب من الأوس والخزرج أيضاً تنشب بينهم نفس الخلافات على نفس الأشياء .. وميزان الحياة يضطرب .. فى كل عام يتحالف هذا القبيل مع ذلك ضد قبيل ثالث .. ثم ينقض الحلف ، ويتخاصم الحلفاء ويتحالف الأعداء .. وهكذا .. دورة مستمرة لا تنقضى من الخصام والتنافس ولـكل معشر حاكم خاص .

وقد أوشك أهل يثرب جميعاً أن يتفقوا للمرة الأولى على اختيار حاكم واحد هو عبد الله بن أبىّ بن سلول .. وبدأ هو يستعد ويهىئ جبينه لاستقبال التاج حتى كان التقاء اليثربيين بمحمد .. ثم وصول المهاجرين إليهم .. ومن ورائهم محمد : فتوقف كل شيء .. واسرها بن أبىّ فى نفسه .

وفى هذا الخضم المتموج الزاخر بالخصومات أقبل محمد يحمل إلى كل أهل يثرب نداء بالحب والاخاء .. والعدل ..

وما هى إلا أيام حتى أقبـــل على بن أبى طالب . . وأهل محمد وأبى بكر .

ولم يكد محمد يضع قدميه فى أرض يثرب بعد رحلته الطويلة المضنية حتى أعلن أنه سيبنى مسجدا .

سيكون مسجدا ضخما رائعا كالذى يقوم حول الكعبة . .

وطلب محمد من كل المهاجرين والأنصار أن يعملوا فى بناء المسجد . . وتقدم محمد يعمل بنفسه .

وأقبل الشباب من المهاجرين على العمل بحماسة يقودهم على بن أبى طالب وعمار بن ياسر ..

وتحرج بعض الأغنياء من العمل ، ولكنهم رأوا محمـــدا يعمل فأقبلوا متباطئين ثقالا كارهين وحاول محمد أن يلقى فى قلوبهم احترام العمل اليدوى .. بلا جدوى ..

حاول أن يقنعهم أن الثقافة والبراعة فى التجارة ، وأى عمل عقلى آخر لايفضل العمل اليدوى أبدا فلـــكل عمل شرفه .

وأراد على بن أبى طالب أن يبث الحماسة فى قلوبهم فانشد رجزا أثناء العمل ردده وراءه الآخرون .

وارتفعت جدران المسجد على نشيد العمل ..

ومضى عمار بن ياسر يستحث بعض المتخلفين فأنشد هـذا الرجز أمام جماعة منهم فيهم عثمان بن عفان ، فسخروا منه ولكن عمار ظل يستحثهم ، وإذ ذاك برز له عثمان .

وعثمان إذ ذاك هو زوج رقية بنت محمد ، وهو من أوائل الذين اتبعوه ومن أقرب صحبة إليه .. وهو فوق كل ذلك تاجر من سادات مكة واسع الغنى ، ولقد ضحى تجارته بمكة وضحى بالكثير وهاجر وحمل معه أمواله الطائلة ليساند بها محمدا فى مهجره .

كبر على عثمان بن عفان أن يستحثه عمار .. ابن سمية التى كانت صاحبة أبى جهل قبل أن تسلم ، والتى طعنها أبو جهل بحربته فى عورتها حتى ماتت

وانقض عثمان بن عفان يهدد عمار بن ياسر بأن يضربه بعصاه على أنفه .:

— لقد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية . . والله إنى لأرانى سأعرض هذه العصا على أنفك .

وسمع محمد بما كان بين عثمان وعمار .

لماذا يستعلى ابن عفان على ابن سمية الآن إذن ؟

بم يفضله ؟ أبماله ، أم بزواجه من رقية .. أم بمكانته فى قريش؟ !

إن عمارا ليتبع التعاليم كما يتبعها عثمان ، ولقد ضحى فى سبيلها بأكثر

مما ضحى عثمان ، وإنه اليوم لأ فضل منه لأنه يعمل بيديه ويبذل عرقه لكى يقيم مسجدا يجتمع الناس فيه .. ؟

لن يصبر محمد على بقاء هذا الصلف فى نفوس رجاله .. إنهم ليبرزون معاً يتحدون الخطر لبناء حياة جديدة ، ومن المحتم أن يحمل كل رجل منهم نفس الاحترام لأخيه . .

لا يجب أن يشعر واحد منهم أنه يفضل أخاه .. إلا بعمله .

ومضى محمد يعنف عثمان بن عفان والذين معه .. واتهمهم بأنهم بعدوانهم على عمار يسلكون سلوك الفئة الباغية !

ولم يجدوا ما يجيبون به محمدا . ومضوا يسترضون ابن سمية . . ويقبلون على العمل بأيديهم الناعمة التى لم تعرف خشونة العمل من قبل..

وانتهى بناء المسجد فى أيام قلائل .. فأقبل رجال من أهل يثرب يعلنون محمدا بأنهم سيسمون يثرب باسم « المدينة ».. فهى مدينة محمد..

وتهيأ محمد بعقد اجتماعاته فى المسجد ، مقبلا على عهد جديد حافل فى المدينة .. وقد اطمأنت نفسه إلى المصير.

وأخذ يعدهم بأنهم سيقهرون مكة بصلفها وفسادها .. وشرع يتلو عليهم :

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ » .

أصبح المسجد الجديد ناديا يتعلم فيه المهاجرون والأنصار قواعد السلوك فيما بينهم ، وأصول التعامل مع الحياة فى ظل التعاليم الجديدة ..

فاذا جاء الليل تحول هذا المسجد إلى فندق يبيت فيه فقراء المهاجرين الذين لم يجدوا المأوى بعد ..

كان كل رجل من الأنصار يستضيف إلى داره أسرة من المهاجرين ، ولكن دور الأنصار لم تتسع لكل من هاجر ، فأذن محمد لمن لم يجد دارا تأويه أن يتخذ من المسجد دارا له . .

وتعود الأنصار أن يقاسموا المهاجرين طعامهم .

ولقد آخى محمد بينهم .. عقد عهد الأخوّة بين هذا النصير وذاك المهاجر : أن يحبه كأخيه ، وأن يمنعه مما يمنع منه نفسه ، وأن يطعمه ويقاسمه حلو الحياة ومرها ..

وارتفعت الهمهمة من قبائل يهود ، إن محمدا قد جاء بعدد من الرجال والنساء لايعملون شيئا ، وإنما يثقلون على أهل البلد ، ويقاسمونهم الطعام والرزق بلامقابل ..

وحث محمد رجال المهاجرين على العمل .. وفى الحق أنهم جميعا كانوا لا يعرفون كيف يكسبون القوت فى يثرب إلا فى الزراعة غالبا .

وأهل مكة لاعهد لهم بالزراعة .. ولكنهم أخذوا يتعلمون كيف يمسكون الفأس ويضربون بها الأرض ويلقون البذر ويستنبتون الحقول ويجرون فيها الماء . . ووجدوا من فلاحي يثرب عونا كبيراً .. كانت الحقول خصيبة تتسع لكثيرمن الأيدى العاملة الجديدة لتعطى أضعاف ما كانت تعطى ..

أما محمد فلم يقم من نفسه ملكا على يثرب كما أراد له المتحمسون من أنصاره ولم يعف نفسه من العمل ولكنه خرج بنفسه ليتعلم الزراعة بعد أن جاوز الثالثة والخمسين ، وهى مهنة جديدة غريبة عليه ..

وطلب محمد من النساء أن يعملن —أيضاً— كما يعمل الرجال .. فخرج كثيرمنهن حتى اللواتى تعودن أن يعشن فى مكة من قبل ، ناعمات مستغنيات وراء جدران بيوتهن الحافلة بالغنى .

وكان محمد وهو يعمل فى الحقول بين الرجال والنساء ، يوصى دائماً أن يخففوا عن النساء عبء العمل .. ولقد شاهد أسماء بنت أبى بكر ، تعمل وتثقل رأسها بما تحمله أثناء العمل فى الحقل وكان هو عائدا على دابته فطلب منها أن تركب خلفه أو أن ينزل لها عن دابته ولكنها استحيت وأبت .. وعندما حكت لزوجها الذى يغارعليها من كل الناس ، أبدى ضيقه بأنها تقوم بأعمال شاقة فى الحقول .. وأكد لها أن هذا هوما يزعجه ، لا أن تركب خلف محمد .

ما بال بنت أبي بكر تعمل بيديها وأبوها تاجر واسع الغنى ، ولقد حمل معه إلى يثرب أربعين ألفا من العملة المكية ، ولكن كل مهاجر قادر على لعمل مطالب أن يكسب عيشه بيديه لكيلا يكون عالة على الأنصار.

على أن المساحة المزروعة من حقول يثرب لم تكن لتكفى كل هذا العدد ، فطالب محمد صحبه الأغنياء الذين هاجروا بأموالهم ، أن يشتروا الأرض القابلة للزرع فيستصلحوها ، لتنتج من الثمرات ما يقيم ميزان الحياة الاقتصادية بعد تدفق عدد كبير من المهاجرين ..

وهكذا وجد عدد آخر من المهاجرين عملا فى الحقول الجديدة ، وسالت الأموال تنعش السوق والحياة الاقتصادية فى يثرب .

وكان من بين المهاجرين عدد من التجار الحاذقين الأغنياء .. فاندفعوا يستثمرون أموالهم لا فى الأرض وحدها بل فى التجارة أيضاً ..

أما أبوبكر فقد وضع الأربعين ألفا التى هاجر بها تحت تصرف محمد ، ليوزعها على الذين لم تتح لهم فرصة العمل ، وعلى غير القادرين ..

وحث محمد أصحابه أن يصنعوا كما صنع أبوبكر .. أن يضعوا جزءا من أموالهم لمحاربة البطالة ، والعجز .. وعارٌ عليهم أن يجوع بينهم أخ مسلم أو يشكو الحاجة أو القلق .. وقدم عمر بن الخطاب نصف ثروته ، وقدم آخرون ماجادت به النفس .

واندفع الأغنياء من المهاجرين والأنصار يرفعون إخوتهم المسلمين إلى مستواهم فى المعيشة .. فما يليق أن يلبس واحد منهم الخز ، وأخوه

للمسلم فى ثياب مهلهلة .. وما يليق أن يأكل واحد منهم اللحم والثريد، ومن المسلمين من لا يجد غير التمر ..

وهكذا تقاربت المستويات، فى يثرب .. لا جوع ولا عرى .. الكل يعمل ويأكل، والذين لا يستطيعون العمل، يجدون حقوقهم المعلومة فى أموال أخوتهم المسلمين القادرين . .

وشعر أغنياء يثرب ممن لم يدخلوا فى الدين الجديد أن ثمت طبقة من الأغنياء تنافسهم على الثروة، وتفسد عليهم أسلوب العلاقات مع الآخرين .. إن الأسلوب الجديد فى العلاقات بين الأغنياء والفقراء ليشكل خطرا مباشرا عليهم . أيجب على كل الأغنياء إذن أن يطعموا الفقراء مما يطعمون ويكسوهم مما يلبسون .. ؟ أجاء الزمن الذى يعيش فيه الأجراء كما يعيش الملاك ..؟ فأين إذن هو الامتياز الذى يمنحه الغنى ..؟ أيعطى العملُ للأجير حتما مثل حق المالك الذى يستأجره ؟.. إنه لانقلابٌ فى كل القيم والموازين .. ولابد من وقف هذا الطوفان قبل أن يقتحم بالثورة على كل الملاك الأغنياء .

وكان معظم هؤلاء الأغنياء من اليهود .. فقد دخل العرب جميعا من خزرجهم وأوسهم تحت راية الدعوة الجديدة .

وتناجى أغنياء يهود ومعهم عبدالله بن أبىّ بن سلول .. الذى حلم طويلا بتاج يثرب، فحرمه مقدم محمد تاجه، وكل ماتهبه السلطة من هيبة وجاه ..

ولكن ماالحيلة ؟ مادام الأغنياء قد قبلوا أن ينزلوا من عليائهم

ليعطوا الفقراء فان الفقراء سيحاربون حتى الرمق الأخير دفاعا عما حصلوا عليه .. سيحارب الفقراء جميعا من المهاجرين ومن أهل يثرب.. وسيحارب الأغنياء من أتباعه أيضا ، فقد أدخل فى روعهم أنهم لا يملكون ما اكتسبوه من مال وإنما هو ملك للقضية التى يدافع هو عنها ..

وكان محمد يعرف مايتناجى به أغنياء اليهود ، وعبدالله بن أبىّ بن سلول وشيعته من سراة يثرب .

ورأى محمد ألا يبادرهم بالعداء، فهو فى موقف شديد .

إنه لنى حاجة إلى أن يتألف قلوب أهل المدينة جميعا ، ولقد نجح فى عقد الصلح بين الأوس والخزرج ، وتصافوا إلى حبة القلب فأصبحوا الآن كأن لم يكن بينهم من قبل دم ولا ثارات .. وهو يشعر أن من واجبه أن يجمع كلمة أهل المدينة التى نزل بها لاجئا مستنصرا ، ليستطيع أن يواجه قريشا عندما تطارده .

فلو أن قريشا هاجمته وفى القاعدة التى يطمئن إليها ثغرات ، لاقتحمت عليه قريش من هذه الثغرات ..

إن أغنياء اليهود ، مازالوا هم سادة الحياة الاقتصادية فى يثرب ، فلديهم المصارف وصناعة الذهب .. وعبد الله ابن أبىّ ، وشيعته سادة فى قومهم ، لهم نفوذ .. وإنهم ليبكون على مافاتهم من الملك منذ أقبل محمد.. ومحمد يكدر هذا الضعف ويرحمه .. فليحاول أن يُطِبَّ له ..

ودعا الناس جميعا إلى المسجد .. فحضهم على الوحدة والتعاطف . .

ثم إنه اقترح أن تكتب صحيفة يتفق فيها الجميع على أن يتحابوا وعلى أن يكونوا فيما بينهم صادقين وعلى أن يكونوا أمة واحدة من دون الناس ، وأن يعطوا المحتاجين ، وأن يرعوا حق الجار وألا يجيروا قريشا ولا من نصرها ، وأنه لابغي ولاعدوان ولاإثم ، فمن قُتِل يقتل ، ومن جرح غيره أو آذاه جوزى بمثل ماصنع ، وأن اليهود والمسلمين حلفاء ، إن اختار اليهود الاسلام فهو خير ، وأن بقوا على دينهم ، فلهم أموالهم ومعابدهم آمنين عليها ، ولكن عليهم جميعا أن يحاربوا من يهاجم يثرب ، وأن ينفقوا من أموالهم على الحرب .

ووقع المجتمعون من اليهود والأنصار والمهاجرين هذه الصحيفة .. وتعاهدوا على أن يُنزلوا العقاب بمن يخرج عليها .

ومضى محمد يلاطف اليهود ويترفق بهم على كره من بعض أهل المدينة الذين تعودوا أن يعاملوا اليهود بطريقة مختلفة .. على أنه استطاع أن يقنع من كره هذا الأسلوب بأن ما جاء به : إنما هو الإخاء والرحمة .

واطمأن به المقام ، ورأى أن الحائط الذى يستند إليه الآن قد أصبح بلا ثغرات ..

* * *

ولكن حياته فى البيت كانت مضنية حقا .. فهو يعيش مع أمرأة لايحمل لها غير الاشفاق والعطف . وقد ارتفعت بها السن ولم تعد صالحة لتدبير حياته فى البيت ..

وكانت عائشة قد بلغت الآن مبلغ الأنثى ، أنضجتها شمس يثرب ..

وحدثه أبو بكر أن يأخذها الآن ، فقد شب جسدها ونضج حتى أصبحت كالنساء وإن كانت ما تزال طفلة ترتع وتلعب مع الصغيرات ..

واتفق أبوها وزوجها على أن تحمل إلى بيت الزوجية فذهب إليها بعض النساء فجذبنها من على الأرجوحة فغسلن وجهها من التراب وحملنها إلى بيت الزوج .. وهى ما زالت تنهج من كثرة الجرى أثناء اللعب.

وسكن محمد إلى عائشة ، وأمر ابنته فاطمة أن تحتفى بها وتتودد إليها..

وتقدم عمر بن الخطاب يخطب فاطمة . كانت قد جاوزت السادسة عشرة جميلة ملحوظة الجمال فاعتذر محمد .. وتقدم أبو بكر فاعتذر أيضاً ..

وتقدم عدد من فتيان الأنصار والمهاجرين وقد خشى محمد أن يعطيها لواحد من الأنصار دون الآخر فيغضب .. وتغضب له عشيرته ..

أو أن يؤثر بها أحد من شباب المهاجرين فيغضب الآخرون ، من مهاجرين وأنصار .. وكان كل منهم يمنى نفسه بها ، وأبوها محمد يخشى أن يستعلى أحد على صحبه بالزواج من فاطمة .

إنه ليريد أن يؤكد فى كل القلوب دائماً أن القربى منـــه ليست سبباً للاستعلاء ، وأن الإنسان بعمله . . حتى لقد عنف عثمان بن عفان ، صديقه وزوج ابنته رقية لأنه أغلظ لعمار بن ياسر .. ابن سمية . .

ومضى محمد يستشير صاحبه أبو بكر وعرض عليه أسماء الذين تقدموا إلى خطبة فاطمة ، كلهم فتيان بواسل ليس فى أحدهم ما يعاب..

فقال أبو بكر :

أين أنت من على بن أبى طالب .. ؟

فقال محمد : « انى لأكره لفاطمة ميعة شبابه وحداثة سنه » .

وكان على فى الثانية والعشرين .. ولكن أبا بكر قال : « متى رَعَتْهُ عينك حفّت بهما البركة واسبغت عليهما النعمة » .

ومازال به حتى أقنعه وخطبت فاطمة لعلى ..

ولكن عليا لم يكن يملك بيتاً ليتزوج فيه ، فسألت فاطمة أباها أن يمنحها بيتاً .. فزجرها ، وتقدم رجل غنى من الأنصار يهب الزوجين الشابين بيتاً صغيراً له من بين عدة بيوت يملكها . وتمنّع على وفاطمة ولكن الرجل أقسم ألا يدخل هذا البيت أبداً وظل يلح فى هبته حتى أذن محمد لعلى وفاطمة أن يقبلا بيت الرجل .. بيعا وشراء لا هبة .. وشرع الفتيان والفتيات من المهاجرين يتزاوجون مع الفتيات والفتيان من الأنصار ..

واستقرت الحياة الجديدة بالمهاجرين .. وقد وجدوا العمل والرزق وزوجات يسكنون إليهن .. ولكنهم لم ينسوا مكة أبداً ..

* * *

حتى محمد نفسه لم يستطع أن ينسى مكة .. كان دائما يذكرها .. وإن له هناك تحت التراب لأعزّاء .. وله فيها كل ذكرياته .. لكم اضطرمت به الأحلام هناك ، وكم شهد من العذاب والضنى ، ومع ذلك فما من بلد أحب إليه من مكة وزاره مهاجر أقبل حديثاً من مكة .. فسألته عائشة : كيف تركت مكة ؟

ومضى الرجل يصف مكة من بعدهم ، وصوته يرتجف بالأسى على فراقها .. وصف بيوتها ورمضاءها وشوارعها وزحام الناس فى أسواقها والزهرات البرية المتضوعة العبير فى شعابها .. وفاض الحنين بمحمد حتى لقد سال دمعه فقال للرجل «لا تثر اشواقنا .. دع القلوب تستقر» ..

وفى الحق أن كل صحابه المهاجرين كانوا يلقون من يوم إلى يوم رجلا يحرك منهم القلب ويثير فيهم الشوق والحنين ولقد تمنوا جميعاً أن يأتى يوم تفتح فيه مكة أبوابها لاستقبالهم ..

إن ما يمنعهم عن مكة لهم فئة من التجار تحكم هناك وتنفيهم عن أرض الذكريات والأمل .. والمستقبل ! .

متى إذن يقودهم محمد فيرميهم على هذه الفئة الظالمة لينفقوا ما بقى لهم من العمر فى وطنهم ذاك .

ولكنهم الآن مازالوا أقل عددا من أن يحطموا أسوار مكة ..

وإن منهم لرجال يخشون أن يطالبهم محمد الآن بمثل هذا ، وقد وجدوا هنا الراحة بعد الشقاء ، والكفاية بعد عذاب الحرمان .

إن منهم لمن يطمئن الآن إلى حياته الوادعة هنا ..

على أن سادة قريش ما كانوا ليتركوهم وادعين .

وقد بدأت الرسل تسعى من حكومة قريش إلى كبار التجار الأغنياء اليهود فى يثرب تسألهم الحماية حين تمر القوافل فى طريقها إلى الشام ،

بصحراء يثرب .. فقد كان تجار قريش يخشون أن يوجه إليهم محمد جيشاً من الفقراء يغير على هذه القوافل .. وإن من بين هؤلاء الذين يخشاهم تجار قريش ، من استولت قريش على أموالهم وتجارتهم عنوة منذ اتبعوه ، ومنهم من صادرت قريش أمواله أوتجارته التى تركها فى قريش ، واشترطت عليه أن ينزل لها عن كل ممتلكاته لتتركه يهاجر فى سلام ..

قريش تخشى أن ينقضّ هؤلاء جميعا لانتزاع ما اغتُصب منهم من قبل .. وتسلل رسلها إلى أثرياء اليهود ..

وخشى أغنياء اليهود أن ينقضوا عهد الصحيفة علانية فيبطش بهم مواطنوهم من الأوس والخزرج ، وينفذ فيهم محمد ما تضمنته الصحيفة من جزاءات لمن ينقض أحكامها ..

فلجأوا الى أسلوب آخر فى تحطيم وحدة المدينة .أشاعوا أن قريشا فى خوفها من انقضاض المهاجرين على تجارتها ، ستقطع الطريق على تجارة المدينة ..

وهكذا يحمل محمد أهل يثرب مالا طاقة لهم به ، ويعرضهم لعدوان قريش وأنصارها .. ويدفع بهم إلى كساد فى التجارة ، يجلب الأزمة والبأساء على الجميع ..

حاولوا ان يملأوا الرءوس بهذا التفكير .. ومضوا يثيرون الناس ضد محمد ومن أقبلوا معه ، بينما كان محمد يجلس فى المسجد يتحدث

عن السياحة والحب ويطالب الناس ألا يظلموا وألا ينكثوا بالعهود وأن يؤدوا الأمانات ثم ينظر إلى بلال معجبا به قائلا له : «أنت أول ثمار الحبشة».. ثم يلتفت فيجد صهيبا الرومى ، الذى سعى إليه من أقصى بلاد الروم فيطلق ضحكاته على أجنحة الأحلام قائلا : « وأنت يا صهيب أول ثمار الروم » ، ويقع بصره على سلمان الفارسى الذى اندفع إليه بكل قلقه فى البحث عن الحقيقة عبر فارس ، والموصل ، والشام وانطاكية ، حتى ينتهى إلى يثرب فيدخل فى الإسلام .. فيقول محمد لسلمان هذا : « وأنت ياسلمان أول ثمار فارس » .

اليهود تكيد ، وتحاول أن تصب الفزع فى النفوس ومحمد جالس بين أتباعه من العرب ، ويبتسم لبلال الحبشى ، ولصهيب الرومى وسلمان الفارسى .. حالما بأن ترتفع راية تعاليمه فتظل هذه البلاد جميعاً ، وتجعلها أمة واحدة ..

ثم يأتيه من يحدثه عن رجل باليمامة يحرم الخمر ، ويدعو إلى الزهد ، ويحرم الرجال عن النساء بعد أن ينجبا أول ولد ، ويحض أتباعه على الصدق ..

ورجل آخر فى حضرموت يطوف بحماره يدعو الناس إلى الفضيلة كما كان عيسى بن مريم يركب حماره من الجليل إلى القدس يدعو الناس إلى العدل والحقيقة مرحى ! .. فهو القلق الروحى إذن فى كل مكان ! .

فى هذه البيئة وحدها ينبت المبشرون ويستطيع هو أن يجد المؤمنين بها ليخوض بهم المعارك إلى مكة يقهر المستكبرين من قريش ، ويحرر

العرب الآخرين من سلطان الفرس والروم ، ويرفع راية العدل والمساواة حيث يقيم القساوسة والدهاقنة والعاهرات دولة سوداء تسحق كرامة الإنسان .

ولكن أغنياء اليهود يكيدون .. والحقد الذى ملأ قلوبهم من الطبقة الجديدة المنافسة لا يهدأ .

إنهم يريدون أن يستخلصوا يثرب لأنفسهم .. يمارسون فيها سلطان رأس المال على مصائر الأجراء والعبيد ، فليقيموا عبد الله بن أبى سلول ملكا لهم يحكم بما يريدون ويضع قواعد للتعامل تخدم الاستثمار فى مواجهة ما جاء به محمد ..

ومحمد فى المسجد بين صحابه .. يعلمهم ، ويحلم بالمستقبل ، وإذ بصيحات تأتى من خارج يثرب .. وصراخ بالاستغاثة .

أهى قريش تأخذهم بغتة ..

ويراع الناس ، ويضطربون ..

ويسرعون إلى خارج المسجد ، ويتقدم محمد ولكنه يدخل إلى بيته الملتصق بالمسجد ، فيمتشق سيفه ويخرج إلى الناس ويجد حصانا بلاسرج فيمتطيه ويسرع يه إلى خارج يثرب وحده ، شاهرا سيفه هاتفا فى الناس :

— لن تراعوا ..

وقبل أن يلحق به أحد .. كان قد خرج وعاد ، ليقول للناس إنه لم يجد غارة ، وإنه ما من شىء هنالك يخافونه .

على أنه آثر أن يحتاط حتى لايدهمهم أحد بعدُ على غرة .. ولكى يقضى على حرب الأعصاب التى يشهرها اليهود خفية ، قرر أن يرسل سرايا من المهاجرين ، تطوف حول المدينة والطرق المؤدية إليها .

فليطمئن كل من فى المدينة وليأمن ..

ولم يكد يتهيأ لإرسال هذه السرايا ، حتى دهم المدينة وباء ، ومرض عدد كبير من المهاجرين ..

وقيل فى المدينة إن المهاجرين حملوا معهم هذا الوباء . فعلى هؤلاء الذين أقبلوا بالوباء أن يعودوا .

أما المهاجرون فقد أيقنوا أن الوباء جاءهم من المدينة ، فكرهوها . بعد أن اطمأنت حياتهم فيها ..

على أن أثرياء الأنصار بذلوا من أموالهم ليلتمسوا الطب للمرضى من المهاجرين .. والوباء ينتشر رغم ذلك حتى لم يعد فى المدينة درب أو زقاق لايرقد فى أحد بيوته مريض يهذى من الحمى .

وألحت الحمى على الناس حتى لقد حسب المهاجرون أنها القاضية.. وتمنى بعضهم لو أنه عاد إلى مكة بدلا من أن يموت غريباً فى يثرب !

ومضى محمد يطوف بهم ويدعو ربه أن يحبب إليهم يثرب كما حبب إليهم مكة .

وعندما خفت حدة الوباء بدأ المسجد يعمر برواده .. ولكنهم كانوا منهكين من أثر الحمى .. حتى لم يكن الواحد منهم يقدر على الوقوف ..

وكان أبو بكر من بين الذين مرضوا ، واشتدت عليه الحمى حتى لقد كان يهذى .. فأرسل إليه محمد عائشة تخدمه حتى يشفى ومرضت رقية ، فطلب محمد من زوجها عثمان بن عفان أن يلزمها .

وعندما انقشع الوباء تماما ، كان قد خلّف وراءه كثيرا من الضحايا.. وخلّف رقية معتلة نحيلة لاتقوى على النهوض .

وهذا الوباء .. ثم الذعر أيضاً !

هاهم أولاء أعداؤه من اليهود قد عادوا يتحدثون عن غارات وهمية ..

وكشف عبدالله بن أبى قناعه ، فواجه محمد أثناء طوافه بالمرضى بلهجة منكرة أن يلزم بيته ، وألا يأتى الناس فى دورهم بما يكرهون !

وصبر محمد .. فلم يكن يريد أن يثير فتنة فى المدينة ، والناس فيها يتساقطون من أثر الوباء صرعى كالأوراق الجافة .. ولزم محمد داره عدة أيام .

ولكن رجالا من يثرب سمعوا ما قاله ابن أبىّ لمحمد ، فعجلوا إليه يلومونه ويغلظون له ، واقسموا على محمد أن يأتى الناس فى دورهم كما كان يفعل ، فليس أحب إلى الناس من أن يلقوه ..

وكان أتباع ابن أبىّ ، يعاملون بعض المهاجرين بنفس الطريقة : يحرجونهم كلماسنحت الفرصة ويحملونهم مسئولية الوباء ويمنّون عليهم أنهم آووهم وأطعموهم .. وأنهم يعرضون يثرب الآمنة لغارات قريش وحلفاء قريش !

ونصح محمد صحبه أن يصبروا ، ولكن رجالا من الأنصار غضبوا لما يحدث وحاولوا أن يضربوا من يتعرض للمهاجرين فنهاهم محمد ، وطلب منهم أن يصفحوا

وأن يلقموا الإساءة بالعفو ، فما ينبغى أن تحدث فتنة فى المدينة ، التى يعتبرها مركز انطلاق لدعوته .

وهيأ سرية من ثلاثين رجلا ، كلهم من المهاجرين الذين يحسنون ركوب الخيل والضرب بالسيف ، وجعل حمزة سيد الفرسان أميراً عليهم وأمرهم أن يخرجوا فيطوفوا فى الصحراء خارج يثرب ، فليتحسسوا إن كان أحد يدبر غزوا .. وأمر عبيدة بن الحارث وسعد بن أبى وقاص أن يخرجا على رأس ثمانين من فرسان المهاجرين ليبحثوا فى طريق آخر

ستطوف السرايا منذ اليوم خارج يثرب . تبحث فى كل الطرق المؤدية إليها ، لترى إن كان هناك من يهددها ، على أن ترجع هذه السرايا بالأخبار دون أن تشتبك فى قتال ..

أما سرية عبيدة ، فقد لقيت قافلة عظيمة من قريش ، فهرب من القافلة ثلاثة رجال لحقوا بالمهاجرين .. واضطرب غيظ عكرمة بن أبى جهل رئيس قافلة قريش فاطلق سهماً على سعد بن أبى وقاص ، وضمد سعد جراحه وانتزع السهم دون أن يخوض الحرب .

عليهم ألا يخوضوا الحرب الآن مهما يلقون .. بهذا أمرهم محمد

وكان سعد أول من رمى السهم من أصحاب محمد .. سيأتى يوم تردُّ فيه هذا السهم ياسعد .. فاصبر .

وأما حمزة فقد اختار أن يمضى بسريته إلى شاطىء البحر الأحمر ، فربما اختارت قريش أن تأتيهم عن طريق الشاطىء .. لكن حمزة لم يعثر بغزاة بل قابل قافلة ضخمة يقودها أبوجهل نفسه .. ومعه ثلاثمائة رجل مسلحون يحرسون القافلة .. هوذا أبو جهل مرة أخرى ياحمزة لكم يغريك منظره بأن تشج رأسه كما صنعت منذ سنوات ؟

واستفز أبوجهل غضب حمزة مستنصرا برجاله الثلاثمائة فأوشك حمزة أن يخوض غمرات المعركة برجاله الثمانين ضد الثلاثمائة قريشى .. غير أن رجلا حكيما من قبيلة جهينة التى تقع على شاطىء البحر الأحمر ، تدخل فى الموضوع وكان موادعا للفريقين ، وكان حمزة وأبو جهل جميعا يحرصان على ألا يغضباه .. وفرق الجهنى بينهما .. ومضى كل فى طريقه ..

عاد حمزة وهو يحس أن الأيام القليلة القادمة تحمل فى اطوائها الحرب ..

وحكى لمحمد .. كل ما كان

وبدأ محمد يستعد المعركة ..

قال رجال فى المدينة لو أنه كان كما يزعم لنا حقا لما مرضت ابنته وصحبه ، ولما فقد بعض أصدقائه ولما دهم مدينته الوباء ..

ومضوا يتهامسون : إن هو إلا ساحر كما قالت عنه قريش ، وقد بطل هنا سحره !

وسمع هو ماقاله المرجفون فى المدينة لبعض من اتبعه ليفتنوهم عنه .. ؟

وأدرك أن الشك قد بدأ يغزو قلوب بعض الأتباع .. فلئن كان صادقا فيما جاء به فلماذا لا يقوى بعد على أن ينشل ابنته رقية من الحمى ، ولماذا لم يستطع أن ينقذ حياة بعض اتباعه الذين سقطوا فى الوباء !.

ذهب إليه بعض المؤيدين يستنكرون ما يقال فى المدينة عنه ويواسونه ..

وأخذوا يطرونه .. فرفع إليهم رأسه التى أثقلها الفكر ، ليقول لهم فى ضيق « لا تطرونى » .

وتقدم إليه رجل من الأتباع متحديا المرجفين والمتشككين .. لم لا نطريك وأنت سيدنا جميعاً .

ولكنه نهر الرجل ، وثار عليه ، وعلى الرجل الذى كان يطريه .. ومضى يحذر السامعين أن يمدحوه مرة أخرى ، فيفسد كل شىء إذن .

يجب أن تتنزه علاقاتهم به عن هذه الإطراء ..

يجب ألا يجعلوا له مقاما فوقهم ، يجب ألا يقدسوه .. فان هو إلا بشر مثلهم يخطىء ويصيب فى شئون الحياة فعليهم أن يواجهوه بالرأى الصريح فالأمر كله شورى بينهم .. ولئن سكتوا عنه ولم ترتفع إلا أصوات الثناء ، فستختنق دعوته إلى الحق والخير فى ضجيج الطقوس ورنين الاطراء ..

إن هو إلا بشر .. بشر مثلهم لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه أو غيره المرض أو الموت .. وإنه ليبكى مثلهم ويضحك ، ويتعب جسده وينشط .. وينام ويصحو ، وإنه ليغضب ويرضى .. مثلهم تماماً .. وإنه ليجوع ويعطش ، ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .. ولا يعرف الغيب وما هو بمعجز ، فما البشر بمعجزين .. لكنما فى الصدر منه تتأجج الكلمة المضيئة التى يقتحم بها مجاهل الظلمات ليضىء شعاعها كل طرق الإنسان إلى الحق والعدل والعافية والصدق والخير .. فيتحرر الإنسان مما يعانى ، وكان الإنسان ضعيفا ..

واحتقن وجهه ، وغلى دمه ، ومرض هو نفسه . فجاء إليه طبيب يعالج المرضى بفصد الدم .. وجرحه الطبيب ليسيل الدم الفاسد منه .. وعندما سال الدم حاول الطبيب أن يلعقه .. ولكن محمدا اشمأز من الطبيب وزجره ، ونظر إلى من حوله غاضبا . كل الدم حرام .. كل الدم حرام ..

وصح من مرضه ليواجه هذه الحالة الغريبة التى تغشى المدينة : أعداؤه من اليهود وحلفاؤهم من شيعة عبد الله بن أبى يُشَكِّكُون فيه ، بينما يبالغ أنصاره فى تقديره حتى ليوشكوا أن يحولوه إلى إله يتعبدون له ..

ومضى يؤكد لهم أن ماجاء به ليس هو التقديس لذاته ، ولكنه جاء بالإخاء والمساواة والعدل .. جاء لتحرير القلب من سلطان الكهنوت والأوثان وبتحرير الجهد الإنسانى من الاستغلال وتحرير الرقاب من النخاسين . جاء بتحرير الوجدان من الزراية والهوان والخوف لتنطلق كل طاقات الإنسان تؤكد فوق هذه الأرض نبالة المجهود البشرى ..

إنه ليطالبهم بالعبادات التى جاء بها .. لكنه يطالبهم أن يَثقّفُوا عقولهم ويغنوها أن يتعلموا الكتاب والحكمة .. أن يطلبوا العلم ولو فى بلاد بعيدة لاتؤمن بما يؤمنون به .. ولو فى الصين ! .. فالعلم وحده هو الذى يشعر الإنسان بما له من خطر .. هو الذى يؤكد له أن لافضل لأحد على الآخر إلا بالمعرفة التى يزخر بها القلب .. هو الذى يحطم الصلف الزائف ليدعم فى النفس الشعور بالكبرياء الصادقة .. هو الذى يجعل الإنسان مهيبا أمام كل القوى الغاشمة كقلعة حصينة الأسوار ..

ومن أجل ذلك فهو يقول لهم .. الحق يقول لهم : « فضل العلم خير من فضل العبادة » .

إن أصحابه ليسرفون فى العبادة : يقومون الليل ويصومون النهار ، ومنهم من يعتزل النساء .. ولكنه لم يجىء بهذا .. وإنه ليقنعهم أنه هو نفسه يأكل ويشرب ويحيا الحياة ويعاشر النساء ويستمتع بالطيبات من

الرزق .. فالدين الذى جاء به هو أسلوب فى معاملة الآخرين أيضاً . .
لقد قيل له إن فلانا مؤمن عميق الإيمان يكثر من صلاته وصدقته وصيامه غير أنه يؤذى جيرانه ، فقطب وجهه قائلا : هو فى النار ! .

* * *

ولقد دخل ذات مرة على زوجته عائشة فوجد عندها نسوة من صاحباتها ، بينهن واحدة لاتخطىء جمالها العين ، ولكنها رثة الثياب زرية الهيئة يختفى حسنها فى كآبة غامرة .. فسألها ما بال المرأة ؟ فقالت له عائشة إنها لزوجة أحد صحابه ، إن زوجها يصوم النهار ويقوم الليل ! .

ما عسى أن تصنع الزوجات إن شغل عنهن الرجال بالعبادة .. إنه لم يجىء بمثل هذا أبدا ..

وأرسل إلى من يدعو الزوج .

حتى إذا لقيه قال له : «بلغنى أنك تصوم النهار وتقوم .. الليل ، فلا تفعل فإن لجسدك عليك حقا ولعينيك عليك حقا ولزوجتك عليك حقا » .

وانصرف الرجل ممتثلا للنصيحة ..

وفى الصباح التالى كانت زوجته تملأ مجلس عائشة مرحا ، يفوح منها العطر ، وقد تورد خداها وجرى ماء الحياة فى وجهها .. وسألتها عائشة ما هذا ؟ .

فقالت الزوجة وجذوة السعادة تتوهج فى عينيها الباسمتين : أصابنا ماأصاب الناس » .

وهكذامضى يكسرحِدَّة الأعداءالشانئين ، وحِدَّة الاتباع المتزمتين على السواء ..

* * *

والحياة فى المدينة بعد ذلك تمتحنه بما لم يواجهه من قبل . . فصحبُه المقربون الذين يعتزبهم ، يسلكون على غير ما يرضيه ..حمزة ، عمر .. وآخرون .. لقد اعتزت الدعوة بحمزة وعمر .. وقد زلزلت قريش كلها حين انضما إليه . ومع ذلك فقد جاء الزمن الذى يواجه فيه حمزة وعمر وغيرهما بما يكرهون .

وها هو ذا حمزة بعد أن رجع من رحلته التى قابل فيها أبا جهل وفرسان قريش ، يعود إلى حياته القديمة الباهرة من الخمر والغزل .

إنه إذن فى الخامسة والخمسين ، انقطع طويلا عن حياة الليل ، ولكنه منذ رأى الموت يواجهه فجأة على ساحل البحر عاد إلى المدينة بجرع من متاع الحياة بظمأ غريب ، لا يرويه شىء .. حتى لقد ظل ليلة كاملة يشرب الخمر ، مع فاتنتين من بنات إسرائيل ، رقصتا له وغنتا ومتعتاه ، فغدا على المسجد يتحدث عن جمالها ولا يخفى على أحد أنه استمتع بهما .. كان يتطوح ويتضاحك وهو يقبل على المسجد ، فى فمه رائحة الخمر ، وعلى بدنه ووجهه آثار من عطر الفاتنتين ، وكل ذكريات تلك الليلة .

وأنكره محمد حين رآه ، ولكن حمزة الذى كان ما يزال فى سكر الليلة الماضية نظر إليه وإلى من حوله قائلا باستخفاف « إن أنتم إلا عبيد آبائى » .

وانطلق يتهيأ لاستقبال ليلة أخرى ممتعة مع حسان المدينة المغنيات فى بيوت يهيئها بعض سراة اليهود لاستقبال الرجال المسلمين !

هذا إذن هو ما تفعله الخمر ببعض الرجال .. ؟ وهكذا تكيد يهود ! !

ماذا يفعل الآخرون إن كان حمزة يصنع مثل هذا ؟

ومضى محمد يحض أصحابه أن يمتنعوا عن الخمر ، فهما يكن فيها من منافع فان فيها لإثماً كبيراً ..

لكم يحرجه سلوك حمزة ..

على أن حمزة أفاق لنفسه ، فأعلن ندمه أمام الجميع ، وأقسم ألا يقرب الخمر ولا نساء غير زوجاته .. وظل يبكى من الندم حتى غسل خطيئته بالدمع فأخذ محمد يخفف عنه ..

ولم يكد محمد ينتهى من أمر حمزة حتى سعى إليه أبو بكر يشكو عمر ابن الخطاب فقد اختلفا على شىء فاحتد عليه أبو بكر ولكن عمر بن الخطاب أغلظ له .. وخيل لأبى بكر أنه هو الذى اعتدى على عمر ، وحاول أن يعتذر إليه ولكن عمر رفض إعتذاره ..

أيمكن أن يحدث كل هذا بين ألصق الناس به ..؟

على أن عمر بن الخطاب جاء بعد هذا فقال له محمد وهو ينظر إلى الملتفين من حوله :

« أبو بكر صدقنى حين كذبتمونى ، وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركون لى صاحبى ؟ » ..

وتصافى عمر وأبو بكر ..

خلافات أخرى كثيرة بين المهاجرين ظلت تشتجر حول حدود الأرض التى استصلحوها فى المدينة .. ومحمد يطالبهم ألا يتخاصموا وألا يتفرقوا وألا يغرهم متاع الحياة .. فالأموال فتنة .

كل هذا ويهود يثرب يكيدون .

حرب الإشاعات .. وحرب الإحراج .. وأخيرا حرب المال ..

لم يطق يهود يثرب وجود طائفة أخرى من أغنياء المهاجرين ممن اتقنوا التجارة .. وليس أبرع من تاجر قرشى .. إن منهم الآن من يفوق أغنياء اليهود مالا .. كعبد الرحمن بن عوف مثلا !

ووضعوا الخطط لضرب الاقتصاد الجديد : صفقات وهمية فى سوق بنى قينقاع .. ومضاربات ومغامرات لتثير الزعر أو الانهيار فى السوق .. وهكذا خسر تجار المهاجرين والأنصار ! .

وما فى المدينة كلها غير سوق بنى قينقاع .. وطلب محمد من التجار المسلمين أن ينشئوا سوقاً جديدة لا يتسرب إليها أحد من مضاربى اليهود أو من شيعة عبد الله بن أبى ، فيخرّب اقتصادياتهم .

وأنشأوا السوق الجديدة ، فنشطت المعاملات فيها ، وأقبل التجار الغرباء إليها ..

آثروها على سوق بنى قينقاع فقد كانت قواعد التعامل فيها أكثر عدلا وأوفر ضماناً للبائع والمشترى .

وكان دستور العمل فى هذه السوق هى القواعد التى جاء بها محمد : لا ربا ، ولا ارهاق ، ولا غرر ، ولا غرار ، ولا تعامل على بضاعة لم توجد بعد .. البائع يضمن سلامة ما يبيع ويضمن للمشترى نقاءه من العيوب : العدل واحترام الحقوق المتبادلة دستور هذه السوق الحديثة .

ثم حسن التعامل مع المعسرين .. فقد قال لهم محمد : « من يسر على معسر فى الدنيا يُسِّر عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ثم وعد من يتنازل عن جزء من دينه للمدين المعسر بأن « يظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ووعدهم أيضا أن « من يفرِّج عن معسر تُستجاب دعوته وتُفرج كربته» .

وفى هذه السوق ارتفعت نداءات المبشرين بالدين الجديد .. ورأى التجار الغرباء أن هذه القواعد الجديدة التى تحكم البيع والشراء ، لهى أعدل وأحرى بأن تتبع من كل ماعرفوه ، وإذن فالعقيدة التى تشكل أخلاق المؤمنين بها على هذا النحو ، جديرة بأن تعتنقها القلوب . .

ودخل فى الإسلام عدد من هؤلاء التجار الغرباء .. فأيقن كبار تجار اليهود فى المدينة أن هذه العقيدة بتعاليمها فى البيع والشراء ، يمكن أن تشيع بين القبائل والمدن العربية ، وتجذب الناس فتفسد الأمر عليهم ، وتهدد مصالحهم تهديدا جديا ..

والتقت مصالح يهود المدينة بمصالح كبار التجار فى مكة .. فشرعوا يصدون القبائل الأخرى عن السوق الجديدة ، وعن محمد جميعا ..

واهتموا بصد الشعراء من القبائل الأخرى .. وكانت سوق المدينة ، قد أخذت تجتذب الشعراء ، فقد صمم التجار المسلمون أن ينافسوا بها أسواق مكة .. وأقاموا فيها المنابر ، ليلقى عليها الشعراء آخر ما نظموه من قصائد ..

والشاعر هو المعبر عن آلام القبيلة ومفاخرها .. هو الذى يرفع ذكرها بين القبائل الأخرى بالكلمة الساحرة التى تبهر ، ثم ترسخ فى العقول وتتناقلها الأجيال ..

لو أن واحدا من هؤلاء الشعراء الفحول أقبل إلى سوق المدينة ، فاقتنع بتعاليم محمد ، أو أغدق عليه بعض الأغنياء من أتباعه ما يشتهى من مال ، فانطلق الشاعر يتغنى بمحمد وتعاليمه ، لاشتهرت هذه التعاليم عبر الجزيرة ، وارستها الكلمات الساحرة المنظومة فى كل القلوب .

إن محمدا نفسه ليدرك هذا ، وقد اصطنع هو بنفسه الشاعر حسان بن ثابت ، ومحمد فى إدراكه لسلطان الكلمة ودورها فى الدفاع عن العقيدة يتمنى أن ينضم إلى حسان شعراء آخرون من الفحول .

ولكن تجار اليهود وتجار مكة بفهمهم لخطورة الشعراءَ فى المعركة اتفقوا على أن يحُولوا بين محمد ، وبين هؤلاء المثقفين الرواد ذوى النفوذ الأدبى الكبير ..

وخشى اليهود أن يستفزوا غضب محمد .. وهم مواطنون له بالمدينة بينه وبينهم معاهدة مكتوبة فى صحيفة : أن يحموه ويحميهم ويمنعهم ويمنعوه .

لقد صبر محمد كثيرا عليهم ولكنه لن يصبر على صدهم الشعراء عنه .. إلا الشعراء ! فهو رجل يمجد الثقافة والمثقفين ويعرف خطر الشعراء ، ويتمنى أن يعتز بهم وينتصر ، وإنه ليعامل حسان بن ثابت برعاية خاصة لا يعرفها أقرب الناس إليه حتى أبوبكر .. إنه على الأقل يفهم نزواته، ويؤكد له أن كل دوره فى الدين الجديد : هو أن يقول الشعر.. إن الدور الذى يؤديه هذا الشعر ، ليخفف عن الشاعر كثيرا من الأعباء التى يطالب بأدائها الآخرون ، حتى لقد جاء رجل من المسلمين المتشددين يلعن حسان ابن ثابت أمامه لأنه يشرب الخمر ، فقال محمد لا تلعنه .. إنه يحب الله ورسوله ..

وإن أصحاب محمد ليعاملون الشاعر بإكبار خاص إنهم ليعرفون أنه أعلى الأصوات تعبيرا عن الوجدان الجديد .. إنه مفخرتهم بين الأمم والقبائل وهم أيضاً يتمنون لو اعتزوا بشعراء آخرين من طراز حسان بن ثابت .

ليتهم يضمون إليهم أمية بن الصلت ، ولكنه فى الطائف ، وما زالت ثقيف منذ طردت محمدا تحمل لهم العداء ، ولقد حالفت قريشا عليهم .

ومالك بن زهير .. ليته يقتنع بالعقيدة الجديدة .

والأعشى .. هذا الرجل الذى تردد أشعاره كأنغام الصناجات ، لو أنه أقبل إليهم أيضا فستردد الجبال والوديان رجع تعاليمهم وتتغنى بها العذارى فى الخدور والجوارى فى بيوت اللهو ، وفرسان العرب وهم يخوضون المكاره .

ولم ينتظر أصحاب محمد حتى يسعى إليهم الشعراء ، فقد مضوا هم إليهم بينما رسل قريش يصدون هؤلاء الشعراء .. ويغرونهم بالمال الكثير..

على أن من الشعراء من لا يثنيه اغراء المال .. وما من شيء يمكن أن يصده عن السعي إلى الحقيقة .. لا المال ولا التهديد بالأذى ، فهو يندفع مع أشواقه وقلقه إلى المدى ..

وكان القلق يغرو قلب أمية بن الصلت ، ولكنه لم يحاول أن يسعى إلى محمد لأنه وجد نفسه — هو الشاعر الفحل — أحق من محمد بهذه الدعوة .

أما مالك بن زهير فقد رفض تعاليم محمد أول الأمر ، وبدلا من أن يكسبه المسلمون إلى جوارهم لينتصروا به ، انطلق يهجوهم ، ويفحش لهم ..وتدفقت عليه الأموال وسبائك الذهب يحملها رسل من أثرياء اليهود وأثرياء مكة .

ولكن الأعشى وجد فى التعاليم الجديدة شفاء لبعض قلقه .. كان دائما يبحث عن المجهول .. عن حل لما يراه ويسخطه ؛ فهو أبدا ينتقل من بلد إلى بلد ، يتغنى بالحياة ، ويطرب الناس بشعره ، ويحظى بالهدايا والمال من السادة الذين يتنافسون على استقباله واستضافته .. من بلد إلى إلى بلد ، من فاتنة إلى فاتنة أخرى جديدة على أجنحة تصنعها الخمر الفاخرة المعتقة ، بحثا عن الراحة وسعادة القلب .. حتى لقد ألف الخمر والغزل .. وفى بعض هذه الرحلات سمع عن محمد ، وعن سوق المدينة ،

وعن تعاليم الرجل .. فقرر أن يخوض المغامرة وأن يذهب إلى محمد هذا الذى يتحدث عنه أصحابه فى الأسواق بحماية المستشهدين ! .

وأنشأ قصيدة طويلة أقسم فيها ألا يرحم ناقته من السفر « حتى يلاقى محمدا ».. وعرفت قريش بالأمر ، فهرع إليه رسلها يصدونه .. وحاولوا أن يمسكوا بزمام ناقته فزجرهم وطلب منهم أن يتركوها فان لها فى « أهل يثرب موعدا .

وأغروه بالمال فما نفع الإغراء ، وأخيرا احتالوا عليه قال له قائلهم متلطفا : « يا أبا بصير إنه يحرم الزنا » ومضوا يصورون له الحرمان الذى يجب أن يعانيه فى ظل التعاليم الجديدة ؛ لاغزل بعد ، ولا انطلاق من عشيقة إلى أخرى وإنما التزام بالزوجة .

وفكر الأعشى قليلا فى أسلوب حياته الماضية من فاتنة إلى فاتنة أخرى. كان قد شرب كأس المتاع حتى الثمالة فلا بأس بأن يلتزم الآن..وقال: « فهذا أمر لا أرب لى فيه بعد » .

فقال له قائلهم : « فانه يحرم الخمر يا أبا بصير . فبهت الأعشى .. ثم لوى زمام ناقته راجعا وهو يقول : « أما هذه فان فى النفس منها لعلالات ولكنى منصرف فاتروى من الخوعامى هذا ثم آتيهُ فأسلم » .

غير أن الأعشى لم يأت محمدا أبداً .. ظل يشرب ويشرب ، فى جنون الاحساس بأنه سيحرم إلى الأبد من هذه الخمر التى يحبها ، حتى مرض ومات بعد ..

وعلم محمد وصحبه بما كان .. ولم تكن الخمر قد حرمت تحريما قاطعا بعد ، ولكنه كان يحض الناس ألا يشربوها لأن شرها أكثر من نفعها ..

وحزن المسلمون لأنهم خسروا عبقرية الأعشى ! .

إن قريشا تفرض عليهم الآن حصارا جديداً بصدها الشعراء الفحول عنهم ، وهى بعد تغرى بعض هؤلاء الشعراء ليشهروا بهم

هذا الأسلوب الخطير من الحرب الباردة يجب أن يقابل بمثله .. ويجب أيضاً أن تشعر قريش بأنهم أصبحوا الآن قوة ، فهى لا تستطيع أن تحرض عليهم بعد .. يجب أن تحسب لهم حسابا .

كل هذا الكيد من قريش ، وفى الجبهة الداخلية يكيد اليهود وعبدالله ابن أبى وشيعته .. ويذيع شعر لمالك بن زهير يهجو به محمدا وصحبه وأنصاره ، وينتشر فى أحياء اليهود بالمدينة شعر آخر ساخر .. صنعته يهودية شاعرة ..

ويستفز محمد بيان حسان بن ثابت ويغريه بأن يرد على شعر الأعداء جميعا ، ويرد حسان فيفحش ، ويتحرج بعض صحاب محمد من هذا الشعر الفاحش ولكن محمدا يتركه يقول كما يشاء .. فليكل لهم حسان بنفس الكيل ..

* * *

والمهاجرون لا يسلكون مع هذا كما يجب لهم محمد ..

لم يعد أحد يشرب الخمر بإسراف منذ حادثة حمزة ، ولم يعد أحد .. يخاصم

أخاه بغلظة منذ تصالح عمر وأبو بكر ولكن الطمع لم يكن قد هجر القلوب بعد وما برح رجال من المهاجرين يعتدون على حدود بعضهم ..

أحلام الغنى قد بدأت تملأ رؤوس البعض منذ منحهم العمل فى الأرض شيئا من المال .. وإن منهم لمن يستمرىء الراحة الآن بعد أن كافح فى مكة وتحمل العذاب هناك .. وإن منهم لمن ينتهز فرصة النعيم الجديد ليستقوى .. وقد أخذ محمد ينظم شئون المدينة فيقيم فيها المسئولين عن هذا العمل أو ذاك .. ومع ظهور المناصب ، بزغت طائفة تتقرب وتحاول أن تحصل على مالا تستحقه .. ظهر من يطالبون بالتعويض عما تحملوا فى سبيل العقيدة الجديدة .. لقد كافحوا لبعض الوقت وهم يطالبون الآن بالاتعاب وإن منهم لمن يحسد أخاه على ما نال ..

الطريق مازال بعد طويلا شاقا ، مليئا بالمتاعب ! .

ومحمد ينصح لهم جميعا ألا يحملوا فى قلوبهم غير الحب .

فما يجتمع فى جوف عبدٍ الإيمانُ والحسد ..

وإنه ليؤكد لهم أن خيرهم هو من يتفانى فى سبيل ما يؤمن به ، وإن الطمع فى متاع الحياة الدنيا يفسد القلوب وان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب ..

ثم أنه ليأمرهم أن يكون الإنسان فى عون أخيه ، وأن أفضلهم ليس هو أغناهم ولا أعلاهم منصبا ، وإنما هو أعفهم يدا وأتقاهم قلبا . وأنه ليغريهم بأن يملأوا قلوبهم بقيم الفضيلة لا بالطمع فى الغنى والجاه .

وكان لتعاليمه رجع طيب فى كثير من القلوب ، ولكنه فوجىء ذات يوم على الرغم من كل ما يقوله بأحد المهاجرين يطمع فى درعين عند زميل له ، فيسرقهما .

السرقة أيضاً .. على الرغم من كل النصائح ، ومن كل التحذيرات ؟.

وأمر محمد أن تقطع يد السارق إن ثبت عليه أنه سرق .. فهذا هو الحد الذى جاء به .

فالذين كتموا أحقادهم ليتّهم الواحـــد منهم أخاه بالسرقة ، انفجرت المنافسات ، واليهود وراء هذا كله يؤججون القلوب بالبغضاء ويلقون العداوة فى نفس المسلم ضد أخيه المسلم ليحرجوا محمدا ..

وأعلن محمد أن من شهد زورا ، عوقب على شهادة الزور ، ومن اتهم غيره بلا حق عوقب على هذا الاتهام ، ومن شهّر بغيره عوقب على هذا التشهير .

على من يدعى ضد غيره أن يثبت دعواه وعلى المدعى عليـــه ألا يكذب فان كذب أخذ بكذبه ..

واهتم محمد بحادثة سرقة الدرعين فأخذ يحققها بنفسه .. ودخل فى دوامة عجيبة اغضبته .. هذا الرجل يتهم ذاك ولايقيم بينه ، ويسأل محمد المتهم فيغضب أقاربه ويرون فى التحقيق معه اهانة له ! .

لقد تألّف القلوب المتخاصمة فى المدينة ولكن قلوب الذين هاجروا معه تتنافر الآن ، وإن من هؤلاء المهاجرين لمن يذكر تضحياته ، ويطالب

بالقصاص ممن يشهر به ، والحقيقة غامضة .. والسارق الحقيقى لا يريد أن يتقدم فيعترف .

ومحمد مصمم على أن يجد السارق الحقيقى فيعاقب ليبين الحق ، وتظهر براءة الذين اتهموا .. ولكيلا تكون سرقة بعد .

وخلال هذا الضجيج الذى ثار فجأة هرب السارق الحقيقى ..

عاد إلى مكة .. والتجأ إلى بيت امرأة كان يعشقها قبل أن يدخل الاسلام ، إذ لم يجد له فى مكة دارا ولا مالا ، فقد صارت قريش كل شىء له ..

وحركت هذه الفتنة شاعرية حسان فانشد قصيدة يهجو فيها السارق والذين أجّجوا البغضاء .. وعرض لهرب السارق إلى مكة ، وذكر المرأة التى آوته هناك ، وشهر بسمعتها .. وذاع الشعر حتى حفظه فتيان من قريش ، واسمعوه لتلك المرأة ، فدخلت على صاحبها السارق تشتمه وهى تقول : « انما أهديت لى شعر حسان !! » ثم أخذت رحله وطرحته خارج المنزل ..

* * *

على الرغم من هذا كله ، فقد كان على محمد أن يحرس المدينة ، من العدوان .

كان عليه خلال هذه الدوامات المتموجة أن يواجه قريشا بكل سلطانها .

أن يفرض عليها هيبته .. فلا تصد عنه الذين يريدونه ، ولا الشعراء ، ولا تغرى به من يهجوه ، ولا تتآمر ضده مع بعض مواطنيه فى المدينة ..

كان عليه أن يتابع إرسال السرايا ، ليتحسس من أمر قريش ، وليؤمّن الصحراء من حول المدينة ، فلا تفاجئهم قريش بالغزو .. لا قريش ولا إحدى القبائل التى تحالفت معها ..

كان عليه وسط كل هذه الدوامات المتلاحقة ، أن يهىء للكفاح قلوبا بدأت تأنس إليه وتألفه ، بعد أيام الاستبسال الأولى .

اليهود يكيدون ، وشيعة عبد الله بن أبى تثير البغضاء ، وبعض المهاجرين يشغله جمع المال ، ومنهم من يتنفس على أخيه مكانته .. وبعض الذين ناضلوا بشجاعة فى أول الدعوة ، يستنيمون اليوم إلى طيب المنام .. وقريش تتأهب للعدوان عليهم جميعاً ..

ومضى محمد يذكرهم بالطريق الطويل الذى يجب عليهم أن يخوضوه معا ، على الرغم من الاشواك والصخور .. وكل شىء ..

فليستعدوا إذن للأيام الصعبة القادمة .. فمن حارب ومات فى الحرب دفاعا عن عقيدته ، فسيعوض عن مزرعته حديقة فى الحياة الأخرى ، وسيكون له بدلا من بيته قصرا ضخما .. وبدلا من زوجته حوريات ابكارا لم تقع العين على مثل جمالهن ..

الحياة عرَض ، سيتركه الإنسان ذات يوم .. فكل إنسان يموت ، ولكن الموت فى الحرب شىء .. إنهم لن يحاربوا طمعاً فى الاستيلاء

على قريش ولكنهم سيحاربون دفاعاً عن وجودهم ، وعن الأشياء التى يؤمنون بها والتى يحبونها .. إنهم سيقاتلون دفاعاً عن المستقبل .

وليذكروا أن الانسان يجب أن يموت ذات يوم .. ويوم يموت تتبعه إلى قبره ثلاث : أهله، وماله ، وعمله .. ثم يعود الأهل إلى سيرتهم ، ويتفرق المال ولايبقى للانسان غير عمله !

وألح محمد على المهاجرين والأنصار بهذه التعاليم .. فأخذت سبيلها إلى الأعماق يوما بعد يوم ، تحتل مكانها إلى جوار الطمع فى السلطة والمال والأرض ، وامتلأت بعض القلوب بهذا الايمان ، وبدأت تتوثب بين الضلوع فى شوقها إلى يوم تلمع فيه السيوف دفاعا عن المستقبل

وبدأ هو يقود السرايا بنفسه ، ويخرج ثم يعود بالطمأنينه إلى أهل المدينة . وكان كلما خرج يضع مكانه رجلا من بسطاء المسلمين.. لكيلا يستعلى أحد من السابقين إلى الإيمان به أو المقربين إليه .

ورأت اليهود موجة نشاط جديدة تهز القلوب فعادت تكيد .. وكان من رجال يهود ونسائها من يقوم بأعمال السحر .. وللسحر إذ ذاك ساطان مخيف على بعض العقول وصنعت امرأة يهودية سحرا يقعده عن الخروج ويمنعه من النساء

ولقد ضاق هو بهذا السحر ، ولكنه تحداه .. وخرج يقود احدى السرايا ، وعاد إلى المدينة كما تعود .. ساخراً بهذا السحر ..

غير أنه امتنع عن النساء .. فأما سودة الزوجة الكهلة فقد صبرت للأمر عدة شهور ، وأما عائشة زوجته الجديدة الشابة فقد احتملت هذه

الشهور ثم طالبته أن يصنع شيئا يبطل به هذا السحر .. وكان هو يدللها ويصطفيها ويتركها تتكىء بذقنها على كتفه أمام الناس ، وشعرها يلمس خده ، وهى ترى معه ألعاب الأحابيش فى ساحة المسجد .

وكان يثق أن اليهود إنما يشغلونه بهذا الأمر ، فى وقت حرج بالنسبة إلى دعوته وأنه على أية حال سيشفى ، فما هذا الوهم الذى ألقوه فى نفسه ! ولكن عائشة ألحت عليه أن يلتمس الطب ،أومايبطل هذا السحر ، وأن يعاقب الذين صنعوه..

وكان هولايريد أن يشغل أحداً بغير الاستعداد لاستقبال قريش وحلفائها إن بدأ العدوان على المدينة أو تجارتها . . إنه فى المرحلة الحرجة ، ليحرص على أن يسد كل الثغرات فى جبهته الداخلية ، وأن يشد الصفوف لتتماسك .. فقال لعائشة : « أكره أن أثير على الناس شرا »

ومضى يعد سرية بقيادة عبد الله بن جحش وسبعة آخرين من المهاجرين فيهم سعد بن أبى وقاص . .

وأعطى قائد السرية كتابا وأوصاه بألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين .

وعاد إلى حياته الطبيعية ، وعادت إليه العافية بعد أيام . . فاطمأنت الحياة بعائشة ، وغمرتها بشاشتها القديمة .

أما عبد الله بن جحش فقد سار يومين ثم فتح الكتاب فاذا هو أمر منه أن يسيروا إلى « نخلة » بالقرب من مكة فيرصدوا منها قريشا ثم يأتوا

المدينة بخبر قريش وفى الكتاب أمر لعبد الله ألا يستكره أحدا ممن معه ، فمن شاء فليرجع ومن رغب فى الاستشهاد فليتقدم ..

وأقام عبد الله بن جحش وصحابه بوادى نخلة ، حتى مرت بهم قافلة صغيرة لقريش تحمل جلودا وزبيبا ، هاجموها وقتلوا رجالها وأسروا اثنين وغنموا البضاعة وعادوا إلى المدينة . . وفى أثناء القتال أسرت قريش اثنين من السرية ، أحدهما سعد بن أبى وقاص .

كان ذلك فى رجب .. الشهر الذى تعود الحجاج أن يفدوا فيه إلى مكة .. الشهر الحرام فلا قتال فيه ..

فلما عاد عبد الرحمن بن جحش إلى المدينة ، دخل على محمد ظافرا منتشياً بما حمل من غنائم وبما أحرزه من انتصار .

ونفر عرق من جبهة محمد وصاح فى عبد الله وبقية صحبه « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ! » .

وطلب ألا يمس أحد شيئاً مما حمله عبد الله بن جحش .

وامتلأت المدينة بالوجوم .. بينما انطلق المرجفون فى المدينة يقولون قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال .

وانقض المسلمون على عبدالله يعنفونه مُغلّطين له .. وكل منهم يشعر

بخجل ، كبير لأن واحدا منهم ارتكب مثل هذا العمل فى الشهر الحرام .

وانتظر عبد الله وبقية صحبه .. ما سيحل بهم من عقاب .

اتراهم قد أفسدوا فى الأرض .. ؟

ولم يكلمهم محمد أياما .

يجب أن تنتهى — على الفور — كل هذه المناقشات حول موقف عبد الله ، فلن يستفيد منها أحد غير الأعداء .. !

ولقد مضى الأعداء يؤججون المناقشات ويثيرون النفوس ، وهم يُزوِّرون على هذا الدين الجديد الذى يسمح لأتباعه بالعدوان فى الشهر الحرام ..

وهكذا عاش عبد الله بن جحش أيامه يطارده الاتهام بالغدر ، وبإهدار المقدسات المتوارثة ..

كانت أيامه قاسية مضنية من الشعور الزَّرِى بالعار ..

فلم يعد عبد الله يستطيع بعد أن يرفع الرأس أمام أحد فى المدينة ، حتى صحبه المسلمين .

ولكن الندم المعذِّب الذى استسلم له عبد الله ، ليس عقاباً كافياً .. لا بد من عقاب صارخ يعظ ويدوى ، ويغمر بصداه رجع أصوات الاستنكار عبر الجزيرة العربية ..

أهو النفى من المدينة .. ؟

النبي ليس عقاباً كافياً أيضاً .

فليقتل عبد الله إذن ، وليغسل دمه عن أتباع الدين الجديد هذا العار الذي يلطخهم حتى الجباه ..

غير أن بعض المسلمين السابقين إلى الإسلام ، ذكروا لعبد الله بلاءه القديم في تلك الأيام الأولى من الدعوة ، حين كان العقاب الذي تنزله قريش بمن يتبع العقيدة الجديدة ، هو النفي من الأرض ، والتعذيب حتى الموت ومصادرة الممتلكات ، والهوان ، وانتهاك الحرمات .

والحرمات قصاص .

ومهما تكن خطيئة عبدالله ، فان قريشا قد ارتكبت وما زالت ترتكب خطايا يجب أن ينكرها كل ذي قلب شريف ..

لقد أخطأ عبدالله وضل ، ولكن قريشا شر مكانا وأضل عن سواء السبيل

فما بال رجال المدينة لايغضبون لأن قريشا تصد المسلمين عن الحج بالكعبة .

أم يريدون كيدا . .

لقدجاوز عبد الله كل الحدود حين اعتدى على القافلة القريشية وقاتل في الشهر الحرام . . هذا حق .. ولكن فليذكر مغاضبوه من المهاجرين ، بعض ماصنعته قريش بهم هم أنفسهم قبل أن يصبوا كل هذا الغضب على عبدالله المسكين !

وإنها لتصدهم عن المسجد فى الشهر الحرام .. ومازالت تفتن من بقى فى مكة من أصحابهم المستضعفين عن دينهم الجديد .

إنها لكبيرة أن يقتل عبدالله أحداً فى الشهر الحرام ، ولكن الفتنة أكبر من القتل .. وصد الناس عن البيت العتيق وإخراج أهله منه أكبر .

وخرج محمد إلى الناس ليقضى على هذه المناقشات التى لا تنتهى ..

فلتحسم الأمر يامحمد .. فما تدعو إليه ، يحتاج الآن إلى أن تحشد كل قواك وإلى أن تحسن تدعيم الصفوف .

إنهم لا يعلمون .. فلتعلمهم أنهم مطالبون الآن أن يرفعوا السلاح فى أى وقت دفاعاً عن المصير .

إنهم ليسألونك عما ستصنعه بعبدالله بن جحش ، ولكن جرائم قريش أكبر . . ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير .

لا تتخاذلوا ياأيها الناس أمام من عذبوكم وأخرجوكم من دياركم .. وما زالوا يفتنون أصحابكم .. قاوموهم .. وأخيفوهم .. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة .

ولم يكد محمد يعلن على أصحابه هذا الموقف ، حتى عادت الحياة تدب من جديد بكل عنفوانها فى بدن عبدالله .. بعد أن أوشك الندم المعذب أن يمتص رونق شبابه قطرة بعد قطرة .

وخرج عبد الله إلى الناس يرفع رأسه ، راضيا عن نفسه .. وقال لمحمد : « أنطمع فى غزوة أخرى نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ » .

إنه ليتوق الآن إلى الاستشهاد فى سبيل مايؤمن به .. ألم يعلمه محمد - كما علم غيره - أن من مات فى سبيل العقيدة الجديدة ، جوزى بعد الموت بجنات تجرى من تحتها الأنهار فيها كل ماتشتهى الأنفس .. ؟

صبرا ياعبدالله .. فاليوم الذى تصبو إليه أنت وزملاؤك ، آت لاريب فيه .

وما كانت قريش تتركهم واعين ..

وبعثت قريش فى فداء أسيرى عبدالله ، فرد محمد :

« لا نفديكموها حتى يَرَدَّ صاحبانا »

وأطلقت قريش سراح سعد بن أبى وقاص ، وصاحبه ، فعادا إلى المدينة أما رجلا قريش الأسيران ، فقد أسلم أحدهما ورفض أن يعود ، ولحق الآخر بمكة ..

وأقبل محمد على حياته التى تعودها فى المدينه : النهار للعمل ، والليل للتأملات والعبادات والنوم .. من بيت سودة إلى بيت عائشة ، ليلة هنا وليلة هناك ، وهو يفكر ويتدبر ماعسى أن تصنعه قريش بعد أن أعلن أنه سيقاتل حتى لاتفتن قريش من يؤمن به . وإنه ليستشير أصحابه كلما التقى بهم فى المسجد ، فيعلم أن قريشا تصفى خلافاتها مع القبائل لتنشىء ضده حلفا ثم تبدأ العدوان ..

وطرب أعداؤه فى المدينة لهذه الأنباء . سيخرج محمد ذات يوم مع صحبه المهاجرين والأنصار ، فيلقوا قريشا .. ستفنيهم قريش ، فتموت

تعاليمه فى المدينة ، ويغلق السوق الذى أنشأه التجار المسلمون ، وتعود العلاقات فى المزارع والأسواق بين الملاك والأجراء ، كما كانت قبل أن يأتى محمد بتعاليمه التى أثارت مطامع الفقراء ، وقررت فى أموال الغنى حقوقا للمحتاجين ، وسدت على تجار المدينة كثيرا من الطرق إلى الإثراء ..

على أن يهود المدينة أرادوا أن يواجهوا محمدا مجتمعين .. فقد لاحظ رؤساؤهم أن من فقراء المدينة من يميل إلى محمد .. وأن من أغنيائهم بعض الذين تعجبهم تعاليمه ويكبرون سيرته بينهم ، حتى لقد أوشكوا أن يتبعوه .

لكم من تجربة عاناها رؤساء اليهود فى المدينة .. كم من مرة نجحوا فى إثارة الشكوك حول محمد وصحبه ، وكم من مرة نجحوا فى إلقاء الذعر فى القلوب ، وفى خلق حالة من الضيق بمقدم محمد .. ولكن محمدا كان فى النهاية يقضى على الشكوك ويحمل إلى القلوب كثيرا من الطمأنينة ، فتتفتح له النفوس التى كان يساورها الضيق به ! .

على أنه مشغول بالاستعداد لقريش ، وهو متعب القلب لمرض ابنته رقية التى لم تستعد عافيتها الأولى منذ دهمها المرض أيام الوباء .

الفرصة سانحة لإثارة الشك فيه من جديد ، ولصد بعض اليهود الذين يفكرون فى الالتفاف حوله .. لقد جاء بكثير من العقوبات التى لم يتعودها العرب ، ولقد هرب منه أحد المهاجرين وعاد إلى قريش منذ قرر محمد أن يعاقبه بقطع اليد على سرقة الدرعين .. فلو أن بعض الذين

يميلون إلى محمد من اليهود امتحنوا بمثل هذا ما تبعه أحد منهم ، ولتماسكت قبائل اليهود جميعا وكونوا حلفا قويا ضد محمد .

واجتمع بعض أغنياء يهود وأجمعوا أن يكيدوا لعشيرة منهم كان رئيسها يبدى لمحمد بعض الميل ..

كانت له ابنة جميلة اسمها بسرة تعشق رجلا آخر من سادة عشيرتها .

ودبر بعض كبار تجار يهود المدينة الأمر فى إحكام .. فضبطت بسرة مع عشيقها .. وذهب زوج بسرة ، وزوجة العشيق مع شهود من كبار اليهود يشكون إلى محمـــد ويسألونه أن يقضى بينهم .. وكانوا يعلمون ما يأمر به محمد فى مثل هذه الحالة ، إنما هو الرجم حتى الموت .

وأدرك محمد كل شيء . . إنهـــا لمحاولة جديدة لتنفير الناس منه فعشيرة بسرة هم أقرب اليهود إلى الايمان به .. وقال لمن جاءوا يسألونه إن لديهم التوراة .. فليحكموا بما فى التوراة .. ولكنهم ألحوا عليه أن يقضى هو بنفسه .. فأصر على أن يعودوا الى التوراة فيحتكموا إليها ..

وعاد كبارهم يتدارسون الأمر .. ان محمدا باصراره على تحكيم التوراة يوشك أن يفسد المكيدة .. وانطلقوا يثيرون الشكوك فى المدينة ، لماذا يخشى محمد أن يقضى بالرجم حتى الموت على بسرة وعشيقها ..

أيعطل الأحكام التى ينادى بها لأنه يطمع فى ضم عشيرة بسرة إليه ؟ .. فأى عدل هذا !

ومحمد مشغول القلب بالاستعداد لقريش ، حزين لمرض ابنته رقية .

ويرجع إليه رؤساء يهودية ولون له إن التوراة تقضى بأن توضع الفتاة وشريكها كل على حمار، ثم يشهر بهما فى الأسواق ويطلى وجهاهما بالقار .. ولكنه كان قد عرف أن ما تقضى به التوراة فى مثل هذه الحالة إنما هو الرجم حتى الموت.. رجم الرجل والمرأة جميعا فى حفرة واحدة.. وأعلن لهم هو نفسه حكم التوراة .. واستحلفهم أن يعودوا إلى التوراة التى يملكونها ويحتكرون الاطلاع عليها فيعلنوا للناس ما فيها .. ولكنهم أكدوا أن التوراة ليس فيها شي مما يقوله.. غير أن شابا منهم يدرس التوراة انتفض صائحا: «يا أبا القاسم انك لصادق ولكنهم يحسدونك ويحرجونك!»

وعلى الرغم من ذلك فقد حزنت عشيرة بسرة وعشيقها ، وجزع الجميع من مثل هذا العقاب ، فلم يفكروا فى الانضمام إليه بعد ، لكيلا يكون له سبيل على علاقاتهم فيما بينهم .

* * *

ومضى يهود المدينة جميعا يحلمون بأن تهب قريش وحلفاؤها ، فتخلصهم من محمد ، ومن تعاليمه التى أفسدت العلاقات بين الملاك والاجراء .. والتى توشك الآن أن تفسد العلاقات الحرة بين النساء والرجال .. متى تهاجمه قريش .. ؟

ولكن محمدا كان قد قرر أن يبدأ الهجوم .. فالهجوم خير وسيلة للدفاع ..

كان قد استشار صحبه واستقر رأيهم جميعا على أن يفسدوا الحلف الذى تسعى قريش لعقده بين القبائل .. سيقومون بعمل يفرض هيبتهم

على قريش ، وعلى القبائل الأخرى ، فلا تفكر قبيلة فى أن تتحالف مع قريش ضدهم !

فلئن سكتوا لاستضعفوهم !.. ومن يدرى ؟ .. ربما اقتحموا عليهم المدينة نفسها فأبادوهم جميعا !

وعلم محمد أن قريشا قد أعدت قافلة ضخمة خرجت من رحلة الصيف إلى الشام .. وأن أبا سفيان بنفسه يقود حرس القافلة .. والقافلة الآن فى طريق العودة من الشام .

وهى قافلة جهزتها قريش بخمسين ألف دينار ، شاركت فيها عشيرة أبى سفيان بأربعين ألفا .

لكن هذه الآلاف العديدة قد انتزعها أغنياء قريش من عمل المستضعفين ومن أموالهم المغتصبة ! .

إن فيها لأموالا اغتصبت من هؤلاء المهاجرين الذين نفتهم قريش من أرض وطنهم مكة بعد أن استولت عنوة على ما يملكون !

لقد جاء الزمن الذى لم يعد فيه هؤلاء المستضعفون ، مستضعفين بعد ، وعليهم أن يستردوا أموالهم التى اغتصبت منهم من قبل .

عليهم أن يفرضوا هيبتهم على قريش لكى ينقذوا اخوانا لهم آخرين مازالوا فى مكة يتلقون العذاب ، ويفتنون عن عقائدهم ! !

وجمع محمد المهاجرين وحضهم على أن يخرجوا فيصادروا أموال القافلة .

وأعلن أن ما فى القافلة سيوزع على من يغنمونها .. من مهاجرين

وأنصار ، فمن لقى الموت منهم فهو خير له من أن يموت فى فراشه ذات يوم حتف أنفه .. إنه يموت الآن دفاعا عن العقيدة فى وجه الذين يكيدون لها ! على أن الأمر لن يحتمل قتالا ، فما يحرس القافلة غير ثلاثين رجلا ! !

وخرج محمد إلى القافلة فى نحو ثلثمائة من المهاجرين والانصار ، بعد أن استخلف على المدينة رجلين من بسطائها . أحدهما يؤم الناس فى الصلاة والآخر يقضى بينهم . وأوصى الذى هو قاض بينهم أن يستفتى قلبه فيما يعرض له من قضاء لا نص فيه ..

وأرسلت اليهود إلى أبى سفيان تنذره وهو فى الطريق .. فأرسل أبو سفيان إلى مكة يطلب المدد ، ويأمر بوصفه رئيسا لحكومة مكة أن تخرج قريش بكامل فرسانها فيلحقوا به فى وادى بدر ، حيث ماء الغدران والظلال التى ستستريح تحتها القافلة ، وتستقى ! ولتعجل قريش فتبلغ ماء بدر ، قبل أن يصله محمد وإصحابه .

وخرج كل المساهمين فى القافلة لينجدوا أبا سفيان .. ولم يبق رجل منهم قادر على حمل السلاح إلا خرج أو أرسل مكانه من يحارب باسمه .. ولقد تخلف أبو لهب لمرضه ، فبعث مكانه أحد مدينيه ليحارب باسمه .. وتخلف أمية بن خلف فسخر به بعض شباب قريش وأخذوا يطوفون حوله بالبخور قائلين له «إنما أنت كالنساء» فقام من فوره يتجهز للحرب ..

وظلت هند زوجة أبى سفيان تستصرخ الرجال لينجدوا زوجها وتستفز عداوتهم لتعاليم محمد ، وتغرى الفتيان بالثأر لضحايا عبد الله بن جحش ، حتى احتشد جيش كبير يتزعمه عتبة والد هند ، وعمها شيبة

وأخوها الوليد .. واندفع هذا الجيش على قرع الطبول ، تحت قيادة أبي جهل .. غير أنه لم يكد يوغل في الصحراء حتى جاءهم رسول من أبي سفيان يطلب منهم أن يعودوا إلى مكة فقد نجا بالقافلة .

ولكن أبا جهل طالب الرجال أن يسيروا حتى يردوا بدرا فيقيموا فيها ثلاثة أيام بلياليها ينحرون الذبائح ويطعمون الطعام ويسقون الخمر وتعزف الجوارى المغنيات ويخيفون محمدا وصحبه فتسمع العرب بهم وبمسيرتهم وجمعهم فما تزال تهابهم القبائل بعدها أبد الدهر..

وكان محمد إذ ذاك ما يزال يتقدم إلى بدر متتبعا آثار قافلة أبي سفيان، التي اتخذت طريقها على شاطىء البحر الأحمر ..

وأتاه نبأ قريش ..

لم يكن يحسب أن قريشا ستخرج بكل فرسانها وجنودها ، فقد خيل إليه لبعض الوقت أنه وصحبه سيتعرضون بغتة للقافلة التي يقودها أبو سفيان فيغنمون ما فيها ويعودون بعد أن يلقوا الرعب في قريش !

ولكن الأمر لم يعد الآن سهلا كما تخيلوا فانها الحرب إذن ضد قريش بكل عدتها ، وجيشها !

واستشار محمد أصحابه .. أيمضى إلى بدر فيلقى جموع قريش أم يؤثر العافية ويعود إلى المدينة ؟ .. فأشار أبو بكر أن يمضى إلى بدر ، وأيد عمر رأى أبي بكر فقد تظن بهم قريش والقبائل ضعفا إن هم رجعوا إلى المدينة ، مكتفين من الغنيمة بالإياب !

وتكلم مهاجرون آخرون مؤيدين رأى أبى بكر وعمر ، ولكن أحداً من الأنصار لم يتكلم .. لقد عاهدوه من قبل أن يمنعوه فى المدينة ، أما أن يسير بهم إلى عدو خارج المدينة ، فهذا .. شىء آخر !

كانوا مازالوا يطاردون أبا سفيان على شاطىء البحر .. وقال محمد وهو ينظر إلى من خرج معه من الأنصار : « أشيروا على أيها الناس » . فقال له سعد بن معاذ « لكأنك تريدنا ؟ » .. فقال محمد « أجل » فقال له سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك .. فلو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد .. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً .. » .

وإذن فقد أجمعوا كلهم على أن يلقوا قريشاً ؟ .

وقادهم محمد إلى وادى بدر .. فوجدوا فتيان من قريش يملآن بعض الأوانى من أحد الآبار .. وتقدم إليهما على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام يسألونهما .. فقال الفتيان « نحن سقاة قريش » .

وتقدم محمد يناقش الفتيان حتى عرف أن جيش قريش بين التسعمائة والألف وأن فيهم أبا جهل الحكم بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبه بن ربيعة والوليد بن عتبه ، وأبا البحترى بن هشام وأمية بن خلف والأسود بن عبد الأسد .. وآخرون من فرسان قريش وساداتها فقال لرجاله : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

لقد أرسلت مكة نحو ألف رجل ، وأما محمد وصحبه فهم نحو الثلاثمائة إنه لصراع لا تكافؤ فيه .

هو ذاك .. إذن يجب أن يلاقوا قريشا كى لا يحسب أحد أنهم فروا ، فتسقط هيبة الدعوة الجديدة ويتخلى عنهم الذين بدأوا يميلون إليهم .

ولكن لا بد من خطة للانتصار .. لقد أقنع محمد رجاله أن من مات منهم مات شهيدا . وسيعوض عما خسر جنات عرضها السموات والأرض، إنهم ليؤمنون بما جاء به فليدافعوا عن الأشياء التى آمنوا بها .. ليدافعوا عن مستقبل هذه العقيدة .. سيصبحون هم الأعلون يوم تنتصر ! ! كثيرون منهم لا يملكون شيئاً يخسرونه إن ماتوا .. إنهم لن يخسروا غير الغربة والضنى والأغلال .

وبدأ محمد يستعد للمعركة .. لقد أقبلت قريش بخيلائها وفخرها .. تريد أن تسحقه ولم يكن هو حين خرج قد قدر أنه سيخوض مثل هذه المعركة .. فأرسل إلى المدينة يطلب مزيدا من الرجال .. ولكنه رأى أن الوقت قد يضيق .. فقد تهاجمه قريش فى أية لحظة .. فلينظم صفوفه إذن ، حتى لا تباغته قريش .

ورأى أن ينزل بعسكره فى أول وادى بدر ، على ضفاف الماء .. ولكن رجلا من صحبه سأله : « أهو منزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال محمد : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » .. فأجاب الرجل وهو الحباب بن المنذر : « فإن كان هذا ليس بمنزل .. فانهض

بالناس » واقترح الحباب أن ينزلوا آخر وادى بدر ، وأن يكون معسكرهم على مرتفع من الأرض ، وبين وادى بدر بغدرانه ومائه ، وبين الكثيب المنخفض الذى نزلت به قريش وهكذا يقفون بين قريش وبين الماء ، فيقاتلون ، وخطوطهم مؤمنة .. وراءهم الماء والشجر . وتقاتل قريش فلا تجد ماء تشربه إلا أن تقتحم صفوفهم إلى هذا الماء .. وقام أصحاب محمد فبنوا حوضا كبيرا تدفق إليه الماء من غدران وادى بدر وأقاموا بالقرب منه .

وطرب محمد للفكرة .. هكذا سيقاتلون قريشاً .. بالسلاح والعطش أيضا !

وقرر أن يتقدم هو الصفوف ولكن سعد بن معاذ اقترح عليه ألا يصنع .. لأنه سيكون أول هدف لسهام قريش ورماتها وفرسانها .. ورأى سعد أن يبقى محمد فى المؤخرة ليقود المعركة ، فتبنى له خيمة يستظل بها فإن غلبوا قريشا فبها ، وإن غلبتهم قريش أمن محمد .. وتم الانسحاب دون أن تتعرض حياته للخطر وعدل عن رأيه إلى رأى سعد ..

وأقيمت الخيمة واصطف أنصار محمد مكانهم أمام الماء .. وأخذ رجال من قريش يقبلون طلبا للماء فتتلقاهم السهام .

ولم يعد أحد منهم لجيش قريش بماء !

وألح العطش على رجال قريش وتشاور بعض كبارهم فرأوا أن يعودوا ..

ما بقاؤهم على هذه الحال؟ وفى وجه من سيرفعون السلاح .. إن لهم لأقارب وأخوة وأبناء أعمام بين هؤلاء المهاجرين .

ووقف عتبة بن ربيعة يقول يامعشر قريش والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئًا ! ولئن أصبتموهم لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك ما أردتم

ولكن أبا جهل اتهم عتبة بالجبن ..

وكان بعض رجال قريش قد بدأوا يعانون من العطش فخشى أبوجهل أن يستجيبوا لعتبة . وخشى بصفة خاصة أن يتذكروا أنهم إنما يقاتلون أقاربهم ! فأعلن صيحة الحرب فجأة .. واندفع الأسود بن عبد الأسد من صفوف قريش وهو يقسم أن يشرب من حوض محمد عنوة أو يهدمه ! وكان الأسود رجلا شرسا مرهوب الجانب .. ووجم المسلمون والأسود يتقدم ولكن حمزة بن عبد المطلب برزله فتقاتلا أمام الحوض .. حتى قتله حمزة .

وهكذا بدأت الحرب ..

واصطف الجمعان ووقفت قريش فى مواجهة المسلمين .

ثم خرج من صفوفها عتبة ابن أبى ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد ودعا إلى المبارزة متحديا ! كان هؤلاء الثلاثة هم خير المبارزين فى قريش .. فبرز إليهم ثلاثة من أقوى المبارزين الأنصار .. لكن عتبة صاح: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

فأمر محمد أن يقوم حمزة وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث . . فبارز حمزة شيبة بن أبى ربيعة وكان هو أفتك قريش ، وتقدم على يبارز الوليد وعبيدة يبارز عتبة .

أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وكذلك صنع على بالوليد .. وأوشك عتبة أن يظفر بعبيدة لولا أن خف حمزة فجهز على عتبة .

وهكذا سقط فى لحظة واحدة ثلاثة من أكبر سادات قريش .. هم فى الوقت نفسه ، أفتك شجعانها .

وكبر أصحاب محمد وهللوا حين رأوا الثلاثة يسقطون ..

وصاح محمد بأصحابه : «لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . فقال له رجل يأكل تمرات : «أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء » وقذف التمرات واندفع يقاتل .. واندفعت صفوف المسلمين تقاتل .

والتقى الجمعان .

كان كل رجل من المسلمين يطمع أن يموت فيكسب الجنة . . أما رجال قريش فكانوا يقاتلون بالرغبة فى الخلاص من محمد ليعيشوا من بعده آمنين بين المتاع والغنى الفاحش والخمر والنساء..

ثلاثمائة يقاتلون فى حرص هائل على الموت يلهبهم الإيمان والحب ، يواجهون بعقيدتهم ألف رجل يقاتلون فى حرص جنونى على الحياة ، ولا تحركهم غير البغضاء ونار الانتقام وأحلام السيطرة !

كانت قريش بفرسانها الألف تملك الأسلحة الحديثة ولها خيلها ودروعها أما الثلاثمائة مسلم فلم يكن لديهم غير فرسين اثنين ..

وأمر محمد رجاله أن يجعلوا همهم وهم يقاتلون أن يقتنصوا قادة قريش.. فليبحثوا عن أبي جهل الحكم ابن هشام . فستنخلع لموته قلوب شجعان قريش كما انخلعت تلك القلوب لمصرع شيبة وعتبة والوليد !

لقد أحسن حمزة افتتاح المعركة وها هو ذا يخوضها الآن بكل الجسارة التي تعرفها قريش منه وأن فرسانها ليتفادونه ويختفون من طريقه .. وإلى جوار حمزة يقف على بن أبي طالب باسلا كعمه حمزة .. وإلى جوارهما سعد بن أبي وقاص وهنا وهناك تهوى سيوف يرفعها عمر بن الخطاب ، وبلال بن رباح وكل فرسان العقيدة الجديدة .

ولكن المعركة لم تاته بعد ..

فما زالت قريش ، تزحف بفرسانها الدارعين وقد بدأ بعض فرسان الدعوة الجديدة يسقطون مثخنين بالجراح .

ما زالت جموع قريش تزحف بمائة من الخيل وسبعمائة بعير مدربة على القتال ، وألف من الرجال مدرعين ..

إن هذه الجموع لتكاد تجتاح ثلثمائة مسلم حاسرين بلا دروع ولا خيل ، فيهم من يدور بسيفه لكيلا يغمده من عدوه فى صدر أخ أو أب أو قريب أو عزيز ..

والمقاتلون والمسلمون يسقطون : الرجل بعد الرجل ! ..

لاحيلة بعد ! ..

لتمض السيوف إلى غايتها مهما تكن الصدور والرقاب التى تتاقاها ..

ومحمد على باب خيمته يدعو بقلب واجف ! .

فلئن انتصرت قريش اليوم ، لما ارتفعت راية لدعوته بعد ، ولانتهى كل شىء إلى الأبد ... وأبو بكر إلى جواره يخفف عنه ، ويحمل له العزاء ، والأمل فى الانتصار ..

غير أن قريشاً تقدم من الكثيب الذى نزلت به ، وهى الآن توشك أن تجلى المسلمين عن مكانهم المرتفع ، وتبلغ الماء ، ولئن بلغ

فرسانها الماء فشربوا وأطفأوا سعير العطش ، لما استطاع رجال محمد أن يقفوا بعد أمام خيلهم الزاحفة .

وحمزة واقف يمنع قريشاً عن الماء ويقاتل مع نفر قليل موجات مدرعة تحاول أن تندفع إلى الماء ..

ويسقط فرسان قريش دون الماء .. ولكن رجلا منهم يفلت .. لقد فتح ثغرة وستندفع منها أرتال الفرسان .

ويعود حمزة فيقف بجسده الشامخ يسد هذه الثغرة .. السيف فى يده ، وعلى صدره تخفق ريشة نعامة .. وهو يقاتل شجعان قريش المندفعين إلى الماء فيصرعهم الواحد بعد الآخر ويصيح محمد برجاله ألا يتركوا قريشا يردون الماء .. إنهم عطاش الآن .. فليكن العطش سلاحا أيضاً .. وهم متعبون تلفحهم الشمس فليمزقهم التعب ، وليستظلوا بسيوف المسلمين.

اضربوا أيها الناس .. اضربوا أعداءكم ، قاتلوهم بلا هوادة ، فالجنة تحت ظلال السيوف ..

وينتفض المسلمون .. لا تتهيب سيوفهم — بعد — رقاباً رقاب مهما تكن عزيزة ..

وينقض عمر بن الخطاب على خاله فيقتله .. ويحاول عبيدة بن الجراح أن ينحى أباه عن طريقه ليخلص إلى فرسان قريش ، ولكن أباه يظل واقفا أمامه بسيفه .. فيقتل أبو عبيدة أباه ثم يخوض فى دم أبيه .. إلى صفوف الأعداء المهاجمين ..

ويقتل على بن أبى طالب بعض بنى عمه .. ويندفع حمزة لايبالى إلى الصفوف المتراصة من قريش فيجعل همه أن يضرب شجعانها وساداتها .

وهكذا قتل حنظالة بن سفيان ، والحارث بن عامر ..

ثم لمح نوفل بن خويلد يقاتل المسلمين ويثخن فيهم ، ويدهس بفرسه جثث الضحايا حتى لقد أوشك أن يثير الرعب فى قلوب المسلمين ، فأسموه الشيطان ..

فيندفع حمزة إلى نوفل بن خويلد .. ونوفل على فرسه ، خلف الدروع والزرد ورأسه فى الدرقة ، ويلكز نوفل فرسه ليدهم حمزة ، ولكن حمزة يثب بعيداً ويستدير ويضرب الفرس فيوقعه .. ثم يتفادى ضربة من سيف نوفل . والمسلمون وأعداؤهم على السواء ينظرون ويترقبون فى لهفة نتيجة هذا الصراع الرهيب ..

ثم يكر حمزة على نوفل ، ويسدد سيفة إلى عنقه ، ويخلص حد السيف من بين الحديد والزرد ، ويطير رأس نوفل ..

وهكذا انتصر حمزة على شيطان قريش .. فاطمأنت قلوب كثيرة ، وتدفق المسلمون بصدور حاسرة لادروع عليها ورؤس مكشوفة يشدون على أعدائهم المدرعين ..

وريعت قريش .. فتراجعت ..

وخف أبوجهل إلى بعض الأحراج ينتظر فرصة يجمع فيها صفوف قريش وانتظر على صهوة جواده .. يتربص بجموع المسلمين .. ولكن المقاتلين كانوا يبحثون عنه وخلص إليه اثنان منهم فقاتلاه ..

وأيقن محمد أن النصر آت لاريب فيه .. فهاهم أولاء سادة قريش وفرسانها يتساقطون ..

ماأروعك ياحمزة .

أنت الذى قدت هذه الفئة القليلة إلى النصر المحقق .. أنت وحدك وقفت شامخا صامدا تمنع قريش عن الماء وجعلت همك أن تصرع الأقوياء من فرسان العدو .

وعندما سقط الشجعان منهم سقطت همة الآخرين ..

إن بعض الفارين من رجال قريش ليتساءلون : « من الرجل المعلم بريشة نعامة فى صدره يحجب وجهه دائما غبار المعركة » فيقول واحد منهم : « إنه حمزة بن عبد المطلب » ، ويتنهد الباقون فى حسرة : « ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل . » حقا .. لقد فعلت بهم الأفاعيل .. كنت أنت وحدك جيشا بأسره !

إن عديدا من رجال قريش ليفرون الآن فى طلب النجاة ، وقد بدأت الهزيمة تغزو القلوب ، حتى قلوب الذين مابرحوا يقاتلون فى الميدان .
وهاهو ذا صوت أحدهم يرتفع منذرا : « أصحاب محمد يزيدون على الثلثمائة وليس لهم منعة إلا سيوفهم وما يقتل منهم رجل إلا يقتل رجل منا ، فإذا أصابوا منا أعدادهم وقتلوا منا ثلثمائة فما خير العيش بعد ذلك ؟ . »

وأبوجهل وراء الأحراج مازال يقاتل . ويسمع هذا النذير فيرسل

ابنه عكرمة إلى صفوف قريش يحضهم على الثبات .. ويذكرهم أنهم سادة العرب وأنهم الأكثرون .

والمسلمون يندفعون .. ليقتلوا مزيدا من أشراف قريش وشجعانها .

هاهو ذا بلال بن رباح يلقى سيده القديم أميه بن خلف .

لكم عذبه على رمضاء مكة ..

ولكن أمية الآن يستجير بصديقه عبد الرحمن بن عوف ، ويستأسر له .. هربا من الموت .

غير أن بلال يرفض هذا،ويصرخ فيمن حوله : « هاهو ذا رأس الكفر أمية بن خلف » . وعبثا يحاول عبدالرحمن بن عوف أن ينقذ صديقه فقد صرخ بلال « لانجوت أن نجا » .

وإن هى إلا لحظات حتى اجتمع حول بلال بعض المستضعفين الذين لاقوا الأذى من أمية حين كانوا جميعا فى مكة فلاموا عبد الرحمن بن عوف : أن يجير رجلا آذاهم وآذى محمدا ..

اتهموه بأنه هو التاجر الغنى مازال على الرغم من إسلامه ، يعطف على نفس أفراد طبقته القديمة من سراة قريش ! ! مازالت صلاته الشخصية وعواطفه الخاصة ، أعمق من إيمانه .

وأغلظ لهم عبد الرحمن وصاح ببلال مزريا عليه : «يا ابن السوداء» .

ولكن الوقت لم يكن صالحا للمناقشة ولا للزراية بعد ..

إن حمزة وعلى يقتلان من بنى العمومة وعمر يقتل خاله ، وعبيدة بن

الجراح يقتل أباه .. فما بال ابن عوف يأبى هذا المصير لصديقه الغنى .. إلا أنه غنى مثله .. ؟

واندفع بلال بن رباح يحرج أمية بن خلف ، وقاتله حتى قتله .. وحمل رأسه على سيفه .. وهو يرقص طربا تحت غبار المعركة الذى أخذ ينقشع الآن وفرسان مكة يفرون وصفوف قريش تتراجع مضطربة .

ويتقدم محمد ليرى بنفسه كم من ساداتها يتساقطون .. ويرى على أرض الوادى صرعى من بنى عمومته . رجالا لم يسيئوا إليه من قبل .. ويرى المسلمين يتدافعون فى صفوف قريش يصرعون من يلحقونه مهما تكن العلاقة به .. فيأخذه الحزن .. ويصيح بالناس :

« إنى عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لاحاجة لهم بقتالنا فمن لقى أبا البحترى فلا يقتله لأنه كان أكف القوم عنا ونحن بمكة وما بلغنا عنه شى نكرهه وهو ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم .. ومن لقى عمى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها . »

كانت صفوف قريش مازالت تتراجع ..

فرد أحد الرجال المسلمين مستنكرا :

« أنقتل آباءنا وأبناءنا وأخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ .. والله لئن لقيته لألجمنه السيف » .

ونظر محمد إلى من ينصفه ممن يلومه وانتظر حتى اقترب منه عمر ابن الخطاب فلاذ به قائلا « يا أبا حفص أيضرب وجه عمى بالسيف »

وعرف عمر بما كان فغضب على المعترض وقال : « لقد نافق دعنى لأضرب عنقه بالسيف » .

وتهيأ عمر للانقضاض على الرجل الذى يعترض ، ولكن محمداً لم يسمح للسيوف التى تتجه الآن إلى أعناق العدو ، بأن تستدير إلى رقاب أخرى .

وتابع المسلمون زحفهم على جيش قريش . فوجد بعض الرجال البحترى أمامهم فجأة .. فأبلغوه قول محمد فيه .

وطلب البحترى الأمان لزميل له ، ولكن الرجال رفضوا وإذ ذاك قال البحترى : « إذن لأموتن أنا وهو جميعاً لا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى حرصاً على الحياة » ..

وقاتل حتى قتل ..

ولم تكد الشمس تميل حتى كانت قريش قد أنهكها العطش والقتال ، وأمضها فقد خير فرسانها وشجعانها وساداتها .. فجمعت فلول جيشها تاركة جثث قتلاها على أرض الوادى .. ولكن المسلمين انقضوا عليهم يأسرون كل من يجدونه ..

وإذ رأى المسلمون جموع قريش تفر ، امتلأت قلوبهم بنشوة الظفر فمضوا يهنئون بعضهم البعض بالنصر .

ولكن محمداً خشى أن يكون فى الأمر مكيدة ، — والحرب خدعة — فقد تستدير جموع قريش لتطوقهم ، أو لتداهم المدينة وهم خارجها ..

فأمر الرجال أن يتابعوا الجيش المهزوم . وأن ينالوا منه .. ومن يدرى .. فقد يفتح لهم اليهود أبواب المدينة من وراء ظهره ! ! .

وانقض رجاله فى أثر الجيش المهزوم .. والجيش يسرع مجهدا من العطش ، معذبا من الهزيمة .. حتى لقد ترك كثيرا من العتاد والمؤنة ..

وتأكد المسلمون أن جيش قريش ، إنما يعود إلى مكة حقا .

وانقضوا على أرض المعركه يلتقطون منها الغنائم من الدروع والسيوف والخيل والملابس الحريرية الفاخرة التى كان قد خرج فيها سادة قريش متعطرين ، ليقيموا أياماً فى بدر يطعمون الطعام ويسقون الخمر وتغنى لهم الجوارى ، فيخيفوا محمدا وتتسامع بهم العرب ، فيهابوهم ! !

واحتفظ كل رجل بما غنمه لنفسه والعتاد والأسرى ..

ولكن محمدا أمر بأن يحمل كل ما غنم ، وكل من أسر إلى خيمته . وكان الأسرى سبعين رجلا من بينهم عدد طيب من أغنياء قريش .. وأمر بأن يتفقدوا القتلى ليروا عدد قتلاهم وعدد قتلى قريش .. وأمرهم أن يبحثوا عن أبى جهل بصفة خاصة أقتيل هو أم فى الأسرى؟ !

وعاد إليه عبدالله بن مسعود برأس أبى جهل ! .

كان أبو جهل فى حقل المعركة يلفظ أنفاسه وهو يلعن محمدا وصحبه ، فوضع عبدالله قدمه على صدره .. ثم قطع رأسه ليحملها إلى محمد ..

وحين رأى رأس أبى جهل قال لعمار بن ياسر : قتل الله قاتل أمك ..

وتفقد محمد أرض المعركة بنفسه فوجد أن من قتل من رجاله

بأربعة عشر بينهم أخو سعد بن أبى وقاص ثم زوج حفصة بنت عمر..
أما قتلى قريش فانهم لسبعون ..

وأخذ محمد ينظر فى وجوههم .. عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ، وابن الوليد بن عتبة، ثم أمية بن خلف ، وذمعة بن الأسود، ونوفل بن خويلد، وأسود بن عبد الأسود.. سادات وفرسان وشجعان من قريش ، كلهم آذاه ذات يوم واستعلى عليه ، وازرى به وكلهم كذبه وأهانه .. وكلهم حاول أن يقتله ! .

وطلب محمد من رجاله أن يواروا القتلى التراب بلا استثناء .. وأن يلقوا كبار رجال قريش فى بئر جاف ، ويضعوا عليهم الحجارة ..

وعاد فى موكب ظافر متجها إلى المدينة ، وحوله رجاله يجرون الأسرى مشدودى الوثاق .. ونظر فى وجوه صحابه فوجدها تضيء بنور النصر .. إلا وجه حذيفة بن عتبة .. وكان حذيفة يسير إلى جوار حمزة قاتل أبيه . فسألة محمد :

لعلك قد دخلك من أمر أبيك عتبة بن ربيعة شىء ؟ .

فقال حذيفة :

ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ولكننى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا وكنت أرجو أن يهتدى فلما رأيت ما أصابه بعد الذى كنت أرجوه له احزننى ذلك » .

واندفع الموكب الظافر .

وسمع محمد ضحكات رجاله من خلفه وهم يسوقون الأسرى أو يجرونهم .. ومصعب بن عمير يقول لبعض صحبه : « أحكموا شد وثاق أخي فإن له أما غنية ذات متاع لعلها تفديه » .

ونظر محمد فوجد الأسرى يسيرون مشدودى الوثاق .. فقال لصحابه : استوصوا بالأسارى خيرا ..

وأمر الراكبين أن يحملوا الأسرى معهم...وأمرهم أن يسقوهم حتى لا يهلكوا من العطش .. ولمح بين الأسرى زوج ابنته زينب وعمه العباس ابن عبد المطلب .

وعلى مشارف المدينة أقبلت وفود من القبائل الموالية لمحمد تهنئه بالنصر فقال لهم رجل من صحبه فى زهو الانتصار :

ما الذى تهنئوننا به .. إن لقينا إلا عجائز صلعا كالإبل فنحرناها ..

وكره محمد من صاحبه هذا الصلف فقال : « أى ابن أخى أولئك الملأ فما يليق أن يستهينوا بأقدار الناس لأنهم هزموا . . »

ولم يكد محمد يصل إلى أبواب المدينة حتى وزع الأسرى بين صحبه ونصحهم مرة أخرى أن يحسنوا معاملتهم ، حتى يرى فيهم رأيه . وفكر مليا ثم استشار أصحابه فرأى عمر أن يقتلوا جميعا ، فقد أقبلوا عادين يريدون البطش بالمسلمين ، ولكن أبا بكر رأى أن يمنحهم الفرصة فقد يتبعون الدين الجديد فيما بعد ..

ومال هو إلى رأى أبي بكر .. فليس كالعفو شيء يفتح القلوب المغلقة.

وقضى أن يطلق سراح كل أسير يرسل قومه فديته ، والأسير الذى يعلم عشرا من صبيان المسلمين ..

فتقدم إليه أسير يشكو فقره فما لديه ما يفتدى به نفسه : لا مال ، ولا علم ، وله بنات فى مكة يقوم عليهن .. فاطلق سراحه وتركه لبناته يعولهن واشترط عليه ألا يعود إلى حربه مرة أخرى .. !

وأرسلت قريش تفتدى أسراها ، وعلم محمد من بعض الذين أقبلوا يفادون الأسرى ، أن قريشا تستعد ليوم الانتقام ، وأنها ستحشد للمسلمين جيشا يسد عليهم عين الشمس ..

وكان قد أطلق كثيراً من الأسرى ، ولم يعد غير القليل .. فانقطع يفكر ، وخرج إلى أصحابه يقول إنه إنما أخطأ هو وأبو بكر حين لم يستمعا لنصيحة عمر فما كان له أن يترك لقريش أسراها لتستعين بهم على حربه مرة أخرى ..

ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض !..

ولكنه على أية حال لا يستطيع أن يطبق على الأسرى قاعدتين مختلفتين

فليقبل الفدية إذن فيمن بقى !

كان ما زال مقيما عند بعض حلفائه خارج المدينة .. يقبل الفدية عن كل أسير يفتديه أهله فيضمها إلى الغنائم التى غنموها .. وبلغ ما جمعه من

الفدية أربعين ألف درهم .. حسنا .. إنه لمبلغ صالح يتجهز به للحرب إن فكرت قريش فى عدوان جديد !

واستبطأ المجاهدون توزيع الغنائم التى غنموها فى الحرب .. لقد أمرهم محمد أن يلقوها إليه ولكنه لم يوزعها بعد !

وتحدث بعضهم إلى بعض عن الأمر ، فذهب كل منهم مذهبا فى توزيع هذه الغنائم بينهم ، حتى لقد أختلفوا عليها خلافا كبيرا وساءت أخلاقهم فى هذا الخلاف .

فأما الذين كانوا يقاتلون العدو فقد رأوا أنهم أحق الناس فى هذا المتاع فلولاهم لما أصاب الذين غنموا ما غنموه !

وقال الذين غنموه إنهم هم أصحاب الغنائم وحدهم فليس لأحد سواهم حق فيها !

وقال الذين يحرسون خيمة محمد إنهم كانوا يستطيعون أن يحاربوا كالمحاربين وأن يغنموا كالغانمين ولكنهم خافوا أن يتركوا خيمة محمد فيكر عليه العدو !

وأوشك القوم أن يقتتلوا فى توزيع الغنائم واستحمق بعضهم فكاد أن يرفع السيف فى وجه أخيه : .

وخرج محمد يضيح فى الناس مغضبا : إنكم لأولى الناس ببعض ، فليكن الحب هو ما يحكم بينكم لا المنافسة على عرض الدنيا ! فإنكم إذا لم تجعلوا بعضكم أحباء بعض وأولياء بعض. إن لم تجعلوا الصفاء دستوركم.. إلا تفعلوه تكن فى الأرض فتنة وفساد كبير.

ثم أمر أن توزع الغنائم بين الذين خرجوا جميعا .. على السواء !
وأذعن الجميع لهذا الحكم .

وخرست أصوات الطمع ولكن بعض النفوس كانت تميل إلى أمتعة بالذات ، فقصدت محمدا تسأله ، فلم يرفض محمد لأحد سؤلا .. ومنح الأرقم سيفا كان قد غنمه ، عندما مالت نفس الأرقم إلى هذا السيف.

ودخل محمد إلى المدينة فأتى المسجد يخطب فى الناس ويعلنهم بأسماء سادات قريش الذين هلكوا .

ثم خرج من المسجد إلى بيت ابنته رقية يعودها فى مرضها ، قبل أن يذهب إلى بيته ولكن رجالا استقبلوه واجمين ! .

كانوا عائدين من جنازة رقية بعد أن دفنوها .

وعانقه زوجها عثمان باكيا . ومضى به إلى قبر رقية ، فانحنى محمد يبكى على القبر بين صحابه .. ومال عليه أصحابه يواسونه .. وقال له أحدهم «كفى بكاء على القبر .. اتفعل ماتنهانا عنه» وأخذوه .. وعادوا إلى بيته .. يخالج زهوه بالانتصار ، شعور عميق بالحزن ، ويبلل الدمع صوته المظفر ..

ولم يكد يتقدم فى الطريق إلى بيته بين صحابه حتى اعترضه رجل من سراة يهود بنظرة غريبة .. ومضى اليهودى يهمهم : « إن قريشا لاعلم لها بالحرب أما لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس » ..

حتى انتصاره على قريش يشوهه اليهود ! !

ما بالهم يتحرشون به ويستفزونه إلى القتال .. ولكنه لا يريد أن يصدع الحلف فى المدينة .

سيصبر على اليهود ، ولن يرفع السلاح فى وجه أحد من سكان مدينته فهو اليوم أشد حاجة إلى الوحدة من أى وقت مضى ، فقريش تستعد للثأر ، وقد حرمت البكاء على قتلاها السبعين حتى تثأر لهم .. !

ومضى هو قبل أن يدخل إلى بيته يواسى أسر القتلى الأربعة عشر ! .

ثم عاد إلى بيته .. ومر بسودة أول الأمر ، فوجدها تعنف قرشيا أسيرا أوثق إلى ركن فى الحجرة وتنهره لأنه لم يقاتل حتى الموت وقد آثر الحياة واستأثر ! .

ما هذ أيضا ؟ ! .. امرأته سودة تحرض عليه ؟ ! وزجرها .. فاعتذرت ! . أين هذه من خديجة ! ؟ .

وتركها وانصرف إلى عائشة ، زوجته الصغيرة الحسناء التى افتقدته طويلا .

ووجد عند عائشة طيب اللقاء ، وحسن المواساة عن موت ابنته رقيه ..

وما هى أن استراح حتى جاء رسول من مكة يحمل من ابنته زينب فدية زوجها الأسير .

واستلم محمد الفدية ، وفتحها فإذا هى حلية لزوجته الراحلة خديجة كانت قد وهبتها ابنتها زينب ليلة الزواج ..

وأمسك محمد الحلية فى يده .. وتأملها طويلا وسالت دموعه . ها هو ذا الآن يمسك بيده شيئا عزيزا من زوجة راحلة أحبها كما لم يحب

أحدا من النساء أو الرجال .. وإنه الآن ليوشك أن يضم هذه الحلية إلى مال الفدية فتباع !! .

وأرسل إلى بعض أصحابه يستأذنهم أن يرد إلى ابنته فديتها ويطلقوا لها أسيرها ..

ووافق كل صحبه ..

فأرسل إلى زوج زينب ينبئه باطلاق سراحه على شرط أن يطلق زينب ، ويرسلها إلى المدينة ..

وكان زوج زينب يحبها ، ولقد واجه قومه حين أمروه أن يطلق ابنة محمد ليزوجوه خيرا منها فقال لهم إنه لايعدل بها كل أبكار قريش ..

على أنه قبل أن يرسلها إلى أبيها . !

وانطلق زوج زينب إلى مكة بحلية زوجته .

وحاول أن يرسلها إلى أبيها ولكن قريشا عارضته وخشيت أن يظن بهم محمد الخوف بعد الهزيمة ... وسألوه أن ينتظر أياما .. فلم يقبل وأرسلها على ناقته ، فوثب بعض رجال قريش على الناقة وأوقعوا المرأة الصغيرة من عليها .. وكانت حاملا فأجهضت ..

وسأل محمد أصحابه أن يهبوه عمه العباس — إذا شاءوا — فأطلقوا سراحه بلا فدية .. والعباس هو الذى كان يحمى محمدا فى مكة .. وما زال يرسل إليه خفية بعض المال ويطلعه على تحركات أعدائه فى قريش ؟

وعاد العباس إلى قريش .. ليرسل إلى محمد كل أنباء الاستعدادات ! .

إن بنى أمية ليغامرون بكل ثروتهم ليحصلوا على رأس محمد أوحمزة ! .

ولقد منعت حكومة مكة البكاء على الأموات حتى تأخذ بثأرها من محمد وحمزة .

وكل المساهمين فى القافلة التى كان يقودها أبو سفيان يتنازلون عن أموالهم لتجهيز غزوة ضد المدينة .. وإنهم ليحشدون الآن كل حلفائهم من القبائل الأخرى .. ويحرضون الشعراء ! .

وأمر محمد شاعره حسان أن يطلق لسانه وكل ملكاته لتمجيد انتصار المسلمين فى بدر ، ولتحذير قريش وحلفائها من محاولة عدوان جديد فستجعلهم سيوف المسلمين نهبا لسباع الطير والصحراء ! .

ليدو هذا الانتصار فى كل مكان ! .

* * *

ورفض أبو سفيان أن يفدى ولده الأسير وأقسم أن يطلقه بحد السيف . وأقسمت زوجته هند ألا تتعطر وألا تقترب منه حتى يأخذ بثأر أبيها عتبة وأخيها الوليد وعمها شيبة ، وثارت سادة قريش .

ومضت تحرض النساء أن يهجروا الأزواج حتى يثأروا للقتلى .. تطوف على العبيد الأحباش تعد الواحد منهم بأن تهبه حريته وأن تهبه ما

ما يشاء . . حتى جسدها نفسه لو أنه قتل حمزة وحمل إليها كبده ... لتأكلها بأسنانها ! ! .

وسمع حمزة بما تصنعه هند بنت عتبة فابتسم مستخفا .. وسمع حسان بن ثابت بتحريضها على قتل محمد وحمزة ، وبدورانها بين نساء قريش وعبيدها الأحباش ، فأنشد شعرا يهجوها ويهون من شأنها ، ويسخر بإغرائها الرجال ، وأفحش عليها ..

وتجار قريش يرسلون الوفود خفية إلى تجار اليهود فى المدينة ليساعدوهم على النيل من محمد .. أن يحصلوا على رأسه أن استطاعوا أو على رأس حمزة الذى فعل الأفاعيل بصناديد قريش ! .. وإلا فليفتحوا لهم أبواب المدينة عندما يقبل فرسان قريش غازين ! .

ووسط هذا الغليان الجنونى المتوحش من الكيد والرغبة المفترسة فى الانتقاء عاش محمد أيام ما بعد النصر .. يرتب شئون الناس ويأسو جراح أسر الشهداء .. ويستعد للمعركة القادمة ويعد لها مزيدا من الشهداء . !

وهو يذكر بإعجاب بلاء على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وعبيدة بن الجراح وبلال وعمار بن ياسر .. قبل كل هؤلاء حمزة بن عبد المطلب ! .

انطلق عبد الله بن أبى يهمس لبعض المسلمين الذين لم يخرجوا إلى بدر إن محمدا يحرمهم من الغنائم ويوزعها على من يحب ، فعثمان بن عفان لم يخرج مثلهم إلى الحرب فى بدر ، ولكن محمداً أعطاه نصيبه من الغنائم إيثاراً له لأنه زوج ابنته رقيه ! .

وحذر بعض المسلمين عبد الله بن أبى ، أن ينشر بينهم البغضاء ، فما آثر محمد صهره عثمان بخير ، وإنما أنجز وعده .. فقد كان عثمان يلح على محمد فى الخروج معه إلى بدر ، ولكن محمداً أمره أن يبقى ليقوم على تمريض رقية ، زوجته ، ووعده أجر المجاهدين . ومهما يكن من شىء فقد ماتت رقية بنت محمد ، ومحمد مجروح القلب فما يليق بأحد أن يؤذيه فى عثمان زوج ابنته الراحلة .. وعثمان بعد تاجر واسع الثراء لا حاجة له بأموال الغنائم ..

وعاد عبد الله بن أبى يحرض الرجال على المطالبه باقتسام الأموال التى افتدت بها قريش أسراها .. ولكنهم وعظوه أن يكف ، فهم يقرون محمداً على تخصيص جزء كبير من هذه الأموال للدفاع عن المدينه إن فكرت قريش فى الثأر . .

ولم يسكت عبد الله بن أبى .. فقد رجع محمد ظافراً من بدر ، ورجع معه المسلمون سكارى بنشوة النصر .. ولقد مكن هذا الانتصار لمحمد فى الأرض فلم يعد لعبد الله بن أبى ، أمل بعد ، فى أن يضع على رأسه تاج المدينة ! ..

وإنه ليوسوس للناس أن محمداً يأمر غيره بالإعراض عن متاع الحياة الدنيا ، ثم ينفق هو الأموال على طعامه وشرابه ، وأثاث بيته .. فقد اتخذ لنفسه أثاثا كالذى يتخذه كسرى ..

قال هذا ودس إلى امرأة من الأنصار فراشا وثيرا ثمينا حملته إلى عائشة ، المرأة الصغيرة الحسناء التى تحب المتاع وتهوى الثراء .

وسمع محمد هذا فعاد إلى بيته ليجد عائشة مسترخية على الفراش الجديد تغمرها الفرحة .. وهى تتحسس بجسدها لين الفراش .. فسألها فى غضب :

— ما هذا يا عائشة ؟ .

فقالت له :

— امرأة من الأنصار دخلت فرأت فراشك فبعثت إلى بهذا ..

فأمرها أن ترده ..

رد الفراش إلى المرأة التى أهدته .. واستلقى محمد على الحصير كما تعود.

وأقبل عمر بن الخطاب ليتبين الصدق فيما يتهامس به بعض الناس فى المدينة أن محمدا ينفق أموال الفدية على أثاث جديد فاخر يزين به بيته ..

دخل عمر وأخذ يتأمل كل ما فى بيت محمد من متاع وطعام .. إن كل شىء على حاله لم يتغير .. ومحمد على الحصير .

وفاض الدمع من عينى عمر فسأله محمد : ما يبكيك يا بن الخطاب ؟

فقال عمر : « وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار .. »

وأخذ محمد يسرى عن عمر ، ويعلمه أن قيمة الإنسان ليس فيما لا يملكه من متاع ، بل فيما يملكه من قدرة على إسعاد الآخرين ، فالأعمال الطيبات هى ما يبقى للإنسان ، والباقيات الصالحات خير أبدا ..

وعلى أية حال فإن ما يجب أن يشغل الناس اليوم ، إنما الموقف بعد المعركة .. أما ما يرجف به بعض المنافقين فى المدينة ، فلا يجب أن يشغل الناس عن مواجهة المستقبل ..

وشكا عمر لمحمد ما يلقاه الأرامل بعد وفاة أزواجهن فى بدر .. وأحس محمد أنه هو المسئول عن كل شىء ، وأن عليه أن يأسو كل هذه الجراحات .. سيجرى على أسر الشهداء نفس المعاش الذى كان يكسبه عائلوها الشهداء ، أما الأرامل الصغيرات ، فإنه لمسئول عن تعويضهن بالأزواج ، خوف الفتنة ..

وبث عمر لمحمد ألما يضيق به صدره .. فابنته حفصة ، أرملة صغيرة جميلة استشهد زوجها فى بدر ، ولقد عرضها على عثمان فقال له إنه لا يفكر الآن فى الزواج ، ثم عرضها على أبى بكر فسكت ولم يقل شيئا ..

. وابتسم محمد وسأل عمر ألا يغضب وستزوج حفصه من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هى خير من حفصه .

وخطب حفصه لنفسه .. فقام عمر يجهزها ، معجبًا فرحًا .. ولقى أبابكر فى بعض الطريق ، فأنبأه بخطبة حفصة فقال أبو بكر : «إن الرسول ذكرها أمامى فلم أكن لأفشى سره ولو تركها لتزوجتها » .

وجهز عمر حفصه وحملها إلى بيت محمد .. ومضى محمد يحض صحبه القادرين أن يتزوجوا أرامل الذين استشهدوا عسى أن يعوضوهن عما فقدن .

وقسم محمد لياليه بين زوجاته الثلاث : سودة ، وعائشة ، وحفصة.. ولكنه مع ذلك كان يجمعهن عند صاحبة النوبة فى الصباح ، ليعظهن ، وفى المساء ليسمر معهن ويقص عليهن ما رآه فى رحلاته ، وكثيرًا من الحكايات والأمثال ..

وكثر تردد عمر على بيت محمد منذ دخلته حفصة ، فلاحظ أن الناس يدخلون بيت محمد فى النهار والليل بلا استئذان ويقتحمون إليه فى مخادعه ، ويتحدثون إلى زوجاته وقد تكون الواحدة منهن فى ثياب منزليه لا تصلح لاستقبال رجل غريب .

وضاق عمر بهذه الحال ، وأوشك أن يأمر ابنته حفصة أن تحتجب.. ولكنه آثر أن يتحدث إلى محمد نفسه فقال له : « يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البار والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب » .

ولكن محمداً كان فى شغل عن هذا .. بأمر قريش ، ومستقبل المدينة بعد انتصاره فى بدر .. إنه ليثق فى نسائه ويثق فيمن يدخله بيته ، فعلام يغار عمر ؟ .. فليفكر معه فى أمر قريش . فهذا أجدى ..

وقريش لم تذق أبداً مثل تلك الهزيمة التى ذاقتها فى بدر .. وصديقه أبوبكر ذو الثقافة الواسعة يؤكد له أن الجزيرة العربية لم تعرف فى كل تاريخها مثل هذه النكبة .. حتى المعارك التى دامت سنوات طويلة بين هذه القبيلة أو تلك لم ينكب فيها أى المتحاربين بسبعين قتيلا وسبعين أسيرا ..

والرسائل السرية ترد من العباس بن عبد المطلب تحمل أنباء استعدادات قريش للقتال ، وحرص قريش على أن تظفر برأس محمد ورأس حمزة جميعاً ، وسعى تجار قريش لمحالفة يهود المدينة ومحالفة القبائل التى تضرب خيامها خارج المدينة ..

لقد غيرت قريش طريق تجارتها إلى الشام منذ بدر ، وأخذت طريقاً طويلا عبر العراق .. معتمدة على قبائل بنى سليم .. ولكنها لن تلبث أن تتحالف مع القبائل المجاورة للمدينة ، فتطوقها ، وتعود قوافلها بعد إلى الطرق المألوفة .

ولقريش حلفاء فى قلب المدينة ذاتها .. وهم يهود بنى قينقاع .. ويهود بنى قينقاع يسيطرون على شمال الحجاز .. فلأغنيائهم هناك ضياع واسعة ، يستثمرون فيها الأموال ، وكبار التجار يملكون هناك المصارف التى تقرض بالربا ، وليس لأحد غيرهم نفوذ فى تلك الأسواق .. وهم يتعاملون مع مع تجار قريش ، ويتقاسمون الفائدة . ولكن اندحار قريش فى بدر ،

والانتصار الساحق المدوى الذى حققه المسلمون ، كل هذا أصبح يهدد نفوذ بنى قينقاع فى أسواق شمال الحجاز .. ومن المسلمين — بعد تجار كبار يزاحمونهم فى المدينة نفسها . ومن يدرى فقد يزحفون أيضاً إلى أسواق الشمال ..

إن ثمت مصلحة مشتركة بين قريش وبنى قينقاع فى شمال الحجاز ، وهذه المصلحة يهددها منذ اليوم إنتصار المسلمين فى بدر .. ولكن بنى قينقاع لم يجاهروا بالعداء ، وما زالت صحيفة المحالفة قائمة بينهم وبين محمد ، وهم فى النهاية حلفاء لعبد الله بن أبى ولشيعته الأقوياء بين الأنصار .. ولكن عبد الله ما زال يحمل على رأسه لافتة الإسلام ، أما ما فى القلب فشىء آخر ، ويهود بنى قينقاع لم يجاهروا بنقض صحيفة المخالفة .. إنهم ليشكاون خطراً .. هذا حق . ولكنه خطر مقيم وسط المدينة ، من الممكن حصره والتغلب عليه آخر الأمر ..

أما الخطر الداهم حقاً ، فهو بنوسليم .. إنهم ليوادون قريشاً ، وييسرون لها طرق التجارة ، ويحالفونها جهرة معتمدين على ما لهم من هيبة وسمعة حربية .. وهم يقيمون فى جبال بعيدة عن المدينة ، يتحصنون فيها ويستقوون على خصومهم ولئن سكت عنهم محمد لتشجع عرب آخرون على الانضمام إلى قريش ، ولظن كل العرب ، أن محمداً يتحاشى بنى سليم خوفا من فرسانهم .

وأرسل محمد إلى بنى سليم يطلب منهم ألا يظاهروا قريشاً عليه .

ولكن بنى سليم استخفوا به ..

ومضوا يغالون فى محالفة قريش ، فحشدوا بعض فرسانهم لحراسة قوافلها .. ولم تبخل عليهم قريش فزودتهم بالأموال والسلاح ..

وهكذا وجد محمد نفسه مضطراً إلى مهاجمة بنى سليم ، حماية لانتصاره .

وحشد جيشاً من الذين لم يستريحوا بعد من معركة بدر ولكن نشوة الانتصار كانت تؤجج حماسهم .. وقاد هو بنفسه الجيش إلى مضارب بنى سليم .

ولم يكد محمد يقترب بجيشه من ديار بنى سليم ، حتى أدركت القبيلة أن ماوقع بقريش فى بدر قد يقع لها ونصح شيوخ القبيلة فرسانها أن يتجنبوا القتال .. ولكن محمداً كان يتقدم .. فتركت بنو سليم منازلها ومتاعها وفرت برجالها ونسائها وأطفالها .. ودخل محمد بجيشه ديارهم فلم يجد من يحاربه .. وعاد بغنائم كثيرة دون أن تراق قطرة دم واحدة .

وكان من بين ماغنمه محمد وجيشه خمسمائة من الإبل .. وهى ثروة بأسرها .

وتحرجت القبائل المحيطة بالمدينة بعد هذا الانتصار الخاطف الغريب الساحق .. فقطعت مفاوضاتها مع قريش .. وخشيت أن يقود محمد مثل هذه الحملة عليهم .. وما منهم قبيل له منعة بنى سليم ..

وعاد محمد إلى داره كما تركها .. يقضى الصباح مع زوجاته يعلمهن ويبصرهن بأحكامه فى علاقات الرجال والنساء ويطالبهن أن يعلمن

النساء المسلمات مما علمهن ، ثم يستمر معهن فى الليل ، ويروى حكايات شائقة عن رحلاته وغزواته وهو يخصف نعلة بنفسه ، أحيانا أو يرقع ثوبا له .

ولكنه يجد بيته الآن على غير ماألفه من الصفاء .. فهذا هو ربيبه زيد بن حارثة يشكوا إليه من زينب بنت جحش .. وزينب فتاة صغيرة بالغة الحسن ، شديدة الاعتزاز بنفسها فهى بنت عمة محمد ولقد زوجها محمد بزيد بن حارثة ، وهى كارهة .. فقد كان زيد عبدا لخديجة فاعتقته وتبناه محمد ، فكيف ترضاه زينب بنت أمية بنت عبد المطلب ؟ .. ولقد قالت زينب لمحمد : « لا أرضاه لنفسى وأنا بنت عمتك » .. ولكن محمدا كره استعلاءها بقرابتها إليه ، وقهرها على هذا الزواج .. ولم تطب لها الحياة فى أحضان زيد لأنها كانت ترى نفسها دائما سيدة له .. وقد كانت من أجمل فتيات بنى هاشم ، صغيرة السن ، فمن حقها أن تتزوج فتى كفئا لها من فتيان المهاجرين أو الأنصار .. وضاق زيد باستعلاء زوجته ، فشكاها المرة بعد المرة ، ومحمد يقول له « أمسك عليك زوجك » .. ولكن زينب وزوجها لم يطيقا الاستمرار بعد .. وأصبح بيت محمد الذى يعيش فيه الزوجان كثير الصخب من كثرة مشاجراتهما ولقد حاول محمد منذ رجع من غزوة بنى سليم أن يوفق بينهما ، ولكن بلا جدوى ، فأقر الطلاق ، وخطب هو زينب لنفسه .

وانطلق عبد الله بن أبى يستنكر هذا ، ويهمس للناس أن محمدا طمع فى جمال زينب وما كان له أن يتزوج امرأة متبنية .. فالمتبنى كالابن تماما .. وشعر بعض أصدقاء محمد بحرج كبير .

ولكن محمدا خرج يقول لهم إن المتبنى ليس كالابن تماما .. فالولد

شيء آخر .. وإنه إنما تزوج زينب لكى يدركوا هذا ، ولكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ، فلا حاجة له بجمال زينب ، ولديه عائشة ، وحفصة ! .

وتقام ليلة للزفاف يدعو إليها محمد بعض صحبه ، ويقبل عليه عدد كبير من المهاجرين والأنصار .. ويدعوا زوجاته الثلاث : سودة ، وعائشة وحفصة ، ثم الزوجة الجديدة زينب إلى العشاء الذى أرسله سعد بن عبادة ويجلس معهن على العشاء مستضيفا من يكون عنده من صحبه وتمتد الأيدى كلها إلى نفس الأوانى .. وتصطدم يد عمر بن الخطاب بيد عائشة فى قصعة الطعام فيمسك عمر بيد عائشة من غير قصد فتتحرج عائشة ويتضرج وجهها من الخجل وتغضب .. ويغمر عمر خجل يخالجه الغضب ، فيعتذر إلى عائشة ويقول فى ضيق : « لو أطاع فيكن ما رأتكن عين » .

ويلح عمر مرة أخرى على محمد أن يحجب نساءه .. وفيهن الآن ثلاث حسان .. صغيرات .. عائشة ، وحفصة ، وزينب ..

ويخرج محمد على الناس بعد حين يأمرهم ألا يدخلوا البيوت حتى يستأذنوا من أهلها ويأمر النساء ألا يبدين زينتهن للمحارم من الرجال إلا ما ظهر منها .. ثم يأمر نساءه — بصفة خاصة — أن يحتجبن ، لأنهن لسن كأحد من النساء ..

لماذا .. لسن كأحد من النساء .. لماذا يفرض الحجاب على نسائه ؟ ..

على أنه صمم ألا يدخل فى مهاترات شخصية .. ومضى يأمر نساءه بالاعراض عن متاع الحياة الدنيا ، ويحضهن على أن ينبذن أحلام الغنى ،

وأخذ يضع لكل المؤمنات والمؤمنين ، قواعد للسلوك فيما بينهم .. وأنذر من يخالف بعذاب عظيم ..

على أن ما يشغله الآن ، لهو أمر يهود بنى قينقاع ومراسلتهم السرية مع قريش ، وتربصهم ، به ليثبوا عليه وعلى من أتبعه ..

وهاهم أولاء يصنعون أكثر من هذا .. إنهم ليدعون خير محاربى بدر ليسمروا ويشربوا فى بيوت أعدوها للمتاع وزودوها باليهوديات الفاتنات وبالخمر القوية الفاخرة التى اشتهر بنى قينقاع بصناعتها .. ولقد مر على بن أبي طالب بأحد المشارب ومعه ناقتان غنمهما من بدر .. وذهب لبعض شأنه وعاد فاذا به يجد الناقتين قد نحرتا .. وسأل من صنع هذا فقيل له إنه عمه حمزة وهو فى ذلك البيت يشرب ويطرب .. وذهب يشكوه إلى محمد فانطلق محمد مع على حتى جاء البيت الذى به حمزة فاستأذن فأذنوا له .. فاذا هم جميعا سكارى ، وإذا حمزة فى نشوة الخمر يقول لمحمد : هل أنتم إلا عبيد أحباش !! .

وانسحب محمد مشفقا ..

وإن هى إلا أيام حتى كان يطوف بالمدينة مناد يحمل الأمر بالنهى عن الخمر . إنها لحرام ..

سيعاقب من يشربها مهما يكن شأنه ، وإن كان من الذين شهدوا بدرا !! .

واغتاظ بنو قينقاع واعتبروا الأمر موجها ضدهم .. أكبر منتجى الخمر فى المدينة ..

لا تعايش مع محمد بعد !! يجب أن يجتثوه من هذه الأرض ..

ومرة أخرى أرسلوا إلى قريش يستحثونها على المبادرة بغزو المدينة، وستجد قريش كل بنى قينقاع يفتحون لها الأبواب المغلقة ! .

الموقف حرج فى الحق فهو لا يستطيع أن يواجههم بالعداء، وهم مازالوا — فى الظاهر — يراعون شروط صحيفة التحالف فيما بينهم، فلو أنه صارحهم بما بلغه عن مراسلاتهم السرية مع قريش لكشف عمه العباس بن عبد المطلب، الذى مازال يقيم فى مكة، شريفا مبجلا غنيا، واسع التجارة، متشابك المصالح ..

وقرر محمد أن يذهب إليهم فيدعوهم إلى اتباعه ويحذرهم أن يسلكوا معه كما سلكت قريش .. ولكنهم ردوه قائلين « يا محمد إنك ترى أننا كقومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا نحن الناس » .

وعلى الرغم من السخرية والتهديد الواضح فقد صبر محمد عليهم .. ورأى بعض صحبه أن يقاطع اليهود فلا يحل لمسلم أن يتعامل معهم .. ولكنه أبى .

إنه ليستعد للقاء قريش، ولكنه لن يخرج من المدينة حتى يؤمن ظهره . وعاد يتلطف إلى بنى قينقاع ويطالبهم أن يصفوا له الود .. فما من شىء يمنع من هذا الصفاء .. ولكن قادة بنى قينقاع كانوا يضيقون بمنافسة تجار المهاجرين، ويضيقون بالقواعد الجديدة التى تحكم المعاملات ..

وهكذا ظلوا يكيدون، وينتظرون أن تقبل قريش لتسحق محمدا وصحبه وتعاليمه .. وسيفتحون هم لها أبواب المدينة ..

وخلال تلك الأيام المتوترة من الشك المتبادل ، والكيد ، أقبلت على سوق بنى قينقاع بدوية مسلمة ببضاعة لها ... وقد ضربت خمارها فوق وجهها ، كما أمرتها تعاليم الإسلام ..وباعت البدوية بضاعتها ، ثم اتجهت إلى أحد الصاغة اليهود لتشترى حلية .. وتعرض لها بعض فتيان اليهود، وقد استهواهم جمال بدنها ، وإشراق وجهها تحت الخمار ، فمضوا يتغامزون عليها ، ويسخرون بهذا الخمار الذى تخفى تحتة جمال وجهها ، ويهزأون من الإسلام الذى تقضى تعاليمه بحجب مثل هذا الجمال عن العيون ! .

واغتاظت المرأة من هذا كله — وبصفة خاصة من سخريتهم بالاسلام .. وحاول بعض الرجال المسلمين فى السوق أن يكفوا شباب اليهود الهزؤ بالإسلام . ولكن الشبان اليهود لم يحفلوا ، وانقضوا على المرأة يحاولون نزع حجابها بالقوة ، فصرفهم عنها الرجال المسلمون .. وفى هذه الأثناء كان الصائغ اليهودى قد عقد طرف ثوب المرأة إلى ظهرها وهى لاتشعر ، وأثبت طرفا آخر من الثوب إلى مقعدها بمسمار صغير ..

وبعد أن اشترت المرأة حليتها ، وقفت لتنصرف ، فتعرى ظهرها ثم تعثرت فوقعت على الأرض وقد أنكشف ثوبها عن جسدها ، وتمزق بعضه ، فتعرت . . ! . . وفتيان اليهود يتدافعون عليها ضاحكين وهى تصرخ فى ذعر ..

وإذا ذاك انقض الرجال المسلمون يدافعون عنها .. وانقض احدهم على الصائغ ، فتقاتلا ، وقتل الرجل المسلم ذلك الصائغ اليهودى ، فتجمع

اليهود على الرجل المسلم وشاع الخبر فى المدينة .. وانفجرت الأزمة واضحة صريحة ! .

واعتصم اليهود فى حصونهم بحى الصاغة ، وأعلنوا نقض الصحيفة ، وشنوا الحرب سافرة وانتظروا عون بقية يهود بنى قريظة وبنى النضير ..

وأمر محمد رجاله من الأنصار أن يحاصروا بنى قينقاع فى حصونهم.. ولكن عبد الله بن أبى ، ذهب إلى رجاله من الخزرج ، يذكرهم بحلفهم القديم مع بنى قينقاع قبل أن يأتى محمد .. فصده بعض الخزرج ، وشكوه إلى محمد ، وسألوا محمدا أن يأذن لهم فيقطعوا رأسه ، لأنه بموقفه هذا إنما يفسد فى الأرض ويوشك أن يثير الفتنة بين المسلمين !.. ولكن محمدا رفض وآثر ألا يهدر دما فى المدينه .. وجاء رجال من الأوس يطالبون بقتل عبد الله بن أبى ، وخشى محمد أن تثور الفتنة من جديد بين الأوس والخزرج ، فأمر الأنصار جميعا أن يتركوا عبد الله بن أبى ، وسيتولى هو بنفسه أمر الرجل ! .

واستخذى عبد الله بن أبى

وحين أدرك أنه لن يبلغ ما يريد من إثارة الخلاف ، وأنه لن يستطيع أن يساعد بنى قينقاع — صبر لبعض الوقت غير أن المسلمين شددوا الحصار على حى الصاغة ، وبنو قينقاع خلف حصونهم لا ينجدهم أحد .

وأرسل بنو قريظة وبنو النضير إلى محمد يؤكدون له أنهم مازالوا على تمسكهم بصحيفة المحالفة ، وأنه لاشأن لهم ببنى قينقاع ، أما بنو قينقاع ، فعلى رءوسهم هم وحدهم يقع وزر مااقترفوه ! .

وبعد خمسة عشر يوما من الحصار المضنى استسلم يهود بنى قينقاع بلاشروط .. وتركوا أمرهم إلى محمد يقضى فيهم كما يشاء !! .

وتذكر عبد الله بن أبى أن صحيفة المحالفة بينهم وبين محمد ، تقضى بقتل كل خارج عليها ! .

وانتظر عبد الله أن يقضى محمد بالموت على كل يهود بنى قينقاع ..

ولكن محمدا لم يصدر حكما . .

وأشار عليه الكثيرون أن يقتلهم تنفيذا لأحكام الصحيفة .. ولكنه رفض ! .

وتقدم إليه عبد الله بن أبى قائلا « يا محمد أحسن فى موالى » .. فلم يجبه محمد . فعاد يلح عليه . فقال محمد دعنى ..

ولكن عبد الله بن أبى أدخل يده فى جيب محمد قائلا : « والله لا أدعك حتى تحسن إلى فى موالى . إنهم أربعمائة دارع وثلاثمائة حاسر منعونى من الأسود والأحمر تحصدهم فى غداة واحدة ! والله إنى لا آمن وأخشى الدوائر » . فقال محمد « هم لك » .

وأمر محمد بأن يخرجوا جميعاً من أرض المدينة..فهى ليست أرضها، وإنما كانوا قد جاءوها غازين من قبل فأقاموا بها وسادوا تجارتها ، وأنشأوا فيها حى الصاغة ..

وحرص محمد على ألا يمسوا بسوء أثناء الخروج ، فعين أحد زعماء الأنصار قائدا على نفر من رجاله يراقبون خروج اليهود .

وساروا فى التيه أياما حتى بلغوا جنوب الأردن ، فاستوطنوها ،

ولم يقتل منهم أحد .. وغنم المسلمون منازلهم وأسلحتهم وكثيرا مما تركوه من متاع ..

* * *

ولم يكد المسلمون يستريحون حتى جاءتهم الأنباء أن بعض حلفاء قريش يريدون غزو المدينة ، فخرج محمد بنفسه على رأس قوة ليواجه الجيوش المتقدمة من ثعلبة وغطفان ، وأدركهم المسلمون وطاردوهم ، حتى قمم بعض الجبال .. وانهزمت جيوش ثعلبة وغطفان .

وعرفت قريش هذا .. فضاعفت من عزمها على ضرب محمد .

لابد من ضربة سريعة حاسمة ، تعيد الثقة فى قريش إلى قلوب العرب جميعاً .. إن كل الأسرى الذين أعتقوا ليستعدون الآن لغزو المدينة .. ولقد وجدت هند بنت عتبة الآن من يأتى لها برأس حمزة .. وجدت عبدا اسمه وحشى يجيد القذف بالحربة على نحو لا عهد للعرب به .. إن هذا العبد عند رجل مات أخوه فى بدر بطعنة من حمزة .. وهند تعد العبد بكل شىء ، وصاحبه يعده بأن يعتقه ان هو قتل حمزة ! .. حمزة دائما ! ! .

وتحشد قريش جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل .. قوامه الأحابيش والعبيد الذين يكونون شرطة مكة وجيشها ، وعلى رأسه فرسان مكة وشجعانها . والحلفاء من قبائل تهامه وكنانه .

كلهم يخرجون على مئات الخيول والجمال المدربة على القتال ، فى الدروع والزرد .. ومن ورائهم نساء مكة وجواريها الحسان ، فى أجمل زينة ، تقودهن هند بنت عتبة .. بين حاملات الدفوف ، متعطرات متأنقات ..

يشحذن همم الرجال ويُرَدِّدْنَ الأغانى وراء هند ويقسمن ألا يسمحن لرجالهن بالاقتراب منهن ، حتى يهزموا محمدا ويعودوا برأس حمزة ! .

ما من رجل فى هذا الجيش إلا يحمل فى قلبه حبا للانتقام ، أورغبة فى استعراض قوته أمام زهرات نساء قريش وأفتن جواريها ..

إن رنين الطبول وقرع الدفوف ، وصيحات النساء المتعطرات .. كل ذلك يدفع على أمواجه الملتهبة جيشاً لم تعرف الجزيرة العربية مثله من قبل ، تحت قيادة أبى سفيان .. بجناحين من الفرسان يتقدمهما خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ..

ويندفع الموكب الصاخب الذى يعوى فى طاب الدم وتختلط فيه صيحات النساء ، بهزيم الخيول وهتافات الرجال .

إنهم يمضون جميعا إلى مشارف المدينة .. إلى جبل أحد ! ..

وتلقى محمد رسالة من عمه العباس يصف فيها كل شىء بالتفصيل .. وإذن فوعدنا أحُدْ !! ..

١٧

ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وحلفائها وأحابيشها ، يندفعون الآن كإعصار مخيف ، يختلط فى أعماقهم حب الانتقام بأحلام السيطرة .

إنهم ليزحفون ويزحفون .

ولقد أوشكوا أن يقرعوا أبواب المدينة على من فيها من نساء وأطفال وشيوخ ، وعلى العقيدة التى تلهب حماس الرجال ، وتنشىء إنسانا جديدا ، وإنهم ليستريحون فى وادى أحد .. على مقربة من المدينة ! .

واجتمع الناس فى المسجد يتشاورون .

وخرج إليهم محمد ، يحدثهم عن قوة الجيش المهاجم ويسألهم الرأى والنصيحة .

وقبل أن يتحدث واحد من الناس ، قال لهم محمد . « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا . فإن أقاموا ، أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » .

وانتظر محمد أن يسمع جوابا من الذين يشاورهم فى الأمور ..

أما الذين عادوا من بدر ظافرين فإن انتصارهم القديم الخاطف بدر مازال يدير منهم الرءوس حتى اليوم ، ويملأ القلوب بالكبرياء .

وتهامس شبابهم وهم يتحسسون مضارب السيوف ، وصدى بعيد من الأبواق العزافة والخيل الصاهلة يؤجج منهم حب المغامرة ، والقلوب تدق فى شدة على رجع قرعات الدفوف .. وإنهم مع ذلك ليحلمون بالغنائم ، وبالسبايا .. لقد جاءت قريش بأجمل نسائها وجواريها ، وبأفخر ماتملك من دروع ، وسيوف وثياب ومتاع وخيل وإبل ، وبخزائنها أيضا .. سيحصلون على هذا كله حلالا لهم ، فإن هم ماتوا دون هذا ، فإنهم لظافرون بخير منه . بالجنة .

وبعد ، فما بال محمد لايتيح فرصة مشابهة للذين فاتهم مغانم بدر وشرف المعركة فى بدر .

وقال قائلهم : « اخرج بنا إلى أعدائنا يارسول الله ، لايرون أنا جبنا عنهم وضعفنا .. »

أما شيوخ الأنصار ، فلم يرق لهم هذا الاقتراح .. أنهم أدرى بمدينتهم وأحق بأن تتبع شورتهم ولئن كان الشباب من المهاجرين ، وبعض شباب الأنصار الذين لم يكابدوا الحرب من قبل ، لئن كان هؤلاء جميعا قد غرهم أن اندحر فى بدر ألف من القرشيين أمام ثلاثمائة من المسلمين فإن على هؤلاء الشباب أن يعلموا أن قريشا لم تجىء وحدها ، بل حشدت الحلفاء والأحابيش ، وهى تعد للمعركة منذ عام .

فليتعلم هؤلاء الشباب أن الشجاعة فى الحرب ، ليست الاندفاع لى أظفار عدو متفوق .. وإنما هى خطة تكفل الانتصار ..

وقال عبد الله بن أبى باسم هذا الفريق من الشيوخ : « يارسول الله أقم بالمدينة ولاتخرج إليهم ، فوالله ماخرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منها ، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه .. فدعهم ، فإن أقاموا ، بشر محبس وأن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وأن رجعوا ، رجعوا خائبين » ..

هذا هو ما يريد محمد أن يقنع به الناس .. ولكن ، لماذا يؤيده عبد الله بن أبى ، وهو لايضمر لمحمد إلا الشر .

وأبدى بعض المسلمين خوفهم من أن يمكثوا فى المدينة ، ويجروا جنود قريش إلى أبوابها فإذا احتدم القتال ، انفجرت الخيانة .. وفى المدينة من يضمر العداء ويتأهب للكيد .

وطالت المناقشات حتى أذن بلال لصلاة الجمعة .. وبعد أن فرغ الناس من الصلاة عادوا يتشاورون فى الأمر .

ولم يستطيع محمد أن يقنع الآخرين بالبقاء فى المدينة : فالخوف من أن تحدث الخيانة فجأة ، ثم الزهو بالانتصار القديم ، والإشفاق من أن يظن أحد بهم الجبن والطمع فى غنائم جديدة من قريش .. كل هذا جعلهم يتمسكون بالخروج لملاقاة جنود قريش فى أحد .

وأخذ محمد الأصوات ، فإذا غالبية القادرين على حمل السلاح ترفض رأيه وتقرر الخروج إلى الحرب فى أحد .

وأذعن محمد لرأى الغالبية ، ودخل بيته ليرتدى ملابس الحرب .

وحين غادرهم محمد تعاتبوا فيما بينهم .. فلقد أغلظ بعضهم لمحمد أثناء المناقشة ، وقهروه على أن يتبع رأيهم على كره منه ، وعاد محمد بعد حين وقد ارتدى ملابسه الحربية ، فقال له بعضهم : « استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك » .

ولكنه قد تهيأ للقتال وأنتهى الأمر ، وما كان له أن يتراجع بعد أن استعد.

وعاهد الأقلية التى كانت تؤيده ، أن تنفذ قرار الغالبية وما دام القرار قد صدر فيجب أن يحترمه الجميع وعليهم أن ينفذوه بنفس حماس المؤيدين وها هو ذا بينهم فى طليعة الذين ينفذون القرار بالخروج إلى أحد

وأمر محمد كل المسلمين أن يستعدوا .. فسيخرجون من يومهم هذا الى أحد ليبدأوا القتال من الغد .

وانصرفوا يتسلحون بسيوفهم ودروعهم التى غنموها من بدر ، ومن بنى قينقاع .

وأرسل محمد إلى الحلفاء من يهود بنى قريظة وبنى النضير يطالبهم أن يخرجوا معه للدفاع عن المدينة ، فصحيفة التحالف التى كتبت بينهم تقضى عليهم بالدفاع عن المدينة . . ولكن بعضهم تعلل بأن الصيغة لا تلزمهم بالخروج من المدينة !

وقال آخرون من يهود بنى قريظة وبنى النضير : « إن الصحيفة تلزمنا بالدفاع عن المدينة على أى نحو ، بلا دخول فى تفاصيل خطط الدفاع ، ولكن محمدا سيقاتل من الغد وغدا هو السبت ، ونحن لا نعمل فى السبت ولا نشهر فيه سلاحا » .

وغضب أحد رجالهم فوقف عليهم لائما وأعلن أنه سينضم إلى محمد ، فإن قتل فى المعركة فتسلم أمواله إلى محمد يصنع فيها ماشاء . . وامتشق حسامه ودرعه وهو ينظر إلى قومه فى إزدراء قائلا : «لا سبت لكم» .

وجمع محمد نحو ألف رجل من المهاجرين والأنصار .. وبعض الجياد والإبل وخرج نسوة من المدينة وراء الجيش ، بالطعام والماء لتزويد المقاتلين .. وقسم محمد جيشه إلى ثلاثة أقسام وجعل على أحد الأقسام الثلاثة عبدالله ابن أبى . .

حتى إذا كانوا فى منتصف الطريق بين المدينة وأحد ، وقف عبدالله بن أبى يتحدث مع هذا الثلث من جيش محمد .. كانوا نحو ثلاثمائة رجل معظمهم من الخزرج ، وقد ظلوا طوال الطريق يتهامسون فيما بينهم متسائلين « لماذا لايفرض محمد رأية ، ولماذا يذعن لرأى الشباب المتحمسين » .

وقال عبدالله بن أبى « أطاعهم ، وعصانى » .

وكان عبدالله بن أبى قوى الحجة ، له قدرة باهرة على الاقناع .

ومضى يحدثهم عن المصير المجهول الذى يدفعهم إليه محمد فى مغامرة سخيفة رسمها خيال شبان حالمين بلا خبرة ..

ثم صاح برجاله « والله ماندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس» .

ولوى زمام فرسه راجعاً إلى المدينة ، ومن ورائه ثلاثمائة رجل من خيرة المقاتلين وناداهم ! بعض صحابهم من بعيد «لاتخذلونا » ولكن

عبد الله بن أبى ، تصدى لهم بابتسامته الماكرة المطمئنة « لو نعلم أنكم تقاتلون ماأسلمناكم ».

على أن محمدا تقدم بما بقى من جيشه وهم سبعمائة ، وظل يحضهم على الصبر .. حتى إذا بلغوا وادى أحد ، وجدوا جنود قريش يملئون معظم الوادى ، ومن ورائهم الصحراء العريضة ، والطريق إلى مكة آمنا !

إنهم لثلاثة آلاف ، بينهم العبيد الأحباش بالحراب المسنونة .. وسادة قريش وفرسانها بعدتهم وخيلهم ..

وما أشد حاجة المسلمين إلى الخيل .. ولكن عبد الله بن أبى قد انسحب بمعظم مايملكه المسلمون من خيل ! !

مهما يكن من شىء ، فلابد من مواجهة هذا الجمع المتفوق بخطة تقهره ..

وهاهم أولاء يتخايلون بأعراف الجياد ، وهند بنت عتبة بينهم تشق الصفوف فى قمة زينتها ، ومن حولها نساء الطبقة العليا من قريش وأجمل الجوارى ، متعطرات متأنقات ينشدن للرجال ، ويعبثن ببعض عظام هيكل بشرى ...

لمن هذه العظام ! .. كيف أمسكت هذه الأنامل الرقيقة بهيا كل الموتى؟ ولكنها عظام أمك يامحمد .. نبشت عليها الأنامل الرقيقة ، عندما مر جيش قريش فى طريقه إلى أحد ، على القبر الذى استاقت فيه آمنة منذ خمسين عاما ..

يبدوا لكم هذا كله وحشيا ورهيبا ومزريا .. !

على أن الوقت لم يعد صالحا للتفكير بعد فى شىء آخر غير مواجهة جنود قريش وكانت قريش قد قسمت جيشها إلى ثلاثة أقسام : القلب ويقوده أبو سفيان والجناح الأيمن الذى يضم صفوة الفرسان تحت قيادة خالد بن الوليد، والجناح الأيسر من فرسان يقودهم عكرمة بن أبى جهل..

وتحسس محمد الأرض من حوله .. فرأى أن يعسكر فى أقصى الوادى من ناحية جبل أحد ..

وأمر الرماة وعددهم خمسون رجلا أن يصعدوا إلى أعلى الجبل وليجعلوا همهم رمى الفرسان بالنبال ومنعهم من التقدم للاشتراك فى المعركة ..

إن الخيل تخاف من النبال، ولن يستطيع فرسان قريش أن يخوضوا المعركة، إذا ماسقطت عليهم النبال من أعلى الجبل.. وهكذا يخلص جيش محمد إلى القلب، وفيه سادة مكة وشجعانها وعبيدها الأحباش .. فيقضى على هذا القلب الذى يشكل معظم القوى الضاربة فى الجيش بعد أن يحرمه من الاستعانة بفرسان الجناحين .

وأمر محمد قائد الرماة بالنبال، أن يحذر بصفة خاصة مكر خالد بن الوليد فهو قائد حاذق شديد الدهاء .

وشدد ألا يبرح الرماة أماكنهم مهما يكن من أمر .. فليظلوا فى أماكنهم حتى يتلقوا أمرا آخر من محمد نفسه أو ممن سيخلفه إن هو استشهد فى المعركة .

وبعد أن شرح محمد لقائد الرماة خطر دوره فى المعركة عاد يكرر : « ادفع الخيل عنا بالنبال واثبت مكانك حتى لا يأتونا من خلفنا »..

وجمع محمد بعض شجعان المسلمين من حوله ، وأعطى سيفه لرجل من الأنصار اسمه أبو دجانة وطلب منه أن يستوفى لهذا السيف حقه، فأمسك الرجل بالسيف ، فى إيمان عميق بأنه لن يقهر وأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه فقال الناس : أخرج أبو دجانة عصابة الموت وجعل محمد راية المسلمين لمصعب بن عمير ، واصطف المسلمون يتقدمهم حمزة وإلى جواره أبو دجانة ، وعلى بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمر بن الخطاب وعبيدة بن الجراح .. ثم أشار محمد للرماة أن يبدأوا ، فانهمرت النبال على جناحى قريش .. وكان عكرمة يقود رجاله على خيولهم ويزحفون .. ولكن الخيل اضطربت وهى تواجه سيل النبال المنصبة من أعلى الجبل ولم يستطع فرسانها أن يقهروها على التقدم .. واصطدم فرسان قريش : الواحد بأخيه .. ، فأمر محمد جيشه أن ينقض .. وابتعد خالد بن الوليد بفرسانه عن مرمى النبال .. بينما انقض قسم من جيش محمد على جناح عكرمة فأوقع الفوضى فى الصفوف واضطر عكرمة إلى التقهقر ، وذكريات بدر تنبثق أمامه فجأة بصور حمزة معلما بريشته ، وأبطال قريش صرعى على الرمال !! .

وتقدم حمزة يضرب بسيفه كل مايلقاه من الهامات وهو يصيح بصوت يبعث الرعب : « أمت .. أمت » .. وإلى جواره أبو دجانة يضرب بسيف محمد ، وقد ألهبه الإيمان بأن هذا السيف الذى يحمله يستطيع أن يصرع جنود قريش جميعا ..

واندفعت جموع المسلمين إلى القلب من جيش قريش، وسقط حامل لواء قريش، فحمله رجل آخر .. وسقط الثانى فتقدم ثالث .. وسقط هو أيضاً فتقدمت امرأة من قريش تحمله .. والمسلمون يتقدمون مجتاحين .. والجناح الأيسر الذى يقوده عكرمة بن أبى جهل يتموج فى اضطراب وذعر خلال تقهقره والخيل تقفز وتلقى بمن عليها ..

والمسلمون يتقدمون يلهبهم النصر المفاجىء السريع والإيمان الخارق بأن من مات فى هذا الجهاد، كتبت له حياة أخرى يعيشها فى الجنة خالداً مخلداً فيها .

وهند بنت عتبة وسط أصحابها ترى فرسان قريش يفرون مذهولين من المد الزاحف أمامهم فتصرخ فيهم :

ويها بنى عبد الدار ! .

ويها حماة الأدبار ..

ضربا بكل بتـــار ..

إن تقبلوا نعـــانق   ونفرش النمارق

أو تدبروا نفـــارق   فراق غير وامق

وتمضى هند فتلبس الحديد والزرد وقناع الحرب وتشهر السيف تطعن به الصدور الحاسرة ، ويشعر أبو دجانة أن هناك فى المعركة فارسا رشيق الحركة يخمش الناس خمشا شديدا فيقتحم عليه ويصمد له ، ويرفع أبودجانة سيفه ليهوى به على مفرق الفارس الرشيق فاذا بالفارس يولول

ويركع متضرعا إلى أبى دجانة أن يرحمه .. وإذا بهذا الفارس هو هند بنت عتبة .. ويطلقها أبودجانة قائلا : أنى لأكرّمُ سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة .. وتنجوهند ، وتخلع لباس الحرب ولكنها تنطلق تجمع النساء ، وتجرى وراء رجال قريش الفارين تعيرهم بالجبن .. والمسلمون يتدافعون وسط رجال قريش .. وحمزة يصرع الواحد بعد الآخر .. وهند تبحث فى جنون عن العبد الحبشى الذى كان يختبىء بحربته وراء شجرة فى الوادى .. وتمسكه من يده وتجره إلى مكان حمزة ، وهى تبذل للعبد مزيدا من الاغراء والوعود .. ولكن المسلمين مازالوا يتقدمون .. حتى لقد أحاطوا بهند وصاحباتها وجواريها .. وأسروهن . وجيوش قريش تتقهقر : أبوسفيان ينسحب بجنود القلب .. وعكرمة يجرى بفرسان الميسرة .. أما خالد فما زال بعيدا بفرسان الميمنة يخشى أن يشتبك فى القتال .. والعبد وحشى ، مازال يختبىء وراء الشجرة فى انتظار فرصة تتاح له فيهرب برأسه على الرغم من وعود هند واغرائها ..

ويرى الرماة من أعلى الجبل ، اندحار جنود قريش تاركين المتاع والدروع وَالسيوف والنساء .. ان المعركة قد انتهت فى سرعة خاطفة ، والمقاتلون المسلمون يجمعون الغنائم والأسرى والسبايا الآن .. ويقترح واحد من الرماة على الآخرين أن يسرعوا لالتقاط الغنائم الفاخرة ، والسبايا من نساء قريش الجميلات .. ولكن قائدهم يذكرهم بما قاله محمد: أن يثبتوا فى مكانهم مهما يحدث ، وألا يتركوا الموقع حتى يتلقوا منه هو نفسه الأوامر ..

ويقفون متململين ومن تحتهم يعج الوادى بالغنائم : الخيول الفارهة ،

والدروع ، والزرد ، والإبل المحملة ، والنساء الجميلات ، وأكداس الطعام الثمين ، والمتاع الباهر .. الذهب والفضة وكل ما يملأ حياة سادة قريش بالابهة .

ولكن أوامر محمد لم تصدر بعد .. لقد نسيهم محمد .. ولن يكون لهم من الغنائم شيء ! . وحتى إذا وزعها محمد فيما بينهم جميعا على سواء ، فسيفوز غيرهم بالعبيد والجوارى والسبايا ! .

ولم يستطيعوا الصبر أكثر من هذا ، فتركوا أماكنهم دفعة واحدة وانحدروا إلى السهل يجمعون الغنائم ، ويأسرون ما طاب لهم ..

وخالد بن الوليد يقف بعيدا على فرسان الميمنة .. يتأمل جيوش قريش المهزومة ، ويفكر فى طريقة للانقضاض ..

وإذ رأى رماة المسلمين قد نزلوا عن الجبل وانشغلوا بجمع الاسلاب ، قاد فرسانه مسرعا واستدار ، واعتلى الجبل على الفور ، وفاجأ المسلمين من ظهورهم وهم عاكفون على التقاط الغنائم .. وهو يصيح فى جيوش قريش المتقهقرة أن تعود ..

* * *

وعادت جيوش قريش تقتحم المعركة من جديد : القلب بقيادة أبى سفيان ، والميسرة بقيادة عكرمة ، والميمنة بقيادة خالد تطعنهم فى الظهور .. وهكذا فوجىء المسلمون بأنفسهم محاصرين ، تطوقهم جيوش قريش من كل سبيل ..

وأخذت الخيول تدهس جثث الرجال ..

وبرز حمزة من جديد إلى جواره أبودجانة وعلى وعمر وسعد والزبير ، يقاتلون جميعا فى استبسال لتحطيم الحصار وانطلق حمزة يصرع الواحد بعد الآخر من فرسان قريش ، حتى اقترب من وحشى .. واختبأ وحشى وراء شجرة فى الوادى وحمزة ينقض على فارس من قريش يعمل سيفه فى صفوف المسلمين .. صرخ حمزة فيه : هلم إلى ياابن مقطعة البظور ، وبارزه حتى صرعه وعكف يجهز عليه ، وهز وحشى حربته وقذف بها حمزة من بعيد ، ودخلت الحربة من بطن حمزة لتخرج من ظهره .. وحاول حمزة أن يرفع يده بالسيف فلم يستطع .. وتقدم منه وحشى فاستل الحربة وأخذها ليغسلها بهدوء ..

سقط حمزة .. فانطلقت هند إليه .. وأخرجت قلبه وكبده .. وأخذت تعصر كبد حمزة بيدها وتلوكه بفمها وتلعق الدم متشفية وهى ترقص على جثته ..

وبدأ المحاربون المسلمون يسقطون بالعشرات ..

وتقدم أبوسفيان إلى جثة حمزة ، فركلها .. وضرب شدقه بسن حربته .. وحين اخترقت الحربة شدق حمزة ، ضحك أبوسفيان ، ومشى يسحق بحذائه ، كل ماهو نبيل وشجاع فى الرجل الذى كان يملأ قلوبهم بالرعب منذ لحظات ، ولم يعد الآن غير جثمان ملقى ، ودماء تختلط برمال الأرض ..

لقد مات حمزة .. مات حمزة فأين محمد !!

وتردد الوادى بهتاف أبى سفيان « مات حمزة » .. وظلت هند تخضب يدها بدمه وترفعها مهللة مات حمزة ..

واضطربت جموع المسلمين .. وتقدم مصعب بن عمير بالراية ، فانقض عليه رجل من قريش .. فقطع يديه ثم قتله .. وكان مصعب كثير الشبه بمحمد .. وخيل للرجل القرشي أنه قتل محمدا .. فصاح : قتلت محمدا قتلت محمدا . .

وسيطر الرعب على معسكر المسلمين .. لماذا يبقون إذن بعد أن قتل محمد ؟

بدأوا يفرون ... وأمر محمد أن تسلم الراية إلى على بن أبى طالب وتقدم على بالراية يخوض الصفوف وإلى جواره أبو دجانه ، بينما اندفع عمر بن الخطاب وسعد بن أبى وقاص وأبو دجانه وعبيدة بن الجراح والزبير بن العوام يبحثون عن محمد فى الزحام الجنونى المختلط ، فوجدوه يقعد منهكا وقد شجت رأسه ، ودمه ينزف من جسده، وخده مشقوق ، انغرست فيه حلقتان من الزرد .. ومال عبيدة بن الجراح يشد بأسنانه الحلقتين ،فخلعهما ، وانخلعت بعض أسنانه .. وسعد بن أبى وقاص يرمى بالسهام وجموع أخرى من قريش تتدافع نحو محمد تريد أن تقتله وهو يقول لسعد : « ارم .. ارم .. بأبى أنت وأمى » ..

وأذن الزبير فى الناس أن محمدا حىٌّ لم يمت ..

وصاح عمر بن الخطاب فى المسلمين الهاربين أن يعودوا فمحمد حى لم يمت .

وقاد جماعة من فلول العائدين ووقف يحارب دون محمد.. بينما جعل المسلمون الآخرون من أجسادهم دروعا تحميه من نبال قريش واقتحم عليهم أبى بن خلف على فرسه وطلب أن يبارز محمدا .

لقد جاء بفرسه الذى كان يلقى بها محمدا فى مكة قديما فيقول له : « انى اعده لأقتلك من عليه » وكان محمد فى ذلك الزمان يجيبه : « بل أقتلك أنا باذن الله » .

وطلب عبيدة ، وعمر ، والزبير من محمد أن يأذن لأى منهم فيبارز أبى بن خلف نيابة عنه .. ولكن محمدا رفض . وصمم على أن يبارزه هو بنفسه على الرغم مما فيه من جراحات .

وانقض محمد يبارز أبى بن خلف .. وجمع كل قوته فى ضربة واحدة ألقت بأبى بن خلف من على ظهر فرسه .. وتذكر ابن خلف النذير القديم وصاح فى ذعر : « قتلتنى » .. ولم يقم أبى بن خلف بعد ذلك من سقطته :

وعاد محمد ، مثخنا بجراحه .. يستلقى وسط أصحابه ، وكل واحد منهم يحاول أن يعالج هذه الجراح .

وتجمعت كل قوات المسلمين حول محمد .. فلم تستطع قريش أن تخلص إليه .. ومالت الشمس نحو المغيب . فبدأت جيوش قريش تتجمع لتعود .

وخيل لمحمد أنهم سيهاجمون المدينة .. فطلب من على أن ينظر أى الطرق يسلكون ، ولكنهم كانوا يعودون إلى مكة حقا .. ظافرين .. تلمع سيوفهم تحت أشعة الشمس الغاربة .. وضحكات النساء والجوارى تملأ أرض المعركة التى تردد أنات الجرحى من المسلمين ..

وطلب عمر فى غيظه من حسان بن ثابت أن يرد على هند الفاجرة

التى تخلفت تغنى وترقص مع بعض جواريها ، وتنشد رجزا يهجو المسلمين.. فارتجل حسان قصيدة فاحشة يصف فيها خلاعة هند وفجورها.

ولكن حسان كان متعب القلب من كل ما حدث.. وبصفة خاصة ؛ حين اكتشف وسط الجرحى : جثة أخيه ..

وقام محمد يتوكأ على صحابه فى أرض المعركة ، التى تتناثر فيها اشلاء سبعين قتيلا من المسلمين ..

وظل يتلمس حمزة :

وحين اقترب منه .. وجد بعض عظام من جسد أمه ..تركتها هند أمام جسد حمزة ..

وتقدم يتأمل حمزة فوجده قد بقر بطنه ومثل به وجدع أنفه وأذناه..

وقال : « لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم » وقال الذين من حوله يواسونه : « والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب » .

واستدار ليرجع وكل جسده ينتفض.. ولكنه عاد إلى جثة حمزة وأخذ يغمغم : « لن أصاب بمثلك أبدا .. ما وقفت موقفا قط أغيظ الىّ من هذا » .

ورجع إلى المدينة ، يحيط به بعض صحابه .. وسمع خلال الطريق إلى بيته نواح النادبات يبكين القتلى .. كل بيت يبكى شهيده .. وشعر بأنه هو وأهل بيته غرباء ها هنا .. أشد غربة من أى وقت مضى ! .

كان من حوله بعض الأنصار يواسونه ، ونواح النساء يبكين الشهداء .

وهمهم محمد فى صوت يغيض فى دموعه : ولكن حمزة لا بواكى له:

فأمر الأنصار نساءهم أن يبكين حمزة سيد الشهداء . .

وارتفع النواح على حمزة من كل البيوت ..

أما محمد فقد اندفع إلى داره لا يكلم أحداً بعد ، ولا يكلمه أحد ، ثم أغلق عليه الباب ، وأخذ يبكى كما لم يبك من قبل أبدا ..

أجنونا كان ذلك كله ، أم حكمة ؟! .

كيف يمكن أن تمحى آثار كل هذه الهزيمة فى أحد .. أن يأسو كل هذه الجراحات ..

سبعون قتيلا من خيرة الأنصار والمهاجرين ..وفى الطليعة منهم : حمزة الجسور النبيل الرائع ..

ومع ذلك فلو أنه كان قد سمع نصيحة عمر بعد بدر فقتل الأسرى ، لما استطاعت قريش أن تحشد كل هذا العدد .. !

إن رجالا من قريش أحسن إليهم فأطلقهم بعد أن وقعوا أسرى فى بدر كانوا يوم أحد يتدافعون بسيوفهم عليه يطلبون رأسه هو !! .. ومنهم من قام عليه خطيبا يلهب الحماس ضده عندما أوشك جيش قريش أن يفر .. !!

لكم قال له عمر : أقتل هذا الرجل أوذاك فلا يقوم أحد عليك خطيبا .. ولكنه ما سمع ، فاذا بمعظم أسرى بدر ، يشهرون عليه السلاح حتى الرجال الذين عطف عليهم بعد انتصاره فى بدر فأطلقهم بلا فدية ، ليعولوا بناتهم فى مكة !! حتى هؤلاء !! .

لا رحمة لمثل هؤلاء بعد .. ! !

وها هو ذا أحد الأسرى الذين كانوا قد اعتقوا بلافدية بعد بدر، يقع فى الأسر مرة أخرى فى أحد ، فيستعطف محمدا ، فيقول له محمد : «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول خدعت محمدا مرتين ! إن المؤمن لايلدغ من جحر مرتين » . ثم يأمر الزبير بن العوام أن يقتله ! .

ويلوذ أسير آخر من أغنياء مكة . بعثمان بن عفان فيأخذ له الآمان ، ويرضى محمد كارها بالعفو عن الرجل على أن يرحل بعد ثلاثة أيام . . وتمر الأيام الثلاثة وإذا الرجل مختبىء فى بعض ضواحى المدينة ، فيرسل إليه محمد رجالا يقتلونه ! . .

النوايا الطيبة لا يجب أن تفتح الطريق إلى بيتك أمام اللصوص ، فلقد أوشك رأسك أن يسقط يامحمد ، ولئن سقط رأسك الآن ، لانقلبوا على أعقابهم ، ولسقطت راية الدعوة الجديدة ! .. مازال عليك أن تقول الكثير وأن تعمل الكثير ، لتحرر الإنسان من سيطرة المصير ! ..

ومن أجل ذلك فينبغى أن تكون فضائلك هى الأسوار المنيعة التى تحميك لا نقط الضعف فيك ! ..

الشرير دائما يتسول الحماية فى ظل الفضيلة ، عندما يعجز عن قهر القيم الفاضلة ! .. إن واجب الاخيار أن يدركوا هذا وألا يسمحوا للشرير بأن يخدعهم ، فانه إنما يلتمس العفو ، لا لينضم إليهم جنديا من جنود القيم الشريفـــة ، بل ليضرب الراية التى يتحركون تحتها حين يجىء الوقت !.

وعلى الذين يناضلون من أجل تحرير القلب والعقل والوجدان أن يدركوا جلال مسؤليتهم التاريخية ! .. فلو لم يرق بعض الأنصار فى معركة أحد ، لضراعة هند بنت عتبة . . لو لم يتركوها تنجو بحياتها ، وصاحباتها ، لما قتل حمزة القدكان العبد وحشى لايعرف من هو حمزة ، ولا يعرف حتى لماذا يجب عليه أن يقتل حمزة .. ولكن هندا هى التى أغرته ، وهى التى أخذته من يده وهيأت له المخبأ وراء ، شجرة ، ليغتال حمزة سيد الفرسان : وانطلقت هند بعد هذا هى وصاحباتها يستنفرن الرجال الهاربين ! ..

وعلى الرغم من أن خالد بن الوليد ، فاجأ المسلمين من وراء ظهورهم ، فقد كان جيش المسلمين قادرا على أن ينتصر على فرسان خالد ، لو لم تذهب هند وصاحباتها إلى أبى سفيان وعكرمة .. اللذين كانا يفران بقلب جيش قريش وجناحه تستصرخهما أن يعودا لتطويق المسلمين ! !

فليتعلم المسلمون جميعا أنه فى مثل معارك المصير ، لاتهاون بعد ولا رحمة .. إن هذه الرحمة المخدوعة كلفتهم حياة حمزة والنصر أيضاً ! ..

ومع ذلك .. فالرماة الذين تركوا أماكنهم ليتحملون جزءاً كبيراً من مسئولية الهزيمة ، وأن عبدالله بن أبىّ ورجاله الثلاثمائة ، ليتحملون بفرارهم قبل المعركة مسئولية دماء سبعين شهيدا من المسلمين ! ..

أنتم أيها الرماة .. لماذا تركتم أماكنكم قبل أن يصدر إليكم الأمر؟ ! لقد رأيتم الغنائم والسبايا فطارت عقولكم ! !.. عصيتم ! منكم من

يريد الدنيا ، على الرغم من كل التعاليم ! .. فلتتحملوا أنتم مسئولية هذا العصيان !

ولكن محمداً آثر أن يعفو عنهم ، من بعـــد ما رأى ندمهم ودموعهم . .

مهما يكن من شيء فياأهل المدينة : لا تيأسوا بعد .. تلك الأيام نداولها بين الناس ، فلا تهنوا ولا تحزنوا .. ولتعتبروا من كل ما كان ..

وخرج محمد من وراء بابه الذى كان قد أغلقه عليه ، فأعطى سيفه لابنته فاطمة وقامت تغسله مما علق به من الدماء ..

ثم ذهب إلى المسجد ، حيث تعود أن يلقى الناس ، فوجد عبد الله بن أبى يقف فى الناس خطيباً ! ..

ماذا يقول عبدالله بعد أن خذله فى أحد وانسحب بثلث الجيش !؟

كان عبدالله يحض الناس على أن يسمعوا لمحمـــد ويطيعوه .. ويحبوه ! .. !

إلى أى حد يعبث هذا المنافق الكبير بعقول الآخرين ! ؟ .. أهو يتحدث عن الحب أيضا ، أيتحدث عن الطاعة ، هو الذى رفع فجأة راية العصيان ، وأحدث ثغرة فى قوات محمد ، وبرح يكيد له : فى الصدر منه مستنقع تفرخ فيه العفونة والكراهية ، وعلى الفم ابتسامة والذراعان متهيئتان للعناق ! ؟

وقبل أن يبلغ محمد مكان عبد الله بن أبى وثب بعض الذين كانوا فى

أحد ، وأخذوا بثياب عبد الله والغصة فى الحلوق ، وطعم الهزيمة مازال يملأ الأفواه بالمرارة ..

وبصقوا مرارتهم فى وجهه وانقضوا عليه يدفعونه ، وهو يصرخ فيهم متعجبا : لماذا يثبون عليه وهو يدعوهم إلى الحب وإلى طاعة محمد ! .. ولكنهم ظلوا يركلونه حتى خرج من المسجد ، وهمس عمر لمحمد : لو أمرتنى فأقتله ! .. ولكن محمداً نظر إلى عمر مستنكراً .. ! ! إن عبد الله بن أبى مازال يملك النفوذ على بعض القلوب ، ومهما تكن خيانته الآن ففى المدينة رجال ما برحوا يحترمونه ويغضبون له ! ..

ليصبر محمد ، وليحتط ولن يخدعك عبد الله بن أبى بعد .. وعلى أية حال ، فلن يأمر محمد بقتله إلا يوم يطالب كل الناس برأسه .. ويصبح من المستحيل على أحد أن يمنعه ! ..

وأقبل محمد على الناس يحدثهم عن محنة أحد .. ويستخلص العبرة من أخطائهم فيها عسى أن تضىء التجربة القاسية طريقهم إلى المستقبل !

كان قد مسح دموعه على حمزة .. وأعلنهم أنه لن يمثل بقاتلى حمزة إن ظفر بهم .. فما كان له أن يمثل بالقتلى .. ولكن سيكتفى بقتلهم ! وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . .

وطالبهم ألا تأخذهم بعد فى العدو رحمة .. ففى معارك المصير ، تصبح الرحمة نوعا من الغفلة .. وماجدوى رحمة تجلب الهزيمة ، وتهدد القيم التى يدافعون عنها ! . .

وحدثهم طويلا عن الطاعة ..

إنه ليشاورهم فى الأمر ، وسيظل يشاورهم ، فلئن تخلى عن المشورة يوما فهناك تسود الفوضى والظلمات .. ولكن المشورة يجب أن تفضى إلى اتفاق .. فاذا اتفقوا على أمر وأقروه فليس من حق أحد بعد أن يخرج على القرار .. وإلا حق عليه جزاء المفسدين فى الأرض ! .. وفى معارك المصير ، يجب على كل الجنود أن يذعنوا لأوامر القائد .. لأن القائد لا يمثله شخصه وإنما هو انبثاق من إرادة الجميع ، وقراراته التى تصدر بعد الشورى إنما تشكل رأى الناس جميعا ، فمن خالفها فكأنما خالف الناس جميعا ..

ومهما يكن من أمر .. فانه لن يؤاخذ الذين خطأوا وكانوا سببا فى الهزيمة .. سيعفو عنهم ويستغفر لهم وسيظل يشاورهم فى الأمر .

وأما الذين قتلوا فى أحد ، فقد طلب محمد من الناس ألا يبكوهم بعد.. وألا ينقلوهم إلى المدينة ليدفنوهم فيها ويقيموا الأحزان .. « فليدفنوا حيث صرعوا » ..

وهم ليسوا أمواتا بل شهداء « أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

أما أنتم يا من ترجعون سبب الهزيمة إلى الخروج من المدينة ، وتريدون أن تجعلوا ذلك حسرة فى قلوب الذين جاهدوا فلا تقولوا لإخوانكم بعد إذا ضربوا فى الأرض : لو كانوا معنا ما ماتوا وما قتلوا .. ولتعلموا جميعا أنكم لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ! ..

ولم يكد الناس يفرغون من حديث المحنة فى أحد ، حتى شعروا أن لفحات للتجربة قد أنضجتهم حقا ، حتى يستطيعوا الآن أن يواجهوا المستقبل وهم أكثر تماسكا وطاعة ، وصلابة .

وانصرف محمد يدير شئون مدينته بعد المحنة ..

لقد أنذرتهم قريش أن تهاجمهم فى مثل هذه الأيام من العام القادم بجيوش تدك عليهم الجبال ! فليستعد محمد منذ اليوم لهذا اللقاء ..

فليحشد القوى التى بعثرتها الهزيمة ، وليلق فى القلوب من جديد ثقة لا تتزعزع بأن المستقبل له !

وكان عليه أولا أن يأسو الجرحات فى سبعين بيتا من المدينة ، مازالت تنوح على رجال ذهبوا وطاف محمد مع صحابه بالبيوت يعزى الأرامل والأيتام ، وينصح صحابه أن يتزوجوا الأرامل الصغيرات لكى يعصموهم من الفتنة .

وبدأ يدبر المال الذى يجريه على هذه البيوت التى لم يعد لها ما تعيش عليه بعد ..

من أين يدبر هذا المال ؟ لقد كلفته معركة أحد فوق الطاقة ، وغنمت قريش من جيوشه كثيراً من السلاح والدروع ، وإنه لفى حاجة إلى ضعف ما فى خزائن المدينة ليشترى به السلاح استعداداً للقاء قريش حين تزحف على المدينة فى العام القادم ..

وحض القادرين من المسلمين على أن يدفعوا ، ويبذلوا ليعاونوا أسر

الشهداء .. لكنه وجد كثيراً من القادرين .. لا يدفعون ! .. فى الحق أنهم أصبحوا غير قادرين !

كانت حالة من حب المقامرة قد استولت على كل النفوس ، بعد أن سحقت قريش أحلام المسلمين بالغنائم والأسلاب فى أحد ..

أما الذين خرجوا إلى أحد مدفوعين بأحلام الغنى فقد عادوا كلهم مجانين من الغيظ ، واتجهوا إلى المقامرة ، عسى أن تعوضهم عن أحلام الغنى التى أهدرت فى جنبات أحد ! . . وفى ساعات اللعب كانت الخمر تقدم لهم بلا حساب ..

وأحسن يهود بنى النضير استغلال هذا الانهيار الذى يعصف بالنفسيات المصدومة .. ففتحوا بيوتا للهو تقدم خمر البلح القوى ، وتعقد فيها المقامرات بالمبالغ الطائلة وترقص اليهوديات الحسان ! ..

إلى مثل هذا الجو الصاخب هرب كثير من المسلمين .. وفى مثل هذه الدوامات من المغامرات الرهيبة ضاعت ثروات ! .. وفى الحق أن يهود بنى النضير كانوا حين تخلوا عن يهود بنى قينقاع يطمعون فى أن يرثوا سوقهم فى المدينة ، ولكنهم منذ وجدوا المسلمين يستولون على السوق اليهودية ، أخذوا يحتالون لتدمير الاقتصاد الإسلامى . ولم يكد ينهزم المسلمون فى أحد ، حتى أقام اليهود فى بيوت فاخرة أسواقا أخرى للمقامرة والمتاع .. واستغلوا الانهيار النفسى بعد الهزيمة ، فكسبوا من تجارتهم تلك أكثر مما كانوا يأملون من وراثة سوق بنى قينقاع .

وأدرك محمد أن هذه التجارة الشائنة التى يروجها اليهود ، لا تحمل

الفقر وحده إلى بيوت المسلمين ، وإنما هى تدمير منظم للصلابة التى يجب أن يحتفظ بها جيل كتب عليه أن يواجه مسئولية تحرير الإنسان ! .. إن بنى النضير لايكتفون بتخريب الاقتصاد فى المدينة ، وإنما يخربون النفوس أيضا ! ..

وروع محمد من مناظر الرجال البواسل الذين ناضلوا معه فى بدر وأحد ، ينحدرون الآن فى يأس هائل ، فما يفيق الواحد منهم من الخمر ، ما يغادر أماكن القمار ، إلا ليستمتع بإحدى المغنيات أو الراقصات اليهوديات .. ولاشىء بعد يملأ القلب أو الفكر ، غير الرغبة فى الفرار من الواقع المعذب ، غير أحلام مريضة بالغنى والمتاع ... والبحث المضطرب عن العزاء !

كانوا يتباهون كل صباح بمغامرات الليلة السابقة ، وتشيع فى المدينة قصصهم وقال لهم إن المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيكشف ستر الله عنه .

وظل يدعو ربه أن يحمل العزاء إلى هذه القلوب التى سحقتها الصدمة فى أحد .. ولكن بلا جدوى ! ..

وأخيراً أطلق مناديا يدعو الناس إلى ترك الخمر فقد حرمت .. لقد حرمت فلا يقربوها .. وعليهم ألا يقربوا الميسر ولحم الخنزير .. وألا يقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. وعلمهم أن الاستمتاع ببنات اليهود إنما هو ضرب من الزنا عقابه مثل عقاب الزنا ! ..

وامتنع المسلمون عن الذهاب إلى البيوت التى فتحها بنو النضير . .

فاحتج بعض بنى النضير ، واعتبروا أوامر محمد نوعا من التضييق الاقتصادى .. وطالبوه أن يعوضهم عن هذا بأن يسمح لهم بتبادل التجارة مع قريش .. وإلا فسدت الخمور ، ومراعى الخنازير ..

ولكن محمدا لم يكن ليحفل بالبحث عن حل لانقاذ اقتصاد بنى النضير .. فلتفسد الخمر ، ولتهلك الخنازير جميعا ، وليأخذ الطاعون كل غانيات اليهود . فالذى يعنى محمدا حقا هو انقاذ رجاله واعدادهم للنهوض بدورهم .. على أنه حذر يهود بنى النضير أن ينقضوا صحيفة التحالف القديمة التى نصت على مقاطعة قريش وحذرهم بصفة خاصة أن يبيعوا السلاح ! .

وعاد إلى رجاله ينصحهم أن يلتمسوا أسلوبا آخر للعزاء .. فليؤمنوا بالمستقبل ، وليؤمنوا بأن الحق الذى يدافعون عنه هو الذى سينتصر .. ولينصرفوا إلى أعمالهم ، فما زالت الحقول تنتظر من يستنبت منها الزرع .. وليكونوا هم أنفسهم عزاء للأطفال الذين فقدوا آباءهم فى أحد .. وعزاء للنساء اللواتى فقدن الأزواج فان « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو كالقائم بالليل الصائم النهار » .. وليدفعوا أموالهم لأسر الشهداء بدلا من تبديدها على الخمر والقمار ولحم الخنزير .

واستطاع محمد أن يجد لكثير من البيوت رجالا من صحابه .. ولكن واحدة من أرامل الشهداء صارحته ذات يوم : إنها لن تتزوج فلن تجد خيرا من زوجها الشهيد .

كانت هى هند بنت أمية ، قد استشهد زوجها بعد أن ترك لها مع

الأسى والدمع المتصل ولدها سلمة .. وكانت فى الثلاثين .. جميلة مثقفة .. بكل جمال تلك السن ، وبكل النضج التى تمنحه الثقافة .. لكم تشبه فى جلالها وشموخها .. زوجته العزيزة الراحله .. خديجة !

وحاول محمد أن يقنعها أن تقبل زوجا من فضلاء المهاجرين أو الأنصار ، ولكنها كانت تقول له دائما : « ومن يكون خيرا من أبى سلمة » .

وتقدم إليها عمر خاطبا ، ورفضت أم سلمة ، ثم تقدم أبوبكر .. فرفضته ، ثم تقدم محمد نفسه فقالت إنها لاتفكر فى الزواج بعد ، فقد ارتفع سنها حتى لقد بلغت الثلاثين ، فما تهتم الآن بالرجال .. وهى بعد أم ولد تريد أن تفرغ لولدها .. وهى فوق كل هذا امرأة تعرف نفسها وتعرف أن لها قلبا غيورا فما تقبل أن يشرك بها عنده رجل !! ثم قالت لتتخلص من طلب محمد إنه على أية حال يضم زوجات جميلات لايتجاوز عمرهن العشرين مثل عائشة وحفصة وزينب ، فما حاجته بامرأة مثلها فى الثلاثين ؟

وأخذ يحاورها : لئن كانت تحسب أنها قد جاوزت سن الزواج فهى مخطئة فهى مازال شابة ، وهو نفسه يكاد يبلغ ضعف عمرها .. أما عن ولدها فسيكون هو أبا له .. وهى بعد يجب ألا تغار من الزوجات الصغيرات لأنها تملك من الجمال والصبا مثلما تملك أصغر زوجاته وعلى أية حال ، فسيدعوا لها ربه أن يطهر قلبها من الغيرة ، وإنه ليخشى عليها الفتنة إن تركت بلا رجل .

واقتنعت أم سلمة بعد أن رأت حرص محمد عليها .

وزفت إليه فى بيت جديد منفصل عن بيوت زوجاته الأخريات.

وعندما أحتوتهما الحياة المشتركة أحس محمد أنه الآن يمتلك كنزا ثمينا : فأم سلمة على جمالها — أمرأة ناضجة ذكية القلب ، راسخة .. لكم تذكره بخديجة حقا !

على أنه الآن قد أطمأن إلى مستقبل الأرامل جميعا .. وقد امتنع رجاله عن الخمر والميسر ولحم الخنزير وارتياد بيوت اليهود .. وأنقذت تعليماته الصارمة أموالهم ونفسياتهم ، فهو لا يفكر بعد إلا فى طريقة يستعيد بها هيبة الدعوة بعد هزيمة أحد .

لقد بالغت قريش فى استغلال انتصارها فى أحد ، فأطلقت الشعراء يتغنون بهذا الانتصار ويهجون محمدا وأصحابه .. وأقيمت الأفراح فى كل دور مكة ، وأمتلأت الساحات بالراقصات والمغنيات ، وأريقت الخمور.. وذبحت قريش ودعت الأعراب من كل مكان ليشاركوها فرح الانتصار ثم دفعت الأموال الطائلة لشعراء القبائل الأخرى فأنشأوا القصائد الطوال فى السخرية من محمد وفى الحض على الاحتشاد للقائه إذا جاء العام القادم .

ودوى هذا كله فى أرجاء الصحارى الواسعة .. فبدأت تتحرش به كل القبائل التى كانت ترهبه من قبل

وبلغ الصدى معاقل اليهود فى المدينة فشجعهم هذا على الاستخفاف به !

وكان بنوا النضير يتميزون منه غيظا منذ منع صحابه من الذهاب إلى بيوتهم ليقامروا ، ومنذ منع الخمر ولحم الخنزير ..

فلم يكد بنو النضير يتسامعون بما تقوله قريش فيه ، حتى أعلن أحد أغنيائهم أنه سيمنع المسلمين من أن يشربوا الماء من بئر يملكها .

لقد حرم محمد الخمرعلى رجاله ، وإذن فليدفعوا للماء .. ! ولكن ثمن القدح أغلى من ثمن قدح الخمر ! !

اضطرب أهل المدينة فما تعودوا أن يشتروا الماء من قبل ، فأخذ محمد يغرى أثرياء المهاجرين أن يشتروا هذه البئر

وتقدم عثمان بن عفان إلى صاحب البئر فغالى فى الثمن وأبى أن يبيعه أكثر من نصف البئر ودفع عثمان فى نصف البئر ما يكفى ثمنا لثلاث آبار .. ثم وهبها المسلمين يشربون منها ويسقون الحيوان بلا مقابل .. مما اضطر المالك اليهودى أن يبيعه النصف الباقى بثمن بخس .

ويوما بعد يوم عادت الثقة تملأ القلوب من جديد .

والأيام تمضى والقبائل كانت ترهب محمدا تستعد للقائه .

* * *

واستقبل ذات صباح وفدا من بنى سليم جاءوا يطلبون منه أن يرسل إليهم من يثقفهم بالدين الجديد فقد مالوا إليه بعد أن كانوا من غلاة الأعداء .. وأرسل معهم ستة من أصحابه ، فرحا بأنهم سينضمون إليه .. غير أنهم كانوا يضمرون الكيد منه وليجعلوه سخرية بين القبائل !

وتلقى محمد وفدا آخر من بنى هذيل فأرسل بعض صحبه إليهم ليثقفوهم فى الدين الجديد .. غير أنهم كانوا يضمرون غير ما قالوا .

فلم تكد وفود محمد توغل فى الصحراء .. حتى وثب فرسان بنى سليم على من معهم فقتلوهم إلا رجلين ، ووثب بنو هزيل على من معهم فقتلوهم إلا واحدا .

وروع محمد من هذا كله !

إلى أى حد تريد قريش وحلفاؤها أن يسخروا به ، وأن يزروا عليه ؟ وعاد يكفكف دموع أسر الشهداء من جديد ..

ثم أقبل وفد من نجد يطلب من محمد أن يرسل إليهم من يثقفهم فى الدين الجديد .. واحتاط محمد هذه المرة لكيلا يقتل أصحابه غيلة .. واستوثق حتى علم أن الأمر جد هذه المرة .. وأخرج من صحابه بعدة الوفد الذى أقبل .

وفى الطريق خشى صحابه أن يكونَ فى الأمر كيد لم يفطن إليه محمد .. فوثبوا على وفد نجد وقتلوا اثنين من بنى عامر .
وعادوا إلى محمد .

مهما يكن من الظروف التى تبرر مخاوف اصحابه فقد ضاق محمد بهذا الذى حدث .. كيف تأتى له القبائل من بعد ، ان كان أصحابه يثبون على وفودها ؟ ..

لماذا يأخذ أصحابه الطيبين بجرائر أشرار سلفوا .

وقرر أن يدفع دية القتيلين

ولم يكن لديه مال . . فذهب إلى بنى النضير يطالبهم وفقا لاحكام الصحيفة أن يعاونوه فى دفع دين الرجلين .. فقالوا له : « نعم يا أباالقاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه » .

ثم خلصوا نجيا فى داخل أسوارهم وتركوه ينتظر أمام الأسوار .. وطال انتظاره فقعد على الأرض بين صحابه أبى بكر وعمر وعلى . . وانهم لقاعدون أمام الأسوار إذ برجل من بنى النضير يصعد على السطح ويدفع صخرة أمامه ليسقطها على رأس محمد .. فقد كان بنوا النضير قد أجمعوا أمرهم فى الداخل على أن يتخلصوا من محمد إلى الأبد ولن تسنح لهم مثل هذه الفرصه مرة أخرى .. لن يجدوه أبدا على مثل حاله هذه من الاطمئنان إليهم .. بلا سلاح !

واستطاع محمد وصحابه أن ينجوا من الصخرة قبل أن تسقط .. ومضى إلى المسجد يروى للناس ما كان .

وأعلن الحرب على يهود بنى النضير وزحف عليهم بجيوشه .. وبكل الرجال الحالمين بالغنى ..

وطلب من بنى النضير أن يسلموا فأبوا .. فأمر محمد أن تقطع النخيل وتحرق فقالوا له : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فمابال قطع النخيل وتحريقها .. ولكنه لم يأبه لهم وطالبهم مرة أخرى بالتسليم .

وكما حدث ليهود بنى قينقاع .. اعتصم بنوا النضير أياما فى حصونهم ثم اذعنوا وخرجوا بنسائهم وأولادهم ، والقيان والراقصات يعزفن من خلفهم وتركوا الدور والأموال والسلاح انها لثروة جديدة تملأ خزائن المدينة بالمال والعدة الرائعة وأدوات الحرب .

وانطلق الشعراء يتغنون بهذا الانتصار .. الذى عوض المجاهدين عن هزيمتهم فى أحد .. وملأ الخزائن بالمال والسلاح .. وأعاد الثقة إلى كثير من القلوب فلتقبل قريش وأنصارها .. فانهم الآن مستعدون بأحدث أنواع الأسلحة التى غنموها من بنى النضير .

أجل فلتقبل قريش .. وستعرف المدينة كيف تثأر مما حدث فى أحد !

ألأنك تصبر على الذين يكيدون لك ، فهم يظنون بك الضعف ؟! ـ
ولكنهم فى قبضة يدك ومازلت قادراً على أن تسحقهم جميعا ! .
وأن تعفو عنهم خير لك عسى ألا تلقى فى قلوب أبنائهم البغضاء ،
فتشب القلوب الصغيرة مطهرة من الضعف الذى يستذل الكبار ! .. عسى
أن ينشأ جيل جديد ، بوجدان آخر ، يضىء بتعاليمك يا محمد .. جيل
يحيا بالرحمة والبر والصدق ، بدلا من الكراهية ! .

اتل عليهم : لقد جاءتكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن
عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ .

اترك عبد الله بن أبى وشيعته يكيدون لك فى المدينة ، فهم فى النهاية
فى قبضة يدك ولا تسمع فيهم نصيحة عمر ..

وبدلا من أن تغرس الأحقاد فى قلوب صغارهم .. وبدلا من أن
تفتح عيونهم على قاتلى آبائهم .. بدلا من الخوف ، دع الأطفال وحدهم
يكتشفون الحقيقة يوماً بعد يوم وأن يطيقوا عار الانتساب إلى آباء
بلا قيم .. ! سيحمل عنك الصغار عندما يكبرون عبء محاسبة الآباء
الأشرار .. وسيكبر الصغار ذات يوم يا محمد .. !

لأنك تعلم الناس الحكمة والعدل ، يجب أن تقتات بالصبر .. وأن تدفع راحتك ثمنا عادلا للحصاد الذى ترجوه ؟

ولكن .. ألأنك تبشر بالرحمة ، يجب أن تتلقى العذاب مع مشرق كل شمس ؟ !.

ألأنك تريد أن تفرض العقل على سلطان الفوضى ، يجب أن تزكى عن نبالة ما تريد ، برءوس أعز صحابك أيضاً ..؟!

ما أفظع أن يكتب على الفكر أن يواجه قوى غاشمة بلا أخلاق !..

الحياة نفسها تتحول إلى مجاهل من أشواك تسكنها العقارب والأفاعى الهائلة كيف يواجه الإنسان هذا كله ، وما يملك من سلاح أقوى من الكلمة !؟ .. بأية كلمات يجتاز الإنسان طريق الشوك حيث تقوم دولة الزواحف الرهيبة السامة ، وتقهقه مروعة ساخرة من عجز الإنسان ، تجلجل فى الآفاق العقيمة الخرساء ! .

أيجب على الانسان أن يبكى ، تكفيرا عن عجزه . ؟ ثم ماذا بعد البكاء ؟ .

لكم بكينا فى الليالى السود من الزمن القديم ، وحلمنا بأن يسود الإنسان ، وأن يطهر الأرض ، من كل ما يروعه !.. وكابدنا ، وهاجرنا مع صحاب أعزاء ، وواجهنا الموت معاً ، والنصر معاً ، والهزيمه معاً .. ثم عدنا نبنى بأيدينا حضارة وارفة يتغنى فيها القلب بالعدل والمستقبل ! .

وعادت الزواحف الرهيبة السامة تهدد الإنسان ، وضحكات

المسوخ تنطلق فى سخرية ، والقوة التى تعرت عنها الأخلاق ، تتبجح وتمايل وتتحدى .. وتعبث بكل ما هو رائع وجليل ونبيل من أحلام القلب المضنى ! .

وإلا فما بال قريش فى مهرجان انتصارها ، تغرى جاراتها الصغيرة ، فتأتى وفود الرعاة من هذيل إلى المدينة تطلب رجالا يفقهونهم فى الإسلام .. ويخرج الرجال المسلمون .. رجال من أفضـــل صحابك يا محمد . . فإذا بقبيلة هذيل تسلمهم لقريش ، وتقبض على كل رأس ثقله من الفضة !. وتتحول رأس أحد صحابك .. الرأس التى امتلأت بالحكمة والرحمة واحترام الآخرين .. الرأس التى عمرتها ذات يوم أحلام لانهاية لها بعالم يسوده الحب وترتفع فيه على الهامات أغصان الريحان والزيتون بدلا من السيوف .. إذا بهذه الرأس نفسها ، تقطع ، ويمثل بها ، وتشرب فيها امرأة فاجرة من قريش ، خمرها !! .

وضحكات المسوخ المخيفه تدوى من بعيد ، وتعبر الهضاب والسهول والرمال الشاسعة ، مجلجلة بالسخرية .. مناك يا محمد !!

ولكن صوتاً عظيما يرتفع فوق جلجة هذه الضحكات .. صوت عظيم رائع يخترق كل الآماد ، يؤكد أن اليقين أقوى من السخرية ، وأروع من الموت ! فها هو ذا جمع من سادة قريش يلتفون حول زيد ابن الدثنة أحد الرجال الذين اشترت قريش رءوسهم من الهذيليين بينما الفاجرة القريشية تشرب خمرها فى جمجمة أحد المسلمين . والضحكات تتعالى فى جنون وحشى .. الرجال والنساء فى المنازل يسخرون بمحمد ، أمام جثث صحابه التى تستلقى تحت الأقدام بكل ما يعمرها من تعاليم ..

وزيد بن الدثنة ، واقف يتمتم بآيات تعلمها من محمد ، وتظراته تلقى الشرر على أبى سفيان ، الشيخ الغنى الوقور الذى يعربد على جثث الضحايا بأغلظ مما يعربد الجميع .. ويأمر أبوسفيان رئيس حكومة قريش أحد أتباعه أن يرفع السيف ليقطع رأس زيد .. ولكنه يعود ، ليسأله فى سخرية ، قبل أن يضم جثته إلى جثث صحابه :

ــ يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنت فى أهلك ؟

ــ والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وانى جالس فى أهلى ! ! ..

وتتجمد الضحكات ، فيأمر أبو سفيان السياف أن يقتل زيدا ..

يهمهم أبو سفيان :

ــ ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد ، محمدا ! . .

* * *

من أجل ذلك ماتوا فى بسالة ، رافضين كل مساومة ، وصدى جليل من كلماتهم ، يلقى فى نفوس الآخرين رهبة غريبة من العقيدة الجديدة .. ان هذا كله ير وجديد .. جديد حقا على النفسية العربية ..

أربعون رجلا سقطوا الواحد بعد الآخر ، سقطوا بكل اقتناعهم بأن شجاعتهم أمام الموت هى أشرف مسئوليات الجهاد .. هذه الشجاعة لن تضمن لهم حياة خالدة أخرى فحسب ، ولكن هذه الشجاعة ستكون

يعد موتهم سيرة مضيئة تهدى خطوات اخوانهم ، وتملأ الفراغ الذى تركوه ، بأقوى مما تملؤه سيوفهم نفسها ! . .

أربعون من الشهداء العظام يامحمد !..مهما يكن الأثر الرائع الذى خلفته شجاعتهم النادرة أمام الموت والظلمات ، فإن الطريقة الغادرة التى قتلوا بها ، تظل تغرى القبائل على طلب المزيد إمعانا فى السخرية ! .

ولكنك الآن قد أمنت ظهرك استعداداً لقريش التى واعدتك بدرا من العام القادم ..

لقد انتهى أمر بنى النضير وعوضك ماغنمته منهم عن كثير مما خسرته فى أحد ! ..

فلا يجب أن تنتظر حتى تعود إليك قريش فى العام القادم .. لا يجب أن تسمح لها بأن تعقد الأحلاف ضدك ..فستظل القبائل من البدو تتخطف صحابك على النحو الغادر الذى حدث !.

ومع ذلك فما يليق بك حين تسعى إليك وفود بعض القبائل طالبة من يثقفها من صحابك ، مايليق بك على أية حال أن ترفض إرسال مبعوثيك حرصاً على حياة الصحاب ! ! ..

سيظنون بك الخوف وسيضيق نطاق دعوتك إلى الحد الذى يضرها ، لو أنك رفضت .

ومع ذلك فيجب أن تبحث عن الآمان لمبعوثيك . .

لا بد من خلق حالة من الاحترام ، وتثبيت هيبة جماعتك فى قلوب البدو ، فلا يخدعك رهط منهم بعد ! .

ان انتصارك على بنى النضير ، بكل شهرتهم الحربية ، ثم اخراجهم عن المدينة ، ليضربوا فى التيه ، سيعظ بلا مراء كل حلفائك الذين يفكرون فى الكيد لك وتصبو نفوسهم لنقض المحالفة .. سيعظ يهود بنى قريظة !.

ولكنك فى حاجة إلى عمل خاطف قوى يرهب حلفاء قريش ، ويدعم هيبتك فى البدو ويقنع الذين يفكرون فى محالفة قريش ، ألا يفكروا بعد..!

ودرس محمد موقف كل القوى المتحالفة مع قريش .. فوجد أن بنى المصطلق هم أقوى هؤلاء الحلفاء ، وأكثرهم نفوذا بين القبائل .. كانوا نكبة عليه فى أحد ..فقد اعتمدت عليهم قريش فى تطويق جيوش المسلمين .. فلو أنه حاربهم وظفر بهم ، لألقى الرعب فى قلوب كل حلفاء قريش الآخرين .. وفى قلوب كل القبائل التى تفكر فى الانضمام إلى قريش .

لقد غنم من بنى النضير كثيرا من الدروع والسيوف وآلات القتال .. كلها تعتبر من أحدث ماوصلت إليه صناعة السلاح .. فاليهود صناع السلاح وتجاره يؤثرون أنفسهم بأمضى أنواع السلاح .

لقد غنم أيضاً محمد خيلهم التى أحسنوا تدريبها على القتال ! .. وما انتصرت قريش فى أحد إلا بقوة فرسانها وخيلها ..

وهكذا وجد محمد جيشه مجهزا بأحدث الأسلحة وأدوات القتال ، وبالخيل المدربة .. بعشرات من الخيل المدربة . هو الذى خاض معركة أحد بفرسين ! !

إن هذه القوة الضاربة تستطيع أن تواجه قريشا وحلفاءها حالما يزحفون إلى بدر ، كما واعد أبو سفيان ، وهو يترك وادى أحد ..

ولكن من الخير أن تعزل قريش عن حلفائها الأقوياء ..

* * *

غير أن المدينة امتلأت بحديث ساخط عن ايثار محمد المهاجرين دون لأنصار بأموال بنى النضير وبيوتهم .. انطلق عبد الله بن أبى يهمس فى شيعته من الخزرج أن محمدا مازال يفضل المهاجرين عليهم، على الرغم من أنهم هم الذين آووا المهاجرين .. ولولاهم لما استطاعوا أن يجدوا ملجأ من قريش ! .. وسمع سعد بن عبادة ما يقوله قومه من الخزرج فأخذ صديقه سعد بن معاذ زعيم الأوس وانطلق الرجلان يجتمعان بشيوخ الأوس والخزرج .. ودعوا عبد الله وشيعته من الخزرج . وسألوهم عما يشيعونه، بينما محمد يستعد للمعركة الفاصلة مع قريش وحلفائها .. من أين تنبع هذه التيارات التى توشك أن تقسم المدينة، وتطلق الفتنة ! ؟ .

وابتسم عبد الله بن أبى، كأنه لا يعرف شيئا .. إن أحدا لم يسمع همساته إلى شيعته .. وبدأ عليه كأنه هو الآخر يستنكر هذه الأقاويل ! ..

وأكد سعد بن معاذ وسعد بن عبادة لشيوخ الأنصار أن محمدا لم يستأثر بالرأى دونهما بل دعاهما وفريقا من الأنصار فأثنى على حسن ضيافتهم للمهاجرين ثم قال لهم : « إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم مال فإن شئتم قسمت أموال بنى النضير وأموالكم بينكم جميعا وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » ولكنهم أجابوا محمدا : « بل قسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت » .

وعندما فرغ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من شرح الحقيقة للناس،

تأخذا عليهم موثقا ألا يتحدثوا فى أمركهذا بعد وألا يظنوا مثل هذه الظنون بالمهاجرين ، وألا يسمحوا بان يحدث أى شئ فى قلوب الإخوة الذين يقفون فى جيش واحد لمواجهة مصير واحد .

وانفض الناس راضين .. ونظراتهم تشير إلى عبدالله بن أبى ، الذى خرج يبتسم ويفتح ذراعيه لعناق محمد وصحابه ، وما فى القلب .. فى القلب ! .

إن محمدا لم يكد يشرع فى تجهيز الحملة على بنى المصطلق .. حتى فوجىء برجل يحاول اغتياله .. رجل يحترف القتل أرسله أبو سفيان ! .

كان موفدا من قريش .. ولكن كيف دخل المدينة ،وعند من أقام الأيام الطوال متربصا .. ومن الذى دله على الفرصة المواتية لاغتيال محمد !؟ .

لاأحد يدرى ! .. والنظرات الغاضبة تشير إلى ابن أبى ،وابن أبى يبدى للناس غضبه على محاولة الاغتيال ،وحرصه الشديد على حياة محمد ..

وإنه ليبدى من هذا الغضب والحرص ،أكثر مما يبدى الأصدقاء الخلصاء كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد بن معاذ ،وزيد بن حارثة . . والآخرون !

ثم يعود عبدالله بن أبى يحمل ابتسامته على شفتيه ، ويفتح ذراعيه لمحمد .. وصحاب محمد .. !

ومرة ثانية .. وثالثة .. يفاجأ محمد بمن يحاول اغتياله !! . وتمر أيام فزع يسهر فيها سعد بن أبى وقاص بسيفه فى حراسة محمد ..

ولا أحد بعد يدرى كيف يدخل المدينة هؤلاء القتلة المحترفون الذين يرسلهم أبو سفيان ، أو اليهود الذين أخرجوا .. ! كيف يدخلون .. أين يختبئون الليالى الطوال ؟ ! .

وفى كل مرة يقضى محمد أو أحد صحابه على محاولة الاغتيال وتشير النظرات الغاضبة إلى عبد الله بن أبى ، وابن أبى يبدى الغضب والحزن ، ثم يضع الابتسامة على الشفتين ، وذراعاه مفتوحتان لعناق محمد ! .

وأوفد بعض أصدقاء محمد من يغتال أبا سفيان ، ولكن محمدا عرف هذا فأرسل إلى الرجل من يعيده قبل أن يصل ... وأخذ يعنفه ويعنف الذين أرسلوه فما كان الاغتيال سبيلا لمحمد .. وسيقهر أبا سفيان يوما ، وسيقتله إن أراد وجها لوجه ..

ما كان الاغتيال من بين القيم التى جاء بها .. وإنما هو أحد الشرور التى يدينها ويطالب أصحابه أن يلعنوها .. فالزواحف السامة والحيوانات الدنيئة وحدها — لا الإنسان — هى التى تفاجئ خصمها من الظهر ! ..

وفى هذه الأيام الغريبة من الكيد والنزع لم تتصل الطمأنينة أسبوعا واحدا ليتيح لمحمد والمسلمين وقتا للاستعداد لمعركة مع بنى المصطلق أقوى حلفاء قريش ..

وتمر الأسابيع .. فيحين الموعد الذى حدده أبو سفيان منذ عام يوم انتصر فى أحد ! .

ويحشد محمد رجاله ، استعدادا لمعركته مع قريش وحلفائها أجمعين .. معركة يغسل بها عار الهزيمة فى أحد ! .

ويأتى وقت الخروج ، فيترك على المدينة بدلا عنه عبد الله بن أبى ا.

لقد كان عبد الله يحلم بالتاج وكانوا يجمعون له الخرز قبل أن يأتى محمد وما زالت الأحقاد تعشش وتفرخ فى قلبه منذ ذلك اليوم .. فليجرب جاه الملك إذن !.. وليرض غروره !..

خرج محمد إلى بدر مهيأ القلب لمعركة طويلة .. فاصطحب معه اثنتين من نسائه وخطب فى جيشه أن الحرب قد تطول فلن تسلم قريش بالهزيمة بعد أن ذاقت النصر فى أحد ، وبعد أن فشلت كل محاولاتها فى اغتياله .. وان معها الآن لحلفاء جدد أكثر من الذين أقبلوا معها إلى أحد ..

يسبق محمد بجيشه إلى بدر ليحسن اتخاذ مواقعه .. وكان الحر شديدا.. حر أيام لا يعمل فيها الإنسان . وخشى محمد أن يتململ رجاله من قسوة الحر فأكد لهم أن المجاهد يلقى جزاءه مضاعفا كلما اشتدت قسوة الظروف ..

ومضى يحدث رجاله على طول الطريق .. وجد أحدهم متعبا يلهث على جمله والجمل هزيل أعجف ، متعب .. فقال له محمد مازحا : «أتبيعنى جملك؟ فقال الرجل ، بل أهبه لك .. ؟ لا ولكن بعنيه» .. فقال الرجل «ثمنه يارسول الله » فقال محمد «بدرهم » فقال الرجل لا .. إذن تغلبنى يارسول الله وضحك محمد قائلا : « بدرهمين » ومازال يكلمه حتى ذهب سأمه ..

ثم أسرع على دابته إلى شاب آخر أجهده الحر فأخذ يحاوره « هل تزوجت بعد » فقال الشاب « نعم يارسول الله » فسأله : « أثيبا أم بكرا » فأجاب الشاب : « لابل ثيبا » فقال محمد مبتسما أفلاجارية تلاعبها وتلاعبك ؟ » .

فقال الشاب : « إن أبى أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعا فتزوجت امرأة جامعة تجمع رءوسهن وتقوم عليهن » وقال له محمد : « أصبت ! » .. وانطلق يحدث آخرين ..

وانطلقوا يتحدثون ويداعبون بعضهم البعض ويبددون السأم بالضحكات ..

وهكذا أشاع جوا طيبا من الجو المرح وسط رحلتهم الشاقة تحت لفحات الهجير .. حتى وصلوا وادى بدر .

وعلى ماء بدر .. عسكر المسلمون تحت شمس لافحة تكاد تحرق الأعواد الخضراء ..

وأقام إلى جوار الماء كما صنع فى معركة بدر الأولى واصطفت كتل من عسكر المسلمين لتحول بين الماء ، وبين قريش عندما يقبلون ! ..

أين حمزة اليوم ؟ !

ولبث المسلمون على ماء بدر ينتظرون أباسفيان لميعاده .. ولكن لم يجئ أبوسفيان ..

وخشى محمد أن يكون فى الأمر خدعة .. لعل جيوش قريش تريد أن تتركهم حتى يسأموا ، ويضنيهم الحر .. فإذا هموا بالعودة .. فاجأتهم وهم متعبون على بعض الطريق ..

وأقبل من يخبر محمدا أن أبا سفيان لن يجئ ..

فآثر محمد أن ينتظر حتى يأتيه خبر يقين ..

وجاءه النبأ من عمه العباس أن أبا سفيان لن يجئ فى عامه هذا . فقد

خرج بجيوش قريش وواعد أحلافها عند مكان فى الطريق، ولكنه سمع بالحشد الهائل الذى خرج فيه محمد بالأسلحة الجديدة والخيل ووزن أبو سفيان الأمر، فوجد أن القتال غير مأمون العاقبة .. وان جنود قريش سيحاربون — تحت لفحات الهجير وسط جفاف حارق — رجال يرون فى شدة الظروف ما يضاعف لهم الجزاء !.

وهكذا قرر أبو سفيان ألا يحارب من عامه هذا ، وسيستعد للعام القادم وسيحاول خلال عامه هذا أن يصدع جبهة محمد فى المدينة بعد أن نجح محمد فى دعمها وأخلف مكانه عبد الله بن أبى ، وأخرج يهود بنى النضير !. وجمع أبو سفيان سادة جيشه فقال لهم : «ان عامكم هذا عام جدب ألا لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن . وإنى راجع » .

ورجع أبو سفيان ورجع الناس وراءه تطاردهم جميعا سخرية حلفائهم ! .

وعاد محمد بجيشه إلى المدينة .. عاد ظافرا هذه المرة وأن لم يشتبك فى معركة فقد سعت الأخبار من قبيلة إلى قبيلة أن أبا سفيان قد انسحب بجيش قريش خوفا من الاشتباك مع محمد وجنوده ! .

وأمر محمد شعراءه أن يمجدوا هذا الانتصار فتجاوبت الصحارى بقصائد كثيرة تزهو بقوة المسلمين وتزرى على أبو سفيان وقريش وحلفائهم .

وعاد محمد يضحك بين نسائه عما حدث لعائشة فى تلك الغزوة البيضاء ! .

وكانت هى أصغر الزوجات ، تشعر أنها احبهن ! وكانت أدلهن .. وكان محمد قد أجرى القرعة قبل خروجه بين الزوجات فخرجت القرعة عليها هى وحفصة بنت عمر ، ورحلتا معه ، حتى إذا جاء الليل والركب فى الطريق إلى بدر أرادت عائشة أن تعرف ماذا يقول زوجها لغيرها من الضرائر فاتفقت مع حفصة على أن تتبادلا بعيريهما .. وكانت تعرف أن زوجها يحب أن يحدثها على بعيرها إذ جاء الليل .. وتقدم إلى بعير عائشة فوجد عليه حفصة . ولمح عائشة على بعير حفصة تقترب وتتسمع ! وإذا لمح لهفة عائشة على التسمع ، أدرك كل ما بنفسها : وأراد أن يلقى عليها درسا ..

فتلطف إلى حفصة ؟

ثم تظاهر بأنه لم يدرك ماصنعته عائشة ، وكانت النوبة نوبتها . ولكنه دخل خيمة حفصة فبات فيها وفى الصباح التالى روت عائشة لحفصة أنها حين التمسته فلم تجده ظلت الغيرة تنهش منها حتى لقد مشت عارية القدمين على أعشاب الصحراء وهى تقول « رب سلط على عقربا أوحية تلدغنى ! » .

على أن محمدا خرج بعد هذا إلى غزوة وغزوة واقرع بين نساء أخريات ولم تعد واحدة منهن — حتى عائشة — تسمح للغيرة بأن تذهب بها إلى هذا المدى ! .

* * *

كانت كل غزواته بعد انسحاب قريش نوعا من استعراض قوته أمام حلفاء قريش .. وقريش نفسها ! .. على أنه لم يشتبك مع أحد فى غزوة منها .. كانوا جميعا يتفادون الاشتباك به ولم يعد أحد يجسر على أن يتخطف صحابه !

غير أن بنى المصطلق لم يرق لهم الأمر .. كانوا هم أضخم حلفاء قريش .. وكانت لهم تجارة وأموال وأحابيش ، وماتركوا الصدارة لقريش إلا لأنها تسكن حول البيت العتيق الذى تقوم فيه الآلهة .

وعز على بنى المصطلق أن تتخذل قريش ، فأرسلت إلى أبى سفيان تؤنبه وأطلقت شعراءها فى هجائه . وقام الحارث زعيم بنى المصطلق يدعو القبائل المجاورة إلى حلف .. فجمع جيشاً كبيرا من جيرانه المقيمين على البحر الأحمر ..

فليأخذ بنو المصطلق قيادة المعركة من قريش .. وليأخذ هو الراية من أبى سفيان ! ..

وإنه لاجدر بالراية من أبى سفيان ..

وعلم محمد بما يصنعه الحارث فرأى أن يبادر بالخروج قبل أن يستعد بنو المصطلق ويزحفوا .. فليختر هو أرض المعركة .. وجمع الناس واستشارهم فأقروه على مارآه واستشار عبد الله بن أبى - خاصة — أمام الناس جميعا فأقره وهو يحلم أن يتركه على المدينة .. مرة أخرى ..

ولكن محمدا طلب منه أن يستعد فسيجعله على لواء الخزرج ! .

وحشد محمد ألفا وخمسمائة محارب وكثيرا من الخيل والإبل وأقرع .. بين نسائه فجاءت القرعة على عائشة .

وأسرع محمد بجيشه ليباغت بنى المصطلق فوجدهم يملأون السهل على مقربة من ديارهم ..

وأمر محمد بالهجوم فى السهل المكشوف .

وألقى بكل قواته فى هجوم خاطف .. وأصيب الحارث قائد بنى المصطلق بسهم ، فسقط جريحا . واضطربت صفوف بنى المصطلق أمام تدفق السهام والرجال المستبسلين بالسيوف .. والخيل ..وسقط قادتهم جميعا بعد الحارث ..

فازداد المقاتلون اضطرابا ، لم يتوقع بنو المصطلق أن يجدوا المسلمين بمثل هذه القوة والتماسك بعد مارأوه منهم فى أحد ! .

وبدأ جنود بنى المصطلق يفرون .. وجيش المسلمين يطاردهم حتى أسروا منهم مائتين .. وغنموا آلاف الأغنام والإبل وكثيرا من المتاع ..

وهكذا استراح محمد من عدولا يقل خطرا عن قريش .. إنه الآن بعد هذا الانتصار سيملأ خزائن المدينة ويضمن فترة طويلة من السلام ! فمن يستطيع أن يتحالف مع قريش بعد . دون أن يفكر فى مصير بنى المصطلق ؟ .

جرح زعيمهم الحارث .. ووقعت ابنته فى الأسر . .

وزع محمد الأسرى من الرجال والنساء بين المجاهدين ، فوقعت برة بنت الحارث فى نصيب رجل فقير .. فطمع فى مالها وكاتبها على

مبلغ كبير ليحررها ولكن مالها كان قد أصبح من الغنائم ، فذهبت إلى محمد تشكو : أنا بنت الحارث سيد قومه وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك . . ثم شرحت له مايريده الرجل من مالها ليعتقها ، واستنجدت بمحمد أن يمنحها هذا المال . .

وفكر محمد فى الأمر ، لو أن برة بنت الحارث اعتقت وانطلقت إلى قومها لاستطاعت أن تجمع فلولهم من جديد ، وستقوده لتثأر لأبيها ! .. إن فى عينيها هذه الجسارة ، وملامح وجهها الجميل — الخارق الجمال — تخفى صرامة خاصة توحى بأنها قادرة على اقتحام الخطر ! .

وقال محمد وهو يستمع إليها : هل لك فى خير من ذلك . فقالت وماهو .. اقضى عنك كتابك وأتزوجك. فقالت نعم «قال : قد فعلت».

ودفع عنها ما كاتبها عليه آسرها الفقير .. ودعاها إلى الإسلام وتزوجها .... فأسلم أبوها .. ومعظم الأسرى من رجال أبيها . .

لقد وجدوا فى هذا النسب شرفا لهم .. وكانوا يرون محمد ملكا على المدينة ، والقبائل المتحالفة معها .. إنه الآن لأعلى مكانا من أى سيد فى الجزيرة ..

بدأ يستعد للعودة إلى المدينة فى موكب الظافرين ! .

لقد كسب فى ضربة واحدة أكثر مما كان يرجو .. ضرب بنى المصطلق فى ديارهم ، وفرض هيبة الدعوة على الذين كانوا يفكرون فى الانضمام إلى قريش ، وغنم أموالا وسلاحا ومتاعا يمنح مدينته العز والمنعة ، وضمن ألا يتجمع بنو المصطلق للثأر ؛ فقد تزوج بنت قائدهم الحارث ، فتبعه أبوها وأخواتها وقومها ، ورأوا بعد هذا النسب أن ينا[illegible]وه ..

غير اسم بنت الحارث إلى جويرية ، وبالغ فى اكرامها حتى لقد شعرت بأنه يمسح جراحها حقا بعد هزيمة قومها بيد تملك من الحنان مالم تعرف[illegible]ى من قبل . حتى لقد شعرت زوجته المدللة عائشة بالغيرة ..

[illegible] كان التحالف مع بنى المصطلق ليحمل إلى عائشة مايعوضها عن عذاب الغيرة من الزوجة الجديدة الحسناء .. لقد شعرت أن جويرية ستنافسها ، فهى صغيرة مثلها ، وهى أجمل الزوجات جميعا ..

وسره محمد وهو يبتهج بانتصاراته أن يؤذى عائشة ..

ولكنها على الرغم من كل الجهود ، ظلت حزينة مضطربة ، معذبة ،

تعانى فى أعماقها لهب الحريق . وتفسد على زوجها روعة الانتصار الحربى الخارق ، والكسب السياسى الجديد ! ..

إنها لتوشك أن تمرض من عذاب الغيرة .. على أن الوقت لم يكن صالحا بعد ، فقد نشأت همهمة بين الأنصار آثارها عبد الله بن أبى .. كيف ستوزع الغنائم .. أعلى المهاجرين وحدهم أيضاً ؟ ..

ولم يكن وقت توزيع الغنائم قد حان بعد ، فمحمد قد فرغ اساعته من اطلاق الأسرى .. ومن تخصيص فريق من صحابه يعلمونهم الإسلام وهو مازال يأخذ المواثيق على بنى المصطلق أن يكونوا فى هذا المكان من شاطىء البحر الأحمر .. دعامة للدين الجديد ! .

ولكن عبد الله بن أبى نجح فى أن يغير من قلوب بعض الأنصار على المهاجرين أحذروا محمدا لأنه يؤثر المهاجرين دائماً ، والمهاجرون يشعرون بأنهم أفضل ! .

وكان عبدالله بن أبى وبعض أغنياء الأنصار يطمعون فى أموال الغنائم .. ولكن محمدا كان قد قرر أن يعطى الفقراء من المهاجرين ليستغنوا عما يقدمه لهم الأنصار فيخفف الحمل عن أهل المدينة ، وينتشل المهاجرين إليها مما يعانونه من فقر ..

وكان يقول لهم : كاد الفقر أن يكون كفرا ..

وكان يريد أن يقرب الفوارق بين الأغنياء والفقراء فلا يصبح المال للأغنياء وحدهم ولقد تلا عليهم : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم ».

ولكن عبدالله بن أبى كان يضيق بهذا ويطمع فى أموال الفىء ويطالب بأن يكون المال دولة بين الأغنياء ! .

ولقد حاول أن يثير السخط على أسلوب توزيع الفىء ففشل . .

« ودفع أحد شيعته من الخزرج أن يزاحم رجلا من المهاجرين على بئر يستقى منه فدفعه المهاجر فوقع فاستنجد الخزرجى : يامعشر الأنصار ! وقام إليه بعض شيعة عبدالله .. واستصرخ المهاجر : يامعشر المهاجرين ! .

وأقبلت جماعات من المهاجرين والأنصار حول البئر .. وتحرج الموقف وانتهز عبد الله الفرصة فوقف يخطب فى الأنصار : « أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ! والله اننا وهؤلاء كمثل قول القائل : سمن كلبك يأكلك .. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : « هذا مافعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم مابأيديكم لتحولوا إلى غير داركم » .

وعلم محمد بما يحدث فأسرع إلى الناس يصرخ فيهم ويؤنبهم .. ثم نادى عبد الله بن أبى فسأله كيف يقول .. ما قال .

وأنكر عبد الله .. واتهم من أبلغ محمدا بالكذب ..

وكان عمر إلى جوار محمد فقال له : « اقتله » ! كم من مرة قبل هذه طلب عمر من محمد أن يقتل عبد الله ويجيبه محمد : « كيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » .

كان عمر يكره عبد الله وابتسامته وذراعيه المفتوحتين ، وحرصه على تزويق الكلام .. أن هذا التزويق ليخفى شيئاً كريهاً بلا ريب ! .

وكان عمر لايخفى ازدراءه لعبد الله ، وما التقيا مرة إلا شعر عبد الله أن نظرات عمر تمزق عنه اقنعته الزائفة قناعا بعد قناع ! .

وتأمل محمد فى وجوه الأنصار .. أن أحد كبارهم ليقول : « عسى أن يكون من أبلغك ما أبلغك عن عبد الله قد أوهم فى حديثه » ! .

إن بعض الأنصار مازال يحدب عليه .. فهو حيث لايحمل حقداً لايبدو منه غير الملمس الناعم .. أما أعماقه العامرة بالضغينة . أعماقه التى تبدو عارية أمام نظرات عمر ، فهى لاتنفث إلا أمام من يحمل لهم الحقد ! .

وانتظر محمد أن يقول أحد الأنصار شيئا آخر وأشار إلى المهاجرين أن يلزموا الصمت ، فتقدم أحد الأنصار قائلا : أما أنه قد زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فأنت يارسول الله مخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز .

وتقدم رجل آخر يقول : ارفق به فانه ليرى انك قد سلبته ملكا .
وانقض بعض الأنصار يفضحون عبد الله ! .

كانوا قد شعروا بالأسف الذى ملأ قلب محمد منذ رأى عبد الله يكذب ، وأحد الأنصار يظاهره فيكذب هو الآخر ! .. وكانوا فى الحق قد ضاقوا بكيد عبد الله وعز عليهم ما يلقاه منه محمد وهو صابر .. ! فاستبقوا إلى مواجهة عبد الله بكل ما زيفه على الناس ، وبكل كيده .

وتخاذل عبد الله حتى لقد تزايل إلى أغوار نفسه ، ولم يعد يستطيع أن يجد ما يقوله .

شلت الكلمات على لسانه ، وغاضت ابتسامته فى الشحوب .. وبدأ يرتعد . إنهم – وهم قومه – ليطالبون محمدا بأن ينزل به عقاب المفسدين فى الأرض ..

طالب برأسه أحد سادة الخزرج ، وطالب بها أحد سادة الأوس : وألح فى طلبها كثير من شباب الأنصار ! ومحمد صامت ينظر إلى عبد الله الذى لم يعد قادراً على اصطناع ابتسامته المعروفة بعد ! .

ثم تقدم ابن عبد الله منتفضا بالحماس فقال لمحمد : « والله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى بين الناس فاقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار » فقال محمد لابن عبد الله « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

وبهت الناس :

كانت أيديهم على مقابض السيوف . كل منهم ينتظر أن يحصل على شرف قتل عبد الله بن أبى ! .

وإذ رأوا عفو محمد عنه بعد كل ما كان منه انقضوا على عبد الله يعنفونه . وقال محمد لعمر : أذن بالرحيل .

وأكمل وهما يركبان : أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لغضب رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه ! .

وانطلق الركب عائدا إلى المدينة .

وظل محمد يسير بصحابه النهار والليل بلا راحة ، عسى أن يشغلهم عما كان بينهم حول البئر وعن كيد عبد الله .

سار بهم يومهم حتى أمسى ولياتهم حتى أصبح ، واستمر يمضى بهم يومهم ذاك تحت شمس لافحة . حتى إذا جاءت الليلة التالية ، نزل بهم ليستريحوا قليلا ، وإذ لمست أقدامهم الأرض وقعوا نياما ..

ثم أيقظ النيام ، وأمر من يؤذن فى الناس بالرحيل .

وبلغوا المدينة :

فتلا عليهم : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

واستلقى كل فى بيته ينام كما لم ينم من قبل .

وتفقد محمد بيوت نسائه فلم يجد عائشة . . أين راحت إنها لم تعد مع الركب .. ودب الخوف على عائشة فى كل القلوب .. حذر أن تكون قد ذهبت لبعض حاجتها فى تلك الليلة ، فافترستها وحوش الصحراء ! .

* * *

وفى الصباح التالى .. أقبل على المدينة فتى جميل اسمه صفوان يسحب جمله ويدخل المدينة بعائشة ! .

ونظر عبد الله بن أبى إلى من حوله وابتسم .. كان ما يزال يتحسس عنقه التى أفلتت من حد السيف منذ حين ! .

وهمس عبد الله : العار ! .. وإذن فقد كانت عائشة مع صفوان ! ..

تخلفت عن الركب لتقضى ليلتها مع صفوان .. لماذا يبتلى محمد — على طيبته — بزوجة تعشق رجلا غيره ! .

تعشق رجلا غيره يا عبد الله ؟ .

أجل .. تعشق رجلا غيره يا رجال ! ! .

وانطلق عبد الله بن أبى يتكلف الاشفاق على محمد ، ليملأ المدينة بالطعن فيه . . عائشة غيرى ، أفسد قلبها الزواج من بنت الحارث التى تفوقها جمالا وشبابا ، ولهذا رأت أن تبحث عن رجل آخر أكثر شبابا ! .. وهكذا وقع محمد الزوج ضحية لطيش زوجة غيور ، تعبث بسمعته وشرفه وتدس على فراشه رجلا آخر وتستنبت له وصمة عار حيث يجب أن يضع أكاليل الغار ! .

وأوشك عمر حين سمع بما يشيعه عبد الله بن أبى ، أن يذهب إليه فيقتله ويريح الناس منه وذهب إلى صديقه محمد يستشيره ، ولكن هماً ثقيلا كان يحنى رأس محمد . فما يستطيع أن يرفع عينيه بعد فى عينى أحد .. حتى أعز الأصدقاء أبى بكر وعمر ! .

لم يعلم محمد على عائشة من سوء عمل هذا . وما عرف فى [illegible] نيران الغدر .

ولكن أكان مخدوعا طوال حياته الماضية معها ؟ أيجب عليه أن يشعر بوطأة العار فى نفس اليوم الذى شهد عودته إلى مدينته مظفرا يحمل إلى الناس بشائر المستقبل الملىء بالكبرياء والأمن ! .

لو أن عبد الله بن أبى هو الذى يختلق الشائعة لتلقفته سيوف رجال

يغضبون لمحمد ، ولكان سيف ابن عبد الله هو أول هذه السيوف الثائرة.

ولكن عائشة تخلفت عن الركب ليلة ، وعادت في الصباح مع صفوان بعد ليال ساءت فيها أخلاقها من الغيرة .. هذا كله حق ! .

وها هى ذى أخت زينب بنت جحش تنتقل من بيت إلى بيت تتحدث عن خيانة عائشة ! .

لقد سنحت الفرصة لأخت زينب وعليها أن تنتهزها لتطرد من قلب محمد المنافسة الوحيدة من بين كل زوجاته لأختها زينب بنت جحش ! .

وحتى أقرب الناس إلى عائشة يؤكد انها خانت زوجها مع صفوان.. مسطح ربيب أبى بكر أحد المهاجرين المجاهدين ، يؤكد هذا ، هو الذى كان يجب عليه أن يدفع عن عائشه ! .

لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه دفاعا عنها . والشاعر حسان بن ثابت الذى تعود فى الليالى السود أن يحشد كل طاقته الشعرية ويشهرها فى وجه أعداء محمد . حسان بن ثابت هو الآخر يصدق ما يقال عن عائشة ويردده ويوشك أن يشهر عليها شعره ! .

وعائشة لا تعرف شيئاً مما يقال عنها .. فهى فى بيتها خلف الحجاب ، لا يجسر أحد على أن يبلغها ما يقال فى المدينة .

لقد عادت من غزوة بنى المصطلق مريضة .. كانت غيرتها من بنت الحارث قد ثقلت عليها فأنهكتها .

وفى المدينة يقولون عن مرضها : عاودتها صحوة الضمير فلم تعد

تحتمل جريمتها .. ومحمد يدخل عليها ويخرج يسأل عنها ولكنه لا يجد رغبة حتى فى النظر إليها ..

وتشعر هى بجفائه الغريب فتسأله أن يأذن لها فتنتقل إلى أمها لتمرضها ، وتقيم عند أمها أسابيع فتنقه من أوجاعها وتلزمها أم مسطح التى تخدم فى بيت أهلها ، وتخرجان يوما لقضاء حاجة فتتعثر أم مسطح فى ثوبها فتقول « تعس مسطح » وترد عليها عائشة منكرة « بئس لعمر الله ما قلت عن رجل من المهاجرين شهد بدرا » فتقول لها أم مسطح « أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ » .

أخبرتها أم مسطح بما يقوله عنها مسطح وابن أبى وأخت زينب بنت جحش وحسان بن ثابت ، ورجال ونساء آخرون من المهاجرين والأنصار ! فمضت عائشة إلى أمها تبكى : « يغفر الله لك ؛ تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟ فقالت أمها : « أى بنية ! هونى عليك ! فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها وأكثر الناس » ..

ولم يعد فى المدينة بيت واحد لا يشغله حديث عائشة وصفوان .. ومحمد يروح ويجىء بينهم مرهفا باحساس الزوج المخدوع وهو الذى يحمل إليهم تعاليم الأمانة وتقاليد جديدة عن شرف العلاقات الإنسانية ! .

لكم يبدو كل هذا فادحا ومثيرا ! .

الأوس والخزرج والمهاجرون .. ثم يهود بنى قريظة كلهم يتحدثون عن خيانة عائشة ! ..

كل هذا وقريش تستعد لمعركة تسحق بها قوات محمد .. فتخرج الوفود من قريش إلى غطفان وهوازن تعقد المعاهدات والأحلاف عسى أن تستعيض قريش بالحلفاء الجدد عن بنى المصطلق .

لا شيء غير الاستعداد للحرب القادمة يشغل قلوب الرجال والنساء فى مكة .. حتى ليدخل الرجل إلى داره فيشحذ سيفه ويأمر امرأته أن تحسن علف فرسه أو جمله لينصره يوم يلتقى الجمعان ..

أما فى المدينة فما من رجل ، يدخل إلى بيته إلا سأل امرأته : « أكنت فاعلة ما فعلته عائشة ؟ وإذ تقول الزوجة لا والله ما كنت لأفعله ، فيجيب الزوج : فعائشة خير منك وهى لا تفعله ..

ولقد يجيب زوج آخر : ولكن عائشة فعلته ولست بخير منها ، كم من رجل يظن بامرأته الفاحشة وأخذ المثل من عائشة ! .

إنها فعلتها .. إنها لم تفعلها . . لئن كانت قد فعلتها فهذا الدين الجديد لم يحمل شيئا من النور إلى قلوب النساء وما ينبغى لرجل فى المدينة أن يطمئن إلى امرأة بعد.. وليس للرجال أن يخرجوا ويتركوا نساءهم وليس لهم أن يأخذوا النساء معهم ..

ما الحيلة بعد ؟.. كل شى باطل وجنون ! .

والرجال فى مكة مشغولون بحديث آخر .. بالاستعداد لحملة لم يعرفها للعرب من قبل تضم كل القبائل والأحزاب المعادية لمحمد ، وتزحف إليه فى مدينته لتهدها عليه ! .. والعباس بن عبد المطلب يرسل

من مكة تحذر محمدا من هذه الغزوة القادمة ، فهى ليست كالغزوات التى سبقت ! .

ولكن محمدا لا يستطيع أن يحدث أحدا من صحابه بما أرسله العباس .. فكلهم — وهو نفسه — يشغله حديث خيانة عائشة ! وما من واحد فيهم يستطيع أن يفيق من وطأة الغاشية التى دهتهم .. وكلما هدأ الحديث حول عائشة وصفوان أثاره ابن أبى واليهود ! .

ربما زحفت عليهم قريش فجأة وهم مشغولون بمناقشة شرف محمد. !

وأبو بكر كاسف لا تجف له دمعة .. وعمر حزين لا يعرف ماذا يصنع ، على ينصح بطلاق عائشة فالنساء غيرها كثير .. ولكن فليسأل جاريتها ولا ان كانت تعرف عنها من سوء .

ويسأل محمد جارية عائشة فتقسم أن ليس لها ما تأخذه على عائشة لا أنها تنام أحيانا عن العجين فيأكله الدجاج .. فهى مدللة وهى بعد ماتزال صغيرة لم تبلغ العشرين !! .

ويسأل محمد زوجاته جميعا عن عائشة وهن ضرائرها وسيجدن الفرصة سانحة للتخلص منها لو كن يعرفن عنها مايثير الشك ..

ويبدأ بزينب بنت جحش التى تقاسمها فى المنزلة عنده فتقول فى عائشة خيرا ..

مابال أخت زينب إذن تؤكد خيانتها ؟ .. ويسأل الزوجات الآخريات فلا يقلن إلا خيرا .

ويتجه هو إلى عائشة فى بيت أبيها ..

وكان لا يكلمها بل يكتفى بالسؤال عنها .. « كيف تيكم ؟ » .

وهناك يلتى عائشة بين أبيها وأمها .

ويعدل بنظراته عن صديقه أبى بكر .. لقد خاضا لحظات التجربة الحالكة معا .. وفى الأيام الداجية من الأزمات ، كان كل من الصديقين يرى فى عينى أخيه شعاعا مواسيا معزيا يعكس نور المستقبل .. ولكنهما الآن لايستطيعان ! الرأس منكس تحت ثقل المحنة ، وعلى القلب جبل من الهموم .

ويقول محمد لعائشة : إن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فان الله يقبل التوبة من عباده » .

وتنتظر عائشة أن يجيب عنها أبواها ولكنهما لايستطيعان !.

وبكت وعادت تستنجد بأبيها وأمها ان يجيبا عنها زوجها فقالا لها « والله ما ندرى بماذا نجيبه » .

ومن خلال دموعها قالت لزوجها « والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا ..

والله انى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم انى منه بريئة لأقولن ما لم يكن ! ولئن أنا أنكرت مايقولون لاتصدقوننى ! ولكننى سأقول كما قال أبو يوسف عليه السلام : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وانفجرت دموع أبى بكر وزوجته .. واختلط بكاؤهم جميعا .. ما بال الحقيقة لا تبين ؟ ! .

مابال كل العقول لا تستطيع أن تخرق الضباب الرهيب الذى تستلقى وراءه الحقيقة مسكينة خائرة ؟؟

لئن كانت بريئة فلماذا لا تظهر البراءة ناصعة قاطعة ، كما جاء الاتهام ناصعا فى وضح النهار ؟ !.

وتأتى الرسل من جديد .. أن قريشا نجحت فى عقد الأحلاف .. وأن جيشها وجيوش الأحزاب تتأهب للخروج .

ويهود بنى قريظة ينسجون اشاعات جديدة عن علاقات سابقة مع غير صفوان .. فمن يدرى ؟ ! .

لقد كشفت الصدفة وحدها فضيحة صفوان ؟ ! .

وأقبل على المدينة وفد من بنى غفار يقودهم أبو ذر الغفار الذى عرفه محمد فى مكة قديما .. وأعلن أبو ذر أنه سيقيم فى المدينة إلى جوار محمد . . ولم يكد يستقر به المقام ساعة حتى سمع مايقال عن عائشة ..

وصاح أبوذر فى الذين يتحدثون عن عائشة وصفوان : « إنها لمحنة جديدة يثيرها أعداء محمد ليطعنوه فى عرضه أيضا ! .. لا تنشغلوا بهذا أيها الناس .. استعدوا لما تعده لكم قريش وحلفاؤها » .

ولم يحفل أحد بما يقوله أبو ذر ..

ولكن محمدا قرر أن يواجه بنفسه الموقف لينقذ المدينة وأهلها وسمعة دعوته من هذا الحديث الذى يشغل الناس عن الاستعداد لمواجهة الحرب القادمة ..

ووقف محمد فى المسجد يقول . « أيها الناس ! ما بال رجال

يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيرا ... ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى » ..

وعندما فرغ محمد من كلامه ، مضى رجال يرددون ما سمعوه عن صفوان وعن عائشة ..

لقد روت عائشة لكثير من الزوجات من خلال دموعها .. : « قمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى . فلمست صدرى فإذا عقد لى قد انقطع . فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانو يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه وهم يحسبون انى فيه . ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب . فيممت منزلى الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى . فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت . وكان صفوان بن المعطّل السلمى ، ثم الذكوانى ، من وراء الجيش . فأصبح عند منزلى . فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفنى حين رآنى وكان رآنى قبل الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى . ووالله ما تكلمنا بكلمة ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه . وهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها فقمت إليها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة » .

وظل رجال يرددون حديث عائشة الذى سمعوه من زوجاتهم

مؤكدين براءتها ، مستشهدين بأن صفوان هذا لا أرب له فى النساء فقد ظل يقسم للناس . « والله ما كشفت كنف أنثى قط » .

ولكن بعض الموجودين فى المسجد رفضوا أن يصدقوا هذا الحديث ، وهمهم رجال من شيعة عبد الله بن أبى من الخزرج : هذا كلام لا نعقله إن هو إلا تعلات ! وانتظر محمد أن يواجهه أحد الذين يخوضون فى عرضه.. ولكن أحدا لم يتكلم .. وأخيرا.. قام رجل من الأوس يقول : « إن يكونوا من الأوس نكفكهم ، وإن يكونوا من اخوننا من الخزرج فرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم » .

إذ ذاك هب سعد بن عبادة سيد الخزرج .. حتى سعد بن عبادة الشيخ الصالح الحكيم كان يؤمن بخيانة عائشة ! .. وكان يجلس فى المسجد إلى جوار عبد الله بن أبى .. وقال سعد لرجل الأوس: « كذبت لعمر الله لا نضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج . لو كانوا من قومك ما قلت هذا » .

فرد عليه رجل الأوس : « كذبت أنت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ! » .

وقام جماعة من الخزرج يناصرون ابن عبادة، وقام جماعة من الأوس. وتساور الناس .. وأوشكت أن تدور بينهم معركة ، ومحمد يصرخ فيهم أن يهدأوا وألا يحمل واحد منهم السلاح فى وجه أخيه ..

وخرج مغضبا .. والناس ما زالوا يتشاتمون بينما كانت رسل يهود بنى قريظة تخرج خفية إلى قريش تحمل شروط حلف جديد سرى بين

يهود بنى قريظة وقريش أكثر من شهر يمر على المدينة فى حديث عائشة وصفوان ..

واعتكف محمد أياما لا يكلم أحد ولا يكلمه أحد إلا رسول عمه العباس الذى حمل إليه نبأ زحف جيوش قريش وحلفائها ، وكل تفاصيل عددها وعدتها ..

* * *

ولعائشة فى بيتها تبكى بين أبويها ، مقروحة العين ، ساهدة لاتكتحل بنوم ، ولا يرقأ لها جفن ، إذ بامرأة من الأنصار تستأذن عليها ، فتجلس معها تبكى هى الأخرى ! ..

ودخل عليها زوجها يسألها أن تعترف وتتوب إن كانت قد ألمت بذنب وقال لها « إن العبد إذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه » .

أهو أيضا يشك فيها ، ويصدق ما أشاعه عنها ابن أبى واليهود ! ؟

ولكنها ظلت تبكى لتظن أن البكاء فالق كبدها .. وعادت تقول : « صبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وظلت تمنى النفس وتدعو الله أن يرى فيها زوجها رؤيا تبرئها . ولكن زوجها ما رام مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء وهو يستقبل القرآن حتى أنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان وهو فى يوم شات ..

وبعد قليل ذهبت البرحاء عنه ، فضحك لأول مرة منذ أيام طويلة ونظر إليها قائلا : ياعائشة أما الله فقد برأك » .

فقالت لها أمها : « قومى إليه » فقالت عائشة : « لاأقوم إليه » وطلب منها أبوها أن تخف إلى زوجها فتشكره ولكنها ردت عليه من خلال دموعها : « لا أنت ولا صاحبك . فأنى لاأحمد إلا الله عز وجل » ..

وخرج محمد إلى الناس يتلو عليهم : « إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لاتحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذا سمعتموه ظن المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذالم يأتوا بالشهداء فأولئك عندالله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولو لا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون ..

ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » ..

كان أبوبكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره : حتى إذا أفاض مسطح فى الحديث ضد عائشة مع من أفاض ، امتنع أبوبكر عن الانفاق عليه .. ولكنه سمع محمد يتلو : « ولايأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا . وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » ..

فقال أبوبكر : « بلى ، والله ! إنى لأحب أن يغفر الله لى » .

فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال : « والله لاأنزعها منه أبدا » ..

أما عائشة ، فلم تكد تسمع هذه الآيات من القرآن حتى بكت من الفرح .. وأخذت تقول : «والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يتلى . لشأنى فى نفسى كان أحقر على من أن يتكلم الله فىّ بأمر ا » .

وأما الذين أفاضوا فى القول ضد عائشة وصفوان فقد تخاذلوا من الندم إلى أغوارهم ، وأسرعوا إلى محمد يعلنون التوبة معتذرين عما كان منهم ، إلا عبد الله بن أبى ..

وأنشأ حسان بن ثابت قصيدة يمدح فيها فضائل عائشة ..

على أن محمدا طالبهم أن يكفوا عن الاعتذار ..

إنه ليعفو عن كل طعنة فى عرضه ..

وماينبغى لهم أن يشغلوا الآن بغير الاستعداد لمواجهة قريش والأحزاب .

لم ينس بنو النضير هزيمتهم أبداً ..

كانوا يضربون فى التيه وعيونهم تتطلع إلى ماوراء الأفق، حيث تستلقى — فى سلام — المدينة التى سادوها لبعض الوقت وكدسوا فيها الثروات من الربا، وأنشأوا حولها البساتين وملأوها ببيوت المتاع والصخب والاضطرام واختاروا رجلا من أهلها واستعدوا لتتويجه .. ثم أقبل محمد، فلم يعد فى المدينة ربا ولم يعد لهم عبيد يعملون فى البساتين، ولا متاع بعد ولا صخب ولا اضطرام ! ..

لم يتخلوا أبداً عن أحلامهم بالعودة إلى المدينة ليقيموا فيها أسواقهم كما كانت من قبل، وليكسبوا من الربا أضعافاً مضاعفة، وليفتتحوا بيوت اللهو القديمة العامرة بالقمار والخمر واليهوديات الحسان .. وليتوجوا عليهم عبد الله بن أبى بن سلول ! .

وانطلقوا مع فلول يهود بنى قينقاع : الأحقاد فى الصدر وأحلام السيطرة تملأ الرءوس، فطافوا بكثير من القبائل يعقدون معها المحالفات حتى قدموا مكة على قريش فعاهدوهم أن يكونوا جميعاً على محمد حتى يستأصلوه ..

كانت مكة تستعد ، وجاءها اليهود يستحثونها وقد رصد أغنياؤهم للحرب كثيراً من المال ، وجمعوا من هنا وهناك كل ما استطاعوا لتمويل حملة تلك المدينة ..

وتحرك جيش لم تعرف مثله الجزيرة العربية من قبل .. جيش يضم فرسان تهامة وكنانة والمقاتلين الأشداء من نجد وأبرع رماة اليهود وجنود قريش بعبيدها المدربين القساة ، وأحابيشها الذين يتقنون إطلاق الرمح فجأة ، وخيلها وأشدائها وساداتها وجواريها المغنيات وسقاتها ومجانها ، ونسائها الفاتنات يحرضن الرجال على القتال .

زحف هذا الجيش الهائل تحت قيادة أبي سفيان رئيس حكومة قريش ، وتلقى محمد رسالة من عمه العباس بن عبد المطلب يشرح له فيها كل شيء ..

وأدرك محمد أنه لن يجد الوقت ليحشد جيشا يواجه به الأحزاب مجتمعة في معركة مفتوحة في العراء .. ولئن وجد الوقت فلن يجد العدد الكافي أبداً .. لقد واجه بثلاثمائة رجل ألفا من رجال قريش في بدر وهزمهم .. وحشد كل طاقته في أحد فجمع نحو ألف رجل انسحب منهم ثلاثمائة ولكنه أوشك بالسبعمائة الباقين أن يقهر نحو أربعة آلاف في أحد لولا العصيان ! .

ولكن الفرق بين القوتين الآن رهيب .. فهو مهما يحشد من مهاجرين وأنصار ومن حلفاء فلن يستطيع أن يحشد أكثر من ثلاثة آلاف بلا خيول ... فكيف يواجه بهم آلافاً مؤلفة معهم أحدث الأسلحة التي تصنعها اليهود وفيهم مئات الفرسان ..

لقدظلت قريش تستعد، واليهود يؤلبون القبائل ويحزّبون الأحزاب.
بينما شغلت المدينة بالطعن فى عرضه، وظل رجالها — حتى الأصدقاء — يناقشون الأيام والليالى، حكاية عائشة وصفوان..!!.

الندم لا يستطيع أن يعوضهم عن الأيام الضائعة المهدرة ..

لابد من عمل حاسم لمواجهة زحف الأحزاب ..

واستشار محمد كما تعود .. فأشار عليه أحد المسلمين أن يخرج إليهم بجيشه وسينصرهم الله كما نصرهم فى بدر!

وأشار آخرون أن يعتصموا فى المدينة ليدافعوا عنها .. وليحاربوا فى كل شارع، وفى كل درب، وفى كل بيت، فلا يستولى المهاجمون على شبر من الأرض إلا على رفات شهيد!

ورأى محمد أن فى الخروج من المدينة مخاطرة .. فمن يدرى ماذا يمكن أن يصنعه عبد الله بن أبى ..

مازالت له شيعة! ومحمد لا يريد الآن أن يضربه. إنه ليتظاهر بالتوبة عما نهش به عرض محمد ..

وهو صامت مستكين! مريب فى سكونه! إنه ليمعن فى اظهار خجله وندمه على ما قاله فى عائشة، حتى لقد اعتزل الناس والمسجد ولم يعد يخرج.

وفى ضواحى المدينه أيضا يقيم يهود بنى قريظة .. ولا أمان لهم، فما هم بخير من يهود بنى قينقاع أو يهود بنى النضير.

انهم لن يخرجوا معه لقتال العدو الزاحف، إذا قرر الخروج، وما يدري بعد إلى أى مدى يمكن أن يذهبوا، فقد ينتهزون فرصة خروج

كل المقاتلين المسلمين ، ليدبروا انقلابا فى المدينة ، أو ليحالفوا عبد الله ابن أبى ويجعلوا منه ملكا ، ويقيموا لهم دولة ، فيعود محمد بعد الحرب، ليجد قاعدة انطلاقه قد احتلتها دولة الأعداء ..

ومع ذلك فلئن أقام فى المدينة وانهزم عنها بعض المحاربين ، لدخل رجال الأحزاب مدينته الخضراء يقتلون الأطفال ويخربون الدور ويحرقون البساتين ، ويسبون النساء ..

ستكون مذبحة يدفع ثمنها الضعفاء .

ما هذا برأى ! يجب ألا يعتصموا بالمدينة ! ..

وظل محمد يفكر فى خطة يدفع بها الوبال الزاحف .. والوقت يمضى .. ولكم أشار عليه الرجال .. ولكنه كان يجد فى كل خطة ثغرة ! .

وأخيرا تقدم سلمان الفارسى برأى .

تذكر سلمان كيف كان القادة العظام يدافعون عن المدن الفارسية أمام غارات الروم .. واقترح أن يتبع المسلمون نفس الاسلوب : أن يخرج كل الجيش إلى ظاهر المدينة . ويتحصن وراء خندق ! .

خندق وما هو هذا الخندق ياسلمان ! .

فليحفروا أمام الأسوار .. خندقا واسعا عميقا ، يقفون خلفه فإذا اقترب العدو من هذا الخندق برزوا إليه واستفزوه ليتقدم أيضا وإن هى إلا خطوة حتى تسقط صفوف العدو فى هذا الخندق إذا حاولت اجتيازه ! وستحاول لأن كبرياء الغازى تمنعه فى الغالب من التقهقر أمام حفرة من الأرض ! .

تحمس محمد للفكرة .. وتحمس لها كثير من المسلمين ..

إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ..

وقال بعض الأنصار « سلمان منا » ، فقال بعض المهاجرين « سلمان منا » .. واتجهت نظرات سلمان إلى محمد فقال باعتزاز : « سلمان منا أهل البيت ! » .

ووضع محمد الخطة ..

أن يحفروا الخندق .. وأن يقف الرماة المسلمون على الأسوار .. والمقاتلون الآخرون على حافة الخندق مستندين إلى أسوار المدينة ..

وأذن محمد فى المسلمين أن يبدأوا فى حفر الخندق ..

ورفع هو أول فأس فضرب بها الأرض الصلبة .. ورفع الصخر بيديه ومن حوله المسلمون يعملون فى حماس خارق ، يلهبه سلمان بما يروى لهم عما صنعته الخنادق بالقوات الزاحفة مهما يكن تفوقها فى العدد.

ولكن همهمة سرت فى المدينة .. وما جدوى الخندق ! .. لماذا يجهد الناس فى هذا العمل، حتى إذا أقبل العدو وجدهم متعبين مجهدين؟.. لماذا لا يحتفظ كل رجل بعافيته ، ويعتصم فى بيته ، ليدفع عن أهله إن هجم العدو ! .. ما جدوى الخندق إلا أنه مجهود يبذل بلا طائل فأسوار المدينة العالية كفيلة برد العدوان ! .

وكان عبد الله بن أبى وراء هذه الهمهمة ..

وتراخت بعض السواعد .. وبدأ بعض الرجال ينسحبون من العمل فجأة ويتسللون إلى أهليهم بغير علمه ..

وأصدر محمد أمره ألا ينسحب أحد من العمل حتى يستأذنه ..

وحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .. وعاد الذين تأثروا بأقوال عبد الله بن أبى يعتذرون بالضعف .. إنهم لم يتعودوا العمل بأيديهم من قبل ، فقد كان لهم عبيد يعملون عنهم فى الأرض ! .

ونصح محمد لأصحاب الأيدى الناعمة أن يعفروا أيديهم بالتراب فى حفر الخندق لأن هذا العمل نوع من الجهاد ، له أجر الجهاد ..

على أنه لم يشأ أن ينزل العقاب بمن صمم على التخلف متعللا بالضعف أو المرض أو العجز عن حمل الفأس وضرب الصخر ..

كانت أيدى نحو ثلاثة آلاف رجل ما زالت ترفع الفئوس وتهوى على الصخور .. ورءوس مئات النساء تحمل التراب إلى بعيد ..

وما يضيره أن يعتزل عشرات من الرجال ، مستعلين ، منبوذين ؟! إن فى استخفاف إخوانهم بهم لعقابا كافيا ..

ولكى تتماسك الصفوف ، أمر محمد الذين تخلفوا عن حفر الخندق أن يلزموا دورهم .. مادام الضعف أو المرض أو العجز هو الذى منعهم عن العمل .

ليس لمحمد أن يحاسبهم على نواياهم ، فهذا ليس من شأنه .

فليأخذهم بظاهر ما يدعون ! ..

فليستريحوا فى البيوت ولا جناح عليهم ، ان كان المرض حقاً هو ما منعهم عن الاشتراك فى حفر الخندق ، وإلا .. فليكن فى حرمانهم من

شرف المعركة وأجر الجهاد والغنائم ، عقابا على تعللاتهم إن كانوا يكذبون .. !

وانتهى حفر الخندق على أية حال . وأقبلت قريش فى عشرة آلاف من الأحابيش وآلاف أخرى من رجالها ... ثم أقبلت آلاف من تهامة وكنانة وآلاف من محاربى نجد الأشداء يتصدرهم شجعان غطفان ..

وعسكرت جيوش من الأحزاب على تلال مرتفعة تواجه المدينة ..

وعسكر محمد بجيشه أمام الأسوار ، والخندق بينه وبين الأحزاب.

وأقبل الليل ولم يلتق الجمعان ..

وتسلل حيي بن أخطب سيد بنى النضير المطرود إلى يهود بنى قريظة المتصمين خلف أسوارهم الخاصة فى ضواحى المدينة .. بعيدا عن الخندق وعما يصنع الجمعان ! .

وإنهم على الرغم مما تلزمهم به صحيفة التحالف مع محمد ، قد قرروا أن يقفوا على الحياد فى المعركة ، وألا يحاربوا إلا الذين يهاجمونهم هم أنفسهم فى معاقلهم .

ونحف كعب بن أسد سيد بنى قريظة لاستقبال حيي بن أخطب النضرى ..

وقال له حيي :

ـ جئتك بعز الدهر وببحر طام .. جئتك بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه !! .

ومازال به حيي يغريه أن يخطو فى الموقف ضد محمد خطوة أخرى بعد الامتناع عن مساعدته فى مقاومة الغزو بدعوى الحياد !

ولكن كعب بن أسد خائف !.

فلئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا ، لينتقمن محمد من بنى قريظة .

وقال كعب :

– دعنى وما أنا عليه فانى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء ! .

غير أن حيي بن أخطب ، ظل يغريه بغنى الأيام القادمة إن هم استأصلوا محمدا ومن معه .

ثم وعد بنى قريظة بنصف خيرات المدينة إن هم انضموا إلى الأحزاب ،فاستولوا عليها جميعا .. وأعطاهم ابن أخطب عهده وميثاقه أن يدخل معهم حصونهم فيصيبه مايصيبهم من انتقام محمد إن فشلت الأحزاب ! .

وما زال حسين بن أخطب حتى أعلن كعب بن أسد سيد بنى قريظة أنه يبرأ من صحيفة التحالف مع محمد وينضم إلى الأحزاب .

وروع محمد عندما انتهى إليه الخبر ! .. إنه ليواجه الأحزاب مجتمعين أمام هذا الخندق ، فكيف يقوى على حربهم وفى ظهره قوات بنى قريظة ! ؟

ودعا إليه سعد بن معاذ سيد الأوس ، وهم حلفاؤهم وحماتهم القدامى وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، وبعض أصدقائهم من سادات المدينة ، وأوصاهم محمد أن ينطلقوا حتى ينظروا أحق ما بلغه عن بني قريظة أم لا ! .

فإن كان بنو قريظة على الوفاء لما كان فليجهروا به للناس ، وإن كان حقا ما بلغه ، فليلحنوا له لحنا يعرفه حتى لا يفت الخبر فى أعضاد الناس !..

وخرج مندوبو محمد حتى جاءوا بنى قريظة فى حصونهم وتقدم إليهم سعد بن معاذ حليفهم وحاميهم القديم فسألهم عما بلغ محمدا عنهم فقالوا له :

— لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد !

وحاول سعد بن معاذ أن يقنعهم بفساد ماقرروه ، واستحلفهم بكل الصداقات القديمة وبحقوق الولاء ألا يخذلوه فى موقف نكد هكذا .

ولكنه وجدهم على أخبث مما يحسب .. فاحتد عليهم وشاتمهم فشاتموه .

فانصرف مغضبا مع صحبه ، وسعد بن عبادة يقول له .

« دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ! » .

وعادوا جميعا إلى محمد فلحنوا إليه لحنا يدل على أن بنى قريظة قد غدروا به ..

وأدرك محمد الإشارة ..

واقترح عليه سعد بن معاذ أن يتجهوا إلى بنى قريظة فيبيدوهم فى حصونهم قبل أن يتمكنوا من طعن ظهور المسلمين وليبقى الرماة على الأسوار يرمون رجال الأحزاب بالنبال إذا اقتربوا والخندق بعد ذلك كفيل باقتناصهم . !

ولكن محمدا رفض الخطة ، وصمم على أن يظل الجيش بكل عدته لمواجهة الأحزاب .. على أن يحمل جناح منه مسئولية المعركة مع بنى قريظة إن هم تركوا حصونهم وزحفوا ليفاجئوا المسلمين من الظهر إبان المعركة !.

وتقدمت جيوش الأحزاب حتى اقتربت من حافة الخندق فانقض الآلاف من حملة النبال يوجهون سهامهم إلى المسلمين دفعة واحدة !.

كانوا متفوقين فى العدد على نحو رهيب !.

ولم يستطيع الرماة المسلمون أن يثبتوا لهم على أسوار المدينة فأمرهم محمد أن يتحصنوا وراء الأسوار بدلا من اعتلائها ، وأن يواصلوا جهدهم ضرب جيوش الأحزاب بالنبال ..

على أن اندفاع جيش الأحزاب فى موجات هائلة تحاصر أسوار المدينة ألقى الرعب فى قلب كثير من المسلمين .

إنهم وهم ثلاثة آلاف رجل يكادون أن يختفوا أمام طوفان الجيوش الزاحفة بعشرات الآلاف فى خيلها وعدتها وابلها المدربة على القتال .

وخشى المسلمون أن ينتهز بنو قريظة الفرصة فيحاصروهم من ظهرهم .. أو يهاجموا الدور الخالية من الرجال فى الضواحى ! .

وارتفع صوت من معسكر المسلمين :

ـ كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !.

وارتفع صوت أخر :

ـ إن بيوتنا عورة فليأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دورنا فإنها خارج المدينة ، وارتفع صوت آخر حاسم : « إنهم لينافقون فأذن لنا أن نقطع رقابهم » .

ولكن محمدا لم يكن يحب أن يستكره أحد على القتال .. فما جدوى أن يخوض المعركه بجنود كارهين .

وأدرك أن الخوف يسيطر على بعض القلوب .. فأذن لمن يريد أن يعود إلى بيته أن يعود فهذا خير من أن يبقى فى الصفوف ليشيع الانهزام .

وليثبت فى الصفوف من يجد فى نفسه القدرة على مواجهة الخطر والرغبة الصادقة فى الاستشهاد دفاعا عما يؤمن به !.

وهمهم لنفسه وهو يتقدم الصفوف «عفا الله عنك لم اذنت لهم ! » .

ولكنه عاد فرأى الخير فى تخليص صفوفه من العناصر الخائرة .

ثم أخذ يتلو عليهم : « وإذ قالت طائفه منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ... قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ، قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا» .. .

وجمع قواده يستشيرهم وقد اشتد البلاء ..

فلقد يرى أن يعمل على تمزيق وحدة الأحزاب ، والحرب خدعة !.

فليعرض صلحا منفردا على نجد : أن يعودوا ولهم ثلث ثمرات المدينة !.

لقد رحبت نجد بقيادة غطفان بهذا العرض .. ولم يبق إلا أن يوقعه محمد.

وجمع الناس ليتفقوا جميعا على رأى ... وشرحهم ما اقترحه على أهل نجد ، ورحب الناس بهذا الحل فلئن عاد أهل نجد وانسلخوا عن الجيوش الغازية فى طاقة جيش المسلمين أن يثبت للباقين عن تفوقهم العددى!.

ولكن سعدبن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج تقدما من محمد مغضبين فسألاه :

يارسول الله ، أمرا تحبه فتصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ .

فأجبهما محمد :

« بل شىء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبُوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما » .

فقال سعد بن معاذ: إن أهل نجد لم يكونوا يأكلون ثمرة واحدة من ثمار المدينة إلا بيعا أو ضيافة ، فكيف يعطونهم أموالهم ؟ .

ثلث ثمار المدينة ! لا .. !!

ثم قال سعد : « والله لا نعطيهم إلا السيف » .

وتناول سعد صحيفة مشروع الانقاع فمحا ما فيها قائلا : « لا ليجهدوا علينا » .

واستعد أهل نجد للمعركة إلى جوار الأحزاب .. واستعدت كل الأحزاب .

وتقدمت جموع الفرسان تبحث عن مكان ضيق من الخندق لتعبر منه.

وبعد بحث طويل وجدوا مكانا تسطيع أن تعبره الخيل..وضربوا خيلهم فاقتحمت منه، واكتشف على بن أبى طالب أن الفرسان يعبرون الخندق من مكان ضيق فيه ، فقاد جماعة من جيش المسلمين ليمنعوا الفرسان من عبور الخندق .

كان المكان لا يسمح إلا بعبور حصان واحد ولكن عليا أدرك أنهم إن تركوا المكان بغير حراسة لعبر منه مئات الفرسان : الواحد بعد الآخر ..

وكان يقود الجماعة التى عبرت الخندق فارس معلم من قريش اسمه عمرو بن عبدود .. فتصدى له على ودعاه إلى المبارزة فقال له عمرو :

« لم يا ابن أخى أبى طالب .. ما أحب أن أقتلك » ..

فتقدم منه على صائحا : « لكننى والله أحب أن أقتلك » .

وبارزه على ، فقتله ..

ثم قاد جماعة من المسلمين يقاتلون الذين عبروا الخندق ، حتى أجلوهم وخرجت خيلهم منهزمة تقتحم من الخندق هاربة !.

ان عليا ليصنع كما صنع حمزة يوم بدر ..

وتذكر المسلمون يوم بدر وانتصارهم الرائع هناك بمثل هذه الأعمال الفدائية الخارقة ..

لتعاودهم تلك القوة الداخليه الخارقة التى كفلت لهم النصر !.

ولم تعد جيوش الأحزاب تفكر فى عبور الخندق .. ولبثت فى معسكرها دون الخندق يفكرون فى طريقة أخرى لهجوم مكتسح..

وقرر أبوسفيان قائد الأحزاب أن يصبوا سهامهم على جيوش محمد بلا انقطاع ، حتى إذا ما نالوا منهم ، اجتازت الأحزاب المكان الضيق من الخندق رجلا بعد رجل .. وردموه من أنحاء متفرقة ليعبره الآخرون..

فليوجهو سهامهم إلى الأبطال من المهاجرين وإلى سادة المدينة فإذا سقطوا يتخاذل الآخرون ! .

وكان محمد قد أمرهم ألا يبرزوا إلا وهم فى دروعهم السابغة التى غنموها من بنى النضير وبنى القينقاع وبنى المصطلق ..

ولكن سعد بن معاذ برز فى درع قصير بلا ذراعين .. وما أن ظهر أمام الرماة حتى أصابه سهم فى ذراعة .

وأمر محمد بأن يحمل إلى المدينة لتعالجه امرأة هناك تحذق الطب .

وجاء الليل من جديد وقريش تفكر فى طريقة تعبر بها الخندق .. والمسلمون يتناوبون حراسة المكان الضيق منه .

وفى احد الليالى تسلل أحد فرسان قريش ومن ورائه صف طويل من الفرسان ليقتحم من المكان الضيق .. ولكن حصانه سقط فى الخندق وتبعه آخر فسقط وانهارت الحجارة من فوقهم .

وصاح الآخرون وكان يقودهم عكرمة بن أبي جهل : إن المكان الضيق لم يعد صالحا للعبور بعد ، فقد حفرَه أصحاب محمد من جديد تحت جنح الظلام ! .

وأمر علي رجاله أن يسددوا سهامهم على الأصوات .. وسدّد هو سهمة إلى عكرمة بن أبي جهل فأصابه .

وشعرت قريش أنه لا سبيل إلى اقتحام الخندق ..

وأنه يجب عليهم أن يستفزوا المسلمين ليعبروه إلى قتال مكشوف من الخلاء ..

وأرسل أبو سفيان إلى محمد يتهمه بالجبن لأنه يكيد مكيدة ما كانت تعرفها العرب ويحتمى وراء الخندق .. فليخرج إليهم فى الساحة ان كان شجاعا !! .

وابتسم محمد وأرسل رده على أبي سفيان .. إنه سيخرج إليهم فى يوم قريب ليحطم أصنام قريش ! .

وأذن محمد فى رجاله أن يثبتوا وأن يصبروا فوراءهم المدينة بالطعام والماء والامدادات أما الأحزاب فهم فى العراء ، وبينهم وبين مراكز الزاد سفر طويل فلن يقووا طويلا على البقاء ! فليصبر عليهم المسلمون لبعض الوقت حتى إذا أنهكهم نقص الطعام والماء .. وعلم أنهم أرسلوا فى طلب المدد .. خرج عليهم فهاجمهم .. فى الوقت الذى يختاره هو للقتال ! .

ليصبر المسلمون .. فالصبر اليوم هو أقوى الأسلحة ! .

ماجدوى الآلاف المؤلفة من الجنود الأشداء إذا كانوا لايستطعون عبور هذا الخندق ليأخذوا جيش محمد من كل جانب ؟ ..

بم يمتازون إذا كان عليهم أن يوجهوا جنود محمد رجلا لرجل!؟.. إن هؤلاء الآلاف الثلاثة الذين حشدهم محمد أمام أسوار المدينة ليطلبون المبارزة .. وعلى جيوش الأحزاب إذن أن تخرج لهم ثلاثة آلاف من شجعانها، ربما قتلوا جميعاً فى هذه المبارزات وانسحب الباقون فى استخذاء ؟..

وشاع السأم فى جنود الأحزاب ودب الملل إلى القلوب من طول الحصار، وبدأ الزاد ينفد .. وجيش المدينة لا يبالى، فمن ورائهم خلف الأسوار، تقع مدينتهم بكل خيراتها .. !

وتمنت غطفان لو أنها وصلت فى مفاوضتها مع محمد إلى حل يرضيها، ثم انسحبت !.

وحتى بنو سليم الذين أقبلوا على جيادهم تدفعهم الرغبة فى الانتقام من الهزيمة القديمة حتى بنوا سليم فكروا فى الانسحاب منذ رأوا الطعام ينفد، وخيولهم تهزل من قلة الكلأ !

لقد أحسن محمد رسم الخطة لمواجهة جيوش الأحزاب ، فاجتث كل النبات والثمرات وكل ماهو أخضر من الأماكن التى توقع أن يعسكروا فيها ووضع على القوات المهاجمة عبئا جديدا : أن تدبر الطعام والمرعى لجندها وخيلها ..

وبنو قريظة لا يهاجمون بعد .. إنهم ينتظرون فرصة الهجوم الشامل !

وأبو سفيان حائر لا يستطيع أن يصبر على الحصار ، فهو لا يفتأ يستفز المسلمين ليتركوا مواقعهم أمام الخندق ويخوضوا معركة فى العراء المكشوف ، أمام قوات الأحزاب .. كما حدث فى أحد !

ويشعر أبو سفيان بما يصنعه السأم فى معنويات حلفائه .. ويخشى أن يفاجئوه بالانسحاب ، فيضطر هو نفسه إلى الإنسحاب بقواته !

لن يغفر لهم محمد هذه المحاولة الفاشلة ، وسيقطع على قريش طريق التجارة إلى الشام .

وطاف فى ذهن أبى سفيان — لبعض الوقت — أن يعرض على محمد صلحا معقولا يسمح لقريش بأن تنسحب لا منهزمة عن المدينة — بل عافية عنها — على أن يتعهد محمد ألا يتعرض لتجارة قريش .

ولكن أبا سفيان ، خشى أن يستشير حلفاءه فينهار كل شىء ، ويستبق قادة الأحزاب المتحالفة إلى محمد يقدمون له الطاعة ويحالفونه ضد قريش ! .

وأدرك محمد كل ما يعصف بمعسكر الحلفاء ، فناشد جنوده كثيرا من الصبر أيضا .. فالصبر هو الذى سيحمل له النصر فى النهاية !

واجتمع رجال الأحزاب يتشاورون .. من الواضح أن الانتظار ليس فى مصلحتهم .. !

إنهم ليشعرون بالحاجة إلى الطعام يوما بعد يوم .. والخيل تهلك فى بحثها المضنى عن الأعواد الخضراء ..

لقد أدركوا الآن أن محمدا بنى خطته العسكرية على الصبر والانتظار، وأنه لن يدفع بقواته القليلة إلى الاشتباك فى معركة مفتوحة مع جيوش الأحزاب الضخمة .

فليحاولوا اقتحام الخندق إذن رجلا بعد رجل ، وليحاربوا جيش محمد رجلا لرجل ؟

هذا هو الحل .. ولكن مَنْ مِنَ الأحزاب يبدأ ..

لتقدّم قريش صناديدها .

ولكن لماذا لا تقدم غطفان رجالها ؟ . وبنوسليم لماذا لا يتقدمون هم أولا ؟ ! ..

وبينما هم يتناقشون والخلاف يوشك أن يحتدم بينهم إذ برجال محمد يخرجون إليهم من وراء الخندق ينادونهم إلى طريق سواء : أن يؤمنوا بالدين الجديد ولينسحبوا آمنين ! .

وشعر أبو سفيان بالإهانة ! ..

حتى فى هذه اللحظات التى تغمر محمداً بطوفان من قوى الأعداء ، يدعو الناس إلى دينه الجديد ، فى ثقة مطمئنة بالنصر ؟ .

أتسمح له هذه الثقة بأن يؤمنهم على حياتهم — كما لو كانوا أسراه — ان هم آمنوا بما يدعو إليه ! .

ورد أبو سفيان دعوة محمد .. واتهمه مرة أخرى بالجبن ..

وتحداه أن يبرز بقواته من وراء الخندق ليشتبك مع قوى الأحزاب ! فى السهل كما حدث فى أحد .. !

ولكن محمدا لم يكف عن توجيه الدعوة إلى رجال الأحزاب أن يؤمنوا بالعقيدة الجديدة وأن يجعلوا تعاليمها هى أسس التعامل فيما بينهم ..

فليعلنوا إيمانهم مخلصين ، وليعودوا إلى أهلهم فى سلام ! ..

ووجه نفس الدعوة إلى بنى قريظة الذين اعتصموا فى حصونهم منتظرين الفرصة المناسبة للانقضاض ..

ولم يلق محمد أى رد على دعوته إلا الزراية والاستخفاف ثم التعريض بهزيمته فى أحد ثم النذير باستئصاله وابادته هو ومن معه جميعا :

وانطلق قادة اليهود يجددون وعودهم لرجال الأحزاب ، ان يتركوا لهم أموال المدينة ان هى سقطت .. وان يعطوهم مزيدا من المال .. وهمسوا لقادة غطفان الذين أزهقهم الانتظار أن يصبروا وأن يحاولوا إحداث معبر فى الخندق يقحمون منه الخيل ، وينقضون على المسلمين .. ولهم إذا نجحوا نصف ثمار واحة خيبر .. الغنية بالثمرات !! .

ولكن بنى غطفان كانوا قد تأكدوا أنه لا سبيل إلى اقتحـــام الخندق .. فعلى بن أبى طالب يقف من ورائه على رأس فرقته دون المدينة ، يصرع من يحاول اقتحامه ، كما وقف عمه حمزة دون الماء فى بدر !! ..

من الواضح أن محمدا وجنوده قد أقبلوا فى هذه المعركة بنفس الروح التى أقبلوا بها على بدر ؟ :

ومع ذلك من أجل أية مكاسب ، يتعرض قادة بنى غطفان لكل هذا الخطر ؟ ! .

إنهم لم يفكروا أبدا فى أن يناقشوا دعوة محمد .

لقد حاولوا أن يفاوضوه على الانسحاب فى مقابل ثلث ثمرات المدينة فوافق ، ولكن قادة الأوس والخزرج لم يطب لهم هذا الاتفاق .. فلماذا لا يفاوضونه من جديد على شروط يقبلها زعماء المدينة ؟ ! .

وتسلل نعيم بن مسعود ، زعيم بنى غطفان إلى محمد ..

لم يقبل هذه المرة مفاوضا ، ولكنه أقبل يعلن اقتناعه بفساد هذه الحرب ، وبرغبته فى الانسحاب بلا شروط ، لأنه بعد تفكير طويل قد آمن بدعوة محمد !

ونعيم رجل واسع الدهاء ..

وخشى بعض أصحاب محمد أن يكون نعيم قد أقبل بحيلة أو مكيدة فنصحوا بالتريث معه للاستيثاق منه ! .

ولكن بأية حيلة أو مكيدة يمكن أن يقبل نعيم وحده على معسكر المسلمين ! ؟ ..

لقد استوثق محمد من صدقه على أية حال فاطمأن إليه ..

وقال نعيم :

— يارسول الله إن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت .

فقال له الرسول :

ـ إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا فإن الحرب خدعة !

ومضى نعيم بكل دهائه على قريظة قائلا : « قد عرفتم ودى » .

فأجابوه : « لست عندنا بمتهم » .

فقال لهم مصطنعاً العطف عليهم

إن قريشاً وغطان ليسوا مثلكم فإن البلد بلدكم فيه أموالكم ونساؤكم وإن قريشاً وغطفان ليسومثلكم فأموالهم ونساؤهم فى بلادهم فإن ضاقوا بالمقام هنا لحقوا ببلادهم وخلوابينكم وبين محمد ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم حتى لا يغدروا بكم وينسحبوا !

ثم مضى إلى قريش وإلى قومه غطفان فقال لهم :

إنه قد بلغنى أمر فأكتموه عنى ..

وأخذ يقنعهم أن يهود بنى قريظة قد ندموا على موقفهم من محمد فأرسلوا ليصالحوه ، على أن يسلموه رءوس أشراف قريش وغطفان ».

ثم أكمل :

فإن بعث إليكم بنو يهود يلتمسون رهنا منكم من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

فلما أصبح الصباح .. أرسل أبوسفيان إلى بنى قريظة يطالبهم أن يبدأوا الهجوم على محمد .. فردوا عليه قائلين :

لسنا بالذين يقاتلون معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم

يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تنسحبوا من المعركة إلى بلادكم ، والرجل فى بلدنا لا طاقة لنا بذلك منه .

وتأكد عند غطفان وقريش ما قاله نعيم ! .

فردوا على بنى قريظة أنهم لن يرسلوا إليهم رجلا واحداً ..

وإذ تلقى بنو قريظة هذا الرد ، تأكد عندهم أن حلفاءهم يريدون أن يخذلوهم فينسحبوا إذا اشتد القتال .. تماما كما قال نعيم !

وهكذا تفرق الحلفاء .. بدأت قريظة تخشى من انسحاب الأحزاب.. وبدأ قادة الأحزاب يخافون غدر بنى قريظة .. والطعام ينفد ولا مراعى للخيل .. والعاصفة تتجمع فى الأفق وتقترب نذُرها !

وهبت الريح العاتية فجأة فاعتصم المسلمون منها وراء أسوار المدينة ولكنها دكت معسكر الأحزاب.. اقتلعت كثيراً من الخيام وقلبت كل شيء والسأم يبلغ أوجه ! !

ووقف أبو سفيان يصرخ وعواء الريح يغمر صوته :

— يامعشر قريش ، إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام ! لقد هلك الخيل والإبل وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ، ماتطمئن لنا قدر ، ولاتقوم لنا نار ، ولايستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل .

وقام إلى جمله فركبه ..

انسحبت قريش .. وانسحبت وراءها غطفان .. والأحزاب ؛

والريح تثير من ورائهم الرمال ، وتحجبهم عن العيون ، وهم يضربون فى الصحراء : الرءوس منكسة والأجسام تنحنى تحت وطأة الإحساس العقيم بالخيبة !

وارتفعت من معسكرات المسلمين صرخات النصر ..

ووقف محمد ينظر إلى وجوه الناس من حوله وهو لا يكاد يصدق نفسه !

كيف نجت المدينة من هذا الحصار ؟

كيف انهزم أمامها كل هذا الحشد من أقوى الفرسان والمحاربين فى الجزيرة العربية .

لن يغلبوه بعد يومهم هذا ابداً .. لن يقووا على أن يجمعوا مثل هذا العدد مرة أخرى !

إذن فقد نجا بدعوته وصحابه .. وإنها لهيبة جديدة تلك التى تنتظره منذ اليوم ووقف يقول :

— الحمد لله .. نصر عبده وأيد جنده وهزم الأحزاب وحده .

لن تغزوكم قريش أبداً ، بل تغزونهم أنتم وتدخلون مكة وتحطمون أصنام الكعبة !

وتهيأ المسلمون للعودة إلى ديارهم فى المدينة تهز أعطافهم كبرياء النصر فوضعوا السلاح وانصرفوا .. ولكنهم تهامسوا فيما بينهم وهم ينصرفون :

« وبنو قريظة ؟! » .

وناداهم محمد ألا يعودوا إلى ديارهم حتى ينزلوا الهزيمة ببنى قريظة!

لقد ذهب الحلفاء عن بنى قريظة فليواجهوا الآن مصيرهم!

وتقدم على بن أبى طالب يقود فرقته إلى حصون بنى قريظة وأقسم أن يقتحم عليهم أسوارهم أو يلقى دون هذه الأسوار ميتة كميتة عمه حمزة!

واعتصم بنو قريظة فى حصونهم فلم يخرجوا للقتال .. وضرب المسلمون عليهم الحصار .

وذات ليلة سمع المسلمون رجلا يصرخ من وراء الأسوار فى قومه اليهود « أنا قلت لكم لا أغدر بمحمد أبداً » .

وعرفوا صوته .. إنه عمرو بن سعد القرظى !

ورأوه يتسلل من الأسوار بعد قليل فتركوه يهرب .

ومضى الرجل يضرب فى الصحراء المترامية تحت الظلمات ولم يدر أحد أبداً أين توجه من الأرض .

وفى الصباح ذكروا حكايته لمحمد فقال :

« وذاك رجل نجاه الله بوفائه .

ولم ترتفع بعد صيحة احتجاج أخرى من بنى قريظة .

كانوا كلهم قد أجمعوا أمرهم على حرب محمد .

واستمر الحصار خمسة وعشرين يوماً .. فأرسلوا إلى محمد أن يفك عنهم الحصار وسيرحلون كما رحل من سبقهم من اليهود .

ورد عليهم محمد : إن لهم لشأناً آخر وإن ما صنعوه به ليس كغدر

من خرجوا من يهود المدينة فليستسلموا إذا شاءوا بلا شروط ، وإلا فهى الحرب حتى يستأصلوه كما دبروا هم أو يستأصلهم هو !

وأذعنوا آخر الأمر .. ونزلوا على حكمه واستسلموا بلا شروط فتواثب رجال من الأوس قائلين .

ـ يارسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت بالأمس فى بنى قينقاع موالى إخواننا الخزرج ماقد علمت ، فهب لنا بنى قريظة .

فقال محمد :

ـ ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟

فوافقوا .. واختار محمد للحكم سعد بن معاذ زعيم الأوس .

وفرح بنو قريظة ، أن يوضع مصيرهم بين يدى سعد بن معاذ ! .. مهما يكن من غلظتهم معه حين جاءهم يسألهم العدول عن الغدر بمحمد ، فانه لراعيهم القديم ، وهو رجل عادل مايعرف عنه غير الحلم والعفو وحسن الرأى !

وكان سعد مازال جريحاً فى خيمة امرأة تعمل بالطب ، وتحتسب بنفسها على خدمة الجرحى من المسلمين ..

وذهب بعض الأوس إلى خيمتها وحملوا سعد بن معاذ على دابة وأقبلوا به إلى حيث كان المسلمون يحاصرون بنى قريظة .. وقالوا له فى الطريق :

ـ أحسن فى مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم .

فأجاب :

— قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم !

إن سعدا ليذكر الآن أنه ما من يهودى خرج من هذه المدينة إلا كان حرباً على من فيها ! . تجمعوا كلهم فى واحة خيبر وانضموا إلى يهود آخرين هناك ومضوا يؤلبون القبائل ضد محمد والمسلمين ! . ماذا صنع بهم محمد ليلقى منهم كل هذا ... لقد أحسن إليهم دائماً وتزوج منهم ، وحض أصحابه على أن يعاملوهم بالحسنى .

ولكنهم بدلا من أن يعرفوا له هذه اليد مضوا يكيدون له فى مدينته ويسخرون به ويخربون اقتصاديات دولته الجديدة ، ويدمرون نفسيات الناس ، ويبثون الفتنة بين صحابه ويتهمونه فى عرضه .

كم من مرة شهروا السلاح ضده .. وعفا عنهم ، وترك الذين حملوا السلاح ضده يخرجون آمنين ..

وخرج بنو قينقاع من قبل ثم بنو النضير ..فماذا كانت النتيجة ! ؟ .
حشدوا آلاف المقاتلين ورموا بهم المدينة ليستأصلوا محمداً وصحبه !
الغدر دائماً ! !

ألم يكن من الممكن أن ينتصر الأحزاب فيقتحموا المدينة على من فيها ويقتلوا آلاف الرجال والنساء والأطفال ! ؟ .

إن مثلهم كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ولقد طالما عاهدوا المسلمين ولكنهم كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون .. سماعون للكذب أكالون للسحت ..

ولكم حاولوا أن يشعلوا نار الحرب .. وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً ، والله لايحب المفسدين .. هكذا تلا عليكم محمد ياسعد

وهذا السهم الذى تعانى منه الآن ياسعد أما هو من غرس هؤلاء اليهود من بنى قريظة ؟ ؟ .

لوأنهم أخرجوا كما أخرج غيرهم ، فسيؤلبون القبائل من جديد .. ومن يدرى ماذا يحدث بعد .. ربما عادت الأحزاب تدك المدينة على من فيها وتستولى على كل المتاع والنساء والأطفال وتسحق قلعة الإسلام

ولم يكد سعد بن معاذ يبلغ مكان محمد وسط عسكره حتى قام محمد يستقبله ويأمر الناس أن يقوموا لاستقباله .

وعرض عليه محمد أن يحكم فى أمر بنى قريظة .. فقال سعد وهو يقلب عينيه فى كل الوجوه من حوله :

— عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ماحكمت ..

فقالوا . « نعم »

وأخذ نفس الموثق على محمد نفسه فقال له « نعم »

فقال سعد .

— فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء ..

واقتحم المسلمون الحصن ، فغنموا مافيه من أنواع السلاح الحديثة . وغنموا الخيل والأموال جميعا .. كميات ضخمة من السلاح

والخيل والكنوز .. وغنموا الدور أيضاً ، ثم قتلوا الرجال واقتسموا النساء والصغار ..

ووقع فى نصيب محمد من نساء بنى قريظة فتاة اسمها ريحانة ، فعرض عليها أن تكون له زوجاً لا جارية على أن تسلم ولكنها رفضت الإسلام وقالت له :

ــ بل تتركنى فى ملكك فهو أخف علىّ وعليك .

على أنها لم تلبث أن أسلمت فعاملها كما يعامل زوجاته ..

وقتل جميع رجال بنى قريظة ومن دخل معهم حصونهم ليدبروا المعركة ضد محمد ، وكان من بينهم حيي بن أخطب زعيم بنى النضير ! .

ولم يكد محمد يفرغ من أمر بنى قريظة حتى عاد إلى المدينة يسوس الحياة فيها ، وقد ثبتت هيبته فى الجزيرة العربية كلها ..

وخشيت قريش أن يرد محمد على عدوانها فيقطع الطريق على تجارتها إلى الشام ..

وبدأت تفكر فى الصلح معه ، أى صلح يضمن سلامة القوافل وطريق التجارة ؟ .. فهذا هو المهم الآن ! .

وخشيت بعض القبائل ــ أن ينزل بها محمد ما أنزله ببنى قريظة ، فبدأت تفكر فى أسلوب جديد للتفاهم ..

أما اليهود فى الجزيرة ، فقد أقاموا المأتم على ما وقع لبنى قريظة .. وبدأوا كلهم يتوافدون إلى خيبر ليفكروا فى طريقة رهيبة للانتقام . .

أما محمد فقد قال للمجاهدين معه : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم ..

وبعد أيام قليلة تلا عليهم وهم خاشعون : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أويتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما . ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديراً . »

ستة أعوام بأسرها ، لم ير خلالها أرض الوطن .

لم يتصل بينه وبين مواطنيه فى مكة شىء غير الكيد والحرب ..

وأحيانا كان يقبل من مكة رجل أو امرأة يحكى للذين هاجروا عما صنع الزمن بمعاهد الصبا ، ومرآتع الشباب .. كيف المدينة البيضاء بعدنا يارجل ؟ .. كيف خلفت وراءك الديار ياامرأة ؟ ! .. الصفا ؟ ! .. الكعبة ؟ .. المراعى البعيدة المترامية وراء الجبال ! ؟ كل شىء هناك يشوقنا حتى الرمضاء ..

ومهما تقدم الحياة فى المدينه للمهاجرين فما زال فى الأعماق من كل قلب شوق إلى مكة ، وانهم ليفتحون البلاد ويخوضون المكاره ، وينتصرون ، ويزحفون براياتهم المظفرة من مكان إلى مكان وينعمون بالحقول الخضراء حول المدينة .. ومن وراء الأفق تلوح لعيونهم دائما : مكة : مدينتهم العزيزة الكبيرة البيضاء المضيئة ! .

متى يأذن الزمن فيعودوا إلى ديارهم ، هؤلاء الغرباء المشتاقون ؟ !

وهاهو ذا جيل آخر من الأبناء والأحفاد ينطق أول الكلمات ، ويروح ويجىء ويملأ عالمهم بالضجيج الحلو والزحام ، ولكن هذا الجيل

كله لم ير أرض الوطن .. وإنه ليعرف اسم مكة فيما تعلم من اسماء .. ولكنه لا يعرف ما مكة بعد ! !

ونظر محمد إلى حفيديه الحسن والحسين ، وهما يلعبان أمامه .. الحسين يختبىء فى حجره والحسن يطارده فيمتطى ظهر الجد .. والجد يتأملهما ضاحكا مشفقا .. هذان الغريبان الصغيران .. ولدا ونقلا أول الخطوات بعيدا عن أرض الوطن ! !

وتأتى أمهما فاطمة فتنهرهما ولكنه يشير أن تتركهما ، ويأتى أبوهما على فيزعجه أن يعلو أحد ولديه كتف محمد مثله الأعلى ، ولكن محمدا يطلب من على ألا يزعج الطفلين .

حسبهما أنهما يعيشان فى الغربة ؟ .

وسألت فاطمة أباها لماذا هومهموم ؟ .. لقد انتصرعلى الأحزاب ، وظفر ببنى قريظة ، وماعرفت العرب نصرا مثل هذا من قبل .. ؟ اتراه الآن يذكر أمها الراحلة خديجة أعز زوجاته عليه !

وتلمح فى عينيه دموعا لاتنسكب فتنسحب وتشير إلى زوجها أن ينسحب . ويتركان طفليهما ، فما مثل الأطفال من يستطيع أن يفرج عن القلب الكبير إذا فاض منه الحزن .

وتسمع فاطمة من الخارج طفليهما يتجادلان .. وتنطلق ضحكة الجد ، وهو يعلم الطفلين ويحسم ما اختلفا عليه ..

ويخرج محمد إلى ابنته فاطمة وزوجها على .. فيسألهما ان كانا لم تهج لهما الذكرى فى هذه الأيام ، فنحن فى ذى القعدة .. وقد بدأ موسم الحج ! !

وتنطلق الزفرات من أعماق فاطمة ويشرق وجه على بشعاع غريب.

أجل ياابن العم ! وهناك يتدفق الناس ارسالا إلى البيت العتيق الذى حرسه جدنا عبد المطلب ذات يوم ، وما زال عمنا العباس يقوم على سقايته ! !

وهناك حول الكعبة التى شهدت كبرياءك وقلة حيلتك وروعة مقاومتك وازراء السادة عليك ، وإيمان المستضعفين بك .. هناك مازال السادة يجلسون ومازالت الصفقات تعقد .. وعلى الرغم من كل التضحيات، فما زالت الأوثان تنتصب شامخة !

هناك فى مدينتنا العزيزة البيضاء يلتقى الآن رجال ونساء من كل مكان يبحثون عن الحقيقة ، وينشدون منافع لهم .

الأشعار الجديدة تذاع الآن فى الأسواق ؛ والمبشرون يلقون بمواعظهم ؛ والقبائل تعقد المحالفات ، ولكننا نحن هنا ؛ نحن أصحاب هذا البيت وسدنته ، نحن هنا لا نستطيع أن نطوف بالبيت كما يطوف كل الناس ! ! :

ولكن محمدا كان قد قرر أن يطوف بالبيت من عامه هذا ..

كان قد قرر أن يدخل مكة فى موسم الحج بالمسلمين كغيرهم من الحجاج ..

وخرج إلى المهاجرين يستشيرهم .

أخيرا .. فهاهم أولاء يعودون إلى مكة .. ليروها مرة فى العمر بعد كل هذا الغياب المعذب ..

لكم اضطرمت صدورهم بأحلام العودة إلى أرض الوطن ، لطالما كتم الواحد منهم حلمه العزيز ، ومشى يصنع الحياة الجديدة فى أرض الهجرة والحنين يهزُّ منه القلب .. ولكنه يتجنب الذكريات لكيلا يؤلم أخاه المهاجر ! .

وأذن محمد فى الناس أنه خارج بهم إلى الحج حيث يلتقى العرب حول الكعبة فى سلام .. وطالبهم أن يرعوا حرمات الحج وان يتهيأوا له ، لأنهم يدخلون مكة حجاجا ورعين لا غزاة فاتحين ! .

واجتمع إليه من أراد الحج حتى بلغوا الفا وأربعمائة ساقوا أمامهم سبعين من الذبائح السمان لينحروها أمام الكعبة ويطعموا الجائعين والمحتاجين لحوم هذه الأضاحى ..

ودخلوا جميعا فى الإحرام ، فنبذوا من نفوسهم كل رغبة فى المتاع والزينة وتهيأ والحالة النسك التى يقتضيها الحج : لبسوا أرديتهم بلا خياطة ، وامتنعوا عن النساء ، والعطور والطيب وأرسلوا الشعور والأظافر.

اندفعوا إلى مكة .. فى هذه الحالة المتقشفة ، بلا سلاح ، ليطوفوا بالبيت العتيق ، وليقوموا بشعائر الحج لأول مرة منذ هاجروا إلى المدينة..

وعلمت قريش أن محمدا والفاً وأربعمائة من المسلمين خرجوا يريدون مكة ! .

ها هو ذا بعد أن ارتدت قريش والأحزاب منهزمين عن مدينته ، وبعد أن حطم بنى قريظة الأشداء فى حصونهم ، يقبل إلى موسم الحج بالمسلمين من المهاجرين والأنصار ، لِيَلْقَى الناس من قريش ومن القبائل

العربية الأخرى ، ويدعوهم إلى دينه الجديد مستندا إلى انتصاراته المدوية المذهلة ، هو الذى خرج من مكة ضعيفا وحيدا مطاردا ؟.

أيريد أن يُجَرِّع قريشا مرارة الهزيمة حتى آخر قطرة ! .

وجمع أبو سفيان رجال الحكومة فى قريش ، فقرروا بالإجماع أن يمنعوا محمدا ومن معه وأن يردوهم إلى المدينة ..

لن يدخلوا مكة عليهم عنوة ! .

وجمعوا فرسانهم وجعلوا عليهم خالد بن الوليد .

ان خالد بن الوليد من بين قواد قريش ، لهوَ الوحيد الذى هزم المسلمين !

لن ينسى المسلمون ماصنعه بهم فى أحد ! .

واندفع خالد بن الوليد على رأس فرسانه ليحارب محمدا ومن معه.. وعلم محمد بما كان ، فأشار على من معه أن يتجنبوا القتال ، فما أقبلوا للحرب وليس معهم سلاح يحاربون به ان فرض عليهم القتال فى سعيهم الورع إلى البيت الحرام .

واختار أن يسير من طريق آخر غير الطريق المألوف لكيلا يلقوا فرسان قريش ..

فقاد الركب بين الشعاب المهجورة تحت وطأة حر لافح ، بين صخور لازرع فيها ولاماء ..

وعانى الناس من العطش وهو يطوف بهم يدعوهم إلى الصبر ويذكرهم بالنعيم الذى ينتظرهم ، وبكل الطيبات التى أعدت للصابرين .

حتى إذا بلغوا سهلا به آبار مهجورة على مقربة من مكة أذن بالناس أن ينزلوا فليشربوا وأقاموا فى هذا السهل عند الحديبية .

وأرسل إلى قريش من يؤكد لحكومتها أن المسلمين إنما جاءوا للحج لا للقتال ! ..

ولكن رسوله رجع يقول له : إن قريشا لبست جلود النمور وأنها تهيأ للحرب ..

ثم أرسلت إليه قريش لتنصحه أن يعود ..

وأخبر رسل قريش أنه إنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته وأنه لا يريد حربا ..

وسكتت رسل قريش فاستطرد محمد قائلا :

— ياويح قريش .. لقد أكلتهم الحرب .. ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام صاغرين وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! فما تظن قريش ؟ . فوالله لا ازال أجاهد على الذى يعثنى الله به حتى يظهره الله أو أموت دونه ! .

وعادت الرسل من عنده فقالوا لقومه « يامعشر قريش إنكم تعجلون على محمد ، إن محمدا لم يأت للقتال وإنما جاء زائرا هذا البيت » ..

ولكن سادة قريش أغلظوا لهؤلاء الرسل وقالوا : « والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا » .

ورأت قريش أن ترسل إلى محمد رسولا يهددة .. فأرسلت إليه قائد الأحابيش .. ؟! لا ينسى المسلمون ماذاقوه منهم فى أحد !! .

وإذ قدم قائد الأحابيش على المسلمين ، أمر محمد أن يعرضوا عليه الذبائح التى يسوقونها إلى الكعبة ..

ورأى الرجل هذا كله ، ورأى المسلمين جميعا فى ثياب الإحرام بلاسلاح . فعدل عن رسالة التهديد التى يحملها ، ولم يجد فى نفسه مايدفعه إلى أن يقابل محمدا ..

رجع من فوره إلى مكة فروى لحكامها مارآه .. فقالوا له ساخرين : « أنت لاعلم لك بشىء » ! .

فأجابهم مغضبا : والله ما على هذا حالفناكم ! أيصد عن بيت الله من جاء معظما له . والذى نفسى بيده لتخلن بين محمد وبين ماجاء له أو لأنفرُنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد » .

وإذ وجدوا قائد جيشهم الرسمى يهددهم بثورة الجيش إن حاربوا محمدا قرروا أن يصطنعوا سياسة أخرى غير منع محمد بالقوة ! ..

وذهبوا إلى قائد الأحابيش يرجونه أن يكف عنهم حتى يأخذوا لأنفسهم من محمد مايرضون به ..

ولكن قائد الأحابيش كان قد امتلأ بروعة ما رآه بالحديبية : عديد من رجال ونساء فى ثياب بيض .. جاءوا مسالمين بكل الشوق إلى أرض الوطن ، وبكل الرغبة الصادقة فى الحج ! .

وتمسك قائد الأحابيش بتهديده .. إن ينفر بالأحابيش ضد قريش إن هى حاولت العدوان على هؤلاء الحجاج القادمين من المدينة — بلا سلاح — فى الأردية البيض ! .

وأرسلت قريش رجلا آخر من دهاة سفرائها لعله يستطيع أن يقنع محمدا بالعودة ..

فقال محمد : « إنا لم نأت لقتال أحد وكلنا جئنا معتمرين وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأحزت بهم فآن شاءوا ماددناهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمري » .

فرد سفير قريش : « أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ، وان تكن الأخرى فإني أرى حولك وجوها ولأثوابا من الناس خلقا أن يفروا ويدعوك » .

ولم يجبه محمد ولكن أبا بكر شتم سفير قريش وسأله مستنكرا أنحن نفر وندعه ..

وحاول الرجل أن يتحدث إلى محمد كما تعود أن يتحدث إلى غيره من الرجال فامسك بلحيته متوددا ، ولكن بعض صحاب محمد قالوا له : « أكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا تصل إليك » .

وعاد الرجل إلى قريش يقول : « يامعشر قريش إنى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشي فى ملكه وانى والله ما رأيت ماكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ولقد رأيت قومه لا يسلمونه لشيء أبدا ، فروا رأيكم » .

ولم تقرر قريش شيئا ..

ورأى محمد أن يرسل إلى قريش رجلا له حسابه .. فاختار عمر بن الخطاب ، وكان هو فى الأيام الماضية من يتحدث بلسان قريش ويقوم بالسفارة عنها ..

ولكن عمر بن الخطاب اعتذر قائلا : « يارسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من عشيرتى أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عدوانى اياها وغلظتى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان » .

وأرسل عثمان بن عفان إلى أبي سفيان وحكومة قريش ينبئهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء حاجا .

ولعثمان صداقات وقرابة بسادة مكة . . وبصفة خاصة بأبى سفيان رئيس الحكومة..

ولكن أخبار عثمان انقطعت وأذيع بين الناس أنه اغتيل فى مكة ..

ليت المسلمين جاءوا بأسلحتهم ، ما دامت قريش تضمر غدرا .. !

وأرسل محمد إلى المدينة من يستنفر أهلها والحلفاء ويعود إليه بالسلاح وعدة الحرب والرجال والخيل ..

ووقف تحت ظلال شجرة يطلب البيعة ممن معه . . فبايعه الجميع تحت الشجرة ، على القتال حتى الموت .

ولكن عثمان مالبث أن عاد حيا فاستقبله محمد مستبشرا وشاعت الفرحة بين المسلمين جميعا .

كان عثمان قد أقنع قريبه أبا سفيان وبعض صحابه القدامى من كبار تجار قريش أن الصلح خير .. فليس من حق قريش أن تمنع المهاجرين من

أهل مكة أن يعودوا إليها ، ليس من حقها أن تحرم أحدا من الأرض التى رعته والتى تستلقى تحتها عظام آبائه .. أو أن تصد المسلمين عن الحج إلى البيت العتيق دون سائر العرب ؟

ولم يكد عثمان يفرغ من رواية مادار بينه وبين حكام قريش ، حتى أقبل مندوب من قريش ، عرف عنه حب السلام .

فلما ظهر قال محمد: « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»

وتفاوض الرجل طويلا للصلح .. واتفق آخر الأمر مع محمد على كل شروط الصلح ولم يبق إلا أن تكتب الشروط فى صحيفة ..

ودعا محمد إليه بعلى بن أبى طالب ليمليه صيغة الصلح .. قال له : « أكتب بسم الله الرحمن الرحيم » .. فقال مندوب قريش : «لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم ». فوافق محمد وأمر عليا أن يكتب « باسمك اللهم » .

ثم أملى محمد : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .....

فاعترض مندوب قريش : « لو شهدنا أنك رسول الله لم نقاتلك ، اكتب اسمك واسم أبيك » ..

فقال محمد : « امح رسول الله واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » .

وهنا توقفت يد على ، وانتفض مغضبا وهو يقول لمحمد : «لا والله لا أمحوك أبداً » .

كانت غضبة على هى الصيحة التى انفجرت وراءها من صدور المسلمين كل صرخات الاحتجاج ..

ما بال محمد يسلم لمندوب قريش ! ما باله يتنازل عن الديباجة التي ألفها المسلمون ؟! .

ولم يجد واحدا من صحابه يمحو « من محمد رسول الله » فتناول محمد الصحيفة من علي ومحا ما كتبه علي ، وكتب هو ديباجتها كما أراد مندوب قريش ..

كانت هذه هي أول مرة يكتب فيها ، بعد أن تعود ملاحظة الحروف من طول ما أملى كتبة القرآن ..

وانفجر عمر غير بعيد يقول لأبي بكر : « يا أبا بكر أليس هو برسول الله ؟ .. »

ورد أبو بكر . « بلى » . فقال عمر : « أولسنا بالمسلمين » وأجاب أبو بكر « بلى » وقال عمر : « أو ليسوا بالمشركين ؟ » فأجابه « بلى » فصاح عمر : « فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟. »

ونصحه أبو بكر أن يلزم حده ، ولكن عمر اندفع يعيد على محمد نفس الأسئلة ، فأجابه محمد في غضب : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني » .

وانصرف عمر مغضباً لا يكلم أحدا ، وهو يخوض في صفوف رجال غاضبين ! ..

وعاد محمد يكمل إملاء شروط الصلح مع قريش : أن يضعوا الحرب عن الناس سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل

فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن تطوى الصدور على ما فيها ، ولا خيانة ولا غدر ..

وحين أعلن محمد هذه الشروط ، تواثبت خزاعة فأعلنوا انضمامهم إلى محمد ، وتواثب بنو بكر معلنين الانضمام إلى قريش ..

واشترط مندوب قريش أن يرجع محمد وصحابه عامهم هذا فلا يدخلون مكة على أهلها وأنه إذا كان العام القادم دخلها محمد بأصحابه فأقام بها ثلاثة أيام معهم سلاح الراكب : السيوف فى قرابها لا يدخلونها بغيرها ..

ووافق محمد ووقع عقد الصلح. وسط همهمة ضيق من كل أصحابه.

ولهو يوقع الصلح ، إذ برجل مصفد يرسف فى الحديد ، إنه ابن مندوب قريش كان يريد الهرب إلى محمد فأدركه رجال من قريش وصفدوه فى الأغلال .. فقام مندوب قريش يلطم ابنه على وجهه .

وطالب محمدا أن يعيد إليه ابنه بمقتضى الصلح الذى لم يجف مداده بعد ! .

والابن يصرخ : « يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ . ولكن محمدا كان قد وقع الصلح وانتهى الأمر .. وأمر بأن يرد الرجل إلى قريش كما تقضى شروط الصلح . وأعيد الرجل ..

وصيحات الاحتجاج ترتفع .

كان المسلمون فى الحق قد ضاقوا بمفاوضات الصلح وبكتابة الديباجة التى طلبها مندوب قريش ، وبرد من يلجأ إليهم من قريش مسلما .

وكان الناس قد ضاقوا بصفة خاصة بنزول محمد على حكم قريش أن يعودوا أدراجهم .. وهم على أبواب مكة .

لقد حلموا طويلا فى الليالى الحالكة الماضية أن يأتى يوم يزورون فيه وطنهم ويطوفون بالبيت كما يفعل كل الناس .. حتى إذا جاء هذا اليوم المرتقب ، ولاحت لهم مكة ، صدتهم قريش .. وبدلا من أن يثبتوا ويحاربوا من أجل حقهم فى زيارة مكة إذا بهم يذعنون ، ويستسلمون لقريش .

ولماذا يصنع بهم محمد مثل هذا ؟.

وقال أحدهم لمحمد فى غضب « أما وعدتنا أن نزور مكة » ؟ ..

فأجابه فى حلم : « نزورها فى العام القادم » .

وأخذ يقنعهم بمزايا الصلح ، وهو يعانى فى أعماقه مما حرج صحابه .

من الحق أن قريشا ستفيد منهم .. ستطمئن على تجارتها التى تهددها الحرب ولكنهم هم أيضاً الكاسبون ..

لن تهددهم قريش بعد ، ولن تتردد القبائل فى الانضمام إليهم خشية قريش ..

من واجبهم الآن أن يوجهوا كل نشاطهم للدعوة إلى الدين الجديد وهم آمنون . من كيد قريش ..

فليتأملوا الموقف ليعرفوا كيف يواجهون المستقبل وليرتفعوا فوق انفعالات اللحظة العابرة ، وليتقبلوا الصلح بفهم للضرورة وبتقدير للأحداث جميعا .

سيكسبون من الصلح أضعاف ما كسبوا بحد السيف ..

إن هذا الصلح الجديد لا يحمل تنازلا عن شيء .. فالذين يريدون أن ينضموا إليه من قريش يستطيعون أن يصبروا فى مكانهم وأن يحملوا العقيدة لآخرين . آمنين بعد من ذلك الأذى الذى تعرض له المسلمون الأوائل ..

أما الذين يريدون أن ينضموا إلى قريش من المسلمين ، فلا خير فيهم أبدا ولا فى إسلامهم ، فليعلنوا الردة منذ اليوم .

أما الشكليات التى رفضتها قريش ، فهى لن تغير من الحقيقة شيئا .

فليفرح المسلمون بهذا الصلح بدلا من هذا الخلاف وليعلموا أن مزايا هذا الصلح أنه حرم أعداءهم الآخرين من تأييد قريش وأنه عزل قريشا عن اليهود .

فليذكروا أن يهود المدينة المطرودين يتجمعون الآن فى وادى خيبر ليزحفوا على المدينة فى يوم قريب مستعلين بانضمامهم إلى يهود خيبر .

فلو أنه لم يعزل عنهم تأييد قريش لشكلوا خطرا جديا على المدينة وسكانها وعلى العقيدة نفسها ..

فليستعدوا هم الآن ليواجهوا حرب اليهود ، وليواجهوا من يمكر فى ضربهم من قبائل العرب الأخرى ، واثقين من النصر بعد أن حرم معسكر الأعداء من قوات مكة ..

واقتنع المسلمون ..

كل هذا صحيح .. ولكن لماذا يعودون بلا حج ؟.

لماذا لا يدخلون مكة فى عامهم هذا وهم على أبوابها ؟ .

أينتظرون عاما آخر ؟ ..

وناداهم أن يخلعوا ملابس الإحرام .. وأن يعودوا إلى حياتهم العادية وأن يتهيأوا للرجوع إلى المدينة ..

ولكنهم تلكأوا جميعا ..

مازال فى الأعماق من كل نفس ، أمل أخير أن يقتنع هو بالسير إلى مكة على الفور ، على الرغم من كل شىء !! .

وناداهم أن يتحللوا من مناسك الحج ، ولكنه لم يلق استجابة من أحد ؟ !

لماذا يحدث هذا ! ؟ .

إنهم خالفوه فى أحد ، فانهزم المسلمون وأوشك هو نفسه أن يقتل.

لماذا يواجهونه بهذا التمرد مجتمعين ؟!

لقد خالفه على .. حتى على ! ! ورفض أن يكتب ماأملاه ! .

وخالفه عمر .. حتى عمر .. وأغلظ له ..

وانطلقت همهمة السخط من الجميع لبعض الوقت ، ولكنه كان قد شرح لهم ما فى هذا الصلح من مزايا ، وطالبهم أن يتهيأوا للعودة ولقتال يهود خيبر الذين يحتشدون للزحف على المدينة ، ولقد خيل إليه منذ لحظات أنهم اقتنعوا بما صنع وبما قال .. ولكنهم جميعا يرفضون الآن!.

ودخل إلى خيمته مهموما معذب القلب .. فى عينيه دموع ..

واستقبلته زوجته الحكيمة الحسناء أم سلمة ..

ان لها لنفس الابتسامة الحانية التى شجعته بها خديجة فى الأيام السود الماضية ، ولها نفس النبرة المطمئنة ! .

وأفضى إليها بيأسه وهو يهمهم : « هلك الناس ! » .
وسألته أم سلمة ألا يهن ولا يحزن فكم احتمل قبلها من صدمات ! .
فليخرج الآن إلى الناس ، وليتحلل أمامهم من الإحرام .. لأن تأثير العمل أقوى من أثر الكلام ، ولن يناقشه أحد بعد أن رأوه ينفذ بنفسه ما طالبهم به .

وخرج محمد إلى الناس فنحر هديه ثم جلس فحلق رأسه ..
فلما رأى الناس أنه قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون .. ويعتذرون عما كان .. !

وعاد معهم إلى المدينة .. ولكنه لم يكد يمضى فى المدينة أياما حتى جاءه رسول من حكومة قريش يستحلفه أن يقبل فى مدينته من يسلم من أهل مكة لأنهم يثيرون المتاعب ويحرضون الآخرين ويعتصمون خارج مكة يهددون طريق التجارة .

واستقبل محمد نحو سبعين مهاجرا جديدا من قريش دخلوا كلهم فى الإسلام يوم أعلن الصلح !!

وتصايح المسلمون فى طرب : إنه لنصر على قريش لم نكسبه فى كل معاركنا من قبل .. ما كان أحكمه حين عقد هذا الصلح ! .

هذا حق .. فاسمعوا إذن لما يتلوه عليكم : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما ، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم » ..

إنه ليقبل الآن على أيام حاسمة يتقرر فيها مصير كل شيء ..

ولكنه متعب القلب من كل شيء ..

لم يكد صلح الحديبية يؤتى ثمراته ، لينعم هو والمسلمون بفترة من الأمن ، ولم يكد المسلمون يقتنعون بما فى هذا الصلح من مزايا ، حتى وضعته الحوادث فى امتحان عسير . فقد هاجرت امرأة من قريش فخرج أخواها حتى قدما عليه يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذى بينه وبين قريش فى الحديبية .

ونساء أخريات هاجرن من مكة .. وخرج وراءهن الأزواج يطالبونه أن يرد عليهم نساءهم تنفيذا لشروط صلح الحديبية .

بم تستفيد قريش من هذا الصلح إذن إن كان سيسمح للمدينة أن تفتح ذراعيها للنساء القرشيات المهاجرات .. ؟

ولكن أيتخلى المسلمون عمن يفزع إليهم من النساء .. ؟

واضطربت قلوب المسلمين . أيقهرون امرأة منهم على أن تعاشر رجلا من عدوهم لا ترضاه .. ؟

وارتفعت على نبضات القلوب المغضبة صيحات العار ، ولكنهم إن

نقضوا الصلح مع قريش ، أعلنتهم بالحرب متعاونة مع يهود خيبر ..

وشعر هو بحرج عظيم ..

من الحق أنه عاهد قريشا أن يرد من يخرج عليها مهاجراً إليه .. ولكنهم حينما اتفقوا على هذه الشروط لم يفكروا فى النساء ..

وعاد أصحابه يتساءلون .. ماذا يصنعون بالنساء المهاجرات ؟

ولكن النساء شىء آخر .. هذا حق

أى هوان يفرض على الناس باسم هذا الصلح ..؟ ألكى تقول العرب إن محمدا وأصحابه عجزوا عن حماية أعراض نساء للذن بهم ، فسلموهن إلى العدو ، يغتصبونهن عنوة ؟ ..

وخرج محمد إلى الناس يتلو عليهم « ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن .. »

قضى الأمر إذن ..

وعاد رجال قريش إلى مكة ، يضيقون على النساء حتى لا يهاجرن..

ولم يجدوا فى امتناع محمد عن رد النساء ما يخالف شروط صلح الحديبية لأن الصلح لم يتعرض لهجرة النساء .

فليستمر احترامهم للصلح ، فهذا أجدى على تجارتها ، ولينعموا هم أيضاً بفترة من الأمن تزدهر فيها الثروات ..

واستراح قلب محمد بعد أن خرج صلح الحديبية سليماً من التجربة وخرج المسلمون مرفوعى الجبين من المحنة ..

ولكنه كان يفكر فى خيبر ..

فهناك فى هذا الوادى الظليل تعيش أسطورة غريبة .. إن بنى إسرائيل حين أخرجوا من مصر وعبر بهم موسى البحر ، وضاعوا فى التيه أياماً طوالا ، لم يجتمع لهم شمل إلا فى خيبر .. فلتكن خيبر بحقولها الخصبة إذن قاعدة لليهود إلى آخر الزمان ..

وتحت تأثير هذه الأسطورة عاش فى خيبر يهود استقروا جيلا بعد جيل .

وأصبحت خيبر ملاذاً لكل يهودى لا يطمئن به مكانه .. وهكذا لجأ إليها فلول يهود بنى قينقاع وبنى النضير وانضموا إلى سكانها الأصليين وأخذوا يعملون على تكوين دولة ضخمة تبسط نفوذها على الجزيرة العربية كلها ..

كانت أحلام السيطرة هى التى تحركهم ، ثم الرغبة التى لا تهدأ فى أن ينتقموا من محمد ..

وإنهم الآن ليستعدون لقطع الطريق على تجارة المدينة التى بدأت تزدهر ، وإنهم ليحشدون قواهم — بكل ما يملكون من رغبة فى الانتقام — ليزحفوا فى يوم قريب على المدينة نفسها .. فلئن كانت قريش قد صالحت محمداً ، فليبحثوا لهم فى طول الجزيرة وعرضها عن حلفاء آخرين ..

إنه لخطر رهيب جديد يهدد المسلمين ويعذب قلب محمد .. أينتظر حتى يحركوا حشودهم وحشود حلفائهم أم يبادرهم بالحرب ؟

ولكن كيف يفضى إليهم وهم فى خيبر خلف المعاقل والمرتفعات والقلاع ؟

لكم هو ير أمر هؤلاء اليهود فى خيبر .

كل هذا .. والزوجات أيضاً .. عائشة تضيق بجويرية ، وزينب تكيد لعائشة ، وحفصة تحرض عليه الأخريات وتتهمه بأنه يفضل عليهن زينب بنت جحش .. وإنه ليحرم على نفسه طعاماً كانت تتفنن زينب فى صنعه إرضاء لبقية الزوجات ، ولكنهن لا يرضين .. فعائشة تغار من حفصة .. وحفصة تغاضبه لأنه يفضل عائشة ..

دوامة من الصراع المنزلى فى ظروف ليست صالحة للغيرة بعد . : وكلهن يشكون شظف العيش ، ويبكين لأنه لا يمنحهن خز الشام ولا كتان مصر ولا حلل اليمن .. وعيناه هو على اليهود الذين يتهيأون فى خيبر لتهديد مدينته ..

... ويسأل زوجاته أن يتصافين فيما بينهن وأن يزهدن فى الزينة .. ويستنجد بأم سلمة ، فتتهمه الأخريات أنه يؤثر عليهن أم سلمة لأنه يحس فيها ريح زوجته الراحلة خديجة .. وتنفجر الغيرة حتى من ذكرى خديجة !

وتواجهه عائشة أنها أفضل من خديجة وأكثر جمالا وصبا من تلك العجوز التى لا يكف عن ذكرها ! .

ويغضب هو لذكرى زوجته الراحلة التى ساندته فى اللحظات الحالكة من كفاحه ..

وتغضب ابنته فاطمة لذكرى أمها .. ويزجر عائشة وينهى زوجاته عن التعرض لذكرى خديجة .. وتعود عائشة فتقارن بين النعيم الذى عرفته خديجة وبين ما تعيش هى فيه من شظف .. وإنها لجميلة وصغيرة لا نظير لها فى قصور الملوك ! .

وتضيق حفصة هى الأخرى بحياتها الخشنة لقد نشأت فى بيت أبيها عمر بن الخطاب بين الحرير !

أيام أن كان عمر فى مكة سيداً غنياً !

نساؤه جميعا يعلن فى وجهه الاحتجاج لأنهن — وهن صغيرات جميلات — لا يعشن بعد كما يجب أن يعيش نساء رجل مثله يحكم الآن دولة كبيرة ! ..

ويصارحهن (إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ..)

ولكن .. حتى هذا التهديد بالطلاق لا ينفع ..

ويحاول أن يعلمهن أنهن لسن كأحد من النساء .. فليكن صابرات قانتات ، وليكن فيهن أسوة حسنة لنساء صحابه المجاهدين .. ويتلطف بهن ثم يجرب الشدة ولكنهن لا ينتهين أبداً ..

ويطلق حفصة ، ويهجر عائشة وزينب ويهددهما بالطلاق .. ثم يعتزلهن جميعا وعيناه على ما يحدث فى خيبر !!

ويشكو إلى أبى بكر وعمر أن زوجاته يفسدن عليه الحياة ، حتى فى اللحظات التى يهدد فيها الخطر مصيره ومصير رسالته . ويطالبه عمر بالقسوة عليهن فالنساء جميعاً ناقصات عقل ودين حتى أمهات المسلمين ، ثم يندفع عمر إلى ابنته حفصة فيؤنبها ويضربها .. ويكبر على أبى بكر أن تغضب ابنته عائشة قائده وصديقه محمد فينهرها ويهددها .

وتتوالى صيحات الاستنكار من آباء الزوجات وأقاربهن .. أن يرتفعن إلى مسئولياتهن فهن شريكات محمد وأمهات المؤمنين .

وتعيش الزوجات فى القطيعة أيضاً يحاصرهن اللوم ويشعرن بما ارتكبن من خطأ حين سمحن للغيرة أن تسيطر عليهن .

ويعرفن أنهن لا يسلكن كأمهات للمسلمين ولا كشريكات لمحمد حين يطالبنه أن يمتعهن بالحرير والذهب .

ويعتذرن إليه .. ويعاهدنه أن يعشن معه على مايهوى وأن يكن جديرات بشرف المسئولية وبشرف مشاركته الحياة .

ويعفو عنهن ويرد حفصة .. ولكنه يستمر على هجرهن تأديباً لهن إلا أم سلمة .. وعيناه على يهود خيبر .

***

وفى المدينة ، غير بعيد من بيوته ، مازال رجال يستلقون فى المسجد بلا عمل .. استراحوا بعد الصلح ، واطمأنوا إلى الحياة واكتفوا بما يمنحون من أموال الصدقات .

ويشيع فى الناس احترام جديد لهؤلاء المتعبدين الذين ينقطعون للعبادة فى المسجد ، ويرى هو أحدهم قتيلا هزيلا لطول مايقوم الليل ويصوم النهار ويرى إعجاب الناس به فيسأل : « ومن يطعمه ؟ » فيقول قائل « أخوه »

فيقول لهم : « أخوه أعبد منه » ..

ومضى يطالب الناس بأن يعملوا . فما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، إن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده .

ويعمل الناس ، ففى المدينه عمل لكل رجل ولكن الأغنياء يطمعون فى الفقراء ويستولون على المراعى والآبار التى تركها اليهود ويردون

من لا يملكون فيقول : «الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والملح» .

* * *

ويهود خيبر يستعدون للانقضاض ويؤلبون القبائل المجاورة .. إلى غزوة أحزاب جديدة .. لقد نجحوا بالفعل فى اجتذاب بعض غطفان التى لم تنس بعد انهزامها أمام المدينة فى غزوة الأحزاب .

ويقرر محمد أن يبادر بالعمل الحاسم قبل أن يفلح يهود خيبر فى تحزيب الأحزاب عليه .. فليهاجم يهود خيبر فى خيبر مهما يكن الثمن .. فهذا خير من الانتظار ! ..

كان يعلم أن اليهود قد أقاموا مدينتهم خلف سلسلة من القلاع الحصينة ولكنه رسم خطة لمهاجمة الحصون اليهودية السبعة ..

وحشد من الفرسان أكبر عدد استطاع أن يحشده .. وإنهم اليوم مائتان !

وجمع نحو ألفين من المقاتلين .. وقادهم جميعاً إلى خيبر .

وأصبح الفلاحون اليهود فى خيبر ذات يوم فرأوا محمدا يتقدم إلى حقولهم .

وعادوا إلى خيبر مذعورين وهم يتصايحون : محمد والخميس .

وقسم جيشه قسمين : قسما فيه الفرسان وفى هذا القسم حشد معظم الجيش .. وقسما آخر يحرس الطريق بين خيبر وغطفان حتى لا يفجأ المسلمون بجيش غطفان من خلفهم ...

وتحصن اليهود فى قلاعهم ، فأمر محمد بأن تحاصر القلاع وأن يقطع النخيل المحيط بها ، وأن يعسكر جيشه فى الحقول .. فليأكلوا منها

وليطعموا الخيل والإبل ليحرموا أهل خيبر كل مافى هذه الحقول . وليذكر كل رجل فى جيشه أن الناس شركاء فى الماء والكــلأ .

واضطر اليهود أن يخرجوا من حصونهم ليحاربوا فى السهل المكشوف دفاعا عن حقولهم التى استولى المسلمون على ثمراتها . ودفاعا عن الآبار والمراعى .

وهكذا حرمهم محمد ميزة التحصن وراء القلاع المنيعة ، وأصبح عليهم لكيلا يهلكوا من العطش والجوع أن يخرجوا من قلاعهم ليجلوا جيوش المسلمين عن الحقول التى تمدهم بالأقوات يوما بعد يوم.. وعن الآبار التى يستقون منها .

ودار القتال .. يخرج اليهود كل نهار ليحاربوا المسلمين فى السهل ، حتى إذا جاء الليل لجأوا إلى الحصون ..

وقال محمد لرجاله وهو يرى نجاح خطته فى حرمان اليهود من مزايا التحصن وراء القلاع . . « خربت خيبر .. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

وفطن اليهود للخطة فاجتمعوا كلهم وراء حصن واحد .. يوجهون سهامهم ونبالهم إلى عسكر المسلمين ، لعلهم أن يقهروهم من وراء هذا الحصن.

ورأى محمد أن يحشد كل قواه الضاربة لفتح هذا الحصن ، فاجتماع اليهود فيه يجعلهم أقدر على القتال بالمسلمين ..

وجمع محمد جيشه ، وأمرهم أن يقتحموا الحصن وسلم أبا بكر راية الجيش ..

ولكن أبا بكر لم يستطع أن يقتحم الحصن .

وفى اليوم التالى جعل القيادة لعمر بن الخطاب ..

وحارب عمر يومه كله ، ولكنه لم يستطع أن يقتحم الحصن ، وان كانت أبواب الحصن قد بدأت تلين .. غير أن اليهود ظلوا فى موقعهم المنيع يسددون سهامهم دون أن يخرج منهم رجل واحد للقتال فى السهل المكشوف .

فدعا محمد إليه على بن أبى طالب وقال له : « خذ هذه الراية فتح الله عليك » .

وخلع على عنه الدرع ليكون خفيف الحركة وطالب رجاله أن يتخففوا من الدروع التى تثقلهم ليكونوا خفافا .. وانصرف وفى ذهنه وصية محمد : « أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن لم يطيعوا فقاتلهم » فوالله لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم» .

وتقدم على فدعاهم إلى الإسلام ، ولكنهم سخروا به .

فطالبهم أن يحاربوا المسلمين رجلا لرجل ويبعثوا إليه شجعانهم ليبارزهم هو بنفسه : الواحد بعد الآخر .

وخرج إليه الحارث أحد شجعانهم فصرعه على ..

وخرج إليه رجل آخر فصرعه ..

وإذ ذاك تعالت من المسلمين صيحات السخرية بقوة شجعان اليهود .. وسأل على شجعان خيبر أن يبعثوا إليه برجل يثبت فى المعركة ..

وخرج إليه زعيمهم مرحب .. وكان هو حقا سيد فرسان خيبر .. خرج إلى على بطيئا فى كبرياء وثقة مطمئنة مهيبا ضخما ، بيده حربة مخيفة ذات ثلاث رءووس ، وكل جسده الفارع الشاهق فى الزرد ، والحديد يغطى رأسه وساقيه .. وليس فى كل بدنه ثغرة ينفذ منها سيف !.

وتقدم إليه على بقامته المعتدلة ، بلا درع ، فى يده السيف وحده.

وتوقع المسلمون واليهود جميعا أنها نهاية على ..

ولكن عليا استطاع أن يحسن الاستفادة من تخففه من الدروع والزرد وترك مرحب يتقدم بدروعه وزرده وحربته .. حتى إذا أوشك سن الحربة أن يمس صدر على ، تراجع على فجأة ثم قفز فى الهواء ، متفاديا حربة مرحب ، ثم اقتحم وأهوى بكل قوته على رأس مرحب بالسيف.

وانفلق الحديد من على رأس مرحب . وسقط سيف على على الجمجمة فشقها نصفين !.

وهوى مرحب وسط ذعر اليهود وعجبهم .. وصيحات النصر ترتفع من معسكر المسلمين ..

واندفع على إلى باب الحصن [illegible] اقتحموه ، واليهود الذين أفلتوا [illegible] حصن آخر.

غير أن المقاومة لم تدم طويلا .. [illegible] اليهود أنهم مستعدون للاستسلام إن ضمنوا حياتهم ..

وتم الاتفاق على أن يخرج الرجال [illegible] كل بثوب واحد يغطى

جسده ، على أن يتركوا السلاح والأموال والكنوز والنساء والذرارى ،
وجلا الرجال .. إلى التيه حقا هذه المرة ! ..

واستولى المسلمون على كل مافى خيبر من خيرات ..

وأمرهم محمد ألا يعاشروا الحبالى من السبايا وألا يبيعوا المغانم حتى تقسم ..

وقسمت الغنائم .. ودوت الصحراء بصيحات النصر .. فقد استراحوا إلى الأبد من تهديد اليهود ، وأعطى محمد من نصيبه فى الغنائم بعض ثياب لزوجاته .

وبينما كان محمد يسير فى ميدان المعركة ، وجد فتاتين جميلتين تصرخان وتبكيان وبلال يدفعهما وسط جثث القتلى من اليهود ويريهما القتلى وما صنع المسلمون . .

وزجره محمد : « انزعت الرحمة من قلبك يابلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالها .. ! »

وألقى برده على إحداهما ..

كانت هى صفية بنت حيي بن أخطب سيد بنى قريظة استوطنت خيبر منذ قتل أبوها وقومها فى غزوة بنى قريظة .

وقال لها محمد فى حزن : « أما إنى لأعتذر إليك ياصفية مما صنعت بقومك ولكنهم .... »

وكانت صفية تعرف ماصنع قومها به فردت عليه ردا جميلا ..

وعرض عليها الإسلام فأسلمت وتزوجها وأقاما معا فى خيمة واحدة .. وعندما أصبح الصباح وجد على باب خيمته رجلا من المسلمين فى سيفه فسأله عما يصنع على باب خيمته فقال الرجل « خفت عليك من هذه المرأة فقد قتلت أباها وزوجها وقومها وهى حديثة عهد بكفر فخفتها عليك .. »

فابتسم محمد وقال : « اللهم احفظه كما بات يحفظنى » .

غير أن كل يقظة صحابه لم تستطع أن تحفظه من مكيدة أخت مرحب ، بعد أن استخلصها مع صفية من يد بلال وهو يمر بهما على قتلى اليهود ..

إذا دست إليه السم فى الطعام .. وكان أحد صحابه يأكل معه ، وأخذ محمد قطعة من اللحم فتعجب من طعمها ولفظها ولكن صاحبه أساغ الطعام وأكل اللحم المسموم ، فمات من فوره ..

وأمر محمد بالقبض على المرأة فاعترفت أنها دست السم فى اللحم .. وقُتِلَتْ بالنفس التى قتلتها ..

وأذّن فى الناس بالرحيل .. وانتصاره على يهود خيبر يدوى فى كل مكان ..

وفى الطريق كان كلما نزل بمكان ليستريح فيه جاءه وفد من القبائل اليهودية الصغيرة المجاورة تطلب منه الأمان وتعرض عليه الطاعة والخضوع ، وتلعن أمامه يهود خيبر ..

ودخل فى الإسلام منهم غير قليل .

ولم يرفض إسلامهم وإن كان ليشعر أنهم غير صادقين .

ووصل إلى المدينة بعسكره آخر الأمر وقد غنموا كما لم يغنموا فى غزوة أخرى من قبل ..

* * *

لم يعد الآن من يهدده ..

لم يعد شىء يتعبه .. انتهى من اليهود ، وله مع قريش عهد أن يستمر السلام عشر سنوات أما غطفان فقد تخاذلت عن نصرة يهود خيبر ولن تستطيع أن تحالف أحدا ضده بعد ..

والقبائل من هنا وهناك تدخل فى الإسلام بعد أن زايلها الخوف منذ صالح قريشا فى الحديبية : ومنذ سقطت فى يده قاعدة اليهود فى خيبر ..

فليوجه دعوته إلى الناس خارج الجزيرة وفى أطرافها النائية إذن ..

ليوجه دعوته إلى العرب فى أطراف الجزيرة وإلى غير العرب بعد أن اطمأن إلى مصير الدعوة بين عرب الحجاز ..

«يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض»

وأرسل إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس القبط فى مصر ..

ثم أرسل إلى الأمراء العرب النائين .. إلى صاحب نجد وصاحب البحرين وملك غسان ..

دعاهم جميعا إلى الإسلام ، وحملهم مسئولية رعاياهم .. أما ملك الروم فقد أكرم رسل محمد ولكنه لم يعط ، ردا أى رد ..

وأما كسرى فقد مزق الكتاب وطرد الرسول ، وكتب إلى عامله إلى صنعاء أن يرسل إلى المدينة قوة تقبض على محمد وترسله إلى العاصمة فى الأصفاد .. ولم يقو حاكم صنعاء على هذا ، وظل يراوغ حتى مات

كسرى وتولى مكانه ابنه ، فأرسل كسرى الجديد إلى والى صنعاء :
« أمهل الرجل الذى كتب فيه أبى إليك فلا تقبض عليه حتى يأتيك أمرى ».

وأما مقوقس القبط فى مصر فقد أكرم الرسول ومنحه مائة دينار وخمسة أثواب .. ولكنه لم يرد على الرسالة بل بعث مع الرسول هدايا لمحمد فيها أثواب فاخرة من كتان مصر ، وذهب ، ومسك ، وند ، وقوارير ، وعسل كثير ، وبغلة شهباء وفرس بلجام فضة وحمار أشهب وجارية سوداء مليحة اسمها بريرة ، وجارية بيضاء جميلة اسمها سيرين ، وفتاه من أجمل نساء مصر أبوها مصرى وأمها يونانية اسمها مارية ..

وتقبل محمد كل هذه الهدايا عن طيب خاطر وأرسل يشكر المقوقس ، وضم الهدايا إلى خزانة الدولة ووهب الجارية البيضاء شاعره حسان بن ثابت وعرض على مارية الزواج بعد أن أسلمت فقبلته .. وأصبحت من أحب زوجاته إليه وسعد هو بهذا الزواج ، إنه قد أصبح صهرا لأقباط مصر ..

أما صاحب البحرين فقد اقتنع بالإسلام فأسلم ودعا رعاياه إلى الإسلام ، وأحسن صاحب نجد الرد على الرسالة وبعث مع الرسول ببعض الهدايا . ولم يسلم هو ولكنه أباح لمن شاء من رعاياه أن يدخل فى الدين الجديد .

ولكن ملك غسان مزق الرسالة وأعلن التعبئة العامة وقال للرسول :
« أبلغ صاحبك إنى سائر إليه ، وأنه لن ينتزع منى ملكى » .

ثم أرسل يستأذن قيصر الروم فى غزو المدينة فلم يأذن له قيصر ..

وعندما اجتمعت عند محمد كل الردود .. رأى أن يعاود الكره مرة أخرى وأن يرسل إلى كل الذين رفضوه أو مزقوا رسائله أو اكتفوا من الردّ عليه بإرسال الهدايا . فليرسل إليهم للمرة الأخيرة : دعوة السلام قبل أن يعلنهم بالحرب ..وإنه ليقاتل دفاعا عن المستضعفين وفى سبيل العدل ، ومن أجل حرية الإنسان فى كل مكان .. « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » ..

ولكن قبل أن يشهر هذه الحروب التحريرية فليرسل نداء الإسلام لآخر مرة : تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم .. !

رسخت أقدامهم فى أرض الجزيرة كما لم ترسخ من قبل أبداً بعد أن عادوا من خيبر فاتحين محملين بالأسلاب والغنائم ، ووراءهم الأسرى الأشداء والسبايا الجميلات وأصبحوا ذات يوم فاذا برجال ونساء وأطفال يقرعون عليهم الأبواب : الثياب غريبة ، واللسان عربى مبين..

إنهم لبعض السابقين من أتباع محمد هاجروا إلى الحبشة فراراً من أذى قريش ، يوم أن ضاقت بهم الأرض بما رحبت ، وأوصدت كل المدن أبوابها فى وجوههم ، فلم يجدوا غير البحر مركباً ، وغير نجاشى الحبشة حامياً ، لا يضام عنده أحد .

هناك فى تلك البلاد البعيدة أقاموا . وسعوا إلى الرزق ، ونشروا الدعوة التى هاجروا بها ، وولد لهم جيل من البنات والبنين لم ير أرض الجزيرة . وإن كان ليعرف أنه عربى

وهناك تحت ثرى تلك البلاد البعيدة . أودعوا فلذات أكباد ، وذكريات عزيزة ، وأحباء كثيرين ..

فلما أتيح لهم أن يعلموا أن محمداً وإخوانهم المسلمين ، قد حالفوا قريشاً على أن يضعوا الحرب فيما بينهم ، شدوا رحالهم واستأذنوا النجاشى ، فحمّلهم بالهدايا من ماله الخاص ، وبعثهم فى سفينتين كبيرتين .

أقبل على رأسهم جعفر بن أبى طالب ، فتى فارعا جسوراً يحمل جسارة عمه حمزة وشجاعة أخيه على ، وقد أتيح له أن يتعلم من الحبشة كثيراً من فنون الحرب التى لا تعرفها العرب .. بأحد هذه الفنون صُرع حمزة مفخرة بنى هاشم !

وأقبلت معهم رملة بنت أبى سفيان : رأس الطغيان فى قريش ..

كانت هى الأخرى قد هاجرت مع زوجها منذ نحو عشرة أعوام ، أنجبت هناك ، ولكن المسيحية استهوت زوجها ، فتنصر وطلق الزوجة الشابة الحسناء ، أم ولده ، وتزوج امرأة حبشية نصرانية .. وعرف محمد وهو فى المدينة قصتها .. فخطبها دون أن يراها وأناب عنه النجاشى نفسه فى عقد الزواج ، وكان النجاشى قد بدأ يعتبر محمداً ملكا على الحجاز فهو يعامله كما يعامل الملوك ويقبل أن ينوب عنه .

ولم تكد رملة تعود إلى المدينة مع المهاجرين بابنتها حبيبة ، حتى تم الزواج ..

وحين علم بنو أمية أن محمداً قد تزوج بنت كبيرهم أبى سفيان ، شعروا بشىء من الزهو : فمحمد الآن سيد المدينة ، تتبعه خمس عشرة قبيلة من أقوى أهل الجزيرة.. وقال أبو سفيان : « هذا الفحل لا يُجدَع أنفه » .

واستقبل محمد أتباعه العائدين بفرح كبير .. وأقام وليمة فى بيته .. ليلة زواجه من أم حبيبة ، بنت الثلاثين ، وأعلن : « ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » .

فليأخذ جعفر مكانه الآن فى طليعة الجيش الإسلامى إن كُتب على هذا الجيش أن يقاتل من جديد ..

ولكن الوقت لم يحن بعد لقتال جديد ، وما من شيء يشغل محمداً قدر تدبير المعاش للذين عادوا من الحبشة . وكان بعضهم قد ألف الحياة هناك على عطايا النجاشى ..

وطالبهم محمد أن يعملوا ليأكلوا ..

ولكن بعضهم مضى يسأل الناس ومنهم من زعم أنهم أحق بالصدقات لأنهم مساكين لا يجدون الطعام . . . وقال لهم محمد : «ليس المسكين هو من ترده الأكلة أو الأكلتان ولكن المسكين الذى ليس به غنى ويستحى ، أو لا يسأل الناس إلحافاً » .

فليكفوا عن السؤال .. وليكف معهم هؤلاء العشرات الذين جاءوا من هذه القبائل أو تلك ، وأقاموا بالمسجد ، يتعبدون النهار والليل بلا عمل ، معتمدين على أموال الصدقات ..

لا يمكن أن تجرى الأمور فى المدينة على هذا النحو . يجب ألا يعيش أحد على حساب الغير .. إنه لا يريد من أحد أن ينقطع للعبادة بعيداً عن طلب الرزق ثم يسأل الآخرين طعاماً ..

ليس هذا هو ما جاء به ! ... إنما جاءهم بما يرفع الرأس ..
إنما جاءهم بالكبرياء .. بأنه لا فضل لإنسان على آخر إلا بعمله ..

وشعر بعض الذين كونوا من التجارة ثروات أن أمور المدينة لن تستقيم ..

وبدأ الذين كسبوا من أموال الغنائم يكنزون أموالهم ويخافون أن تضيع فى الصدقات فخرج محمد إليهم يطالبهم بأن يدفعوا .

إنه ليطالب كل إنسان بأن يعمل ليكسب عيشه ، ولكن على الأغنياء ألا يكنزوا وعلى الذين أخذوا أن يعطوا .

وظل يقول لهم : ما آمن بى من بات شبعان وجاره طاو » .. «أى رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله» . «من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل مال فليعد به على من لا مال له ، فلا حق لاحد منهم فى فضل ». «من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » وهزت كلماته كثيراً من الأغنياء ..

وعرض أحدهم أن يتنازل عن كل ماله للصدقات ..

فقال له : أمسك عليك مالك فهو خير لك .. خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى .

ومضى هو إلى المسجد فوجد فيه هؤلاء الذين انقطعوا إلى العبادة ، وتعودوا السؤال فطالبهم أن يعملوا وأن يكسبوا عيشهم ، وأن يكون لهم مال يدفعون هم منه أنفسهم الصدقات لأبناء السبيل وللذين لا يستطيعون أن يعملوا ويجدون حرجاً فى أن يسألوا غيرهم شيئا !

وحرم عليهم أن ينقطعوا إلى العبادة ويتركوا السعى فى طلب الرزق ، فما جاءهم بهذا ! ! .. ليهتم كل منهم بأن يعمل ويكسب .

ليهتم كل منهم بان يؤدى حقوقه .. كل حقوقه إلى زوجته ، وإلى أولاده .. ولتهتم النساء أيضا بأن يعملن فى طاعة الأزاوج ، فما جاء

بعبادات تحرج الرجل من النظر إلى امرأته أو تدفع الزوجه إلى الضيق بزوجها !

لتتخذ الزوجات زينتهن أمام الأزواج ، وليكن الإنسان قوة منتجة صالحة ، يؤدى ما عليه من عمل ويستمتع من طيبات الحياةِ الدنيا بلا تأثم ، فى حدود ما جاءهم به فلا رهبانية ولا تنفع فى الإسلام! . «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ »

فليتمتعوا بالطيبات من الرزق ، وليكفوا عن الانقطاع للعبادة ، وليعمل كل منهم ما دام يستطيع أن يعمل فينتفع بعمله وينفع الآخرين ، فخيرهم هو أنفعهم للناس .. ولينتشروا فى الأرض سعيا عن الرزق بدلا من الانقطاع للعبادة وسؤال الناس الحافا . !

إن السؤال مذلة .. وما جاءهم إلا بالذى يحرر النفس ويملأ القلب بالعزة ..

اعملوا إذن .. فإن أشرف الكسب كسب الرجل من يده ..

ولأن يأخذ كم أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل خير له من أن يسأل الناس ! ..

* * *

وذو الحجة يقترب من جديد .. لقد مضى نحو عام على صلح الحديبية هذا هو موسم الحج إذن ..

وحشد محمد كل الذين صدوا عن مكة فى العام الماضى ، وأمر كل زوجاته بالاستعداد للرحيل معه .. وجهز الخيل المدربة على القتال ! !

لئن كانت معاهدة الحديبية تسمح لهم أن يزوروا مكة من عامهم هذا — فى أمان — فمن الخير مع ذلك أن يحتاطوا ..

وخرج محمد مع رجاله فى ملابس الإحرام ومعهم السلاح ..

وعندما اقتربوا من مكة قال من معه :

— لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ، ولكن يكون قريبا منا فان رأينا منهم الغدر كان السلاح قريبا .

وأمرهم أن يلقوا السلاح قريبا من مكة وترك على حراسته مائتى رجل على خيلهم ..

ولكن أهل مكة كانوا قد قرروا أن يذعنوا لشروط صلح الحديبية. فتركوا محمدا ومن معه يدخلون فى سلام ..

دخل محمد مكة للمرة الأولى بعد سبعة أعوام .. كان على ظهر ناقته ، ومن ورائه ومن حوله المهاجرون والأنصار .. القلوب تضطرم بانفعالات كثيرة . فأخذوا يطوفون بالكعبة ، وقد وقف على جانبيها عدد كبير من سادة مكة ينظرون ، وهم يتهامسون : إن الضعف يعصف بالمسلمين وقال محمد لصحبه : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » وخرج يهرول فى نشاط وهم يهرولون وراءه ..

وعندما انتهى محمد وصحبه من الطواف أمر مائتين من رجاله أن يذهبوا إلى خارج مكة فيرسلوا اخوانهم الذين يحرسون السلاح ليقضوا مناسكهم هم أيضاً ..

وعلى الرغم من أن حكومة مكة قررت أن تقاطع المسلمين فلا بيع معهم ولا شراء ، وعلى الرغم من أن بعض سادة مكة لم يطيقوا البقاء بها

فخرجوا إلى الجبال حتى يقضى المسلمون مناسكهم ويرحلوا عن مكة ..
وعلى الرغم من أن خالد بن الوليد قائد فرسان قريش حذر أهل مكة أن يكلموا أحدا من المسلمين وخرج منها مع من خرج من سادة مكة ، على الرغم من هذا كله ، فقد انعطفت القلوب إلى القلوب فلم يكد بعض أهل قريش يلقون أهلهم المهاجرين حتى سقطت الأحقاد تحت الأقدام دفعة واحدة ، وأقبلوا عليهم يعانقونهم ويحدثونهم ويكرمونهم ويسألونهم عما صنع بهم الزمان ..

* * *

ولقد أحسن المهاجرون الاستفادة من الوقت فدعوا كثيراً من أهلهم وصحبهم إلى الدين الجديد وكسبوا عددا منهم أقبلوا على محمد يعلنون أنهم يسلمون . وكان من بينهم الوليد بن الوليد شقيق خالد بن الوليد .. أقبل على محمد مسلما فأحسن استقباله ودعا له وسأله : « اين خالد ؟ » فقال « يأتى الله به » فقال محمد : « ما مثله يجهل الاسلام ولو جاءنا كان خيرا له ولقدمناه على غيره » ..

وصمم الوليد ألا يترك أخاه حتى يقنعه بالدخول فى الإسلام .

وروعت حكومة قريش مما تراه .. فها هم الرجال والنساء من آل المهاجرين وأصدقائهم يدخلون فى الإسلام أفواجا !!

وأقبل مندوب حكومة قريش على محمد يسأله أن يرحل فقد أقام المسلمون فى مكة ثلاثة أيام وانقضت مناسك الحج والعهد فى صلح الحديبية لا يسمح للمسلمين بأن يقيموا بعد :

وأمر محمد رجاله أن يشدوا الرحال . ولكنه سأل مندوب مكة أن

يسمح له بالبقاء يوما آخر ، فقد خطب امرأة من قريش ومن الخير أن يدخل عليها فى مكة .. وإنها لامرأة شريفة عريقة وقد عرضت نفسها عليه فقبلها وهو يريد أن يقيم العرس فى مكة وقال محمد «وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين ظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟ .

فأجابه مندوب قريش : «لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا» .

وخرج محمد ومعه صحبه .. وخلف أحد أصحابه فجاء بخطيبته ميمونة فلحقه فى الطريق ، وبنى بها بالقرب من مكة .. وهى أرملة جاوزت الخمسين من عشيرة خالد بن الوليد ، ذات نفوذ واسع فى قريش ..

وفى الحق أنها لم تكن تملك من المزايا الأنثوية ما يثير غيرة أى من زوجاته ! ولقد أقبلت عليهن بوقارسنها وهيبة نفوذها فى قريش فأحسن معاملتها .. ولم يجدن فيها منافسة جديدة بقدر ماوجدن فيها أمومة حانية .

على أنه أعلن زوجاته على أية حال أنه لا يحل له الزواج من بعد ..

وعاد إلى المدينة سعيدا بكل ماحدث .

لقد حقق للمسلمين أمنية عزيزة وقد تفتحت لهم هناك فى مكة قلوب كثيرة على الرغم من تحذيرات حكومة قريش .

ان دخوله مكة — وحده — لكسب كبير يدوى صداه الآن بين القبائل جميعا .. لقد أتاح لهم هذا الحج أن يحادثوا كثيرين من أهل مكة ومن أهل القبائل الأخرى وأن يدعوهم إلى الاسلام .. وحتى الذين لم يستجيبوا بعد ، لم يرفضوا الإسلام بمثل الغلظة القديمة فقد بهرتهم الانتصارات المتوالية عبر سبعة أعوام حين خرج محمد من مكة غريبا

طريدا مستخفيا ، إلى مصير مجهول ليعود بعد ذلك حاجا ضارعالا يخفى ورعه جلال انتصاراته ولا قوته . ثم هذا الزواج من ميمونة بنت الحارث الشيخة الواسعة النفوذ فى عشيرتها ... إنه لكسب آخر !! .

* * *

وفى المدينة عاد محمد يكتب إلى الملوك والأمراء فى خارج الجزيرة العربية أن تعالوا إلى كلمة سواء .

وأرسل إلى أمير بصرى فى سوريا يدعوه إلى الإسلام .. إنه ليعرف بصرى منذ كان شابا يخرج مع عمه أبى طالب فى رحلات الشتاءوالصيف .. وهويعرف أهلهاويذكر عذابالناس هناك تحتمظالم الامبراطورية الرومانية ، ويذكر بصفة خاصة بحثهم الدائب عن العدل وعنحل انسانى للفوضى الرهيبة التى يعشون فيها .

وانتظر محمد أن يعود الرسل .. ليت أمير بصرى – ان لم يقبل هو الإسلام – يترك الناس أحرارا يختارون ما يشاءون .

وانتظر محمد عودة رسوله إلى أمير بصرى ..

وذات صباح وهو ينتظر عودة رسوله ، أقبل عليه الوليد بن الوليد يخبره أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص أقبلا على المدينة يريدان مقابلته ليعلنا اسلامهما .

أخيرا يقبل خالد بن الوليد الذى دوخ جيوش المسلمين !!!

واستقبلهما محمد فرحاً .. هو ذاسيد فرسان قريش ينضم إليه آخر الأمر .. سيعتز به الإسلام كما اعتز بحمزة وعمرمن قبل ..

وقال محمد وخالد يعلن أمامه دخوله فى الإسلام :

ـ الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير ، فقال خالد :

ـ يارسول الله ادع الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك فقال محمد :

ـ الإسلام يجب ما كان قبله .

وخصص محمد دارا لخالد ودار العمرو بن العاص ، ثم دخل هو إلى بيته يستريح ..

كانت النوبة لحفصة من بين الزوجات ، ولكنه وجدها قد ذهبت إلى بيت أبيها .. ولبث محمد فى بيت حفصة ، ودخلت عليه هناك زوجته المصرية مارية ، كانت من أجمل نساء مصر .. وكانت حفصة وعائشة وزينب قد ألفن الغيرة منها ..

وعادت حفصة فوجدت مارية مكانها فقالت له : « والله لقد سببتنى وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك . »

وحاول أن يسترضى حفصة فوعدها ألا يقرب مارية بعد أبدا ، ان كتمت عليه حفصة الأمر ولم تفض به إلى غيرها من الزوجات .

كان يريد أن يتجنب انفجار الغيرة مرة أخرى .. فما يطيق أن تتحول الحياة إلى دوامة الغيرة .

ووعدته حفصة أن تكتم عليه الأمر ، ولكنها لم تحتمل عذاب الغيرة من مارية فروت لعائشة ! .

وروت عائشة لزينب .. ويوما بعد يوم عرفت صفية وكانت تعتز بجمالها هى الأخرى .. وعرفت غيرها من الزوجات ! لماذا يفضل مارية ويؤثرها بنوبة حفصة ؟! مهما تكن المصرية عذبة رائقة فكل واحدة تشعر فى أعماقها أنها أجمل من هذه المصرية، فلماذا يؤثرها عليهن جميعا ويدخلها على فراش صاحبة النوبة ! .

وثارت الدوامة من جديد .. وانفجرت غيرة عائشة ضد كل الزوجات الجميلات لا ضد مارية وحدها .. ومن جديد اعتزلهن جميعا شهرا كاملا وطلق حفصة لأنها أفشت سره مع مارية بعد ماوعدته بالكتمان ، وأطلقت غيرة زوجاته عليه وهدد الأخريات بالطلاق ..

وخلال هذا الشهر .. كان ينتظر عودة رسوله من بصرى .. ولكن لم يعد أبدا .

وخرج هو إلى زوجاته بعد أن أضناه النوم على الحصير الجاف يعلن أنه لن يحرم مارية على نفسه ابتغاء مرضاتهن !

إنه ليغفر لهن الآن على ألا يعدن إلى تكدير الحياة عليه مرة أخرى .. ولئن عدن ليطلقهن جميعا .. عسى ربه أن يبدله أزواجاً خيراً منهن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً .

واعتذرن إليه وعاهدنه ألا يعدن إلى تكدير الحياة بالغيرة .. وأعاد إليه حفصة . عادت كل واحدة منهن إلى مكانها فى قلبه .

ورأى بعض أصحابه أثر الحصير فى جنبه فقالوا له : « يارسول الله ألا أذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً » .

فقال لهم : « مالى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

وجاءته الأنباء من بصرى أن رسوله إليها قد قتل ! . ولكن الرسل لايقتلون !!

أيسكت على هذه الإهانة فتسقط هيبة الدين الجديد بعد أن دعمها بشقاء الأيام والليالى ؟ .

مهما تكن سطوة الإمبراطور الرومانى ومهما يكن من قوة جيوش الرومان فلن يسكت ! .. وقرر أن يرسل جيشاً إلى المدينة الرومانية التى قتلت رسوله .. ليؤدب قاتليه .. لقد عاد جعفر من الحبشة بعد أن درس فنون الحرب فيها ، وانضم إليه خالد ! .. هذا هو يومهما .

وحشد ثلاثة آلاف مقاتل وأمرهم أن يسيروا إلى سوريا وجعل القيادة لزيد بن حارثة .. ووضع فى هذا الجيش ابن عمه جعفر بن أبى طالب .. وقائد الفرسان الشجاع خالد بن الوليد ، والشاعر عبد الله بن رواحه ليلهب حماس المقاتلين .

وحشدت الإمبراطورية الرومانية مائتى ألف مقاتل ! .

وتشاور قادة الجيش الإسلامى فى الأمر حين وجدوا أنفسهم أمام كل هذا الحشد .. كيف يواجهون مائتى ألف فى عدتهم وخيلهم وهم ثلاثة آلاف !!

ورأى أحدهم ألا يدخلوا المعركة وأن يرسلوا إلى المدينة يستشيرون قائدهم هناك ويطلبون الإمدادات .

ولكن عبد الله بن رواحه الشاعر وقف بين الناس يؤدى دور الكلمة في المعركة .. وأنشأ القصائد يثير بها حماسهم ثم قال لهم : « ما نقاتل بعدد ، ولا قوة ، ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة » .

وزحفت الجيوش الرومانية .. والتقى الجمعان عند قرية مؤته بالقرب من القدس . واقتحم زيد بن حارثة المعركة والراية فى يده ولكن الرماح الرومانية تلقفته فخر صريعاً عند أول اشتباك وهوت راية الجيش الإسلامى من يده وحمل جعفر بن أبى طالب الراية ، واقتحم عن فرسه فعقره وتقدم على قدميه يخوض بسيفه جنود الرومان .. وقطعت ذراعه التى تحمل الراية فأمسكها بذراعه الأخرى فقطعت فضم الراية إلى صدره وهو يزحف ، ولكن السيوف تكاثرت عليه حتى مات .

وتقدم الشاعر عبد الله بن رواحه بالراية فقاتل حتى قتل وهو ينشد شعره .

واضطربت القوات الإسلامية وانسحبت سريعاً قبل ان تسحقها الجيوش الرومانية الهائلة . وقرر قادة الجيش أن يسلموا الراية إلى خالد بن الوليد .. ورأى خالد أن يلجأ إلى الحيلة لينجو بجيشه . ولم يحارب خالد بن الوليد فى يومه ذاك .

وفى الصباح .. غير مقدمة الجيش ، ووضع المؤخرة بدلا منها وجعل الجناح الأيمن مكان الجناح الأيسر .. واقتحم المعركة ثم تقهقر .. ليستدرج جنود الرومان إلى الصحراء .

وخيل للجيوش الرومانية أن المسلمين تلقوا إمدادات جديدة .. وأنهم يريدون أن يوقعوا بهم فى الصحراء ، وحيث يمكن أن تكون السيطرة للعرب . فلا علم للرومان بدروبها .

ورأى الجيش الرومانى أن يتجنب الدخول فى حرب الصحراء حتى لا يقع فى الفخ واستطاع خالد بن الوليد أن ينجو بالجيش كاملا بعد أن تعرضوا للابادة الشاملة لبعض الوقت .. وعاد بهم إلى المدينة .

وكانت قد سبقتهم الأنباء إلى المدينة فاستقبلهم الناس منكرين ، وأخذوا يحثون عليهم التراب ، قائلين : « يافرار ! » .

أما محمد فقد استقبلهم قائلا : بل هم الكرار إن شاء الله .

ودخل محمد إلى بيت جعفر .. فعانق أبناء جعفر الصغار وهو يبكى.. وذهب إلى بيت زيد ولم يستطع أن يكتم دموعه حين رأى أطفاله .. ولبث عندهم قليلا ثم خرج يواسى أهل الشهداء ..أما رجال الجيش فقد لزم كل منهم بيته ما يستطيع أن يخرج من وطأة إحساسه بالعار إذ عاد منسحباً ولم يستشهد هناك !

واشتد أهل المدينة فى اللوم على رجال الجيش .

ولم يطق محمد صبراً على هذا الحال فاعلنهم أن جيشه لم ينهزم وما كان لقائده أن يرمى به فى المذبحة .

ما جدوى أن يموت ثلاثة آلاف مقاتل وينتهى الأمر وتتسامع العرب أن الروم سحقت عسكر المسلمين ؟ ! إن جيش الروم هو الذى عجز عن الإشتباك معهم حين استدرجه خالد إلى الصحراء لقد صنع كل

رجل فى الجيش ما يستطيع ، وعلى أهل المدينة أن يشكروا الجيش وأن يحمدوا لقائده خالد بن الوليد أنه استطاع أن يدافع الروم حتى انصرف بالجيش سليما ، ليأتى يوم يخرج المسلمون فى عدد كبير فيظفروا بالروم !

وكف أهل المدينة عن الزراية بالجيش.. واستطاع رجاله أن يخرجوا من بيوتهم ليلقوا الناس .

ولكن نبأ انسحاب الجيش أمام قوات الروم ، كان قد بلغ مكة .

وعلى الرغم من صلح الحديبية فقد وجدت حكومة قريش فى انسحاب جيش محمد ، فرصة سانحة للوثوب عليه .

ولم تفكر قريش فى أن تجهر بالعداء ولكنها رأت أن تفتك بالقبائل الضعيفة التى انحازت لمحمد عسى أن ترهبها وأن ترد عنه حلفاءه الآخرين !

على أن قريشا لم تسفر بالعدوان وإنما أغرت حلفاءها بالوثوب على حلفاء محمد ، ومدتهم بالسلاح ، وببعض فرسانها .. وهكذا وثب بنو بكر حلفاء قريش على خيام خزاعة حلفاء محمد ، فنهبوها وقتلوا منهم عشرين مسلما .

وأرسل الخزاعيون إلى محمد يستصرخونه على قريش التى أيدت بنى بكر .

وسمع محمد أبناء عبث قريش بصلح الحديبية فلم يقل شيئاً .. ولكنه أضمر أمراً .. !

اجتمع رجال قريش وتجارها الكبار يتشاورون بعد أن عرفوا أن خزاعة استنجدت بمحمد . ما العمل بعد ؟! كل شيء باطل ، وسينتصر محمد آخر الأمر بلامراء .. !! لكأنه لا يقهر .. !!

لو أنه كان من الممكن أن يقهر ، لسحقته قريش عندما ظهر ، ولردعته ثقيف عندما طارده أهلها بالحجارة إلى خارج أسوارها ، أو بالقليل لاستطاعت الأحزاب المؤلفة أن تقتحم عليه مدينته . !!

لئن كان قد هزم أمام جيوش الروم ، لقد هزم من قبل فى أحد .. ومع ذلك فأين هو من تلك الأيام . إن خمس عشرة قبيلة لتتبعه الآن من بينها قبيلة بنى سليم وبنى المصطلق.. وكل القبائل التى ذاعت شهرتها الحربية فى الجزيرة ..

ومن الخير إذن أن ترعى قريش صلح الحديبية ، فقد كفل لها هذا الصلح طوال العامين الماضين حياة أكثر استقراراً . . فسارت قوافلها مطمئنة فى رحلات الشتاء والصيف ، وأمنت على تجارتها ..

ولكنها تضيق اليوم بهذه التجارة فالقبائل التى تنضم إلى محمد ترفض أن تتعامل مع قريش .

وعكاظ وغيره من الأسواق التى كانت تزدهر فى المواسم ، وتكتظ بالحرير والكتان والتمر والفراء والتحف الذهبية وقطع السلاح .. والتى

كانت تدوى بالقصائد الجديدة وأغانى المنشدات الفاتنات .. كل هذه الأشياء التى كانت تمنح المواسم بهجتها خاصة.. فالذين دخلوا فى الإسلام قد قاطعوا أسواق مكة .. وإنهم ليتبادلون التجارة فيما بينهم ، وينقلون الازدهار الاقتصادى إلى المدينة ويرسلون قوافلهم الخاصة التى تنافس قوافل قريش الآن إلى الشام واليمن والحبشة والأسواق الأخرى التى كان يحتكرها تجار مكة وحدهم .. !

الناس كل الناس فى مكة يعرفون هذا .. وآثاره تنعكس على تجارتهم وعلى مكانتهم الاقتصادية وعلى نفوسهم أيضا .. أما كبار التجار الذين يحكمون فيدركون أنهم يفقدون الأرض التى وقفوا عليها طويلا وأنه لا سبيل على الإطلاق إلى مقاومة الدولة المتزايدة الاتساع التى أنشأها طريدهم القديم : محمد بن عبدالله !!

أما بقية الناس فى مكة فقد أدركوا منذ زمن بعيد أن سلطان السادة فى قريش يزداد عنفا على رقابهم كلما أفقدهم المنافسون الجدد أحد الأسواق .. وإنهم ليعانون الآن من صلف السادة فى مكة ومن سطوة القوانين ومن جشع المرابين ومن الحاجة التى تنهشهم. لكم كلفتهم الحرب ضد محمد .. ولكم تكلفهم هزائم كبار التجار أمام محمد .. وانصراف العرب عن أصنام الكعبة إلى الإله الواحد الذى يدعو محمد إلى عبادته هو وحده .. !

وفى كل يوم ينزل رجل منهم لدائنه عن الحرية بكل إنسانيته ليصبح عبداً يمتلكه هذا الدائن..

وفى كل يوم يسلم رجل منهم امرأته وابنته إلى أحد بيوت البغاء المنتشرة فى مكة ، ليدفع دينا يطارده به أحد المرابين !

وفى كل يوم يتمزق القلب المعذب بينما العبيد ينضمون إلى محمد ، فيصبحون أحراراً ويتساوون مع السادة فى كل شىء .. فهناك حيث يقوم مجتمع جديد لا ربا فيه بعد ، ولا سلطان للدائن على حرية المدين ولا على امرأته أو بناته ..

هناك يستطيع عبد حبشى أن يقود رجالا من أعرق الأسر وهناك يحكم زاهد فقير من بنى غفار مدينة محمد إذا غاب عنها محمد .. وهناك يستطيع الرجل أو المرأة أن يكون ما يريد . . هناك يصبح الإنسان هو مايعمله .. عمله هو الذى يشكله ، وهو الذى يحدد له مكانه .. العمل وحده ، لا الغنى ، ولا صداقة محمد ، ولا القرابة ولا شىء غير ما قدمت يداه .. ولكم يبدو هذا كله عادلا ورائعاً ..

وهناك يحض محمد أتباعه على أن يحرروا العبيد فهم ينقلون عنه أنه رأى أحد أصحابه يضرب عبده فغضب وقال له : « الله أقدر عليك منك عليه » فقال له صاحبه معتذرا : « هو حر لوجه الله » فقال له محمد : أما انك لو لم تفعل للفحتك النار !! .. وهو ما برح يحضهم على تحرير العبيد ويقول لهم : « أيما رجل اعتق امرأً مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا منه من النار » وهناك .. يطالبهم أن ينفروا لانقاذ المستضعفين فى كل مكان وينذرهم إن تخلفوا ، ويتلوا عليهم : « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوم غيركم » .

لو أن محمدا قاد جيشه إلى مكة ، منتصراً لحلفائه بنى خزاعة لانضم إليه كل المستضعفين الذين ما زالوا يمثلون غالبية السكان فى مكة .. ولا نضم إليه التجار الذين أوشكت أن تفقرهم منافسة المسلمين .

يجب ألا يحدث هذا !! يجب ألا يحشد محمد جيشه ويتحرك إلى مكة ! .. ليستمر صلح الحديبية وليجدد إلى الأبد ..

لقد حدث خطأ رهيب بلا ريب مما كان ينبغى أن تترك قريش حلفاءها يغزون محمدا ويقتلون منهم ، وما كان ينبغى أن تظن قريش بمحمد الضعف بعد انهزام جيشه أمام الروم فتساعد بنى بكر على بنى خذاعة .. ولكن هذا الخطأ يجب أن يصلح .. فلترسل قريش رئيس حكومتها إلى محمد .. فلترسل إليه أبا سفيان نفسه .

ومضى أبو سفيان إلى المدينة ، فذهب إلى ابنته أم حبيبة زوجة محمد .. لم يكن قد رآها منذ سنوات طوال .. منذ تركت مكة إلى الحبشة ..

وفاضت أشواقها وهى تستقبل أباها بعد غياب طويل ، واطمأن أبو سفيان وأفضى إلى ابنته بما جاء من أجله ..

لقد جاء لا ليدخل فى الإسلام كما يخيل إليها ، ولكن ليأخذ العهد على رعاية صلح الحديبية فلا يعاقب محمد قريشا بما صنعت ، ولا يطالبها بدية القتلى لأنها لم تعد تحتمل خسائر مالية جديدة ..

ودخل غرفة نومها وجلس على فراش زوجها وسألها أن تكلم زوجها فى الامر ، وكان أبوسفيان يعلم حسن موقع ابنته عند محمد .. ولكنها لم تجبه بل طوت الفراش عنه ..

وقال لها أبوسفيان : « يابنية .. والله ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ » .

فقالت له ابنته : « بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروع أبوسفيان مما تقواه ابنته ! .. من أين تنبع هذه الشجاعة الغريبة التى تنطق هؤلاء المسلمين بكلمات رهيبة حاسمة أمام من يجب أن يرتجفوا أمامهم .

مشرك نجس .. ! أأنت ياأباسفيان .. نجس كالرمة .. هكذا قالت لعمر بن الخطاب ذات يوم بعيد أخته التى كانت ترتجف منه قبل أن يدخل الإسلام قلبها . . وها هى ذى ابنتك الضعيفة تواجهك بنفس الشىء ، وتطردك أيضاً .. ولكنها زوجة محمد ..

إن لهذا الإسلام ليملأ قلوب المستضعفين — حتى النساء — بشجاعة خارقة .

وخرج أبوسفيان يلتمس محمدا .. فليحادثه بلا وسطاء

وأبى محمدا ، وحاول أن يكلمه فلم يرد شيئا ، فذهب إلى أبى بكر يسأله أن يكلم له صديقه محمدا ، فرفض أبوبكر ! .

فجاء عمر بن الخطاب .. هو ذا عمر الصديق القديم .. لن يخيبه عمر .. ولكن عمر قال له « أأنا أشفع لكم إليه ؟ ، لو لم أجد إلا الرمل لجاهدتكم به » ..

وانصرف حتى طرق باب على . ودخل وهو ينظر إلى ابنه الحسن بين يدى فاطمة وسأل عليا أن يشفع له فاعتذر والتفت أبو سفيان إلى فاطمة قائلا « يابنت محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون : سيد العرب » فقالت فاطمة : « والله ما بلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله » .

ومضى يقول لعلى فى يأس : « إنك لأمس القوم بى رحماً . . وإنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى يا أبا الحسن » .

فنصحه على أن يقف فى المسجد فيعلن أن قريشا تحترم صلح الحديبية وترعاه .

وعمل بنصيحة على ثم عاد إلى قريش ، يروى لهم مالاقاه ..

وسألوه هل أجاز محمد ما قلته فى المسجد ؟ قال : « لا » .. فقالوا له : « ويلك ما زاد على بن أبى طالب على أن لعب بك فما يغنى عنا ما قلت » فأجابهم أبو سفيان : « والله ما وجدت غير ذلك » ..

لم يقتنع أحد فى المدينة أن قريشا غير مسئولة عن الخطأ الذى حدث .. ولكن الناس جميعا فى المدينة شعروا فى أعماقهم بالزهو لأن أبا سفيان طاغية مكة جاء إليهم بنفسه ينشد رضاهم ..

أما محمد فقد أدرك أن أبا سفيان — بكل صلفه وكبريائه وعنفه — إنما جاء يسعى إلى المسلمين فى مدينتهم معتذرا عن خطأ قريش لأن الأمور فى مكة تسير على غير هوى السادة هناك . . !

أن مكة لتشعر الآن بالضعف ، وهى من أجل هذا تسعى إلى الرجل الذى نبذته ..

ومحمد يذكر يوم دخل مكة حاجا ورعاً فى موكب المسلمين من المهاجرين والأنصار ، إنه لاينسى أبدا كيف ظهر غريبا هناك كل ما أقبل فيه : البساطة .. والمساواة .. والطريقة التى يتعامل بها المسلمين فيما بينهم على سواء .. إنه لا ينسى نظرات الإعجاب بالمسلمين ، ولا ينسى لهفة المستضعفين إليه ، لولا الحصار الذى فرضته حكومة قريش عليهم ! ..

ولكنه على الرغم من كل حصار كان قد نفذ إلى قلوب الناس .. الرجال الذين فُـرِضَـت عليهم الذلة يتمنون أن يرفعوا الرءوس وأن يسيروا جنبا إلى جنب مع الذين ولدوا فى النعيم كما يحدث بين المسلمين.. النساء اللواتى يعمرن ليالى مكة بالغناء ويبعن أجسادهن للغرباء يتمنين أن يطفن فى البياض ، ناصعات طاهرات تضىء وجوههن بنضرة الراحة كما يحدث للنساء المسلمات .. والتجار أيضا .. التجار الكبار الذين أرهقتهم منافسة التجار المسلمين ، يتمنون أن يدخلوا فى المجتمع الجديد عسى أن يلعبوا دورا آخر أهم من دورهم كتجار.. دور القادة فى الدولة الجديدة !.

محمد يدرك هذا كله .. ويدرك أنه قد آن لدعوته أن تنشر ظلالها على مكة وستجد فى مكة أتباعا يدخلون فيها أفواجا إن رُفِـعَ عنهم سيف الارهاب .. وماله لايدعو مكة إلى الدين الجديد ، وهى على الرغم من كل شىء ، مازالت مركز كل نشاط فى الحجاز .. ومازالت القبائل تأتى

إليها من كل فج عميق لتطوف البيت العتيق وتركع أمام أصنام الكعبة .. ؟

ليُطَهَّر هو هذا البيت للمسلمين وللطائفين وللركع السجود ..

إن مكة هى عاصمة الحجاز حقا .. فلتكن بكل ما تفضل به غيرها من المدن عاصمة الدولة الجديدة . . لتزدهر أسواقها من جديد ، فكل طرق الجزيرة توصل إليها ، ولترتفع عليها راية الإسلام ..

ودخل محمد على أهله فأمرهم أن يُجَهِّزوه .

وبدأت كل زوجة تستعد للرحيل .. ودخل أبوبكر بيت عائشة فوجدها تحزم متاعها فسألها : « أأمركم رسول الله أن تجهزوه » فقالت : « نعم ، فتجهز » قال : «فأين ترينه يريد ؟ » فأجابته : «والله ما أدرى»..

وخرج أبو بكر فوجد محمدا فى المسجد يعلن للناس أنه سائر إلى مكة .. وسألهم الرأى فأيدوه جميعا ..

وفرح المهاجرون .. أخيرا هاهم أولاء يعودون إلى مكة ليعيشوا ما بقى لهم من العمر فى أرض الوطن ! ! .

وأمرهم محمد أن يتهيأوا وأن يكتموا الأمر لأنه يريد أن يبغت قريشا .. وانطلق حسان بن ثابت يحرض الناس على الاحتشاد لغزو مكة للأخذ بثأر اخوانهم المسلمين من قتلى خزاعة ..

ولكيلا تتنبه قريش للأمر ، حشد محمد بعض رجاله وأمرهم أن يسيروا فى الطريق المؤدى إلى سوريا ..

وانطلى التمويه على قريش ، وتسامعت أن محمدا أرسل جيشا ليثأر من الروم ..

ثم إنه وضع حراسا على كل الطرق المؤدية إلى مكة لكيلا ينفلت من المدينة من يحمل إلى قريش خبر الحملة فيفسد التدبير .. غير أن أحد المهاجرين من الذين أحسنوا البلاء فى بدر كتب إلى قريش يخبرهم بالحملة، ودفع بكتابه إلى امرأة .. وعلم محمد فأرسل وراءها على بن أبى طالب والزبير بن العوام فأدركاها فى الطريق فسألاها عن الكتاب . . وأنكرت ولكن عليا هددها بالقتل إن لم تعترف .. وأخرجت المرأة الرسالة من بين ضفائرها ، وعاد بها على والزبير .

واستدعى محمد الرجل فسأله : « ماحملك على هذا ؟ » .

وأطرق الرجل والأسف يمزقه ..

ثم اعترف أنه أراد أن يصانع قريشا لأن له هناك زوجة وأطفالا صغارا يخشى عليهم ..

وطلب عمر أن يضرب عنق الرجل لأنه قد نافق .. ولكن محمدا ذكر بلاء الرجل فى بدر ، فعفا عنه ! .. وانصرف الرجل حزينا..

وأرسل محمد إلى القبائل المسلمة يطالبها أن ترسل إليه جيوشها .:

وعندما اكتمل له العدد الذى يريده خرج بعشرة آلاف رجل ذات يوم بارد من يناير سنة ٦٣٠ ، فى حرص شديد على ألا يبلغ قريشا عنهم خبر ..

وباتوا فى الطريق ، حتى إذا اقتربوا من مكة كان الليل يهبط بريحه الباردة .

وأذن محمد الناس أن يوقدوا النار .. وخرج عمه العباس بولده وزوجاته مهاجرا إليه فلقى محمدا على مقربة من مكه ، واستقبله محمد مرحبا وعرف العباس منه أنهم يريدون مكة ..

وتمنى العباس لو أنه استطاع أن يلقى أحدا من الرعاة أو بعض الحطابين أو تجار اللبن أو أحد أصحاب الحاجة الذين يأتون مكة فيخبر أهل مكة بمكان محمد ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ..

وإنه ليبحث فى شعاب مكة عمن يحمل رسالته إذ به يلقى أبا سفيان ، قد راعته النار التى أوقدها المسلمون فقال لرجل معه : « ليست هذه نار خزاعة . خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها » ..

وتحدث العباس مع أبى سفيان فى الأمر واقترح عليه أن يذهب وهو سيد مكة إلى محمد فيستأمنه .

واقتنع أبو سفيان .. فعاد به العباس إلى معسكر المسلمين ..

ولم يكد أبو سفيان يدخل المعسكر على بغلة العباس حتى رآه عمر فانقض عليه صائحا : « أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منك بغير عقد ولا عهد » ..

ولكن العباس نحى عنه عمر بن الخطاب .

واختلف العباس وعمر حول مصير أبى سفيان .. عمر يطالب برأسه والعباس يجيره . ومحمد صامت لا يتكلم ..

وقال العباس غاضبا : « مهلا يا عمر والله لو كان من عشيرتك ما طالبت برأسه ولكنك قد عرفت أنه من رجالنا » فقال عمر منكرا :

«مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك . يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام أبى لو أسلم وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم» .

وعلى هذه الكلمات الرقيقة التى قالها عمر صفت نفس العباس .

وقال محمد : «إذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به ..» وانصرف أبوسفيان مع العباس إلى خيمته .

ومضى محمد يضع خطة دخول مكة ..

قسم الجيش أربعة أقسام : الميسرة وعليها الزبير بن العوام ، واليمنه وعليها خالد بن الوليد ، والقلب وعليه أبو عبيدة بن الجراح .. أما الطليعه فقد جعل عليها سعد بن عبادة .. كان كل القواد من المهاجرين إلا سعدبن عبادة الأنصارى ..

حتى إذا أصبح الصباح جمع محمد قواده وأمرهم أن يدخلوا مكة بأقل ما يمكن من الدماء ، فما اختارهم من المهاجرين إلا لأنه يعلم أنهم لن يثخنوا فى أرض الوطن ..

ولكن سعد بن عبادة خرج من عنده يتطوح متوعداوهو ينظر إلى مكة من بعيد قائلا «اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة» ..

أية حرمة ياسعد ؟!

إنها لحرمات هؤلاء القادة والجنود من أهل مكة ! وحرمات محمد نفسه ! ..

كم من رجال القبائل الأخرى يمنون النفس بسبايا من القرشيات الجميلات !

واتجه عمر بن الخطاب إلى محمد قائلا : « يا رسول الله ، أسمعت ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ».

فقال محمد لعلى بن أبى طالب : « أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها ! ».

وقبل أن يأمر محمد جيشه بالتحرك أقبل عليه عمه العباس بأبى سفيان فقال محمد : ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ ! » .

وقال أبو سفيان .. « بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عنى شيئا بعد » .

— « ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله .. »

— « بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك .. أما هذه إن فى النفس منها حتى الآن شيئا .. فأرجئها . »

ولكن العباس قال له : ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك .

ومازال به يناقشه حتى أعلن أبو سفيان أنه قد دخل الإسلام .. فقال عباس لابن أخيه : يارسول الله إن أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا .

فأعلن محمد : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

ووقف أبو سفيان يتأمل الجيش .. وينظر فى رايات القبائل المختلفة متعجبا كيف استطاع محمد أن يضم إليه كل هؤلاء .. ثم انصرف يبلغ أهل مكة ما رآه وقال للعباس وهو ينصرف :

ـ لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

وأجابه العباس : « إنها النبوة » فقال أبوسفيان ضاحكا فى إذعان : « فنعم إذن ؟ »

وأقبل اثنان من سادة قريش وتشفعا أم سلمة عند زوجها فكلمته أم سلمة فيهما فقالت يا رسول الله ابن عملك وابن عمتك ، فأجابها : « لا حاجة لى بهما أما ابن عمى فهتك عرضى ، أما ابن عمتى رصهرى فهو الذى قال لى بمكة ماقال » .

فلما سمعارده قال أحدهما « والله ليأذنن لى أو لآخذن ولدى بيدى ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا » ..

وسمع محمد مايقوله الرجل وأدرك أنه مستعد أن يحمل أهله ريضرب فى التيه كطريدى اللعنات حقا ، فرق له وأذن لهما كليهما فدخلا عليه وأسلما .. وانضما إلى الجيش .

أما أبوسفيان فقد وقف خطيبا فى أهل مكة : « يامعشر قريش هذا محمد قد جاءكم بمالا قبل لكم به فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » .

وصرخت زوجته هند بنت عتبة فى وجهه تلعنه ، وتنعته بألفاظ فاحشة أمام الجميع وتحرضهم على قتله .

أما الذين كانوا يتوقون إلى لقاء محمد من سادة مكة فقد اندفعوا إلى دار أبى سفيان وقد وجدوا السيف يسقط فجأة بعيدا عنهم .

أما الآخرون فقد كانوا يعرفون أن أباسفيان هو ألد عدو لمحمد ، وأشدهم عنادا وصلفا فما باله اليوم يعلن أنهم لا قبل لهم بالجيش الذى جاء به محمد ..

وآثر بعضهم العافية ودخلوا إلى دورهم — لا إلى دار أبى سفيان — فأغلقوا عليهم أبوابها وقرروا ألا يقاوموا .

ولكن عكرمة بن أبى جهل نادى جيش مكة أن يخرج إلى المقاومة .

وخرج فيمن استطاع أن يجمعه من الفرسان .. متجها إلى الناحية التى يتقدم منها خالد بن الوليد .

وأمر محمد جيوشه أن تتقدم لتدخل مكة من كل أقطارها فى وقت واحد على ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم .. ولكنه ذكر لهم عشرة رجال وامرأتين أمرهم أن يقتلوهم حيث وجدوهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة .

كان منهم جاريتان تغنيان بهجائه فتذيع أغانيهما هنا وهناك .. وكان منهم رجل أسلم وعهد إليه محمد بكتابة القرآن ، ولكن الرجل كان يغير فى القرآن على هواه .. يمليه محمد « وهو السميع العليم » فيكتب وهو الخبير الحكيم .. ثم يذهب إلى المنافقين فى المدينه ويتندر بما صنع ..

وظل يصنع هذا حتى اكتشف محمد أمره . فهرب إلى مكة وظل يهزأ بمحمد وبالقرآن ويؤكد للناس أنه حرف كثيرا من آياته لم يكتشفها محمد بعد !

ورجل آخر كان محمد قد دفع له دية عن أخ قتل خطأ ، فقبل الدية ثم وثب بالقاتل فاغتاله وهرب إلى مكة

ورجل ثالث كان محمد قد أرسله بجمع الصدقات وأرسل معه أحد أتباعه فلما جمع الصدقات أخذ يختلس منها وينفق على نفسه ، ونبهه التابع

فكبر عليه الأمر فقتل التابع وهرب بالصدقات إلى مكة يسخر من محمد الذى يسوى بين السادة و الأتباع وكان للآخرين جرائم مشابهة ! .

وأعطى محمد إشارة البدء بالهجوم .. وتقدمت الجيوش الأربعة إلى مكة لا تلقى مقاومة . . وتقدم خالد بن الوليد بجيشه فاصطدم بجيش عكرمة ..

وبعد سويعات قلائل كان خالد قد استطاع أن يهزم جيش عكرمة بعد أن قتل منه نحو عشرين رجلا .. وفر عكرمة إلى الصحراء ... وتقهقر جيشه المهزوم إلى مكة .. فالقى الرجال السلاح ، ولجأ بعضهم إلى المساجد وأغلق بعضهم على نفسه باب داره ، ودخل بعضهم دار أبى سفيان .

وفى الصباح التالى كانت مكة تفتح أبوابها على مشرق الشمس لاستقبال محمد ! .

ومن هنا خرج وحيدا خائفاً يصحبه أبو بكر إلى مصير مجهول ، وها هو ذا يعود اليوم فاتحاً ظافراً وإلى يمينه أبو بكر نفسه . ! !

ونزل من على جبل الصفا متجها إلى الكعبة ..

من على هذا الجبل نفسه ارتفعت دعوته .. كانوا إذ ذاك نحو أربعين رجلا وامرأة ..

من على هذا الجبل نفسه وقف وهو الأمين يحدثهم عن الوحى فقالوا إنه كاذب ، وهو الذى لم يعرف عنه أحدمن قبل غير الأمانة والصدق ! .

أبلغهم القرآن فقالوا عنه ساحر ..

دعاهم إلى إله واحد فاتهموه بالجنون ، حدثهم عن النبوة فاتهموه بأنه يريد الملك ، وعرضوا الامارة عليه فرفض فاتهموه بإثارة الفتنة ..

من على هذا الجبل نفسه حمل إليهم رسالة القلم ، هو الأمى الذى لم يقرأ من قبل فقالوا عنه شاعر لبسته الشياطين ! .. ولكنه احتمل وظل يجذب إليه الذين تفتحت قلوبهم للدعوة واحدا بعد واحد ! .. لكم عانى فى الليالى السود واحتمل !

كان عليه أن يبلغ رسالة ضخمة .

ولقد أنذر بها : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » وحمل كل الأثقال وحده ! فى أرض الوطن وفى أرض الهجرة .. ولكنه يعود اليوم فى عشرة آلاف ..

ومشى حيث طاردته الأوحال والسخرية والإهانة وزراية الأغنياء..

وتقدم إلى الكعبة وعلى وجهه ضراعة الحاج الورع ، لا زهو الفاتح المنتصر وتمتم لنفسه وعيناه تدمعان .. « انا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ،ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا » .

إنه ليذكر كل شىء الآن.. إن هذه اللحظة القصيرة لتعكس كل حياته.

إن قصة ماضيه لتنتفض الآن فجأة ... تذكر جده عبد المطلب وعمه أبا طالب .. وتذكر خديجة .. ليتها عاشت لترى هذا اليوم وتنعم ببهجة النصر التى شاركته والضنى فى أول أيام الجهاد .. وتذكر عمه حمزة ! .. ليته عاش ليرى ..

ودمعت عيناه من جديد ! .

ولكن ما بال على بن أبى طالب ينقض على رجل لينتزع منه شيئا .. إنه ينتزع مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة.. لا ..ليبقء المفتاح مع عثمان ! .

ويندفع عثمان بن طلحة دامع العين متأثراً من عطف محمد ، فيعلن دخوله فى الإسلام ..

ويقبل بعض المسلمين يستشفعونه فيمن أمر بقتلهم فيعفو عن معظمهم .. أما الرجل الذى حرف فى القرآن فيعلن توبته ويحرق النسخة المحرفة أمام الجميع ! .

وهو يتجه إلى بئر زمزم ويشرب من مائها إذ برجال يقبلون فيشكون إليه جنده .. لقد نهب بعضهم .. وها هى ذى بنت صديقه أبى بكر قد نهب عقدها من على نحرها ..

ويعلن محمد أنه سيعاقب من ينهب عقابا رادعا ويسأل بنت أبى بكر أن تحتسب عقدها الضائع .. إنه ليعلم أن جيشه فقير .. وأن منهم لمن يطمع فى مغانم مكة ! .. ولكنه يعلن أن مكة حرام ! .

ثم يطالب أبناء قريش المتخمين بثرواتهم أن يدفعوا .. ويفرض على كل منهم قدراً من المال ، يوزع على المحتاجين من رجال الجيش ومن أهل مكة فيحصل كل محتاج على خمسين درهما ! ولكيلا يشعر الفقراء بأنهم أقل ممن يعطونهم قال لهم : ما الذى أعطى عن سعة أفضل أجرا من الذى يقبل عن حاجة .

ويطالب المسلمين أن يشدوا شدة رجل واحد لتحطيم أصنام الكعبة.

ويتقدم هو لتحطيم أول الأصنام ويندفع من ورائه الرجال يحطمون مئات أخرى من الأصنام والتماثيل التى تملأ البيت العتيق .

ثم يعود إلى خيمته ليعلن دستور مكة .. لا قتل بعد ولا قتال .. ولا ربا !! فليترك الناس مابقى لهم من الربا وليكتفوا باسترداد أصل

الدين .. ولتغلق البيوت التى يعرض فيها الرجال بناتهم وزوجاتهم وفاء بما عليهم من ديون . !

وأقبلت نساء كثيرات يبايعنه ... وركعت أمامه إمرأة صغيرة حسناء فأمر بأن تنهض فلا ركوع لغير الله ..

بايعته على الإسلام وسألته العفو عن زوجها عكرمة .. وأمنها على زوجها .. فليعد من الصحراء آمنا .. واندفعت المرأة لتبحث عن زوجها فى الصحارى المترامية ونظر هو إلى النساء اللواتى يبايعنه فارتجفت إحداهن نائلة : نعم أنا هند بنت عتبة ! .

هند .. التى دفعت وحشيا لقتل حمزة ومثلت بجثته فى أحد ، ولاكت كبده وقلبه ! .

وارتمت هند باكية على قدميه « اعف عنى » وأطرق لحظة ثم تلا : « وما بعثناك إلا رحمة للعالمين » وأعلن أنه يعفوا عنها ..

وبايعته على الإسلام وبايعه من معها من النساء ..

فلما أخذ عليهن العهد ألا يسرقن قالت : « هل تسرق الحرة؟ لكن يارسول الله أبو سفيان رجل بخيل وربما أخذت من ماله بغير علمه ما يصلح ولده » ..

وكان أبوسفيان حاضرا فضحك عمر وهو ينظر إلى وجه أبى سفيان .. وقال أبوسفيان : أنت فى حل مما أخذت ..

وعاهدهن محمد على ألا يزنين فقالت هند : « وهل تزنى الحرة يارسول الله » ثم عاهدهن على ألا يقتلن أولادهن فقالت هند : « والله قد ربيناهم صغارا حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارا » .

وإذ ذاك ضحك عمر حتى مال . وبعد أن تعاهدن ألا يأتين ببهتان ولا يعصين فى معروف استغفر لهن ، وبايعهن عمر نيابة عنه .

وانصرفت هند .. ومن معها من النساء .. وتبعها نساء ورجال كثيرون يعلنون الإسلام ويأخذون عليه العهد أن ينفذوا تعاليمه .

وعاد إلى الكعبة فوجد زعماء قريش بها يتشاورون .. إنهم الآن جميعا فى قبضة يده وما منهم رجل لم يسىء إليه .. ولكنه قال لهم : « يا معشر قريش.. الناس من آدم وآدم من تراب..إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. يا معشر قريش ما ترون أنى صانع بكم .. » قالوا : « خيرا أخ كريم وابن أخ كريم « قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وجاءه رجل كان قد بالغ فى إيذائه وهو فى مكة .. ولاحظ أن الرجل يخشاه ويهيبه حتى يرتعد أمامه ، وابتسم قائلا : « هون عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد فى مكة ! »

وضاق بعض المسلمين لأنهم كانوا يريدون أن يثأروا من أهل قريش .... وتهامس الأنصار أن دولة المدينة قد زالت فسيقيم محمد فى مكة فهى بلده ....

ولكنه سمعهم فقال لهم «معاذ الله، المحيا محياكم ، والممات مماتكم »

لن يغير عاصمته إذن .. وسيعود إلى المدينة .. لكن بعد أن يفرغ من تحطيم الأصنام التى تعبدها بعض القبائل المجاورة لمكة . يجب أن يهدم معبد العزى فى وادى نخلة .. وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد أن يستعد ! ..

إنطلق أصحابه فى ــ مكة ــ مدينتهم الكبيرة العزيزة التى ملأوها ذات يوم بالضجيج والزحام ، والضحكات والغزل ، يطلبون إلى الناس أن يسلموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون مهما تكن جسامة ما سبقوا به من إساءات !

طاف أصحابه على التجار والصعاليك ، وعلى البيوت التى تألقت بمرحهم فى الأيام الخالية فساقوا كثيراً من الأغنياء والنساء والخمارين ليعلنوا توبتهم مما سلف وليدخلوا فى الدين الجديد .. وأذنوا فى مكة : « من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعن فى بيته صنما إلا كسره أو حرقه فثمنه حرام » .

وانقض أهل مكة على أصنامهم التى احتفظوا بها فى البيوت يحطمونها أو يحرقونها . !!

لم تكن هى ما يصد بعضهم الآن عنه فما أغنت عنهم هذه الأصنام شيئاً ، وما انتفعوا بما يعبدون كما انتفع المسلمون بمعبودهم هذا الذى يسمونه « الله الرحمن الرحيم ! » .

ولكن الذى صد بعض قريش عن محمد حقاً ، هو ما يدعو إليه : أن يتساوى السادة والعبيد وأن يعفو صاحب الحق عمن أساء إليه ، ثم

هذه الأخوة بين الناس مهما تكن أنسابهم وأحسابهم.. وقبل كل شيء، هذا البذل من أموالهم من أجل المحتاجين وأبناء السبيل .

على أنهم وجدوا محمداً ينتصر ، ويدخل عليهم مكة عنوة . فما بقاؤهم بعد على مخالفته ! ؟ .

فلينضموا إليه ، فربما جعلهم الإسلام أسعد حظاً وربما نالوا بعض المناصب أو المكاسب في الدولة التي يحكمها محمد ! ..

ولم يشأ محمد أن يرفض يداً ، متدالية بالمبايعة فما له من سبيل على القلوب .. وتقبل انضمام أهل قريش إلى الإسلام بنفس راضية وتطلعت عينه إلى المعاقل البعيدة حيث ما زالت تقف أصنام أخرى ، وتسود قيم أخرى .. لقد هدم تماثيل هبل واللات والعزى ومناة من فناء الكعبة ومن بيوت أهل قريش .. ولكن ثمت معابد ضخمة لبعض هذه الآلهة في وديان متناثرة ، حيث تعيش قبائل قويه يرفض سادتها المساواة ويقيمون نظامهم الاجتماعي على التحكم وسيطرة الغنى والحسب .

وجهز خالد بن الوليد بعدد من الفرسان وجهز غيره من القواد ووجههم إلى هذه المعاقل .

واستطاع خالد أن يقتحم بفرسانه وادي نخلة، ودخل معبد العُزّى فحطم تمثالها الكبير ، وإذ ذاك برزت له من وراء التمثال إمرأة عارية تصرخ وتولول .. وذعر جنود خالد وفروا .. فهذه هي روح العزى خرجت لتنتقم وتصيب من يتعرض لها بالبرص ! !

إنها لا تموت ! .

عبثا حاول خالد أن يحرر قلوب المسلمين الجدد من سيطرة تقاليد الوثنية !

عبثاً حاول أن يقنع فرسانه بأن هذه التى برزت عارية أنما هى إمرأة :

إمرأة تُعبَد عارية ! .. وهى من أجل ذلك ليست أخطر شأناً من نساء يبعن المتاع فى بيوت عرفوها قبل الفتح فى مكة كانت تخفق عليها الرايات ! !

وتقدم خالد بنفسه إلى المرأة ليؤكد لرجاله أنها مثلهم من لحم ودم لاروحا خالدة .. إمرأة يمارس معها كهنتها عبادة الجسد ! وضربها خالد بسيفه ، فسال الدم منها .. وماتت كما يموت كل النساء !

وتابع خالد حملاته على المعاقل الأخرى كما اندفع رجال من المخلصين السابقين إلى الإسلام مثل عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام ، وإندفعوا جميعاً يهدمون الأوثان ويدعون القبائل إلى الإسلام .

ولكم مروا بقبائل مسلمة .. كانت عدوا لهم بالأمس .

كان عليهم أن يضعوا الثارات القديمة تحت أقدامهم وأن يقبلوا أخوّة الذين خاصموهم بالأمس . ماداموا كلهم قد أصبحوا مسلمين ! إن هذه الأخوة لهى روح الدين الجديد .

غير أن خالد بن الوليد مر بقبيلة كانت قد قتلت أباه ، وخرج إليه رجالها فى سلاحهم فسألهم عن دينهم فقالوا له صبأنا ، وكانوا يعنون أنهم خرجوا عن دينهم القديم .. وأسلموا ولم يرق له أنهم لا يصرحون بالإسلام .. أمرهم أن يضعوا السلاح حتى إذا وضعوه أسرهم جميعاً وقتل منهم كما شاء .. وعندما بلغ محمدا أمر هذه المذبحة أعلن براءته مما صنع

خالد ، وأرسل على بن أبى طالب ليسترضيهم ويدفع دية القتلى .. وعنف خالدبن الوليد وحاكمه .. فأكد خالد أنه لم يفهم منهم قولهم «قد صبأنا» وما أغراه بقتالهم إلا أنهم خرجوا إليه فى السلاح .. !

وتبين محمد أن خالدا أساء الفهم وأساء تقدير الموقف فاكتفى بلومه وتعنيفه ..

على أن خالدبن الوليد لم يكد يلقى عبد الرحمن بن عوف حتى عنفه عبد الرحمن وقال له : «إنما ثأرت لأبيك» وأغلظ خالدبن الوليد لعبدالرحمن ابن عوف وقال له «كذبت» .. وبلغ ذلك محمدا فأرسل يستدعى خالد ابن الوليد وقال له «مهلا ياخالد ، دع عنك أصحابى فوالله لوكان لك جبل مثل أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته» .

واعتذر خالد ، وبقى لحظة تحت طرقات الندم .. إن كبرياءه ليست فوق هؤلاء السابقين إلى الإسلام ، إنه ليس فوق الخطأ .. ثم خرج فاعتذر لعبد الرحمن ابن عوف .

وعاد على بن أبى طالب بعد أن أسا جراح القبيلة التى فتك بها خالد يحمل أنباء استعداد الطائف للهجوم على مكة .

فوجىء المسلمون جميعاً بهذه الأنباء ولكنها تأكدت عند محمد .

والطائف بلد كبير مزدهر وغنى كمكه ، ولقد تحالف بعض تجار الطائف مع تجار قريش ، منذ ظهرت فى المدينة سوق تجارية .. وتعاونت التجارتان معا فى وجه المدينة .

ولكن تجار المدينة قد فتحوا مكة الآن وانضمت إليهم قريش ، واذعن أبو سفيان ، فشعرت الطائف أنها مهددة بالضياع حقاً !.

وجمعت الطائف كلّ القبائل التى لم تتحالف مع محمد بعد وقررت أن تزحف إلى مكة فتستولى عليها فيرث تجار ثقيف مكانة تجار قريش وتجار المدينة جميعاً .. وتحكم ثقيف الحجاز كله ، ويصبح آلهتها — بدلا من إله محمد — هم آلهة الجزيرة جميعاً ! .

ودخلت فاطمة ذات مساء على أبيها لتجده مهموماً حزيناً يفكر .. يجب ألا ينتظروا حتى تدهمهم ثقيف وحلفاؤها بجنود لم يعرفوا مثلها من قبل .. عشرون ألفاً من خير المحاربين فى الصحراء معهم العبيد المدربون وآلات جديدة للقتال زودهم بها فلول اليهود الذين تاهوا فى الجزيرة يؤلبون ضد محمد ويبذلون المال والنصيحة والنساء والأدوات الحديثة الفاتكة ! .

مهما يكن من شىء فيجب ألا ينتظر حتى يزحف الجيش إلى مكة .. فمكة ليست ذات أسوار .

ولئن دخلوا مكة لسحقوا كل شىء ، ولخربوا أرض الحضارة التى سقاها الشهداء بالدم المسفوك .

وقام محمد يستقبل بنته فاطمة فقبلها وأجلسها إلى جواره كما تعود وحاولت فاطمة أن تخفف عنه .. إنها لا تبالى بالضرة !.

ماهذا الذى تقوله فاطمة ! .. فى أى شىء تفكر هى إذن !؟

واضطربت فاطمة فقد كانت تحسب أن أباها يعلم ! ونظرت فى وجوه أصحابه المقربين الذين يجلسون معه تسألهم بنظراتها إن كان

بوها لايعلم .. ولكنهم كانوا أيضاً لايعلمون .. لاأحد يعرف أن زوجها
على بن أبى طالب قد فتن بابنة أبى جهل الصغيرة الجميلة الغنية فأراد
أن يتزوجها على فاطمة التى تعتل صحتها من كثرة ما تكابد ويزيدها
أنها تصبح فى أيام كثيرة ومالها من طعام تأكله !

وقالت فاطمة « زعم قومك أنك لاتغضب لبناتك ، وهذا على قد
خطب بنت أبى جهل ! » .

علىّ الزاهد ! ..

أبعد أن شاركته فاطمة اللحظات الحالكة من العمر وولدت له
البنين . واختلطت دموعها بدموعه فى أيام الهزيمة وتألق قلباهما بالأمل
معا .. أبعد هذا كله يضعف علىّ حين يدخلون مكة فيدير رأسه جمال
بنت أبى جهل ويُطمعه مالها ؟ !.

وأرسل يستدعى على بن أبى طالب وقد انتفض فى جبينه العِرْقُ
الذى ينفر عند الغضب ، وغام وجهه من الضيق !

وأقبل على فابتدره محمد قائلا : « إنى زوجت أبا العاصى من بنتى
زينب فحدثنى وصدقنى ووعدنى فوفى لى ، وكذلك فعل عثمان ، وإن
فاطمة بضعة منى وإنى أكره ما يسوءها ، والله لاتجتمع بنت رسول الله
وبنت عدو الله عند رجل واحد » أجل ياعلى .. فما جدوى زواجك من
بنت أبى جهل .

لقد أعجبك حسنها ، وفتنك مالها .. هذا هو كل ما فى الأمر ..
عليك أن تتركها أو تترك فاطمة ؛ أم البنين !

وخرج على ففسخ خطبة بنت أبى جهل .. وعاد يعتذر لفاطمة

ومحمد ما برح يفكر فى الجيوش الزاحفة ويستشير أصحابه .

ورجع علىّ منكس الرأس تحت وطأة الخجل ، فأعلن أنه فسخ خطبة بنت أبى جهل .

ولم يكن الوقت صالحا للحديث فى الأمر مرة أخرى ، فحدثه محمد عن القوات التى تحشدها ثقيف وسأله الرأى كما سأل الصحاب الآخرين .

وتشاوروا طويلا ، ماذا يريد أصحاب مزارع الطائف ، وملاك البساتين وحدائق الكروم هناك ؟ . ماذا يريد أصحاب الحانات ومعاصر الخمور وتجار الرقيق وموردو أجمل الفتيات إلى بيوت مكة ! ماذا يريد الذين يكونون ثرواتهم من تربية الخنازير ومن الربا !

ليست السيطرة على مكة هى مايحرك سادة ثقيف وإنما البطش بمحمد وطمس كل تعاليمه ، لتحرير مصيرهم وثروتهم وحياتهم المترفة من تهديد هذه التعاليم ! .

إن محمدا لاينسى أبداً كيف طاردوه عندما ذهب إليهم منذ أعوام قبل الهجرة .. لقد عذبوه وامتهنوه أكثر مما صنعت قريش ، وحرموه حتى الماء ولم يتركوه ليستريح على أسوار المدينة ، وظلت الحجارة والسخرية تنهال عليه من كل جانب ! .

حتى المستضعفين الذين فتح عيونهم على طريق الخلاص أغمضوا عيونهم عن الطريق .. كانوا هم أيضاً قد سقطوا تماما فى قبضة السادة ملاك البساتين والخمارات والمرابين ومصدرى الجوارى وتجار الخنازير ..

ولم يعد يشغل عقولهم غير القيم التى فرضها السادة على الحياة جيلا بعد جيل .

من هؤلاء المستضعفين . ومن مستضعفين آخرين من القبائل المجاورة للطائف ، استطاع سادة بنى ثقيف أن يحشدوا اليوم عشرين ألفاً من أفتاك المقاتلين ليفتكوا بمحمد ويقتلعوه من الأرض وليستولوا على مكة والمدينة .. فيمتلكوا الكعبة وأسواق المسلمين ..

ورأى محمد أن يخرج بجيشه الذى فتح مكة فيلقى حشود ثقيف وحلفاءها فى الصحراء قبل أن يتمكنوا من محاصرة مكة .. فإن جيشهم ليضم بقايا من اليهود الذين حملوا معهم إلى الطائف كل غيظهم من محمد، وكل أحقادهم ، وتقدمهم فى صناعة السلاح ، وفنون القتال وانضم إليه من قريش ألفان من الرجال ! ..

واستعار من تجار مكة بعض الدروع والأسلحة .. وولى على مكة أحد شبانها من المسلمين القدماء .

وقاد محمد الإثنى عشر ألف مقاتل .. ووصل بجيشه إلى وادى حنين .. والليل يهبط !

وأمر جيشه أن يعسكر فى الوادى وخرج محمد إلى العراء يصلى بين خيمتين له ، فى إحداهما زوجته أم سلمة وفى الأخرى زوجته زينب بنت جحش ! لقد لقى الأحزاب من قبل وهو فى مدينته ، ولكن المقاتلين الذين جمعتهم سادة ثقيف شىء آخر . وإنهم ليخوضون اليوم معركتهم الفاصلة .

وفى هدأة الليل سمع المسلمون أصوات رجال ونساء يعسكرون .. كانت ثقيف وحلفاؤها يعسكرون فى واد قريب .. وحمل هؤلاء الليل

البارد إلى آذان المسلمين صوت رجل عجوز من معسكر الأعداء يقول لمن حوله : « ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير » ..

كان هو الشاعر دريد بن الصمة أقبل بأعوامه المائة بكل تجاربه لها فى الفتك والمعارك ! .

وارتفع من معسكر ثقيف صوت يرد على دريد: « سقتُ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم ماله وأهله ليقاتل عنهم » .

وأدرك المسلمون مما سمعوه أن عدوهم يخوضون معركة الحياة أو الموت حقاً !.

وعلى أول شعاع من الفجر أمر محمد جيشه أن ينحدر إلى الوادى الفسيح .

أمرهم أن يتبينوا طريقهم جيداً قبل أن يتقدموا حتى لا يفاجئهم العدو من شعاب المنحدر ! .

إنهم اثنا عشر ألفا .. عشرة آلاف حققوا فتح مكة ، وألفان من مكة .

وتقدم المسلمون .. فى الطليعة خالد بن الوليد على رأس فرسان بنى سليم على خيولهم الصهالة ، مزهوين بسمعتهم الحربية وبما حققوه من انتصارات تحت راية محمد .

وتدافع وراءهم الجنود صفاً بعد صف .. وقد أعجبتهم كثرتهم وهم يملأون الوادى ، حتى لقد نسوا أوامر قائدهم أن يتحسسوا طريقهم وألا يتقدموا خطوة إلا بعد أن يتبينوا أنهم آمنون .

وفجأة .. وهم يتخايلون بكثرتهم إنهمرت عليهم السهام كالأمطا
من شعاب كل المنحدرات المحيطة بالوادى . وانفجر الرعب من ك
المضايق وبرزت كتائب بنى ثقيف وحلفائهم تحاصرهم من كل أقطارهم

واضطربت الخيل والإبل ،وفر فرسان بنى سليم من حيث أقبلوا.
وعماية الفجر تحجب عنهم الكتائب التى تهبط من مضايق المنحدرات
المحيطة بالوادى .. وتتابع فرار الجنود المسلمين .

وتلفت محمد فجأة فلم يجد من كل جنوده الإثنى عشر ألفا غير
عشرات قليلة من المسلمين الأوائل ومن أهل بيته على رأسهم أبو بكر
وعمر وعلى والعباس وأسامة بن زيد ! ! .. ستبيدهم ثقيف جميعاً بلا مراء !

وصرخ محمد فى جنوده الفارين : « إلى أين أيها الناس ، هلموا إلىّ.
أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله فقال له أحد من وقف معه فى يأس :
« فلا شىء ! حملت الإبل بعضها على بعض فانطلق الناس »

وخلال الهرج تقدم رجل من المسلمين يحاول طعنه بثأر أب له مات
فى أحد . ولكن عمر قتل الرجل !

مرة أخرى كما حدث فى أحد يعصونه ثم ينهزمون عنه . ويفرون ..
مَن من صحابه المقربين اليوم يلقى مصير حمزة !

وارتفع صوت أبى سفيان من بعيد يقول فى شماتة وهو يجرى ويغرى
من معه بالفرار : «لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .. وصاح أحد فتيان
قريش وهو يفر ضاحكا : « ما جئنا إلا لنلتمس نساء الطائف الجميلات ».
وتختلط صرخات الفزع بضحكات الشامتين ومحمد يصرخ فى الناس
بلا طائل .. ثم يندفع على ظهر بغلته ليقتحم كتائب عدوه ولكن عمه

العباس عنه ويلوى زمام البغلة ويصيح العباس فى الفارين بلا جدوى.. ويأمره محمد يا عباس : « اصرخ يا معشر الأنصار » ويصرخ العباس : « يا معشر الأنصار » .

فتجيبه بعض أصوات « لبيك لبيك » .

إن ألفين من قريش على رأسهم أبو سفيان اعتنقوا الإسلام خوفا أو طمعاً ،قد جاءوا معه اليوم لا لينصروه بل ليخذلوه وليشيعوا الانهزام بين المجاهدين القدماء !!

وفى هذه اللحظات الحاسمة يتذكر بعضهم قتلاه الذين سقطوا قديماً فى بدر ويحاول أن يعمل سيفه فى المسلمين الأوائل ! .

فلينذرهم إذن ..

فلينذر هؤلاء الألفين ، وليعتمد على المهاجرين والأنصار الذين خاضوا معه المكاره خلال الأعوام القاسية الماضية ، وخرجوا معه فى كل مرة يبتغون الاستشهاد .. لا السبايا الجميلات والغنائم .

وظل العباس يستصرخ الأنصار ..

وثاب بعض الذين كانوا يفرون .. ورأوا العباس ومن معه يحيطون بمحمد ويجعلون من أجسادهم دروعا له ..

عادوا إليه .. واحداً بعد واحد .. الأنصار ثم المهاجرون .. وعاد خالد بن الوليد .. كلهم يقسم أن يدفع حياته اليوم تكفيراً عن الفرار .. حتى إذا اجتمع منهم مائة رجل جعلهم محمد تحت قيادة على بن أبى طالب وأمرهم أن يخوضوا فى قلب جيش العدو.

واندفع علىّ ، فعمد إلى قائد جيش العدو الذى يحمل رايته فضرب ناقته حتى إذا هوت به . بارزه فطعنه .

وسقطت الراية وسقط القائد .. فدبت الشجاعة فى قلوب بعض الفارين الذين وقفوا يراقبون المعركة من مشارف الوادى .

ووجدوا بعض النساء يندفعن من معسكر المسلمين فيقتلن رجالا من الأعداء .. واستحى كثير من الفارين فعادوا .. وانضموا إلى إخوانهم بينما كان على وعمر والعباس يعتمدون إلى سادة العدو ويبارزونهم فيصرعونهم

وأمر محمد جنوده العائدين بعد الفرار ألا يخوضوا معركة الوادى وليحاصروا العدو ويرموه بالسهام من المرتفعات ..

ودب الذعر فى جنود العدو حين وجدوا سادتهم يسقطون الواحد بعد الآخر .. وقلة من جيش المسلمين يتوغلون فى صفوفهم والآخرون يحاصرونهم من مشارف الوادى .

وأسرع الرجال من معسكر العدو يفرون على حين كان معظم الذين فروا من معسكر المسلمين يعودون حتى بعض الذين كانوا يسخرون فى شماتة أول الأمر ..

عادوا الآن بعد أن قدروا أنه من الممكن أن ينتصر محمد .. فليشاركوا فى الحرب ليظفروا بأسلابها وأمامهم الأموال والنساء الجميلات .. بدلا من أن ينتصر محمد بدونهم ، فيا سبهم على الفرار !!

ولم تكد الشمس تميل للمغيب حتى كانت ثقيف قد انسحبت لتعتصم بمدينتها الطائف خلف حصونها .. وكان الصناديد من حلفائها يفرون تاركين النساء والأموال .

ووقع أحد فتيان المسلمين على دريد بن الصمة فهم بأن يقتله ولكنه لم يحسن استعمال السيف فقال له دريد بئس ما سلحتك به أملك ، وعلمه كيف يستعمل السيف ، وحين عرف ابن الصمة أن الفتى من بنى سليم قال

له : «إذا اتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم والله قد منعت فيه نساءكم » كان دريد فى غزواته السابقة قد أعتق أمهات له ثلاثاً أمه وجدته وأم جدته ! !

وأمر محمد أن يوضع الأسرى والغنائم فى مكان أمين .. وجعل بعض صحابه حراساً على الغنائم والأسرى من النساء والأطفال ، وقاد جيشه إلى الطائف ليقتحمها على ثقيف التى اعتصمت وراء أسوارها !

وفاضت الذكريات من نفسه أمام هذه الأسوار ! .. هنا فى هذا المكان بالتحديد جلس يبكى بعد أن امتهنوه وطردوه من الطائف منذ سنوات طوال !

وأرسل محمد إلى بنى ثقيف من يطلب إليهم التسليم .. ولكنهم رفضوا وأقسموا ألا يستسلموا حتى يدخل عليهم الطائف عنوة ..

وظلوا يرمون جيشه بالسهام .. والذين فروا عنه فى أول غزوة حنين يتبارون الآن فى الأعمال الفدائية أمام أسوار الطائف ، حتى لقد فقد أبو سفيان عينه فى بعض هذه الأعمال ولكن كل هذا كان بلاجدوى .

وقدر محمد الموقف ، فرأى أن ينسحب بجيشه على أن يعود إلى حصار الطائف مرة أخرى .

وبعد أن أنفق عشرين يوما فى الحصار ، مضى عنها قبل أن يتحول الأمر إلى هزيمة تفسد انتصاراته .. حتى إذا بلغ المكان الذى ترك فيه الأسرى والغنائم أمرهم أن يحصنوا الغنائم فإذا هى ثروة ضخمة تبلغ أربعين ألفا من الإبل ومثلها من الغنم وأربعة آلاف أوقية من الذهب .. ثم أحصوا الأسرى فإذا هم ستة آلاف أسير معظمهم من النساء .

وأقبلت وفود القبائل التى حالفت بنى ثقيف ، تلتمس منه الإفراج عن أسراها من النساء .

ولمح من بين الوفود وجها حبيبا إليه .. وذكر أمه فجأة ! !
وشيئاً فشيئاً تذكر صاحبة هذا الوجه .. إنها لمرضعته حليمة السعدية .

وقام مرحبا بها وفرش لها بردته فجلست عليها ، واستجاب إلى طلبها فافرج عن كل نساء قبيلتها ورد إليهم أموالهم.. بعد أن استأذن صحابه .

وكان لهذا العمل أثره فى نفوس وفود القبائل فاعلن كثير منهم إسلامهم .

وعاد يحصى ما بقى من الغنائم والسبايا ، وسمع همهمة .. أنه سيرد الغنائم والسبايا الجميلات إلى أهلهن .. ففيم إذن كان القتال ؟ !

لماذا إذن بعدما فروا وأمنوا على أنفسهم ، رجعوا وعرضوا اعناقهم على سيوف العدو أمام أسوار الطائف إن لم يكافأوا بالأموال ونساء ثقيف الفاتنات ! ؟

ولم يحفل بما يسمع .. وأرسل إلى سيد بنى ثقيف يعرض عليه أن يرد إليه نساءه وأمواله إن جاءه مسلماً .

على أى أمل يحاربه الآن سيد بنى ثقيف وقد خسر الحرب والمال والأهل جميعاً ؟ ! .

وجاءه سيد بنى ثقيف فرد إليه محمد ماله ونساءه وأولاده .. وأهداه مائة من الإبل ! .

وكسب محمد من تصرفه هذا أضعاف ما كان يمكن أن يكسبه من حرب مع الطائف .. فقد أعلن الرجل إسلامه .. فتبعه عدد من سادة ثقيف ، وتشجع المستضعفون فيها فدخلوا الإسلام جميعاً .

وارتفعت الهمهمة من صفوف المسلمين أن محمدا سيرد الأموال إلى

أصحابها كما رد السبايا .. وبدأ محمد يسمع صيحات الاحتجاج والمطالبة بتوزيع الغنائم .

وفى الحق أنه لم يكن قد حاسب المسلمين على فرارهم بعد .. ولكنه حين سمعهم يطالبونه بتقسيم الغنائم أخذ يؤنبهم على أنهم خالفوه فى أول المعركة ثم فروا عنه من بعد .. وصارحهم بأنه يعلم أنهم استخلصوا لأنفسهم بعض الغنائم من وراء ظهره !

ونصحهم أن يردوها فهذا خير لهم .

ورد كل واحد إليه ما كان قد خص به نفسه .

ولكن صيحات المطالبة بتوزيع الغنائم لم تهدأ، ولم تهدأ أيضاً صرخات الاحتجاج لأنه وزع هذه الغنائم على بعض من يريد أن يتألف قلوبهم ..

وحاول عمر أن يقتل بعض المحتجين لأنهم يحاولون اثارة الفتنة ولكن محمدا أمره أن يتركهم وشأنهم ومضى وهو يقنعهم بصواب ماصنع ... وزاد أن ميز بعض قادة قريش وقادة حلفائه الجدد بأنصبة أكبر عند التوزيع وقال للمسلمين الأوائل : إنه إنما يتألف قلوب المؤمنين الجدد، أما القدامى فانه يكلهم لإيمانهم .. إن قلوبهم لعامرة . فلا يجب أن ينظروا إلى المؤلفة قلوبهم !! .

وأرضتهم هذه الثقة ..

ولكن بعض الأنصار لم يحتملوا أن يجدوا أنفسهم محرومين من الغنائم وهم الذين أنجدوه عند الروع بينما فر عنه رجال يميزهم اليوم مثل عكرمة ابن أبى جهل وأبى سفيان بن حرب .. ومضى إليه سعد بن عبادة قائد الأنصار يقول له :

ــ إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى اصبت . قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاما فى

قبائل العرب .. ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شيء .. فقال محمد :
— فأين أنت من ذلك ياسعد .

وأجاب سعد « ماأنا إلا من قومى يارسول الله » وجمع محمد الأنصار فخطب فيهم فذكر فضله عليهم وفضلهم عليه .. ثم قال لهم :

— أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يرجع الناس بالنساء والعبيد وترجعوا برسول الله إلى رحابكم، فوالذى نفس بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار .

وسلك شعب الأنصار حقا ..

عادوا إلى المدينة وفى الطريق إلى المدينة مر بقبر أمه .

هنا ترقد أرملة صغيرة مات زوجها وهو يبحث عن الرزق، وعانت هى من بعده ورفضت الرجال لتربى ولدها اليتيم .

ثم ماتت هى الأخرى فى الحاجة ... ولكيلا يموت آباء وامهات آخرون فى الحاجة بعد، وانتفض هو يطالب بالعدل والحب، وبأن يكون فى مال الغنى حق معلوم للسائل والمحروم !.

ودمعت عيناه .. هو ذا الغلام الذى تركته يتيما، يحمل اليوم مسئولية التنوير !

تلين له الطائف وتتبعه قريش وترتفع رايته على المدينة وعلى مضارب الخيام العديدة فى الصحارى الشاسعة ! وهو مع ذلك يشعر اليوم على الرغم من كل انتصاراته أنه يتيم حرم حنان الأبوين قبل الأوان وأنه على الرغم من كل شيء لا يملك أمام قبر أمه غير الدموع !! .

وانطلقت قافلة الأنصار إلى المدينة بمحمد فى رحالهم .. بعد أن ترك فى مكة عددا من صحابه يفقهون أهلها فى الإسلام .

بعد عشرين عاما من الضنى والجهد المتصل ومكابدة الأهوال ، أصبح الذين طاردوه بالأمس اتباعا خاضعين .. والذين سخروا به وسبوه وأغروا به السفهاء أقبلوا اليوم يلتمسون منه نظرة أو ابتسامة .. أو أى شىء يشير إلى رضاه عنهم .. البيوت التى أغلقت فى وجهه تفتح اليوم ، والأسوار تلين وأكاليل الغار تضفر ! .

ولكن لا أكاليل الغار ، ولا الملك ، ولا ابهة السلطان ولا شىء من هذا كله ، كان من بين مايبحث هو عنه .. !

لقد جاء يحمل كلمات مضيئة إلى الناس .. وما كان يلتمس غير الحقيقة .

وكل ماينشده الآن هو أن يجمع هؤلاء العرب المتنافرين تحت راية واحدة ليكونوا أمة واحدة ، يتحرر فيها الإنسان من سيطرة كل قوى الظلام ..

وهاهو ذا اليوم بعد عشرين عاما ، واجه خلالها الموت نفسه ، وعانى من طمع الأتباع ، وغدر الحلفاء ، والوصوليين ، والمنافقين وقسوة الخصوم .. هاهو ذا فى مدينته التى اختارها منذ عشرين عاما للحياة والموت ، ومازال يوجع جسده الحصير .. ومازال يقعد فى البيت حتى يغسل ثوبه ومازال يشد بطنه على الجوع .. ووفود القبائل من هنا وهناك

تقبل إليه فى المخمل والحرير والبرد المنسوج بخيوط الذهب ، تلتمس منه نظرة أو ابتسامة أو أى شىء يشير إلى رضاه .. !

ويدخل عليه عمر بن الخطاب فيقول له « يارسول الله إن الناس يزيدهم حرصاً على الإسلام أن يروا عليك زيا حسنا من الدنيا فانظر إلى الحلة التى أهداها لك سعد بن عبادة فالبسها ..

وينظر محمد إلى أبى بكر فيؤيد أبو بكر كلام عمر ويضيف « فليروا اليوم عليك زيا حسنا » ويبتسم هو قائلا .. افعل والله ، لو أنكما تتفقان على أمر واحد ماعصيتكما فى مشورة أبدا .

ويقوم إلى وفد الطائف .

جاء وفد الطائف يعلن الدخول فى الإسلام ولكنه يريد أن يناقشه فى بعض المسائل ! .

إنهم ليطالبونه أن يبقى لهم آلهتهم لبعض الوقت .. فسيأتى الناس إلى الطائف ملتمسين بركة هذه الآلهة وتقوم حولها سوق تجارية ، بعد أن تخلصت الكعبة من آلهتها .

ولكنه يرفض .. ويخفف عليهم فيأمر غيرهم بتحطيم هذه الآلهة ..

ويناقشونه فى الزكاة ولكنه يصمم على أنها حق الفقير فى مال الغنى .. ويسألونه أن يجعل للطائف مكانة مثل مكة فبنو ثقيف ليسوا أقل من قريش .. فيعلن أن الطائف حرام كمكة .

وينصرف وفد الطائف .. ليقبل الشاعر الكبير كعب بن زهير بن أبى سلمى .

لكم تمنى أن يكسب الإسلام هذا الشاعر ، والشعراء الإخرين الذين

تتغنى الجزيرة بأشعارهم مثل لبيد وعمرو بن معد يكرب كما كسب الإسلام حسان بن ثابت من قبل ! .. لقد تألف قلوب بعض سادة القبائل بمئات من الإبل وإنه ليبذل أكثر من هذا ليتألف قلوب هؤلاء الشعراء .. فما من سيف كان أمضى من قصائد الشعراء المسلمين فى المعارك الكبرى .. وما من طعنات كانت أقسى عليه من أهاجى أعدائه الشعراء ! .

وقام مرحبا لاستقبال كعب بن زهير .. وأنشده كعب قصيدة طويلة بدأها بقوله :

بانت سعاد فقلبى اليوم مشغول   متيم إثرها لم يفد مكبول

ثم خلص منها إلى الاعتذار عما سلف ثم مدحه بأبيات كثيرة حتى إذا بلغ من القصيدة قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

هتف محمد معجبا . فقام إلى كعب يعانقه وخلع عليه بردته .. البردة الرائعة التى أهداها إليه سعد بن عبادة ! .

وعاد كعب بن زهير سعيدا بهذا اللقاء . يعلن اسلامه فى كل مكان ويكتب القصائد فى فضائل الدين الجديد .

ودخل محمد إلى بيته ليلقى من ينعى إليه ابنته زينب .

لم يستطع أن يتمالك نفسه ، فبكى .. على أنه لم يكن يعود إلى داره بعد أن واراها التراب ، حتى كانت يد الحياة تمتد إليه لتأسو هذا الجرح الجديد .. ولدت له مارية المصرية ولدا ذكرا .. وهو الذى لم يعش له ولد من قبل .. وليس الذكر كالأنثى .. وأسماه ابراهيم ! .

ولم يكن لدية وقت للبكاء ولاللضحك .. فالوفود تقبل بلاانقطاع تعلن الدخول فى الاسلام وتسأله أن يرسل معهم من يفقه الناس فى الإسلام .

كل المبادىء التى جاء بها لم تثر مناقشة مع أحد الوفود.. إلا الزكاة !.
ومن أجل ذلك رأى ألايكتفى بإرسال من يفقه الناس فى الدين .. فالنظام الآن يتطور إلى نحو آخر ..

وبدلا من هذه القبائل المتنافرة أصبح من المحتم أن تقوم دولة واحدة ، عاصمتها المدينة .. دولة تؤمن بنفس القيم وتسودها نفس القوانين .. وينظم العلاقات فيها نفس الدستور .

وعين حكاما على القبائل والمدن البعيدة وعين عمالا للصدقات مسئوليتهم جباية الزكاة وتوزيعها ..من اليمن فى أقصى الجنوب إلى نجران على حدود بلاد الرومان ، مضى رجال مؤمنون بالدين الجديد من صنف آخر غير الذين دخلوا فى الإسلام التماسا لفائدة أو لمنصب .. رجال من الذين كابدوا وعانوا وواجهوا الموت فى مواقع كثيرة ، وفى رأس كل منهم ترسخ نصيحة محمد : أحكم بالقرآن أو بالسنة أو اجتهد رأيك .. والأمرشورى بينكم لاتختلفوا ولاتعلوا فى الأرض مفسدين ..

وكل عامل منهم يحفظ ما كان مع على بن أبى طالب .
سأل على : « يارسول الله الأمرينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة » فأجابه : « اجمعوا له العالمين من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولا تقطعوا فيه برأى واحد » .

* * *

ولكن بعض الذين دخلوا فى الإسلام ليصلوا إلى مغانم أو ليثبوا إلى مناصب ساءهم أن محمدا يفضل عليهم رجالا من الذين جربهم فى معارك سابقة ، وساءهم بصفة خاصة أن تفرض عليهم الزكاة ، وأن يجعل للفقراء فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وكتموا السخط حينا ثم انفجر سخطهم فجأة .

وانتفضت بعض القبائل على الأمراء الذين عينهم .. فسير محمد جيوشا إلى هذه القبائل ليخضعها.. كانت تميم فى مقدمة المتمردين وحين ظفر جيش محمد عليهم ساق منهم الأسرى والأسلاب .. وجاء وفد تميم إليه ولم ينتظروا حتى يخرج إليهم كما تعودت الوفود بل أخذوا ينادونه من وراء الحجرات : « أخرج إلينا يا محمد » .

وضاق بعض المسلمين الأوائل من سلوك وفد تميم ولكن محمدا خرج لهم فى مظهره الورع وثيابه البسيطة وهو يتلو : «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .

وقبل أن يسألوه العفو عن أسراهم طلبوا أن يناظروا رجاله فان انتصر عليهم رجاله أقرت تميم بالخطأ .. وقام خطيب منهم يتكلم وأمر محمد أحد أصحابه أن يناظرهم فقام خطيبا عليهم .. ثم وقف شاعر تميم يفاخر فأرسل محمد إلى حسان بن ثابت ..

وأقبل يرد على شاعر تميم .. ودامت المناظرة طويلا ومحمد ينظر إلى رجاله فى إعجاب ورضا حتى إذا انتهت المناظرة أقرت تميم بتفوق مناظريهم من المسلمين القدامى واعتذرت عما صنعت وسألته العفو ورد الأسرى وعاهدته على إيتاء الزكاة .

لكم تمنى محمد أن يجيء الشاعر لبيد فى وفد تميم ولكن تميما كانت قد اختارت شاعرا آخر غير لبيد !.

وعلى أية حال فقد عاد الوفد بكثير من الهدايا .

وانتفضت مذحج . . كان وفدها قد جاء منذ حين ومعه قائدها الأسود فأعلنوا الاسلام . . وطمع الأسود فى منصب ، ولكنه لم يظفر بما طمع .

فيم أسلم إذن ؟ ! .

ولم يكد يعود حتى تشاور مع بعض أغنياء قومه فى أمر الذكاة . . . مابقاؤهم عليها . . لم يدفعون من أموالهم هذا القدر كله ، عشر غلة الأرض التى تسقى من السماء أوالعيون وشاة عن كل خمس من الجمال وبقرة عن كل أربعين من البقر وسائمة عن كل أربعين من الغنم !.

وكان الأسود واسع الثراء قد طاف بكثير من البلاد وكان يعرف السحر فخرج على قومه ذات يوم ببعض الحيل السحرية كتلك التى رآها فى بلاد زارها وذهل قومه . . فأعلن أنها لمعجزات النبوة . . فما هو إلا نبى كفتى قريش !.

وأعلن أن دينه الجديد يعفى الناس من الذكاة . . وتبعه الأغنياء وعبيدهم وكون جيشا بماله وبمساعدة أغنياء قومه ، وقتل الأمير الذى عينه محمد وزحف على اليمن فاستولى على صنعاء . . وانتزع زوجة الأمير المقتول ، بعد أن قتل أباها أيضا ، وأخذ يسفل بالمسلمين ويفضح النساء . .

وروعت المدينة من هذه الأخبار فأرسل محمد إلى الأمراء المجاورين أن يسيروا إلى هذا النبي الكذاب فيقبضوا عليه ويرسلوه إلى المدينة أو يقتلوه حيث ظفروا به .

وكان أحد هؤلاء الأمراء ابن عم لأرملة الأمير المقتول التى اغتصبها الأسود وتزوجها على الرغم منها وضمها إلى نسائه .

وكانت حسناء فاصطفاها من بين النساء وأقام لها بيتا أثثه بمثل ما فى قصور كسرى وقيصر وأقام عندها معظم لياليه.. وإن كان قد أباح لنفسه ما شاء من فتيات يهتكهن فى دورهن .. واصطنع لنفسه حراسا شدادا يحرسونه حتى فى مخدعه ..

واحتالت الزوجة حتى أدخلت ابن عمها مخدع الأسود وهو نائم فطعنه ولكن الطعنة لم تكن قاتلة فقام الأسود من نومه يصرخ فى ذعر .

وأقبل الحراس فوقفت هى بالباب تصرفهم قائلة « إن زوجى النبى يصرخ من شدة الوحى » .

وانصرف الحراس مقتنعين بأنها نوبة الوحى ، بينما أجهز عليه ابن عم زوجته ..

وعندما قتل الأسود استطاع الأمراء المجاورون أن يطاردوا أنصاره الأغنياء وحراسه الأشداء وعادت المنطقة كلها إلى الإسلام ..

* * *

خلال هذه المتاعب جاءه وفد اليمامة . ومن بينهم رجل عجوز حكيم تعود منذ أعوام طوال أن يركب حماره ويطوف بين الناس يدعوهم إلى البحث عن الحقيقة .

وكان قومه يحتفظون له بالاحترام الذى تفرضه الحكمة والسن .. وكانت شهرته قد بدأت تتجاوز اليمامة وقد سمعت به قريش. فاتهمت محمدا فى أول ظهوره بأنه يتعلم من حكيم اليمامة .

وتأخر حكيم اليمامة « مسيلمة » وتقدم الوفد وحدثوه عن « مسيلمة » فقال لهم « إنه ليس شركم مكانا » .

وأعلنوا دخولهم فى الإسلام وذهبوا إلى مسيلمة فجاءوا به واستقبله محمد فأحسن استقباله .

وتحدث مسيلمة عما كان قد اهتدى إليه ثم سأل محمدا أن يقتسم معه ملك الأرض .. وكان محمد ينكث الأرض بعود من سعف النخل فقال لمسيلمة «لو سألتنيه لأبيته عليك » .

وتحدثا طويلا فشرح له محمد تعاليم الإسلام وأعان مسيلمة أنه يقتنع بها ..

وعاد مع قومه واليا على اليمامة .. ولكنه لم يكد يستقر فى اليمامة حتى ضاق بالزكاة .. وكان غنيا واسع الغنى ، وحز فى نفسه أن يكون واليا — أباح لنفسه من الأموال ما ليس له ، واتخذ أبهة الملك .. فأقام له قصرا فاخرا وان ظل يحتفظ بحماره — تحت أمرة محمد ، وهو الذى ظل يبحث عن الحقيقة ويبشر بها قبل أن يدعو محمد إلى دينه بثلاثين عاما ! ..

فانتفض على محمد .. ودعـــا قومه الى دين جديد لا زكاة فيه ولا قيود .. لم لا يكتفى محمد بملك الحجاز ، ويصبح هو ملكا على ما بقى !؟ .

وأرسل إلى محمد . كتابا يقول فيه : « أما بعد فإنى أشركت فى الأمر معك وان لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون » .

وسأل محمد رسولى مسيلمة .. فما تقولان انتما فقالا « نقول كما قال » .

كان معظم أغنياء اليمامة فى الحق يقولون كما قال ..

وكتب محمد الى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ».

غير أن مسيلمة ظل يطلق على نفسه رسول الله .. وظل ينتقل على حماره بين القرى — كما كان يفعل المسيح — يدعو الناس إلى دين آخر بلا زكاة ، فهو المسئول عن هذا الجزء من الجزيرة العربية ! ..

والأتباع يتزايدون من ورائه على حين أوشك محمد أن يوحد القبائل العربية جميعا فى أمة واحدة ..

* * *

كل هذا التمزق ، والمرض أيضا ! .

مازالت العلة تداهمه منذ ذاق الشاة المسمومة فى خيبر ! .. وهاهو ذا اليوم يرقد موجع القلب مما يصنعه مسيلمة فى اليمامة ، متعب البدن من آثار السم .. وتدخل صفية عليه فتراه يشكو فتقول له : « لوددت أن الذى بك بى »..

وتسمعها عائشة وحفصة وزينب .. فيتغامزون عليها ، هذه الزوجة اليهودية التى تحسن الدخول إلى قلب الرجل بنعومتها ! ويبصر بهن محمد فيقول لهن « مضمضن من تعامزكن بها ، والله إنها لصادقة » .. ولكن عائشة تقول متهكمة « حسبك من صفية قصرها ! » مرة أخرى تدفع الغيرة عائشة إلى أن تسخر من امرأة مسلمة . ألم تحفظ بعد : « لا يسخر

قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » .

فيلوى عنها وجهه فى ضيق بغيرتها ويقول : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » ..

ويشير اليهن أن ينصرفن .. فما تصلح اللحظة للغيرة ، والمرض يرهقه ، والأغنياء من المسلمين الجدد يرفعون راية العصيان ضده ويعطلون الزكاة ، والأنبياء الكذابون يمشون فى الأطراف البعيدة .. ثم هؤلاء الروم أيضا يحتشدون على الحدود !! .

كل يوم تصل أنباء جديدة عن استعداد هرقل الروم !

إن هرقل ليشعر بنمو الأمة الجديدة ويدرك أن هذه الأمة ستكون خطرا عليه فرجالها يقذفون أنفسهم على الأعداء بارادة النصر لايردهم شىء حتى الموت نفسه إنهم ليحاربون بحرص غريب على الموت ، ولئن تركهم هرقل حتى يقبلوا فلن تقوم للدولة الرومانية فى هذا الشرق قائمة بعد فليبدأ هرقل !

ورأى محمد ألاينتظر حتى يقذف هرقل بجنوده عليهم ، فيدخل مكة أو المدينة . فليزحف المسلمون إلى دولته ليخلصوا من بطشه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

واستشار أصحابه ، فأجمعوا أن يخرجوا للقاء جيوش هرقل وأن يقتحموا إلى قلب دولته ..

كانت الحملة تحتاج إلى عدد كبير من الجنود ، وإلى أموال كثيرة لتأمين إمداداتها ..

وأهاب محمد بصحابه أن يتطوعوا .. فدفع أبوبكر كل مايملك ، ودفع عثمان وعبد الرحمن بن عوف معظم ثروتهما الطائلة ودفع عمر نصف مايملك ، واندفع من ورائهم المسلمون القدماء يتبرعون : النساء بحليهن والرجال بما يملكون .. حتى بالأقوات فى بعض الأحايين ..

وأقبل الناس على التطوع بحماس غريب ولكن عبدالله بن أبىّ وقف يعارض الحملة ويذكر الناس بما حدث فى مؤته : « أتحسبون لقاء الروم كقتال العرب بعضهم لبعض ؟ والله لكأنكم عند وصولكم أمام العدو المدرع قد أنهككم جهد الحال والحر والبلد البعيد ! » .

وعلى الرغم من فورة الحماسة التى حشدت كثيرا من الناس .. فقد هدت كلمات ابن أبى بعض العزائم .

إنهم ليذكرون كيف أوشك جيش الروم أن يسحقهم فى مؤته ! .

ثم هذا الحر !؟ لماذا لم يمهلهم محمد حتى ينتهى الحر ؟ إنه لموسم الحصاد أيضا .. أيتركون الحصاد ليغامروا فى بلاد مجهولة ؟ .

وترددت النداءات : « لاتنفروا فى الحر » ..

وتوالت الهمسات : « ما لهذا انضممنا إلى الاسلام ! أبعد أن أتاح لنا حياة ناعمة . أبعد أن أعطانا المناصب والجاه والغنى وكل ما يملأ

النفس بالكبرياء يطالبنـــا أن ننتزع أنفسنا من هذا كله لنخوض فى الصحراء تحت شمس لا ترحم ونحارب الروم !؟

وبدأوا يعتذرون .. بعضهم يقول إنه راجع نفسه فوجد أن ما يحركه إلى القتال إنما هو الطمع فى الجوارى الروميات ، فهو يقعد إذن خوف الفتنة !

ويهز محمد رأسه حنقا عليهم وهو يتلو : يقعدون خوف الفتنة ؟ « ألا فى الفتنة سقطوا ! » وبعضهم يطالب محمد أن يمهله حتى يفرغ من الحصاد .. وبعضهم يقول إنه لايجد ما يركبه . . وبعضهم ينصحه ألا يخرج الآن للحرب ! .

ولكن محمدا أعلن الزحف.

وأذن للمرضى والضعفاء الذين لا يجـــدون ما ينفقون ، أن يتخلفوا فما عليهم من سبيل ، ولا على الذين لا يجدون دابة يخرجون عليها .. « تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألاَّ يجدوا ما ينُفقون » « إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون »

وخرج معه كثيرون على الرغم من كل شىء .. ولم يجرؤ واحد على التخلف .. حتى ابن أبى نفسه ..

ومضوا جميعاً يخوضون الصحارى الشاسعة .. إلى الشـــام ، للقاء جيوش هرقل وعلى الطريق لحق بهم أبوذر ماشيا إذ لم يجد ما يركبه ! !

ولكن عبد الله بن أبى انسحب بجزء من الجيش فى بعض الطريق ، وانهارت حماسة الجنود ، وأخذ محمد يشجع من بقى معه على المسير .

وانطلقوا جميعا إلى حدود الشام تحت عواصف قاسية ملتهبة من رمال تشوى الوجوه والأبدان !

أما الذين انسحبوا فقد استقبلتهم النساء فى المدينة بالعويل .. وحثوا فى وجوههم التراب !!

وبدأ الندم يعصر قلوب بعض الذين هربوا .. ورأى رجل منهم نفسه ذات ضحى يجلس تحت عريشه فى الظل ، وامرأة له تتزين وأمرأة أخرى تدعوه .. فقام مروعا يلعن نفسه أن يجلس فى الظل بين امرأتيه ، ومحمد يسعى فى الهجير تحت لفحات الشمس .. وركب وعاد إلى الجيش !

وبعد سبعة أيام من السير المضنى فى الصحراء بلغ محمد وجيشه حدود الدولة الرومانية . وتقدم أمير المنطقة يعرض على محمد الصلح على أن يدفع له الجزية ، وقبل محمد ..

ثم اندفع بجيشه فرحا بهذا النصر الذى ملأ قلوب رجاله بالأمل والثقة بعد شقاء السير الطويل . .

وعلى أبواب مدينة منيعة اسمها تبوك وقف محمد بجيشه .. وكانت ضجة الجيش قد روعت قطعان البقر الوحشى التى ترعى فى البوادى فاندفعت إلى أسوار المدينة .. ورآها الملك هو وزوجته فقرر أن ينزل للصيد فى الليل ..

وأصدر محمد أمره إلى خالد بن الوليد أن يقود هو الجيش للاستيلاء على حصون المدينة المنيعة .

وظل خالد يتربص ، حتى إذا رأى الملك وزوجته وبعض الحاشية يخرجون للصيد تحت ضوء القمر .. هاجمهم جميعاً وقتل منهم وأسر الملك..

وإذ سقط الملك استسلمت كل الحصون .

وأرسل خالد إلى محمد طيلسان الملك .

وملأ هذا النصر الخاطف قلوب المسلمين بثقة جديدة غريبة فانتقلوا من موقعة إلى موقعة ، وقهروا كل الحاميات الرومانية ، وحرروا القبائل العربية هناك من حكم الرومان ، واعلنت تلك القبائل إسلامها ..

حدث هذا كله فى عشرين يوماً .

فاقترح عمر أن يعود الجيش إلى المدينة مكتفيا بهذا القدر من الانتصارات مادمت جيوش هرقل قد انسحبت منهزمة إلى قواعدها البعيدة لتوقع المسلمين فى المصيدة .

وأذن محمد بالرحيل .. وغادروا تبوك إلى المدينة محملين بالغنائم وقد كسبوا إلى الإسلام كل القبائل العربية التى كانت خاضعة لنفوذ الرومان .

وفى المدينة قرر محمد أن يعاقب الذين تخافوا عنه وانسحبوا من

الجيش فأعلن أول الأمر مقاطعتهم جميعاً ، وحرم على الناس أن يكلموهم أويتعاملوا معهم وظلوامحاصرين فى القطيعة لايكلمهم أحد .. حتى الزوجات والأبناء.

وثقلت عليهم وطأة الإحساس بالذنب فأقبلوا يطلبون العفو .

ولكن محمدا كان قد صمم على أن يعاقبهم أشد العقاب .. هؤلاء الذين انضموا إليه بحثاً عن المكاسب وحدها .. حتى إذا جاءت ساعة الروع تخلوا عنه وآثروا لين العيش ! .

وتلا : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ، سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم . فأعرضوا عنهم إنهم رجس ، ومأواهم جهنم جزاء بما كانويكسبون »

واقترح عمر أن تقطع رءوس زعمائهم وفى طليعتهم عبد الله بن أبى .

ولكن عبد الله بن أبى كان قد مات. وأمام الموت ، سقط الغضب وزالت الانفعالات فلاعتاب بعد ولاعقاب .

وأقبل محمد يصلى على جثمان عبد الله بن أبى وعمر يحتج فى عنف .

واسكته محمد .. ولكنه خرج إلى الناس بعد عدة ايام .. يأمرهم ألايصلوا على أحد مات بعد من المنافقين والمتخاذلين ، أو الذين دخلوا الإسلام ليثبوا إلى الغنى والجاه والسلطة.

واشتدت القطيعة عليهم حتى لقد هدد بعضهم بأن يمشى فى الأرض بلا طعام حتى يهلك .

وإذ استيقن محمد أنهم مابرحوا يملكون فى الأعماق منهم ضمائر تستطيع أن تعذبهم . أصدر عفوه عنهم .. وأخذ عليهم موثقاً أن يخلصوا للناس مابقى لهم من العمر .

ثم أخذ ينظم السرايا لردع الأغنياء الذين تمردوا على الزكاة ولتأديب الذين يريدون أن يمزقوا وحدة القبائل من جديد ، بعد أن أعلن محمد فى كل أنحاء الجزيرة بين القبائل : يأيها الناس أنتم أمة واحدة.

فليعملوا بلا هوادة ليكونوا أمة واحدة تحت راية واحدة .. !

أقبلوا على المدينة فى ثياب خشنة ، وجوههم يكسوها التزمت ، والشعور مشعثة ، وفى العيون طمع غامض ، وقد نبذوا الثياب والعطر والزخرف والزينة التى ألفوها ، عسى أن يقربهم هذا الزهد من قلب محمد ، وينعم عليهم ببعض المناصب فى الدولة الجديدة أو يحفظ لهم ماورثوه أو يمكنهم من الأرض والثروة .. فإذا به يلقاهم فى بردة حسنة ، طيب الرائحة ، منسق الهندام يفوح منه عطر هادىء . باسما حانيا يصافح بنظراته كل القلوب !!

واعلنوا أنهم يدخلون فى الإسلام .

وأخذوا يمدحونه ، فطلب منهم ألا يمدحوه فما فسدت الدنيا من قبل إلا لأن التابعين كانوا يمدحون من يتخذونه إماما .

وبايعهم على الإسلام .. فقالوا له آمنا .. آمنا .. !

بل قولوا أسلمتم ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ! .. إن ما يشغل قلوبكم الآن هو التظاهر والمبالغة التى تبعد بكم فى النهاية عن الحقيقة.. إن ما فى القلب ليس هو الإيمان بل هو البحث عما يوفره الإيمان من مناصب وغنى ! ولكن الإيمان بذل لا نهب ..

إنه ليتألف القلوب .هذا حق

ويمنح المال أحياناً .. ولكن هؤلاء المؤلفة قلوبهم ليسوا هم المؤمنين ، وليس من حقهم أن يطالبوا بالمشاركة فى مسؤليات الحكم على أى نحو .. فلئن وثب إلى السلطة بعض الذين يشغل قلوبهم شىء آخر غير الإيمان ، لقد تحولت المناصب إذن من مراكز تشد أعصاب الدولة الجديدة وترسى قيمها . وتؤكد العدل والإخاء .. لقد تحولت المناصب إذن إلى أماكن للوثوب على حقوق الناس لاغتيال الأرزاق وتكديس الأموال ، والإثراء على حساب الآخرين .

وإذن ففيم كان هذا العناء طوال أكثر من عشرين عاما .. ؟

فيم كانت الصيحة فى وجه الفوضى القديمة باسم المستضعفين فى الأرض .. ! ليحل جيل آخر من الأعراب مكان جيل آخر من السادة والمبتزين .. ؟

أتعرض المؤمنون الأوائل للموت ، وما زالوا يبيتون ببطون خاوية ، لكى يرث المتسلقون سطوة أبى جهل ، ومال بنى النضير ، وكل الجاه الوحشى الذى فرضته الأوضاع القديمة ؟ .

أكان هذا الجهاد كله فى سبيل تحرير العبيد والمستضعفين وكبرياء الإنسان ، لكى تأتى فى النهاية أيام أخرى من العذاب تنشأ فيها طائفة من الأغنياء الجدد تستولى على المناصب ، وتمسك يدها عن الفقراء وتمتلك الرقيق وتثرى على حساب الأخرين ، وتمارس باسم الإسلام كل ما انفجر الإسلام ليقاومه ويحطمه . ؟

لا .. !

فلتنفقوا مما تحبون ، بدلا من أن تكنزوا الذهب والفضة والمال ، وبدلا من أن تبحثوا عما يمنحكم الجاه !

«الكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السموات والأرض ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير . »

وطلب محمد من صديقه أبى بكر أن يذهب ليحج بالناس فى عامه هذا ، فما يستطيع هو أن يبرح المدينة والوفود تقبل عليه بطوفان من المطامع والمفاهيم الخاطئة يهدد القيم الفاضلة التى جاء بها ! !

وسار أبو بكر إلى الحج .. وبقى هو فى المدينة يستقبل الوفود التى لا تنقطع ويعلم الناس المبادىء الأساسية فى الإسلام ، ويشرح لهم القيم الجديدة التى جاء بها ، تعبيراً عن حاجة الإنسان إلى مجتمع أفضل ، وأكثر عدلا .

على أن أبا بكر لم يكد يمضى على رأس الحجاج فى طريقه إلى مكة حتى طلب محمد من على بن أبى طالب أن يسرع ليبلغ أبا بكر والحجاج رسالة عاجلة تحدد علاقات المسلمين بالذين لم يسلموا بعد ، وتضع قواعد للحج .. إن الذين لم يسلموا بعد مازالوا يقبلون إلى مكة ليطوفوا بالبيت الحرام وليشاركوا فى النشاط التجارى الذى يبلغ أوجه فى مواسم الحج .. لقد تكونت الآن طائفة من أغنياء المسلمين الجدد ممن أحسنوا استثمار الدين الجديد .. فليس من الضرورى أن ترتبط مصالحهم بمصالح الأغنياء من غير المسلمين .. وإلا عرضوا الدولة الجديدة لهزة خطيرة .. !

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين .. وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله

برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . » «يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله . »

ثم أكمل على بقية رسالة محمد إلى الحجاج المسلمين : أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وعاد على وأبو بكر بالحجاج ، بعد أن وصلت رسالة محمد إلى كل الآذان، وبعد أن أصبح مفهوماً أن الذين يتظاهرون باعتناق الإسلام طمعاً فى مكاسب من الدولة الجديدة، إنما يحكمهم ما يحكم غير المسلمين .

فليأذنوا بالحرب إذن .. فقد صبر عليهم محمد أكثر من عشرين عاما، ومنهم من تظاهر بالإسلام وغالى ،واستغل إدعاءه حتى أثرى ،وما زال قلبه يشغله الطمع فى المزيد .. إنهم لأثقال تعيق انطلاق الأمة الجديدة التى يسودها اليوم نفس القانون وتحكمها نفس القيم الروحية ..

لقد مات عبدالله بن أبى ، ولم يعد هذا النفر يجدون فيما بينهم من يصلح للتعبير عنهم .. لكم صبر محمد على زعيمهم ذاك ولو شاء لتركه لسيوف المؤمنين الأوثل تمزقه ! .

ولكنه صلى عليه حين مات .. ولم يحسن المنافقون الآخرون فهم موقف محمد من عبد الله فى الحياة وبعد الموت ، فانطلقوا فى المدينة من جديد يتحدثون عن ضعف محمد .. عن علمه بما يرتكبه بعض الوصوليين من الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم ، ثم سكوته عنهم خوفاً أو مصانعة ! !

وتلا عليهم : عليهم جميعاً : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ،

ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

وبدأت الرءوس ترتفع بالتمرد فى أطراف الدولة الناشئة .. مسلمون جدد يرفضون أن يدفعوا الزكاة والصدقات ، وبدلا من أن يحرروا ماعندهم من عبيد كما حضهم محمد ، بدأوا يقتنون مزيداً من الجوارى والغلمان ، وينهبون حقوق الفقراء ! .

وأنذر محمد المنافقين فى المدينة أنه سيأخذهم بمثل عقوبة الأعداء فى كل ما يقترفونه أثناء الحياة ، وأنه لن يصلى على أحد منهم مات أبداً !

وأعلن أن من يعدون على حقوق الغير ويعطلون الأحكام التى جاء بها لتحقيق العدالة أو يدمرون مبادىء الاخاء التى تجعل من العرب المتنافرين أمة واحدة إنما هم المفسدون فى الأرض ، وما جزاؤهم إلا أن تقطع أطرافهم ..

وسير الحملات إلى الأطراف البعيدة التى أعلن اغنياؤها التمرد وامتنعوا عن دفع الزكاة والصدقات . واستطاع هؤلاء الأغنياء بنفوذهم التقليدى الموروث أن يسوقوا المستضعفين الذين شرعت الزكاة لمصلحتهم ، لكى يحاربوا دفاعا عن الحرمان .. !

على أن هذه الحملات بقيادة خالد بن الوليد وعلى بن أبى طالب استطاعت أن تحصد رءوس التمرد فأقبل المستضعفون المقهورون يجددون البيعة على الأسلام .

وتلفت من حوله إلى شئون المدينة فلاحظ أن بعض المسلمين ، قد أثروا أكثر مما يجب من التجارة ، وأن بعضهم يحتكر تجارات بالذات فأعلنهم « المحتكر ملعون »

ومضى يأمرهم بأن ينفقوا مما يكسبون .. ومضى صحابته المقربون يعلمون الناس مما علمهم ويضربون الأمثال فى البذل ، حتى لقد أراد أحد المسلمين أن يكفر عما كنز فسأل أبا بكر : كم تجب الزكاة فى مائتى درهم ؟ . فقال له أبو بكر : « خمسة دراهم .. أما نحن فيجب علينا بذل الجميع » ..

وفى تلك الأيام التى سادتها الرغبة فى المتاع بما كسب المسلمون من غنائم، شن محمد حملات قاسية على الغنى ، ومن أجل المساواة « حتى لقد رجع غاضبا من على باب فاطمة حين رأى ستارا موشا على الباب وخاصمها إلى أن باعت الستار وتصدقت بثمنه وخاصمها مرة أخرى لأنه رأى فى يديها سوارين من فضة وفى المدينة فقراء ..

وباعتهما بدرهمين ونصف وأرسلت الثمن إلى أهل بيت بهم حاجة ! .. وشن حملة المساواة نفسها على الوفود التى أقبلت تجدد البيعة ..

وعندما كان يستقبل آخر هذه الوفود والراية الواحدة ترتفع أمام عينيه على شتات القبائل المتفرقة ، والفرحة تغمر قلبه بآخر انتصاراته ، أقبل من بيت مارية من يطلبه .. إن ابنه الوحيد ابراهيم يعانى وطأة مرض غريب .. !

ومات ابنه ابراهيم على ذراعيه .. الطفل الذى طالما علق عليه كثيرا من الآمال ..

وسالت دموعه .. دموع أب لم يعد له أمل فى أن ينجب ولدا آخر بعد !

لماذا يجب أن يحدث له مثل هذا ؟ ولكنه قال فى استسلام مذعن : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول مايحزن الرب ولولا أن الموت وعد

صادق وموعد جامع ، فان الآخر منا يتبع الأول ، لوجدنا عليك يا ابراهيم وجدا شديدا ما وجدناه انا الله وانا إليه راجعون .. »

وخرج يشيعه حتى القبر ، فى صمت فاجع ودمعه يسيل .. وعجب بعض أصحابه لبكائه هذا .. إن الميت طفل صغير وهو .. هو الشيخ الذى يقترب الآن من الثالثة والستين .. وهو بكل جلاله لا يليق به أن يبكى !!

واقترب منه عبد الرحمن بن عوف وقال مستنكرا : « أولم تكن نهيت عن البكاء ؟ » ..

ولكنك لا تدرى ..

وأجابه : « ما عن الحزن نهيت ، وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء ..

وأن ماترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة ، ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة » .

وثوى التراب على جثمان الطفل ، ووقف الأب الثاكل يصلى عليه .. وكثفت الشمس ولم يعد للنهار لون الضياء ..

وعندما انتهى من الصلاة سمع الناس يتناجون وهم عائدون به إلى المسجد : إن الشمس كثفت حزنا على موت ابرهيم ..

لا .. يأيها الناس لا تلصقوا بى ما ليس لى ..

وقال لهم مغضبا : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » .. يأيها الناس لا ترفعونى فوق مكانى .. لا تطرونى .. « إنما أنا بشر مثلكم » .. « وانى لأكره أن أتميز عليكم » .

وعاد إلى بيت مارية .. الأم الثكلى فواساها ..

أما هو فلم يفلح أحد على الا طلاق فى تخفيف لوعته على ابراهيم ..

على أنه لم يعتزل ، الناس بل خرج إلى المسجد .. منهكا هذه المرة ..

عاد يحدثهم عن الحياة والموت والعدل و الرحمة والاخاء ، ثم يسكت قليلا ليمسح دمعة خضلت لحيته ..

ما رئى حزينا من قبل فى تلك الأيام .. لماذا أصبح للحياة رنين مؤس كالوداع .. ؟

* * *

والألم الذى عرفه منذ سم خيبر يعاوده من جديد .. ولكنه لا يريد أن يستسلم لأية آلام .. لا لآثار السم التى تنهشه فى بطء ولا للأحزان التى تعصر كبده بقسوة ..

إن هؤلاء الناس العديدين من المدينة ومكة وكل مضارب الخيام وكل الأطراف البعيدة .. إنهم فى حاجة إلى اجتماع ضخم يتلاقون فيه تحت راية واحدة يفعلون معا نفس الإيمان ليعمق فيهم الشعور بالوحدة.. إنهم جميعا .. هؤلاء الذين يتحمل هو مسئوليتهم لفى حاجة إلى تدعيم التعاليم التى جاء بها ..

وأعلن أنه سيخرج إلى الحج من عامه هذا . .

وسالت الجبال والوديان بعشرات الآلاف من الحجاج يسوقون أمامهم الآلاف من الهدى سالت بهن الأباطح ..

والتقى الجميع فى مكة ..

وأخذ محمد معه كل زوجاته..وتقدم أكثر من مائة ألف من الحجاج

ليلتقوا به فى مكة ، وهو أمامهم يعلمهم الشعائر التى يجب أن يتبعها الرجال والنساء على السواء .. يعلمهم الاحلال والحرام ويشرع من خلال ما يأمر به زوجاته ما يجب على المرأة الحاجة ..

ومن على قمة الجبل ارتفع صوت أكثر من مائة ألف مسلم لأول مرة يردد نفس الكلمات « لبيك اللهم لبيك .. لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك. لك لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك » .

وطاف أمامهم وسعى أمامهم .. وهم من ورائه يصنعون نفس الأشياء .. ويقولون نفس الكلمات ، باحساس جديد خارق ، بأن ثمت ما يجعلهم أمة واحدة .

وعندما انتهت مراسم الحج عاوده الالم والحزن من جديد ..

لم يكن حزنا عل ابنه الراحل هذه المرة .. ولكن شيئا فى أعماقه ملأه بأسى الوداع .. لكأنها حجة الوداع لكأنه لن يرى هؤلاء الناس ، ولا هذه الأماكن مرة أخرى ..

وغلبه الألم .

ولكن .. مازالت فى الأعماق منه أشياء يريد أن يقولها للناس ..

والتف الناس من حوله .. مائة ألف جاءوا من كل مكان فى الجزيرة يريدون أن يروه وأن يسمعوا صوته .. إن لصوته رنة من السماء .. فيقول : « إنما أنا بشر مثلكم » .

ولكن همسات الآلاف تبلغه :

« إن فى وجهه نورا من الغيب ، ويده تمس الصخر فيتفجر منه الماء » .

ولكنه حين يسمع هذا يغضب وينفر العرق من جبهته وينهى الناس عن أن يضيفوا إليه ما ليس له .. إنه يقول : « إنما أنا بشر مثلكم » .. بشر يحب الطيب والنساء وقرة عينه فى الصلاة !.

بشر جاء بمكارم الأخلاق .. هكذا يقول دائما .. وإنه ليضحك ويبكى ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، ويستشير الناس لكيلا يخطىء، وينزل عند رأى الغالبية ، ويغضب ويرضى . ويرفض أن يقبل يده أحد إنه بشر لا يفجر الماء ولا يضىء الظلمات .. بشر من لحم ودم واعصاب ، وانما جاءكم بمكارم الأخلاق .. فلا تغضبوه أيها الناس .. ولا تقولوا له سيدنا ، فأنه ليغضب من هذه الكلمة وينهى عنها ..

وهدأت حركة الأعناق المتطلعة إليه هذا الرجل الذى يؤاخى بين العبيد والسادة، وبين المساكين والملاك الكبار ويجعل من الصدق والأمانة والوفاء دستورا للعلاقات بين الناس ، ويضع كل بريق خاطف زائف تحت قدميه .. ويؤكد دائما أنه بشر .. كالآخرين ! .

وارتفع صوته يخطب الناس الذين أقبلوا من كل مكان ليحجوا معه، وليروه ويستمعوا إليه ..

ولكن صوته لم يبلغ الناس .. فأمر أحد الذين وقفوا إلى جواره أن يردد ما يقوله بصوت مرتفع .. وليردده ثالث ورابع وآخرون حتى يسمع الناس جميعاً وعبرت كلماته من رجل إلى رجل : «أيها الناس اسمعوا قولى فانى لا أدرى لعلى لا القاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ».

ووجم الناس .. لعله لا يلقاهم بعد عامه هذا أبدا . ؟

أيمـــكن هذا . ؟

ولكنه يقول لهم دائما «إنمــا أنا بشر مثلكم» . . «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» .

وارتفعت الأصوات بكلماته : «إن دماءكم وأموالــكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وأنكم ستلقون ربكم فيسألــكم عن أعمالكم وقد بلغت . فمن كان عنــده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنــه عليها وإن كل ربا موضوع ولــكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .. قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع . وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع .. أما بعد أيهــا الناس فان لكم على نسائــكم حقا ولهن عليكم حقا .. استوصوا بالنساء خيرا فانهن عندكم عوان لا يملــكن لأنفسهن شيئا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله .. فأعقلوا أيها الناس قولى فانى قد بلغت .. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا .. أيها الناس اسمعوا قولى وأعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت ؟ اللهم أشهد . »

وسكت قليلا ودهمته حمى مفاجئة ، ولكنه تلا عليهم : «اليوم أكملت لــكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لــكم الإسلام دينا » .

ومال إلى الــكعبة فجلس فى ظلها .. وهناك وجد مظاهر الغنى تبدو على بعض الناس ، ومظاهر الفقر تميز الباقين ..

وجاءه أبو ذر فوجده يتلو : والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . » ثم مال إلى أبى ذر وصاح : هم الأخسرون ورب الــكعبة » فسأله أبو ذر من هم فقال : الأكثرون

أموالا ... ما من صاحب ابل ولا بقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم مما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس ..

وقام فى طريقه إلى المدينة .. وانصرف الناس إلى بلادهم يفكرون فيما سمعوه :

وعندما بلغ المدينة استقبله أهلها ، وتدفق عليه الأطفال .. ونزل من على ناقته فسلم على مستقبليه وداعب بعض الأطفال وأركبهم على ناقته ..

ودخل إلى بيت زوجته زينب بنت جحش يستريح ..

كانت نفسه تفيض بالرضا مما رآه فى موسم الحج .. هذه الآلاف العديدة من كل الجزيرة العربية .. يجب ألا يكون فى الجزيرة دينان ..

* * *

غير أن الروم على الحدود الشمالية يهددون الأمة الجديدة ويفرضون الأساليب الوحشية على العلاقات بين الناس .. ما زال السادة هناك يبطشون بالضعفاء ..

فلتتحرر أمته من تهديد الروم .

ليسر جيش جديد إلى سوريا حيث سقط زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب منذ سنين .. ليقتحم الجيش أسوار دولة الروم وليضع حدا لتهديداتها الدائمة وليحرر الإنسان المعذب المضطهد هناك ! .

وأمر بتجهيز الجيش وجعل عليه اسامة بن زيد بن حارثة .. إنه لجدير بأن يثأر لأبيه ولكل شهداء مؤته ..

ان حربا مثل هذه لفى حاجة إلى شباب يندفعون بالحرص على الاستشهاد يؤجج حماسهم حب الحرية .

وملأ الجيش بالشباب ووضع فيه كثيرا من القادة المجربين تحت إمرة أسامة وتعالت الاعتراضات تطعن فى هذا الاختيار ..

وارتفعت أصوات تطالبه بألا يبعث مثل هذا الجيش تحت قيادة شاب فى العشرين .

ولكنه واجه الاعتراضات قائلا : « أيها الناس انفذ وابعث أسامة ، فلعمرى لئن قلتم فى امارته ، لقد قلتم فى امارة أبيه من قبله وإنه لخليق للامارة وان كان أبوه لخليقا بها » .

ولم يكد الجيش يخرج من المدينة حتى سقط محمد مريضا ، وعلم أسامة أن محمدا لا يستطيع أن يخرج إلى الصلاة .

فآثر أسامة أن ينتظر قرب المدينة حتى لاينتهز المنافقون المستخفون فرصة خروج الجيش ومرض محمد فيحدثوا انقلابا فى المدينة .

وقرر أن يعاود السير حين تصله أنباء مطمئنة ..

وقام محمد من بيت زينب بنت جحش إلى بيت ميمونة صاحبة النوبة .. ولكنه شعر بحالته تسوء فاستأذنها أن يرقد فى بيت عائشة .. وجر قدميه إلى بيت عائشة مستنداً إلى عمه العباس وابن عمه على بن أبى طالب ولقيته عائشة وقد عصبت رأسها بمنديل وشكت له من المرض .

فغالب ضعفه وقال مبتسما : « وما ضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ؟ » فصاحت عائشة مغضبة : « ليكن

ذلك حظ غيرى والله لكانى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فاعرست فيه ببعض نسائك » .

وضحك ..

وضحك العباس وعلى .. وكانت هذه أول مرة تعرف البسمة طريقها إلى شفتيه منذ مات وحيده إبراهيم .

وأقبلت ابنته فأجلسها إلى جواره على الفراش .. قائلا : « أهلا بنتى » .

ومضى يداعبها كما كان يصنع معها وهى طفلة .

وقضى أياماً فى بيت عائشة يشكو من آلام الكبد وارتفاع الحرارة وفاطمة وعائشة إلى جواره يرطبان جبهته وأطرافه بالماء .

وأمر أن يصلى أبوبكر بالناس ولكن عائشة راجعته خشية أن يظن الناس أنها هى التى أثرت عليه أن يختار أبا بكر فنهرها معرضاً بالنساء جميعاً : « أنتن صواحب يوسف » .

وصلى أبوبكر بالناس ..

وشعر محمد أنه يستطيع أن يمشى فى البيت ، وكان بيت عائشة ككل بيوت زوجاته يفضى إلى المسجد .. ووقف بباب البيت وإذ رأى الناس يتفرجون أشار إليهم أن يستمروا ودخل بيته .

ولكنه أنس فى نفسه العافية ذات صباح فطلب من أصحابه أن يساعدوه حتى يلقى الناس بالمسجد ..

وجلس على المنبر يقول : « أيها الناس ، من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقض منى ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى

فليستقض منه ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى » .

وطالبه رجل بثلاثة دراهم فأعطاها له قائلا : « ألا إن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » .

ثم أوصاهم بالأنصار ، وأوصاهم أن يكون الإخاء دائماً هو ما يسود علاقاتهم وأن يعاملوا كل من يدخل فى الإسلام كما يتعاملون فيما بينهم .. وأوصاهم بالصلاة والزكاة ! .

لقد جاءهم بكل شىء فيه صلاحهم وجعلهم أمة واحدة تحت راية واحدة تؤمن بإله واحد ودين واحد وقيم واحدة ! .

وناشدهم العدل فيما بينهم وعلمهم أن « يوم الوالى العادل أفضل من عبادة سبعين عاماً » وعلمهم : « أن من أخذ شبراً من أرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامه سبع أرضين » .

وعلمهم الجهاد من أجل تحرر الإنسان وقال لهم : لكل أمة رهبانية.. ورهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله » .

علمهم الصدق وأن شهادة الزور هى أكبر الكبائر « وكبرت خيانة عند الله أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب ». ونهاهم عن البخل وسوء الخلق !! . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ..

علمهم مقاومة الظلم ، وقال لهم : « إذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب » ..

وحذرهم من أمراء يكونون بعده « يكلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولا أنا منه ».

ونهاهم عن الرشوة : « من شفع شفاعة لأحد فاهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى بابا عظيما من أبواب الكبائر » .

وعلمهم أنه : « ما ينبغى لمؤمن أنْ يكون بخيلا ولاجباناً » .

وحذرهم من الرياء : « إنى تخوفت على أمتى الشرك أما أنهم لا يعبدون صنما ولا شمساً ولا قمراً ولا حجرا ، ولكنهم يراءون بأعمالهم »..

وحضهم على طلب العلم وقال لهم : فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » « العلماء ورثة الأنبياء » .

وطالبهم بأن يكونوا أحراراً أمام الحياة..وأن يمارسوا حرية العمل.. ولام الذين يقولون إن الإنسان مجبر مسير ، لا اختيار له فتلا عليهم آيات تسخر من هذا القول : « .. لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء .. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم الا تخرصون »..

الإنسان حر .. وعمله هو الذى يشكله .. هذا هو ما جاءهم به .. الصدق والبر ورعاية الوالدين ، ومكارم الأخلاق ، والرحمة ، والعدل والمساواة والشجاعة والكرم ، وحق الإنسان فى الحرية وواجبه المقدس الدفاع عن المستضعفين ، وعن حرية الآخرين .

كل هذا جاءهم به خلال ثلاثة وعشرين عاماً ..

لكم عانى فى سبيل إقرار كل القيم التى جاءهم بها ، وكافح من أجلها، حتى أصبحت دستوراً لأمة واحدة كانت من قبل قبائل متنافرة !..

وأجهده الكفاح الطويل .. وعاد السم الذى دسه اليهود فى طعامه بخيبر ، ينوش كبده من جديد !

ودخل بيت عائشة من الباب المفضى إلى المسجد.. ولكنه لم يكد يبلغ فراشه ، فقد أغمى عليه .

حتى إذا أفاق وجد أصحابه من حوله فقال : « ائتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » .

وأشار عمر إلى الحاضرين ألا يتحركوا قائلا : « قد غلبه الوجع وعندكم القرآن .. حسبنا كتاب الله » .

وتناقش الحاضرون وارتفعت أصواتهم .. فأشار إليهم أن ينصرفوا ..

على أنه أنفق أياماً شعر فيها ببعض العافية ، وأمر أصحابه أن ينصرفوا إلى شئونهم الخاصة .

فانصرف أبو بكر إلى بيت له بخارج المدينة ، وذهب كل أصحابه إلى مزارعهم ومتاجرهم الخاصة ..وبقيت عائشة وحدها معه ورأسه فى حجرها ، وهى تمسح وجهه بالماء البارد لتخفف الحمى .. وإذا برأسه يثقل فجأة !

أرسلت عائشة تستدعى أباها ، وبقية الزوجات .. ووافتها حفصة بنت عمر ، وكلمتاه فلم يجب ..

وقامت عائشة تصرخ .. وتستغيث وأقبل عدد من المسلمين .. والتفوا حوله ، وتردد أنفاسه « أوصيكم بالصلاة .. والزكاة .. وما ملكت أيمانكم .. »

ثم أغمض عينيه إلى الأبد ..

وارتفع الصراخ : مات رسول الله .. مات محمد .

وازدحم البيت بالرجال ، والنساء يلطمن الخدود ، والصرخات ترتفع .

مستحيل أن يموت ! .. من كان مثله لا يمكن أن يموت ! .. يجب ألا يموت ! .. هذا الرائد الغريب الذى حقق معجزة الإنسان .. ولكنه كان يقول دائماً : إنما أنا بشر مثلكم — بشر يمرض و يموت .. هو يموت ؟ !

وأقبل عمر من بعيد يصرخ فى الناس ويهدد الذين قالوا إن محمداً قد مات ! ! .

ولكن محمداً قد مات ! .

جاء أبوبكر .. فارتمى على جسده وقبله والدموع تنهمر على الفراش وهو ينوح : « بأبى أنت وأمى .. ما أطيبك حياً وميتاً » .

وذهل عثمان فهو يراح به ويجاء . ما يطيق أن يتكلم ..

وتهاوى على بن أبى طالب فما يقوم من مكانه ..

وارتفعت أصوات غريبة .. لو أنه كان نبياً صادقاً حقاً لما مات .. !

ولكنه قد مات .

ووقف أبو بكر وصوته يغيض فى الدموع يذكر الناس بما علمهم محمد : « إنك ميت وانهم ميتون » .. « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

وأفاق عمر وهو يسمع كلمات أبي بكر فقال : « والله لكأني لم أسمع بهذه الآيات قبل الآن » .

ثم خر على الأرض يطلق نواحه الفاجع .. إن محمدا قد مات .

واستمر أبو بكر يقول : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .

نعم .. إن محمدا قد مات .. وقد ظل يقول لهم : « إنما أنا بشر مثلكم » .

ولكن الذى جاء به محمد يجب ألا يموت .. فليقف هؤلاء الذين ترنحهم الصدمة .. وليمسك أبو بكر الشعلة بيد ثابتة كي لا تنطفيء أبداً !.



دار الشعب

الثمن ٢٥ قرشا



مطبوعات
دار الشعب
تصدر عن
الشعب
مؤسسة صحفية عربية
أخصائيون في المطبوعات العاجلة
الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١
التوزيع : مكتبة دار الشعب
المطابع : قصر العيني - ت ٣١٨١٠-٣١٨١٨-٣١٨١٩
دير النحاس - تليفون ٨٤٤٨١٠
رئيس مجلس الإدارة
السيد ابراهيم